المحمل الشريف

ورحلته إلى الحرمين الشريفين

إعداد

يوسف جاغلاز - صالح كولن



المحمل الشريف

ورحلته إلى الحرمين الشريفين

يتناولُ هذا الكتاب بين دفّتيهِ رحلة "المحمل الشريف"، الذي كان يُقِلُّ كسوة الكعبة والمساعدات المالية إلى الحرمين الشريفين؛ ابتداءً من أوّلِ انطلاقةٍ له في العصرِ العباسيّ وانتهاءً بأواخرِ رحلاتهِ في القرنِ العشرين، إذ كانَ حدَثًا وملمَحًا تاريخيًّا مهمًّا يأسِرُ الأفئِدَةَ ويخطف الأبصار، ويمضي مصحوبًا بالأدعيةِ ومكلّلًا بِدموعِ الشوقِ إلى تلك الأراضي المقدّسة.

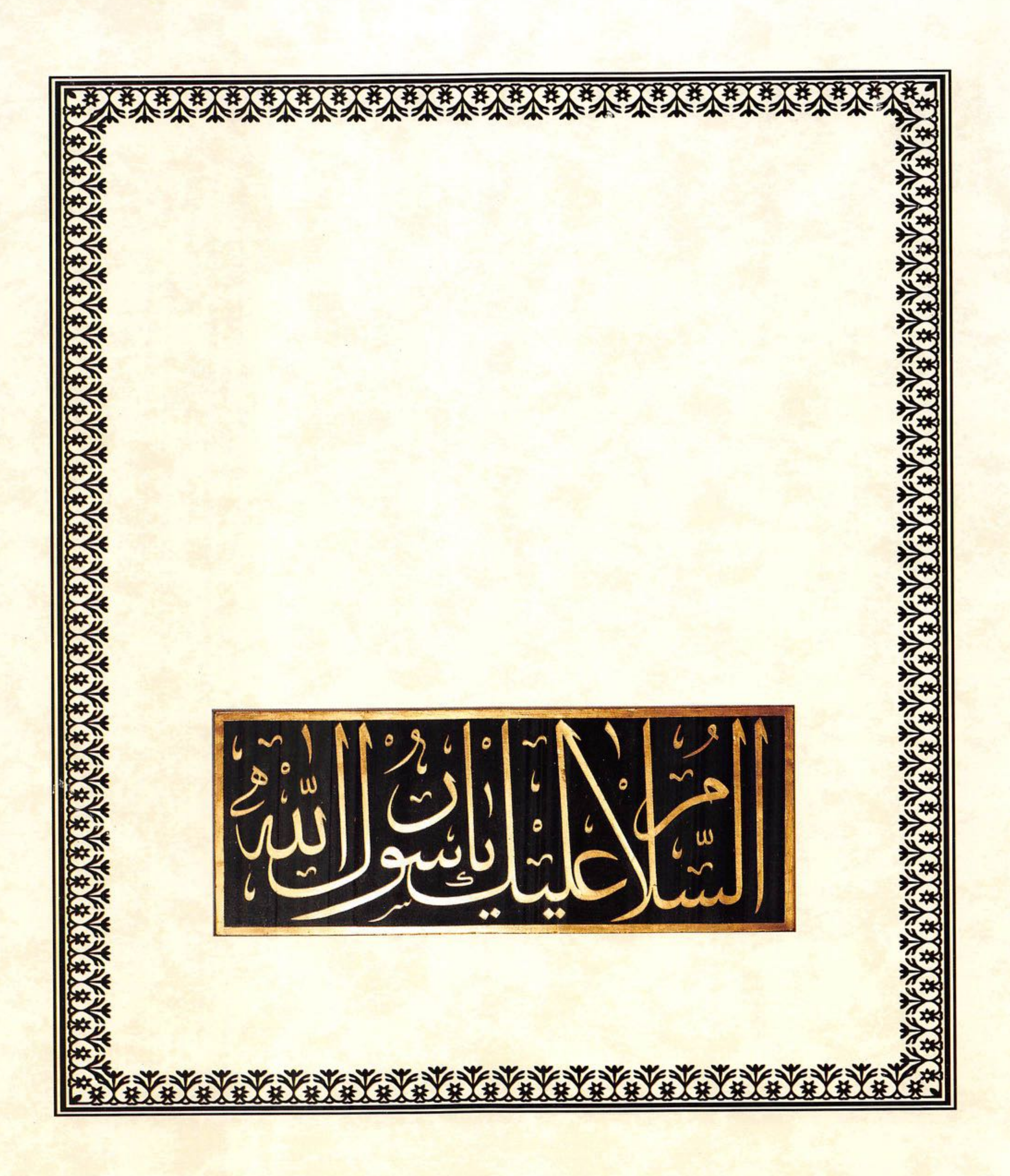
ويتميَّزُ هذا العمل القيّم بأنَّه أُعِدَّ من قِبَلِ أكاديميّين متخصِّصين في هذا المجالِ، وجُمِعَ استنادًا إلى الوثائقِ التاريخيّة والأرشيفات الرسميّة، كما يُسْهِمُ هذا العملُ -الذي يتميَّزُ باحتوائِهِ صورًا تاريخيّة نادرةً وحصريّة ومنمنماتٍ قيّمةً- في تعريف الأجيال المتلاحقة بالتقليد التاريخيّ القديم الذي استمرَّ قرونًا طويلةً في بلدانِ العالم الإسلامي، ويُساعِدُ على إنشاء جسرٍ من الأخوّة والتلاحم بين أبناء العالم الإسلامي.

إن هذا الكتاب الذي يجمع في طياته كلَّ ما يخصُّ قوافل الصرّة أو المحمل الشريف لا يعتبر كتابًا تاريخيًّا يسردُ لنا الأحداث التاريخية فحسب؛ بل إنه متحفٌ ومَعْرضٌ دائمٌ لِلْمَحْمِلِ الشريفِ والصرّة السلطانية.








السلام عليك يا رسول الله

المَحْمل الشَّريف

ورِحلتُه إلى الحَرَمين الشَّريفين

إعداد

يوسف جَاغْلَارْ (Çağlar)

صالح كولن (Gülen)

ترجمة

د. حازم سعيد منتصر

أحمد كمال





المَحْمل الشَّريف

ورِحلتُه إلى الحَرَمَين الشَّريفين

الطبعة الأولى: 1436هـ - 2015م

تحرير

إسماعيل قيار

مراجعة علمية

د. عبد الرازق أحمد محمد

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2015/10239

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-86-5

رقم النشر

1029

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

Mobile: 002 0123201001

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - ٢٠١٥م

المَحْمل الشَّريف
ورِحلتُه إلى الحَرَمين الشَّريفين

تأليف

يوسف جَاغْلَارْ (Çağlar)

عمر فاروق شريف أوغلو (Şerifoğlu)

حسين أُوزْدَمِيرْ (Özdemir)

صالح كولن (Gülen)

سَلِينْ إِيبَكْ (Selin İpek)

مُنِيرْ آطَالَارْ (Münir Atalar)

شاكر بَاطْمَازْ (Batmaz)

مُرَادْ قَارْكِيلِي (Kargılı)

خُولْيا تَزْجَان (Hülya Tezcan)

أسراء دُوغَانْ (Esra Doğan)

فهرس

الصُرّة السلطانية: كنز العالم الإسلامي المفقود (يوسف جَاغْلَارْ).. ٩

تذكّر مواكبِ الصُرّة السلطانية مجدّدًا (صالح كُولَنْ).. ١٣

الفصل الأول:

الصُرّة الهمايونيّة المرسلةُ من إسطنبول إلى الحرمَين الشريفَين

رحلة المحمِل الشريف والصُرّة السلطانيّةِ من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين (يوسف جَاغْلَارْ)............ ٢٥

سبيل الوداع: المحطّة الأولى في رحلة الحج (عمر فاروق شريف أوغلو) ٩١

نقل الصُرّة السلطانية من ميناء "حَرَمْ" إلى الحرمين الشريفين بحرًا (شاكر بَاطْمَازْ) ٩٧

دفاتر الصُرّة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء (حسين أُوزْدَمِيرْ) ١١٧

الفصل الثاني:

إرسال الصُرّة من مصر إلى الحرمين الشريفين

المحاملُ وتاريخها (إبراهيم رفعت باشا) ١٤١

المحمِل المصري: رمزٌ مهمّ من رموز الخلافة (مُرَادْ قَارْكيلِي) ١٤٧

المحمِل المصري بقلم ضابط عثماني (صالح كولن)..١٦١

الفصل الثالث:

الكسوة المرسَلة مع المحمِل إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة

المحمِل الشريف المتّجه من القصر العثمانيّ إلى الكعبة المشرّفة (خوليا تَرْجَان) ١٩٥

الأقمشة المرسلة إلى المدينة المنورة (سَلِينْ إِيبَكْ) ٢٢١

الفصل الرابع:

قوافلُ الحجّ العثمانيّة وطريقُها وموكبُ المولدِ النبويّ

قوافل الحجّ العثمانيّة في كتب رحلات العصر القاجاري (أسراء دُوغَانْ) ٢٥١

طريق الحجّ ونفقاته [الطريق البرّيّ (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)] (مُنِيرْ آطَالَارْ) ٢٨٩

الخاتمة: عودة المحمِل الشريف وموكبُ المولِد (يوسف جَاغْلَارْ) ٣٠٥

الهوامش ٣٠٩

المصادر ٣٢٥



حركة المحمل الشريف من دمشق إلى المدينة المنورة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

الصُّرّة السلطانية: كنز العالم الإسلامي المفقود

إعداد: يوسف جَاغْلَارْ (Çağlar)[1]

ترجمة: أحمد كمال

في الوقت الذي تعني فيه كلمة الصُّرّة في اللغة "الكيس أو الخرقة التي توضع فيها النقود"، فقد اكتسبت هذه الكلمة ثراءً كبيرًا على مرّ القرون من خلال سبيل الوداع[2] وقوافل الحجيج ومواكب المحمل وحقائب الهدايا وتراب المدينة المنوّرة ودموع فرحة الحجيج وروائح العطور التي لا توصف والموالد وأصوات المدافع والرحلات المليئة بالمحن والبلايا والعبادات والأدعية والجماليات الكثيرة.

فالصُّرّة تهدف إلى إيصال الرسالة السلطانية إلى الحجيج الذين ينتظرون قضاء العيد في "مِنى" بعد أن أتمّوا أداء الركن الأكبر من الحج وهو الوقوف بعرفة، لأنَّ السلطان يرغبُ في مشاركة فرحة العيد مع جميع مسلمي العالم.

وإن الحجيج الذين يغادرون منطقة "أُسْكُودَارْ (Üsküdar)"[3] برفقة موكب الصُّرّة السلطانية، كانوا ينطلقون من الأناضول إلى دمشق ومن دمشق إلى المدينة المنورة ثمَّ إلى مكة المكرمة مصحوبين بالدعوات، وكانت تظهر عليهم علامات الفرح والنشوة بالعبادة، فَهُمْ لا يريدون الرجوع إلا بعد أداء فريضة الحج.

كانت القافلة تنثر آلاف القطع الذهبية المتلألئة في كل مكانٍ تمرّ به أو تذهب إليه، ولم يكن لأصحابها سوى هدفٍ وحيد ومقصدٍ فريد، ألا وهو الاستجابة إلى دعوة الله دون إرهاق أيّ شخص أو بلدة والوصولُ إلى الكعبة المشرّفة -مركز الكرة الأرضية- سالمين غانمين... ولهذا السبب فلقد كانت هذه القافلة المباركة تُقابل بالأفراح في كلّ مدينة تمرّ بها وكلّ بلدة تزورها وتُودَّع بكل حبٍّ واحترام.

كما أن الصُّرّة كانت تمثّل تحيّةَ الجنود العثمانيين الذين ينتظرون مواكب المحمِل الشريف بكل إجلال واحترام في القلاع التي يُمرُّ بها على طول الطريق الموصلة إلى الحرمين الشريفين، ولقد كان ثراءُ هذه الرحلة المباركة يزدادُ كلما زادَ ثراءُ مفهوم الصُّرّة في كل محطّة وولاية تمرّ بها في كلّ رحلة حجّ...

حتى صارت الصُرّة نفسُها تشبه النجوم المتلألئة في السماء، وإنها لتُمثِّلُ جِمَالَ الصحارى المتحمِّلة للشدائد، والعَكَّامين[٤] الذين يقدّمون التضحيات الوفيرة لإفساح الطريق للقافلة، والعُربان (الأعراب) الذين يجثم عليهم النوم كالكابوس، ومياهَ الآبار غير العذبة، والترانيمَ الحزينة التي تردّدها الألسن، وزهورَ الفراق المرويّة بدموع عيون الأمهات، وصيحات البائعين الذائعة في كل محطة، ورائحةَ القهوة الزكية مع حرارة المسامرات الوديّة، والخطابات المكتوبة بأحرف الشوق، والحبرَ شديد السواد تفوح منه رائحة السخام، والموانئَ المليئة بجوّ الاطمئنان، والمزارات القريبة والبعيدة، ورحلةً متّجهة بسرعة نحو الأزمنة السحيقة...

وكانت هناك أمانة يحملها موكب الصُرّة والحجيج في القافلة أهمّ من القطع الذهبية والهدايا القيمة التي كانوا يحملونها من حاضرة الخلافة العثمانية إلى بلاد الحرمين الشريفين، ألا وهي "**المحمِل الشريف**"، وفي الوقت الذي يُنظَّم فيه موكب الصُرَّة، كان المحمِلُ الشريف يلقَى تقديرًا واحترامًا فريدين، يُستقبل على أظهر الجِمَال التي تحمل الصُرّة بالأدعية والآيات القرآنية التي يتردَّد صداها في القلوب، وكان المحمِل الشريف يشاهده المسلمون في إسطنبولَ والشامِ ومصرَ والمدينةِ المنورة ومكةَ المكرّمة وكأنّ النبيّ ﷺ محمولٌ في هذا المحمِل على ظهر ناقته "القصواء"، وهذا يُجَسِّدُ أزمنةَ عصرِ السعادة ولحظات الوداع المُرَّة والحكايات التي كُتبت مع الفتح، ولذا كان من بين هذه المراسم استقبالُ المحمِل الشريف والراية المشرفة -التي تُحمل باحترامٍ بالغ على رأس الجَمل بصفتها جزءًا لا يتجزّأ عن المحمِل- بالأفراح في كلّ مدينة تمرُّ القافلة بها وتُودَّع بالدموع والأحزان.

كانت قافلة الصُرّة تخرج كل عامٍ من القصر السلطاني قبل شهر رمضان، وتُكمِل رحلتها المباركة حتى مكة المكرمة مع حلول عيد الأضحى، ولقد أسهمت هذه القافلة التي كانت تنطلق بَرًّا على ظهور الجِمال، وبحرًا على متنِ السفن، وبالقطارات عبر السِّككِ الحديديّة، أسهمت بشكلٍ كبير في إشاعة الحبّ والأخوّة بين الشعوب على مرِّ العصور؛ حيثُ صار المسلمون القادمون من شتى بقاع الأرض وأعراقها لُحْمةً واحدةً وجسدًا واحدًا بفضل هذه القافلة المباركة.

ومما لا شكّ فيه أن قافلة الصُرّة السلطانيّة عانت الكثير والكثير خلال رحلاتها الطويلة والشاقة، حتى إنّها تعرضت للاعتداءات من جانب البدو على طول طريقها إلى الأراضي المقدسة.

والصُرّة تعني في الوقت نفسه "كسوةَ الكعبة المشرفة"، والتقاءَ الكعبة بكسوتها الجديدة، وكانت كسوةُ الكعبة المشرّفة واحدةً من بين الأمانات المقدّسة التي تحملها قافلةُ الصرّة، وقد كانت تُنْسَجُ بدقَّةٍ عاليةٍ وعنايةٍ كبيرةٍ محفوفة بأدعيةٍ كثيرة على مدار العام... هذا إضافةً إلى أنّ القافلةَ كانت تحمِل على متنها أغطيةً أخرى...

وكانت هناك هدايا مرسَلة للأقارب القاطنين في مكةَ المكرمة والمدينةِ المنورة، فالأمانةُ التي كانت تُحمل في حقائب الهدايا كانت تَصِلُ إلى القائمين على تنظيفِ الحرمين الشريفين، وتصل التحيّات والخطابات والأخبار إلى الأمهات والآباء والأصدقاء الذين سكنوا أرضَ الحجازِ ولم تطاوعهم أنفسهم أن يغادروها...

يسيرُ أمينُ الصُرّة في مقدمة القافلة حاملًا الرسالة السلطانية، وتتواصلُ رحلتهم برفقة الموكبِ ولا تفتُرُ ألسنتُهم عن الابتهالات والأدعية، ويمرُّون في طريقهم من منطقة "أُسْكُودَارْ" بـ"إسطنبول" إلى جزيرة "رُودُسْ" بالبحر الأبيض المتوسّط وبيروت والشام والحجاز... وتُوزَّع الهدايا والقطعُ الذهبيّة الموجودةُ بالصُرّة على أصحابها في كلِّ ولاية تمرُّ بها القافلة في الأناضول والشام والقدس ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وتنطلقُ القافلة باسمِ السلطان العثمانيّ وخليفة المسلمين **خادمِ الحرمين الشريفين**، مصحوبةً باحترامٍ وتقديرٍ فريدين.

لم يَنْسَ ساكنو مكةَ المكرمة والمدينةِ المنورة الفضلاءُ الصُرَرَ والمساعدات الماديّة والمعنويّة التي قدّمها لهم الخلفاء العثمانيون بدايةً من السلطان سليم -أول من حمل لقب (خليفة المسلمين) من السلاطين العثمانيين- ومن جاء بعده من الخلفاء، وكذلك أجدادهم من السلاطين العثمانيين قبل الخلافة بما فيهم السلطان بايزيد الأول "يِلْدِرِمْ (Yıldırım)" والسلطان محمد الأول "شَلَبِي" والسلطان بايزيد الثاني... ولم ينسوا استقبالَ الأشراف والأسياد من نسلِ سيدنا محمد ﷺ بكلّ حفاوةٍ وإجلال على مرّ الزمان...

كانت الصُرّة تعني أيضًا الوداعَ ومغادرة مكةَ المكرمة والمدينةِ المنورة...

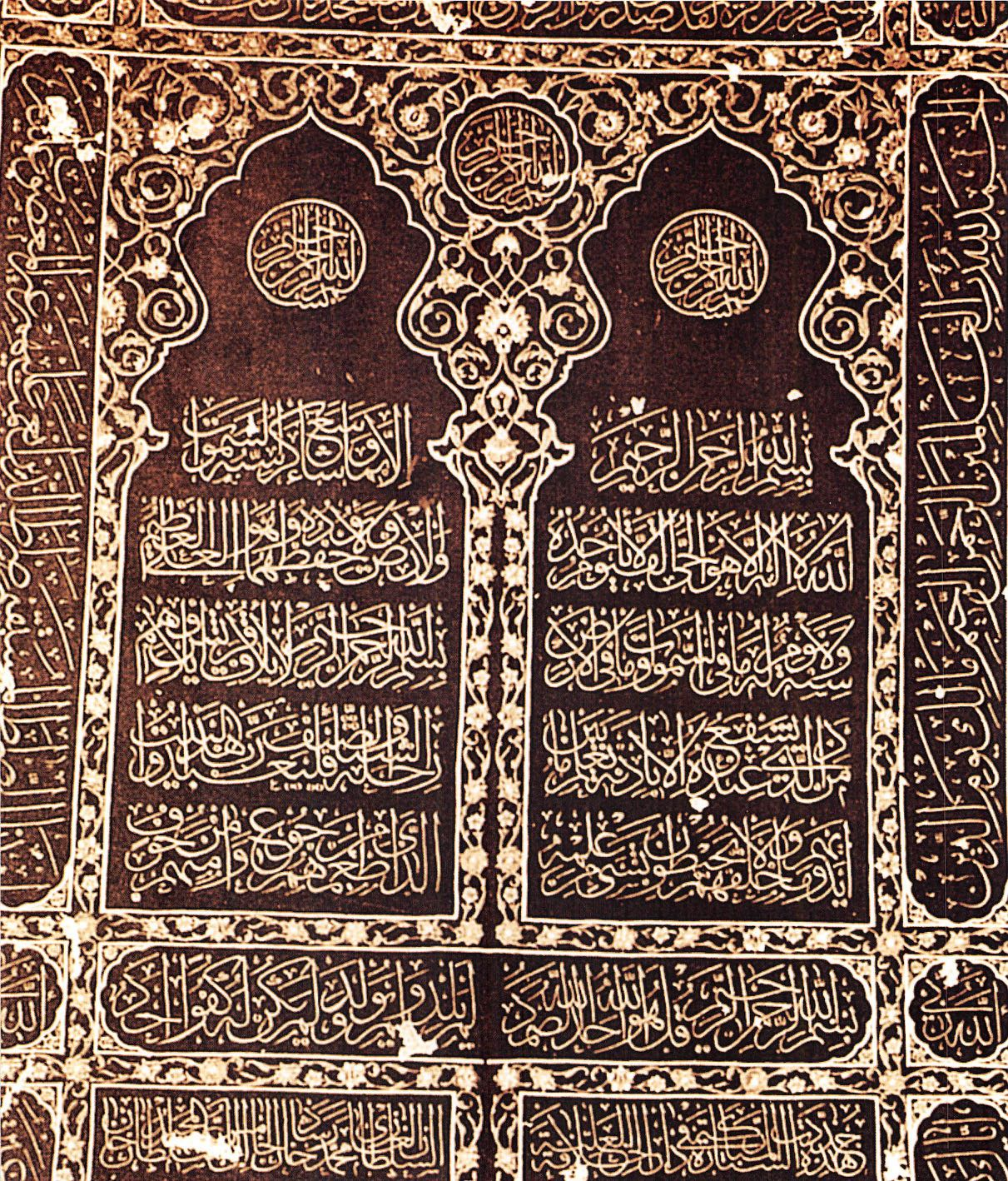
ونحن الآن ننتظر المحمِل الشريف يوم خروجه نحو الحرمين الشريفين كي تتشكَّلَ قافلةُ الحبّ والأخوّة من جديد، والأمَّة كلها تنتظرُهُ بحزنٍ شديد، فإنّ أيّ ذكرى -ولو كانت صغيرةً- تذكِّرُنا بروح الصُرّة السلطانية حافظنا وما زلنا نُحافظُ عليها في منازلنا وقصورِنا وكأنّها أمانات مقدَّسةٌ لا يجوز المساس بها.

يوسف جَاغْلَارْ

أُسْكُودَارْ - ١٩ تشرين الأول/أكتوبر (٢٠٠٧م)

ملحوظة من دار النشر:

نظرًا لكثرة الهوامش وطولها في هذا الكتاب قمنا بنقلها جميعًا إلى آخر الكتاب.



بسم الله الرحمن الرحيم
الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه
سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض
من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين
ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه
الا بما شاء وسع كرسيه السموات
والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم
بسم الله الرحمن الرحيم لايلاف قريش ايلافهم
رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت
الذي اطعمهم من جوع وامنهم من خوف
بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله احد الله الصمد
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد

تذكّر مواكبِ الصُّرّة السلطانية مجدّدًا

إعداد: صالح كُولَنْ (Gülen)[1]

ترجمة: أحمد كمال

لقد انطلقَ آخر موكب من مواكب الصُرّة السلطانية من هذه البلاد إلى الأراضي المقدّسة قبل حوالي تسعين عامًا، ومنذ ذلك التاريخ لم يُرَ ذلك الموكب مجدّدًا...

ونحن -من جانبنا- بعثنا إليكم هذا الكتاب وكأنه خطابٌ، بهدف إعادةِ بناءِ جسرِ القلوب الممتدِّ من شتّى مرابع البلاد الإسلامية إلى مكّةَ المكرّمة على متن صفحات هذا الكتاب، وإعادةِ ذكريات تلك الأيام الرائعة والسنواتِ الخوالي، وإحياءِ ذكريات مواكب الصُرّة السلطانية لهذه السنوات بكلِّ إثارتها ووقائِعها ولو بشكلٍ مختصر...

لقد توصَّلنا بعد صبرٍ وجهد كبيرَين إلى وثائقَ ومعلوماتٍ مهمّة بخصوص الصُرّة السلطانية التي لا يعرفُها إلا القليل، رغم أنها تَركتْ وراءَها عشرات الوثائق والذكريات إلا أنها نُسيت في خضمّ صخَب وضجيج هذه الأيام التي نعيشُها.

مضى ما يقربُ من قرنٍ كامل على آخر موكب من مواكب الصُرّة السلطانية التي وصلت إلى المدينة المنوّرة مرورًا بالشام الشريف وعادت مرّةً أخرى إلى إسطنبول[2]، وإن كانت هذه الفترة ليست بالطويلة بالنسبة لذكريات الأمم، ولكنها كافيةٌ لنسيان بعض القيم... ونحن نرى أن إعادةَ ذكرِ الصُرّة السلطانية المنسيّة منذ ذلك التاريخ، ولو حتى على صفحات كتابٍ، تُعتبَرُ بمثابةِ خطوةٍ مهمّة للغاية على طريق استرجاع ذكريات عنصر من عناصر ثقافتنا وتراثنا الإسلاميّ.

فبعد أن هَزم السلطانُ العثمانيُّ "سليم الأول" جيشَ المماليك في معركة "مَرْجِدَابِقْ (Mercidabık)"، أعلنَ السلطانُ العثمانيُّ أنه سيحمل لقبَ "خادم الحرمين الشريفين" على الرغم من مخاطبته بلقب "حاكم الحرمين الشريفين"، وذلك ضمنَ مراسمِ تنصيبهِ خليفةً للمسلمين وبحضور الخليفةِ العباسيّ "المتوكّل" في جامعِ

حلبَ الكبيرِ، وصار هذا التصرُّف من السلطان العثمانيّ -مع توالي السنين- أكبرَ دليل على تواضع العثمانيين ونظرتهم إلى الحرمين الشريفين، بيدَ أنَّ سلاطينَ المماليك كانوا يستخدمون لقبَ "**حامي الحرمين الشريفين**".

تعتبر "الصُّرَّة السلطانية"[٣] التي كان يبعثُ بها بصورةٍ منتظمةٍ سنويًّا دليلًا على أنّ العثمانيّين أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم أمّة "**خادمةً**" لمكة المكرمة والمدينة المنورة وليست "**حاكمة**" عليهما، وترمزُ بوضوحٍ إلى مدى حبّ العثمانيّين لنبيّنا محمد ﷺ، وذلك إلى جانب المساعدات الماديّة الوفيرة التي كانت تُرسل بشكل منتظمٍ كلَّ عام إلى الأراضي المقدَّسة، حيث رُمز من خلال الناقة الجذّابة -التي كانت تسيرُ في مقدِّمة موكبِ الصّرّة- إلى ناقةِ النبي ﷺ، ورُمِزَ بالمحمل الشريفِ على ظهرها إلى المحمِل الذي كان يحمل النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ في السفر، وعليه فقد اكتسبَ هذا الموكبُ احترامَ المسلمين كافةً على مدار السنين.

إن الناقةَ التي ترمزُ إلى ناقة النبي ﷺ وتسيرُ في مقدمة موكب الصّرّة لتُذَكّرنا بحاكم كبيرٍ يرى الرسولَ أمامه يسيرُ في مقدِّمةِ الجيشِ العثمانيّ وهو يعبرُ صحراءَ "سيناء"[٤].

لقد كان لدى العثمانيّين حبٌّ عميقٌ للنبيّ محمد ﷺ، برز بصورة أكبر منذ عهد السلطان أحمد -الذي أضاف إلى ريشةِ الزينة الخاصة به بعضًا من أثر النبي ﷺ ولصقها بعمامتِهِ- إلى عهد السلطان محمود الثاني الذي أعاد بناءَ قبرِ النبي ﷺ من جديد، ومن عهد السلطان محمد الفاتح -الذي فتح القسطنطينيةَ تنفيذًا لبشرى النبي ﷺ- وحتى عهد السلطان عبد الحميد الثاني الذي أوصلَ خطَّ السِّكك الحديديّةِ من إسطنبولَ وحتى مدينة النبي ﷺ، وإن التاريخ يسجِّل على صفحاته ما فعلتْه هذه الأمّة التي سعتْ لإحياءِ كلِّ ذكرى تذكّرنا بالنبي ﷺ وإن كانت صغيرة للغاية.

لقد كان العثمانيون بمثابة القوّة الوحيدة التي تدافعُ عن العالم الإسلامي ضدَّ الاعتداءات الغربيّة، واستمرّت تبعيّة العديد من البلدان الإسلاميّة إلى العثمانيّين حتى الأيام الأخيرةِ للدولةِ العثمانيةِ، ففي عام (١٥١٧م) وبينما كان السلطان العثمانيّ "سليم الأول" في القاهرة، دخل أسطولٌ برتغاليٌّ إلى مياه البحر الأحمر لمهاجمةِ مكة، فهرعَ أهلُ الحجاز إلى طلبِ العون والمساعدةِ من الأمير العثمانيّ القبطان "سلمان رئيس" حتى لا يتركهم بمفردهم أمام هذا الخطر المحقّق، فاستجاب "رئيس" إلى نجدتهم، ودافعَ عن ميناءِ مدينةِ "جدّة" الذي يُعتبرُ مرفأ مكة المكرمة حتى استطاع أن يهزم البرتغاليين، كما أصدر السلطان "سليم الأول" أوامره بتجهيز أسطول بحريّ ضخمٍ في البحر الأحمر في السويس غير أسطول البحر الأبيض المتوسط، وبذلك فرضَ هيمنة الدولة العثمانية على المنطقة، ومنذ ذلك الحين لم يستطعِ البرتغاليّون الدخولَ إلى البحر الأحمر بسفنهم وقواربهم فضلًا عن أن يهاجموا ميناء جدَّة أو مكة المكرمة.

ولقد كان لهجماتِ الفرسانِ أو القراصنةِ القاطنينَ في جزرِ البحر الأبيضِ المتوسّط وبحر "إيجَه (Ege)" على سفن الحجيج تأثيرٌ بالغ في فتحِ جُزُرِ "رودس" و"قُبْرُص" و"كِريتْ (Girit)" على أيدي العثمانيّين، وخلال هذه الفترة جرى البدءُ للمرّةِ الأولى في حفرِ قناةِ السويس من أجلِ توصيلِ البحر الأبيضِ المتوسّط بالبحر الأحمرِ بعد أن نظّم البرتغاليّون هجماتٍ ضدّ قوافلِ الحجيجِ القادمةِ من الهند، إلا أنّ محاولة حفرِ قناة السويس هذه باءت بالفشل.

وإذا ما أخذنا في عين الاعتبار الاهتمامَ البالغ الذي أولتْهُ الدولة العثمانية لعباءة النبي محمد ﷺ (أي: البردة الشريفة) على مرّ العصور، سنفهم -بشكلٍ أكبر- الخدمات التي قدمتها هذه الأمة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن بين الأمثلة الخالدة التي يمكن أن نسردَها بشأن سعيِ العثمانيّين إلى حماية مكة المكرمة، نذكر قلاع "أجياد" و"فلفل" و"جبل هندي"، والأسوار التي ضُربت حول المدينة المنورة وعشرات أقسام الشرطة والثكنات التي بُنِيَتْ حولَ الحرمين الشريفين، حيث تعتبر كلّ واحدة منها خيرَ دليلٍ على شعورهم بالمسؤوليةِ تجاهَ حمايةِ هذه الأراضي المقدّسة، هذا إضافة إلى أنّ عشراتِ المستشفياتِ ودورِ الضيافة هي أيضًا من بين آثار العثمانيّين الساعين لخدمة زوّار بيت الله الحرام، كما أن القِباب التي تمّ إنشاؤها في جبانةِ "البقيع" في المدينة المنورة وجبانة "المعلى" في مكة المكرَّمة، ومحافظتهم على بيوت الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين الأربعة وحماية المساجد الشاهدة على ذكريات عصر السعادة، لهو خير دليلٍ على هذا الحب الصادق.

كان موكب الصُرّة السلطانيّة الذي يحمل الأموالَ والهدايا القيّمة التي يرسلها السلطان العثمانيّ وشعبُه إلى مكة المكرمة والمدينةِ المنوَّرة يبدو وكأنّه يُمثّل شخصيّة خادم الحرمين الشريفين.

ومن منافع الصرة السلطانية أنها منعتْ قطّاعَ الطرق من التعرُّض لقوافل الحجيج؛ وذلك حينما كانت تُنْفِقُ الأموالَ على قطاعِ الطرق على طول طريق قوافل الحجيج، وهذا ما كان كفيلًا بتحقيق أمن وسلامةِ مرورِ قوافل الحجيج عدّة قرون.

لقد فطِنتِ الدولة العثمانية إلى أن الإنسان الجائع من الممكن أن يكون مصدرَ خطرٍ، فبادرت إلى توفيرِ السلام الاجتماعيّ عَبْرَ بناءِ العديد من المؤسّسات الاجتماعيّة مثلَ أحجار الصدقة(٥) التي كانت تؤمّنُ جزءًا من المال للفقراء، والمؤسّسات الخيريّة التي كانت توزّعُ الطعام على الفقراء والطلبة، ومن جهةٍ أخرى سعتِ الدولة العثمانيّة إلى البحث عن حلولٍ جذريّة لدرءِ أيّ خطرٍ أو تهديدٍ قد يواجه الحجيجَ وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، وإن كان قد وقـع بعضُ الحوادث غير المرغوب بها على طريق الحج بين الحين والآخر، فإن هذه الحوادث تُعتَبَر من قَبيل الاستثناء بالنسبة لرحلةٍ طويلةٍ استمرّت قرونًا مديدةً.

إنّ السلطان العثمانيّ -الذي كان يُعتبر آنذاك خليفةَ المسلمين كافة- قد أخذَ على عاتقه مهامَّ كثيرةً مثلَ توفيرِ الأمن والأمان للحجيج، وتسهيلِ وتيسير قضاء النسك على الآلاف من المسلمين القادمين من شتى بقاع الأرض، مع توفير أكبر قدرٍ من الراحة لهم، والحفاظِ على الآثار والذكريات الباقية حول الحرم منذ عصر النبي ﷺ وصحابته الكرام ﷺ.

ولاقى العثمانيّون العديدَ من المشكلات عندما عقدوا العزمَ على إنجازِ أنشِطَةٍ إعماريّة على هذه الأراضي المقدّسة التي تبعُدُ آلافَ الكيلومترات عن الأناضول -مقرِّ حكمِ آلِ عثمان- مثلَ عدم وجود العدد الكافي من المهندسين والعمّال، وتكاليف الحمل والنقل الباهظة، وتعذُّرِ إنشاءِ مبانٍ تتناسبُ مع الأجواء المناخيّة في المنطقة، وعلى الرغم من وجود كلّ هذه الصعوبات التي ذكرناها، فقد قُدّمت تضحيات كبيرة من أجلِ إنشاءِ هذه المباني من أفضلِ الخامات والموادِ، وذلك لقدسيّة هذا المكان وشرفه، حتى إن بعضَ المواد المستخدمةِ في البناء جرى إرسالُها من الأناضول إلى الأراضي المقدّسة قاطعةً آلاف الكيلومترات.

إن مواكبَ الصُرّة كانت عادةً مكتسبةً في زمن العباسيين وواصلتِ الدول الإسلاميّة اللاحقة عليها إرسالَها إلى الأراضي المقدّسة، إلا أنَّ تلك المواكب لم تكن منظَّمةً وذات تشريفةٍ منمَّقةٍ في أيّ عصرٍ كما كانت عليه في عصرِ الدولة العثمانية، وعندما وصلَ نبأُ وفاة شيخ الإسلام في الدولة العثمانيّة العالم الكبير "أبي السعود أفندي" عام (١٥٥٨م) إلى مكةَ المكرمة والمدينةِ المنورة، صلّى العلماء العرب هناك عليه صلاة الغائب، ويعتبر هذا التصرُّفُ أبرزَ دليلٍ على الاحترام والتبجيل تجاه العلماء الكبار.

وكان شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي" قد أصدرَ عام (٩٥٩هـ/١٥٥٢م) فتوى للسلطان "سليمان القانوني" يجيزُ فيها ترميمَ وصيانةَ بيتِ الله الحرام، وفي الوقت الذي صُلّيت فيه صلاةُ الغائب على "أبي السعود أفندي" أمام الكعبة التي أصدر فتوى بترميمها وصيانتها، فإنه وبعد مائة واثني عشر عامًا على هذه الواقعة، يرى الرحالة التركي "أوليا شَلَبِي (Evliya Çelebi)" "ميزاب الرحمة" [في اللغة التركية: "آلْطِنْ أُولُوقْ (Altınoluk)"] -الذي كان يزعم أن والده هو من قام بصناعته يدويًّا- والميزابُ كأنه ينظر باتجاه الأناضول من فوق الكعبة، وبعد مرور مائتين وخمسةٍ وأربعين عامًا على هذا التاريخ، نرى أيدي المسلمين في الحرمين الشريفين وقد ارتفعت نحو السماء تدعو للجنود العثمانيين وهم يدافعون عن حاضرة الدولة العثمانية في معركة "جَانَقْ قَلْعَة (Çanakkale)" إبّان الحرب العالمية الأولى.

وفي عهد السلطان العثماني "سليم الأول" وُزعت الصُّرّة السلطانيةُ المرسلة إلى الأراضي المقدَّسة على المُسَجّلين في دفتر الصُّرّة من قِبَلِ موظَّفٍ مكلَّفٍ بذلك وتحت إشراف قاضِيَينِ اثنين، وقام من حصل على نصيبِهِ من الصُّرّة بختمِ قراءةِ القرآن الكريم ثمَّ كان يدعو بعدَ ذلك للسلطان، حيث جرى تعيينُ ثلاثين حافظًا لكتاب الله وطُلب من كلِّ واحدٍ منهم قراءة جزءٍ من القرآن يوميًّا، وبهذه الطريقة كان القرآن الكريم يُتْلى كاملًا في كلِّ يومٍ، وكان قد تقرّرَ صرف اثنتي عشرَة قطعة ذهبية سنويًّا لهؤلاء الحفّاظ، أعقب ذلك استدعاءُ فقراء المدينة المنوّرة وتسجيلُ أسمائهم في دفتر الصّرّة، وكانت تُوَزَّعُ على كلّ عائل منهم ثلاث قِطَعٍ ذهبية من الصُّرّة سنويًّا.

وفي عهدِ السلطان "سليم الأول" أيضًا، كان الموظَّفُ الذي يُرسَل بالصُّرّة يقوم بجمع الفقراءِ في ميدانٍ عامّ ويُعطي كلّ واحدٍ منهم قطعةً ذهبيّة، ويطلُبُ من كلّ واحدٍ منهم القيام بأداء مناسكِ العمرة نيابةً عن والدةِ السلطان سليم "عائشة خَاتُونْ"، وفعلًا فقد قام هؤلاء الفقراء بالإحرامِ وأداءِ مناسك العمرة نيابة عنها.

لقد أرسل العديدُ من الدول الإسلاميّة والحكّام والسلاطين الصُّرّةَ السلطانيّة إلى الأراضي المقدّسة على مرّ العصور، إلّا أنّ أكثرَ السلاطين إرسالًا للصرّة كان السلطان "سليمان القانوني" الابن الأوحد للسلطان "سليم الأول" والذي يُعتبَر صاحبَ أطولِ فترةِ حكمٍ في الدولة العثمانيّة استمرّت لـ"ستة وأربعين" عامًا.

وكانت "دفاتر الصُّرّة" يُدوّنُ بها العديدُ من الموضوعات مثلَ تشكيلِ مواكبِ الصرّة، وكمّيّة الأموالِ والهدايا المرسلةِ مع هذه المواكب، وإلى أين سيجري توصيلُها، ولمن ستعطَى هذه الأموال والهدايا، وإن هذه الدفاترَ الموجودَ معظمُها في الأرشيف العثمانيّ التابعِ لرئاسةِ الوزراءِ بالجمهوريّة التركيّة تُشير إلى أسماء السلاطين الذين أرسلوا الصُّرّة والسنوات التي أُرْسِلَت فيها وكمّيّات الأموال والهدايا التي كانت تحتوي عليها، كما أن دفاتر الصُّرّة السلطانيّة تتمتّعُ بخاصّيّة احتوائِها على دفتر توزيع قد سُجّلَ فيه أسماءُ العشائر التي كانت تساعِد قافلةَ الصُّرّة على الذهابِ والعودةِ بأمانٍ وسلام في طريق الحج، وكذلك مقدار المكافآت التي كانوا يحصلون عليها في مقابلِ هذه الخدمة.

وعندما صدرَ قرارٌ بإخلاءِ المدينة المنوّرة مع قرْبِ انتهاءِ الحرب العالميّة الأولى، قام "فخر الدين باشا" -آخرُ الحراس العثمانيّين في المدينة المنوّرة والذي كان يتولّى الدفاعَ عنها آنذاك- بإرسالِ مواكبِ الصُّرّة مع جزءٍ من الهدايا المرسلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأمانات المقدّسة إلى قصر "طوب قابي (Topkapı)" في إسطنبول خوفًا عليها من الضياع أو التعرُّضِ لمخاطر النهب والسلب، ومُعظمُ هذه الآثار محفوظٌ اليوم في "قسم الكنوزِ" بمتحف "طوب قابي" في إسطنبول.

لقد صارت الصُرّة السلطانية، التي أرسلَها كلّ سلاطين آل عثمان تقريبًا، مصدرَ رزق مهمّ بالنسبة لسكّان المناطقِ المقدّسة، وتفرّغوا للدعاء لبقاءِ دولة الخلافةِ الإسلاميّة وآلِ عثمان من دون الانشغالِ كثيرًا بالأمورِ الدنيويّة، ومن جانبنا نعتقدُ أنّ هذه الأدعية كانت لها مكانةٌ كبيرة بينَ الأسرارِ الخفيّةِ الكامنةِ وراءَ استمرارِ حاكميّة الإمبراطوريّة العثمانيّة على ثلاثِ قارّات على مدارِ ستّةِ قرون من الزمان.

لقد جمع كتابُ "**المَحمِل الشَّريف ورِحلتُه إلى الحَرَمَين الشَّريفين**" العديدَ من الخبراء والمتخصِّصين في مجالهم؛ فالبروفيسور الدكتور "مُنِيرْ آطَالَارْ (Münir Atalar)"، المؤرّخ البارز الذي يُعْتَبَرُ من أوائل الشخصيّات التي قدّمت أعمالًا تتناول مواكب الصُرّة السلطانية في تركيا، كتب عن مواكب الصُرّة التي كانت تُرسَل عبر الطرق البريّة، وقد عرض الأستاذ الدكتور "حسين أُوزْدَمِيرْ (Özdemir)" خبير الأرشيف العثماني أربعة آلاف ومائةً وسبعين دفترًا تشتملُ على الحقبة التاريخيّة الخاصّة بالصُرّة السلطانية بين عامي (١٦٠١-١٩٠٩م)، وقد ذكرَ وعرض لما في هذه الدفاترِ من موضوعات.

من جهةٍ أخرى، تناول الأستاذُ المساعد "شاكر بَاطْمَازْ (Batmaz)"، -أحد الأكاديميّين البارزين الذين لهم أعمالٌ وأبحاثٌ تخصُّ تاريخَ الأسطولِ العثمانيّ في تركيا- مواكبَ الصُرّة المرسلةَ عن طريق البحرِ مستفيدًا في ذلك من مذكّرات لم تُنْشر من قبل.

إن الباحث "يوسف جَاغْلَارْ (Çağlar)"، الذي أنجزنا معه هذا العمل الشاقّ والمشروعَ الصعبَ في غضون عامينِ ونصف، لخّص مذكّرات رحلات الصرَّة -التي توجد منها نسخة واحدة في عموم تركيا- في أرشيفه الخاص، ثمَّ أخرجها للعيان للمرّة الأولى حينما أعدّ مقالًا يحمِلُ عنوانَ "**رحلة المحمِل الشريف والصُرّة السلطانيّةِ من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين**"؛ ولقد جمعَ كلّ الوثائقِ والصورِ والنقوش -التي يُنشَرُ معظمُها للمرّةِ الأولى في تركيا- كي يستفاد منها في هذا الكتاب، وذلك بعد أن أخرجَ الوثائقَ والصورَ الموجودةَ في الأرشيفِ الخاصّ به، وبعد الدعم الذي حاز عليه من جامعي المخطوطات وبائعي الكتبِ القديمة المحيطينَ به.

كنا نعلم أنّ مواكبَ الصُرّة السلطانيّة لم تكن تخرجُ من إسطنبول فقط، إلا أننا اعتقدنا أنَّ الحديثَ عن مواكب الصُرّة المرسلةِ فقط من إسطنبول سيكون جحودًا للتاريخِ المصريّ على وجهِ الخصوص؛ إذ إنَّ هذا الكتابَ كان يجري الإعدادُ له وفاءً للتاريخ على الحياد دون بَخْسٍ أو انحيازٍ، ومن جانبه قام الجامع الكبير "مُرَادْ قَارْكِيلِي (Murat Kargılı)" بكتابة فصل "**المحمِل المصري: رمزٌ مهمّ من رموز الخلافة**" وأشار فيه إلى علاقةِ هذهِ العادةِ القديمةِ بالخلافةِ العثمانيّة، كما تولّى مهمّة الإرشاد والتوجيه، بكلّ حبٍّ وسعادةٍ، من أجلِ استخدامِ العديدِ من الأعمالِ والآثارِ التي توصّل إليها بعد أبحاثٍ ودراساتٍ قام بها منذ سنواتٍ عديدة،

وقد شاركْنا نحن أيضًا في هذا العمل من خلال مقالتِنا التي تحمِل اسمَ "**المحمِل المصري بقلم ضابط عثماني**" والتي لخّصناها من كتاب "**مرآة الحرمين الشريفين**" لـ"إبراهيم رفعت باشا" الذي يقع في مجلدين والذي لمّا يُنشر في تركيا حتى الآن.

ممّا لا شكّ فيه أنه إلى جانبِ الأهمّيّة التي تتميّز بها الأموالُ والهدايا المادّيّة المُرسلةُ مع مواكب الصُّرّة السلطانيّة، كان يجبُ علينا معرفة تفاصيلِ المحمِل الشريفِ، -الذي ما زال جزءٌ مهمّ منه موجودًا حتى اليوم في قصر "طوب قابي" بإسطنبول- ومعرفة تفاصيلِ سائر الأغطية الأخرى أيضًا، حيث تناولَ هذا الموضوعَ باحثان من القصر متخصّصان في هذا الشأن، ولقد أنار لنا الطريق، فيما يخصّ العديد من الموضوعات، الأستاذ المشارك "خُولْيا تَزْجَان (Hülya Tezcan)" اعتبارًا من عمليّة تجهيزِ المحمِل الشريفِ وحتى الآياتِ المكتوبةِ عليه، وفي مكانٍ آخر نرى الكاتبة والباحثةَ "سَلِينْ إِيبَكْ (Selin İpek)" وقد تناولت في مقالتِها -التي تحمِل عنوان "**الأقمشة المرسلة إلى المدينة المنورة**"- أغطيةَ المسجد النبوي التي أرسلت إلى المدينة المنورة برفقةِ مواكب الصُّرّة السلطانية.

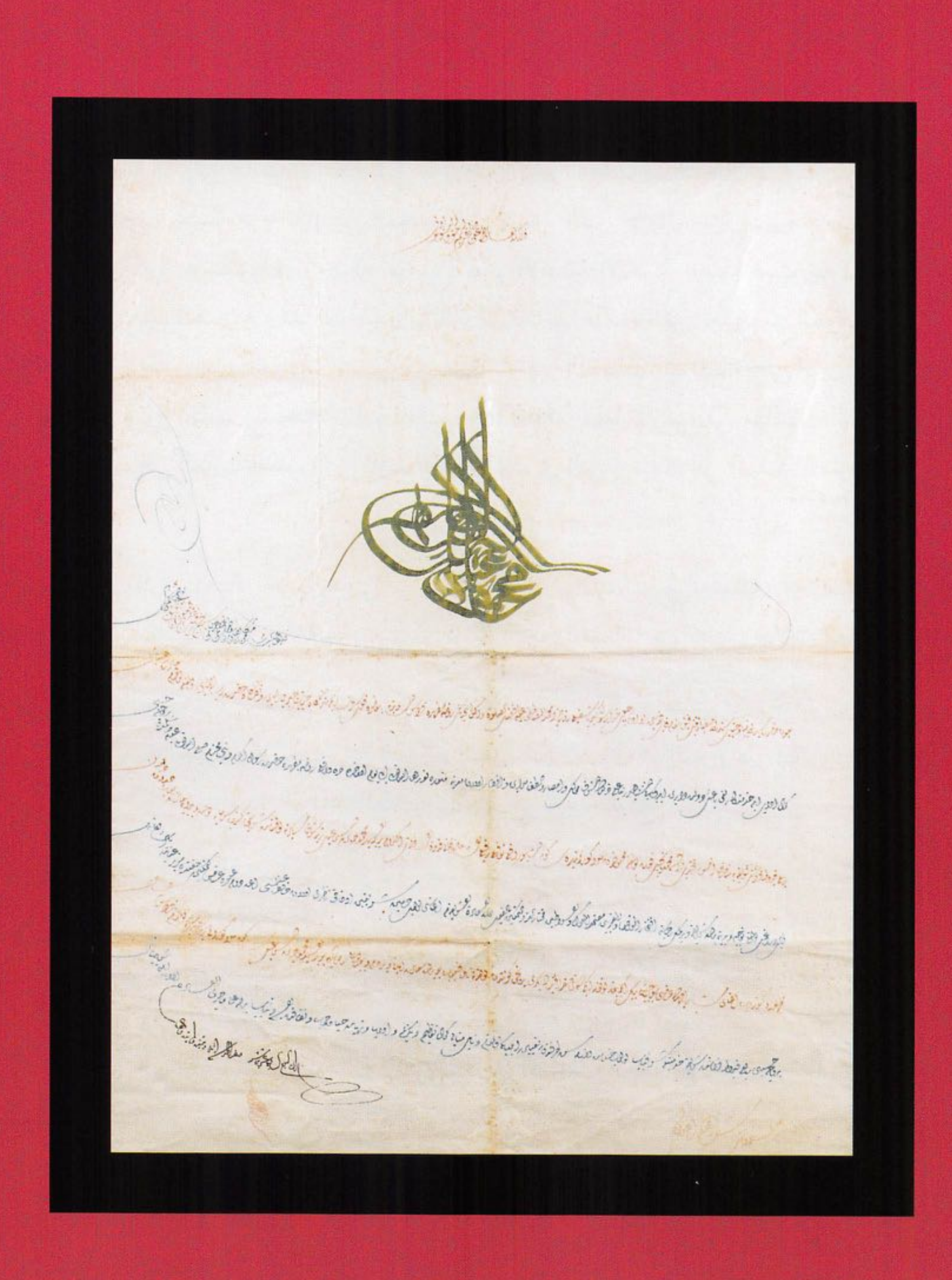
وأما موضوعُ نظرةِ المصادرِ الإيرانيّة إلى مواكبِ الصُّرّة ورحلاتِ الحجّ العثمانيّة، فتعرضها "أسراء دُوغَانْ (Esra Doğan)" في مقالتِها المثيرةِ للاهتمام بعنوان "**قوافل الحجّ العثمانيّة في كتب رحلات العصر القاجاري**".

وعندما يأتي الحديثُ عن "**سبيل الوداع**" -الذي يمرُّ من أمامِهِ اليومَ مئاتُ الأشخاص يوميًّا من دون أن يدروا ماهيّته أو يعرفوا قدره وتاريخه- نرى المؤرّخَ الفنيَّ "عمر فاروق شريف أوغلو (Şerifoğlu)" يتحدَّث عنه في مقالتِهِ التي تحمِلُ اسم "**سبيل الوداع: المحطّة الأولى في رحلة الحجّ**".

أؤمنُ حقًّا بأنَّ هذا الكتابَ يمكنُ أن يكون مرجعًا قويًّا يملأ فراغًا كبيرًا فيما يتعلّق بمواكب الصُّرّة السلطانية التي تُعتَبَرُ بدورها أولى التقاليد التي تتبادرُ إلى الأذهان عندما نذكرُ الأشهرَ الثلاثة (رجب، شعبان، رمضان) عند العثمانيّين، وذلك بعد أن أدركتُ جيّدًا أن هذا الموضوع الهامّ لم يلقَ الاهتمامَ اللائقَ به في كُتُبِ التاريخ الحديث، وفي النهاية أُعربُ عن خالصِ شُكري وتقديري لكلّ المؤسسات وبائعي الكتب القديمة والكتّاب وجامعي المخطوطات والآثار المحافظين عليها وأصحابِ المكتبات والباحثين الذين لم يبخلوا علينا بمساهماتهم القيّمة منذ ورود فكرة تأليف الكتاب إلى عقولنا وحتى كتابته وإصداره.

صالح كُولَنْ

إسطنبول/"جامليجا (Çamlıca)" - آذار/مارس ٢٠٠٨م

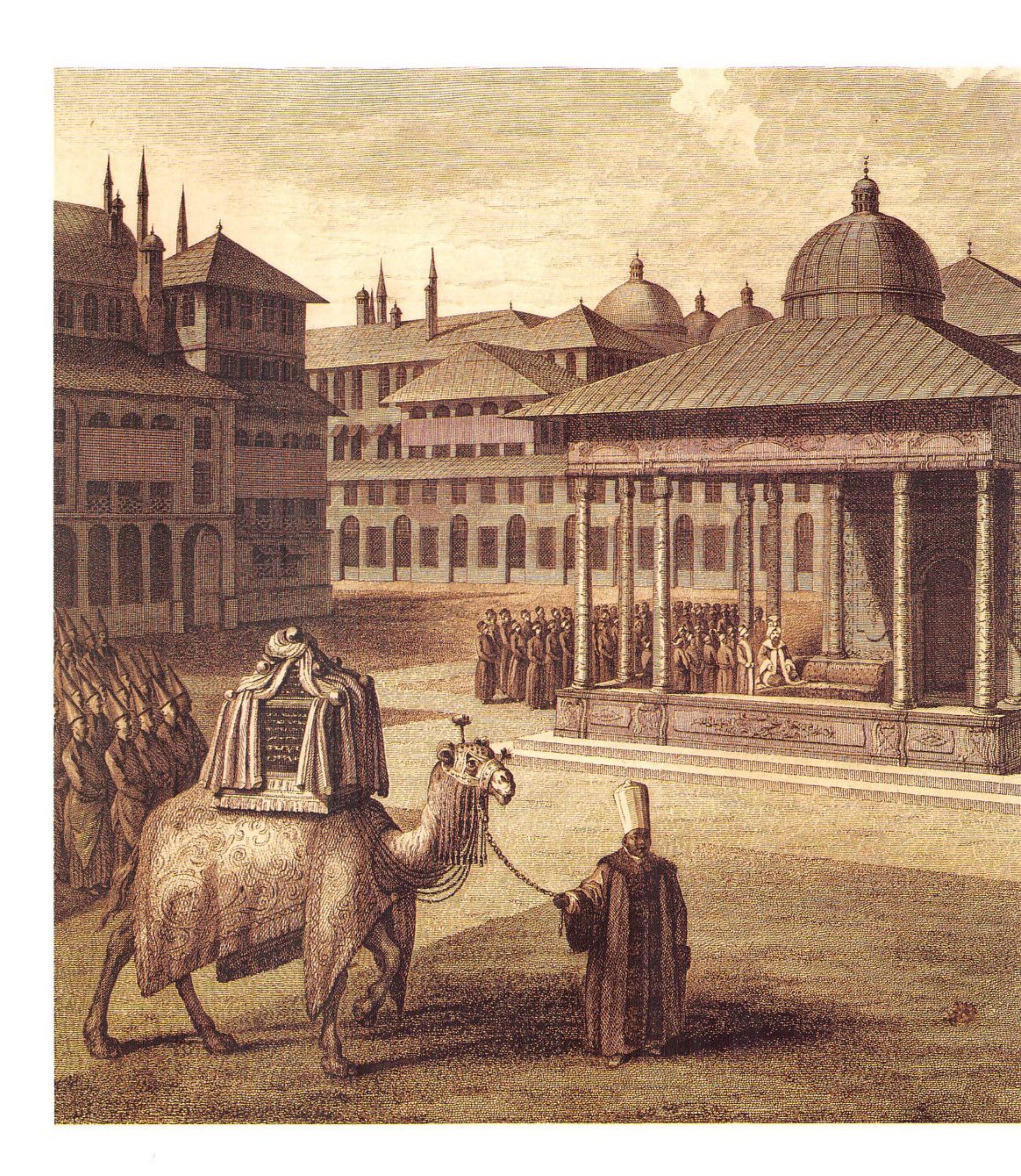


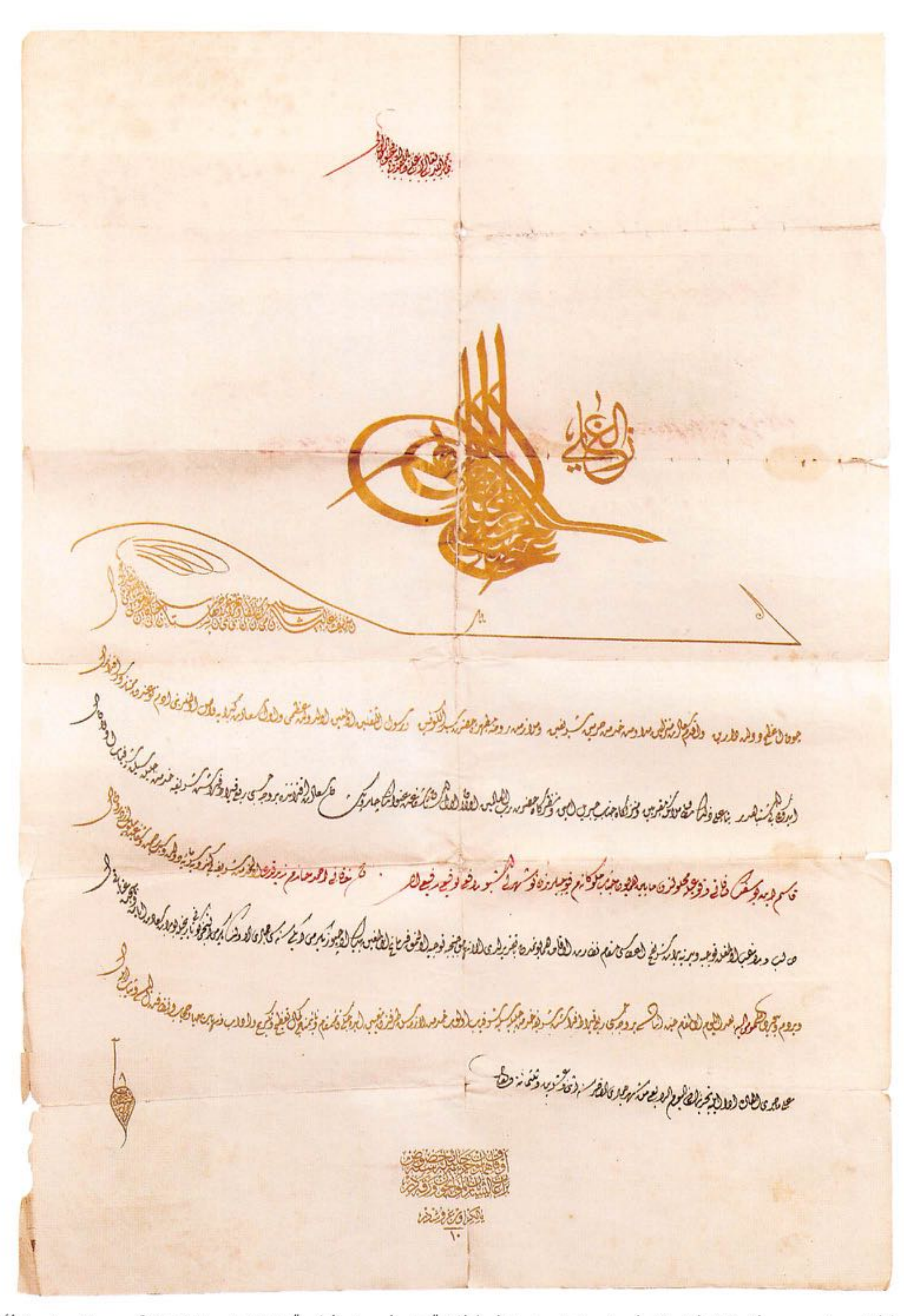
الفصل الأول:

الصُّرّة الهمايونيّة المرسلةُ من إسطنبول إلى الحرمَين الشريفَين



رسم تقريبي مأخوذ من كتاب "إغناطيوس موراديغا دوهسون (Ignatius Mouradgea d'Ohsson)" المسمّى "نظرة عامة على الإمبراطورية العثمانية (Tableau Général de L' Empire Othoman)"، نشر باريس، (١٧٩٠م) ويُجسّد هذا النقش تسليمَ أغا دار السعادة جملَ الصرة إلى أَمينِها في حضرة السلطان أثناء موكب الصرة [صحيفة زمان، مجموعة ٤٠ أثرًا]





القرار السلطاني بخصوص الفِراشة الشريفة الممنوحة في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" (١٨٤٢- ١٩١٨م) [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

رحلة المحمِل الشريف والصُّرّة السلطانيّةِ من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين

إعداد: يوسف جَاغْلَارْ

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

يتناول هذا الكتاب أحداثًا مأخوذةً من ملخّص ربعِ مذكرات الصُرّة التي خطّها "كَتْخُدَا (Kethüdâ) صلاح الدين"[1] الذي أدّى فريضة الحج سنة (١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) بينما كان موظّفًا في الصُرّة السلطانية المرسلة من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين (مكة المكرمة، والمدينة المنورة):

معلومات عن الصرة:

يطلق اسم "الصّرّة"[2] على النقودِ والأشياءِ التي أُرسلت لِسنين طويلة إلى أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكان "المقتدر بالله العباسي" هو أوَّل من سنّ سنةَ إرسالِ الصُرّة إلى أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكان يُطْلَقُ اسمُ "**مَحْمِل**" على الناقة التي حملتْ متاعَ سيدنا رسول الله ﷺ.

إن أوّلَ مَنْ أرسلَ المحمِلَ إلى الحرمين الشريفين هم الأمويون، أما في عهدِ من خلَفَهم من سلاطينِ آلِ عثمان فقد تمَّ تجهيزُ المحمِلِ وإرسالُ الصُرّة بصورةٍ منتظمةٍ، وأوّلُ صرَّةٍ أرسلها آلُ عثمان إلى الحرمين الشريفين كانت من "أَدِرْنَه (Edirne)" سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م)، أما آخرُ صرَّةٍ فكانت من إسطنبول سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٨م).

كان يوجدُ في وِلايةِ الحجازِ أميرٌ ثانٍ غير الوالي يحمل اسمَ "أمير الحجاز"، وكان يختارُه السلطان ويعيّنُه من بين المخلصينَ له وللحكومةِ العثمانيّة من الأشراف، وهذا ما يميّز ولايةَ الحجاز عن كلّ ولاياتِ الدولةِ العثمانيّة التي كان يختار ولاتَها الصدرُ الأعظم، كما امتازت ولايةُ الحجاز بميّزات أخرى منها: أنها كانت معفيّةً تمامًا من التجنيد والضرائب، فلم تأخذِ الدولة العثمانيّة من الحجاز جندًا أو مالًا.

لقد أحبَّ العثمانيّون إنفاقَ الكثيرِ من النفقات على الحرمين الشريفين، ولهذا ففي الخامس عشر من شهر شعبان في كلّ عامٍ تُرسَلُ من إسطنبولَ مبالـغ كبيرةٌ ومرتّباتٌ عظيمةٌ وأشياء أخرى إلى الأشراف والسادات والمجاورين وموظفي الحرم الشريف والخدمِ وقبائل العربان، ولم يستكثرِ العثمانيّون تلك المبالـغ الكبيرةِ والمرتَّبات الضخمةَ؛ لأنَّ إرسالَها كان منبعُه الحبّ وحسن النيّة وصدق الطويّة إذ إنهم اعتبروها واجبًا دينيًّا، وكيف لا؟ وفيها إنقاذُ الحجيجِ من هجمات العُربان وتوفيرُ الأمن والراحة لهم في طريق الحجّ في كل وقتٍ وآنٍ.

أرسلت "الصُّرّة الرومية"(٣) من البرّ في بداية الأمر، أي إن الصُّرّة كانت تخرج من "أُسْكُودَارْ" وتشقُّ طريقَها في الأناضول قبل الحجّ بخمسةٍ أو ستّةِ أشهرٍ كي تتمكّنَ من الوصول إلى مكّة المكرمة في موسمِ الحجّ، وبعد الحجّ ترجِعُ إلى إسطنبولَ بالطريقة نفسها؛ ولهذا فقد كانت الهيئة المكلّفة بإرسالِ الصُّرّة تقضي سنةً كاملة في الطرُق، ثم بعد ذلك فكّروا في أنه سيكونُ من الأيسرِ إرسالُ الصُّرّة إلى "بيروت" عن طريقِ البحرِ ثمّ تواصِلُ المسيرَ عن طريقِ البرّ، لأنه سيُفيدُ في توفيرِ الوقتِ والنقدِ، وبناء عليه تمَّ العملُ على هذا النحوِ بعد ذلك.



حقيبة الفراشة المرسلة من إسطنبول إلى المدينة المنورة، أُرسِلت عام (١٣٣٢هـ/١٩١٤م) مملوءةً بالنقود والهدايا وعادت من المدينة إلى صاحبها مجدّدًا محمّلة بهدايا ومكانس مصنوعة من جريد النخل استُخدِمت في تنظيف الروضة المطهّرة [مجموعة وقف "عزيز محمود خدائي"]

لقد أُرسلت الصُّرّة بهذه الطريقة حتى سنة (١٣٣٤هـ/١٩١٥م)، وبسبب الحربِ العالميّة الأولى التي وقعت سنة (١٩١٤م) أُرسِلَتِ الصرّتان الخاصّتان بسنتي (١٣٣٥هـ/١٩١٦م) و(١٣٣٦هـ/١٩١٧م) بالقطارِ من محطّة "حَيْدَرْ باشا (Haydarpaşa)"، كما أن الصُّرّة الأخيرة لم تتمكّن من تجاوُزِ المدينة المنورة والوصولِ إلى مكة المكرمة(٤).

أثناء إرسال الصُّرّة من البرّ وتحرُّكِ الجيش للحرب في الأناضول كان المسؤولون في الحكومة العثمانيّة وبعضُ الأهالي يذهبون مـع الموكب إلى "آيْرِلِكْ جَشْمَسِي (Ayrılık Çeşmesi)" [أي "سبيل الفراق"] الكائن في "حيدر باشا"، ومن المحتملِ أن يكونَ قد أُطْلِقَ على هذا السبيلِ اسمُ "سبيل الفراق" لأن الأهالي كانوا يفارِقون الهيئةَ المسافرةَ في هذا المكان.



موكب صرة أُعدّ في قصر "يِلْدِزْ (Yıldız)" في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" (١٨٤٢-١٩١٨م)

كان يُطلق اسم "فرّاش" على من يكنسون البيت الحرام في مكّة المكرّمة؛ أعني الكعبةَ المعظمة والحرمَ المدني للرسول الأكرم ﷺ في المدينة المنورة، كما كان يطلق اسم "سقاء" على من يوزعون ماء زمزم على الحجيج بالأواني الطويلة المصنوعة من الفَخّار والمسماة بـ"زَوْرَق".

ولقد نوى بعضُ أهالي إسطنبول القيام بهذه الخدمات المقدّسة؛ فاتخذوا لأنفسهم وكلاء يقومون بخدمةِ الفِراشة والسِّقاية نيابةً عنهم، وكانوا يساعدونهم ماديًّا للاضطلاع بهذه الأعمال.

كان يتمُّ إرسالُ خطابات الفِراشة والسقاية في حقائبَ مخصوصة، وقد كان يُشغل ويُطرَّزُ بالخيطِ الحريريّ الأسودِ على الجلدِ الأحمرِ عنوانُ المرسِل في جانب هذه الحقائب وعنوان المرسَل إليه -أي وكيله- في الجانب الآخر، ومن لا يملكون حقيبةً كانوا يسلّمون خطاباتهم لمن لديهم حقائب، وكانت تُسلَّمُ تلك الحقائبُ المذكورةُ إلى نظارةِ الأوقاف(٥) مقابلَ وصلٍ، وكانت النظارة تضع تلك الحقائب في صناديقَ وتُرسلها مع الصُّرّة إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وعند عودة الصُّرّة يستردُّ كلُّ صاحبِ حقيبةٍ حقيبتَهُ بالوصل الذي أخذهُ من النظارةِ قبل ذلك.

وكان أصحابُ الحقائبِ يفتحونَ في منازلهم الحقائب والردود على الخطابات التي أرسلوها من قبل، وكان الأطفال والأهل ينتظرون ما سيجدونه في تلك الحقائبِ العائدةِ من الحرمين الشريفينِ بفارغِ الصبر، وكان يتواجدُ فيها هدايا بسيطة مختلفة النوع كأن يكونَ فيها مسابحُ مصنوعةٌ من أجناسٍ مختلفةٍ من الأشجار أو خاتمُ فضّة، أو حَلَقٌ، أو كُحْلٌ، أو خلّة من النبات، أو عود سواك، أو قِطعٌ من شجر العود أو البخورُ المسمّى قرص[٦] أو الحناءُ وما شابهَ ذلك، وفي بعض الأحيان كانت تأتي مع تلك الحقائبِ تمرةٌ أو تمرتان، وكانت تلك الهدايا تُوَزَّعُ بالشكلِ المناسبِ على الكِبارِ والصِّغار.

كان الأتراك في الماضي لا يُقَصِّرون في احترام القادمين إلى إسطنبولَ من أهالي الحرمين الشريفين؛ فكانوا يُعِزُّونهم ويُكْرِمُونهم، حتى إنّهم كانوا يُقبّلون أيديهم مطلقينَ عليهم اسم "حاجي أفندي (Hacıefendi)" [أي: السيد الحاج] أو "حاجي بابا (Hacıbaba)" [أي: أبي الحاج] ويطلبون منهم الدعاء لهم بالخير.

وكانوا يثبتون ويُظهِرون تعظيمَهم لتلك النواحي بإضافة صفة "المكرّمة" إلى اسمِ مكة، وصفةِ "المنوّرة" إلى اسم المدينة؛ ونرى بسعادةٍ بالغةٍ استمرارَ هذا الأمرِ حتى اليوم.

كما أن التركَ كانوا يظهِرون احترامَهم وتقديرَهم لتلك الأماكن كاتبينَ على أظرُفِ خطابات الفِراشةِ والسقايةِ المرسَلةِ إلى مكة المكرمة دعاءً خاصًا بمكة: "كرّمها الله إلى يوم القيامة"؛ وعلى الخطابات المرسلة إلى المدينة المنورة دعاءً خاصًا بالمدينة: "نوّرها الله إلى يوم القيامة".

تعيين أمين الصُّرّة و رئيس العَكّامين

لقد كان يطلُبُ التعيينَ في منصبِ أمينِ الصُّرّة أُناسٌ كثيرون؛ ولذلك فقد كان يُعيَّنُ ويُنتخَبُ بالتناوبِ لمنصبِ أمينِ الصُّرّة واحدٌ من الضبّاط في عامٍ وواحدٌ من المدنيّين في العامِ الذي يليه.

ويُعَيَّنُ مع أمينِ الصُّرّة نائب له ويسمّى "كَتْخُدَا" وكاتب، و يعيّن كلٌّ منهما باختيارٍ من السلطان، بالإضافةِ إلى هذا كان يتمّ اختيار وإرسالُ ثلاثةِ موظّفين من القصر تحتَ اسمِ "محافظِ الخزانة، وآغا القفطان، ورئيسِ المبشّرين"، كما كان يُرسل إمامٌ من الأوقاف، وكان العَكّامون من أهمِّ عناصرِ موكبِ الصرّة.

فعندما يحين الوقت وبمجرد تعيين أمين الصُّرّة لهذا العام، يذهب بعض العكّامين مع رئيسهم إلى منزلِ أمين الصرة، ويزيّنون منزله بالأعلام الحمراء والخضراء والريشِ ويقرعون الطبولَ ويقدّمون العديد من العروض والألعاب ويُظهرون مهاراتهم، ثم يمضون في حالِ سبيلهم بعد أن يأخذوا عطاياهم، وبهذا يَفهم المارَّة من أمام



موكب الصرة المرسل من "دُولْمَه بَاغْجَه" في عهد السلطان "محمد رشاد الخامس" (١٨٤٤– ١٩١٨م)، ومن المقترر أن يصل الموكب إلى مرفإ "قَبَاطَاش" لِيُودَعَ مصحوبًا بالدعاء وطلقات المدافع [تصوير: "سيبه (Sebah)" و"جويلر (Joaillier)" معهد المتحف الألماني للحفريات، إسطنبول، (رقم الفيلم: ٧٦٨٧)]

المنزل أن هذا المكانَ يخصّ أمين الصُرّة الذي سيذهب إلى الحجاز هذا العام، وبعد ما يُنهي العَكّامون هذا العمل ينتشرون في كلّ أحياء إسطنبول مثنى وثلاث، ويقرعون الطبولَ الصغيرة ويدعون لأمين الصُرّة بالتيسير.

ومن مسؤوليات رئيس العَكّامين أن يطلبَ تصنيعَ هودجَينِ من أحدِ صنَّاع العربات المقيمين في منطقة "قره جه أحمد (Karacaahmed)" في "أُسْكُودَارْ"، فيخصَّصُ لأمين الصُرّة هودجٌ لونه أحمر قانٍ مرصّعة كلّ أطرافه بالذهب، وهو مصنوعٌ من النحاسِ المطليّ بالذهب، تعلوه شمسان منحوتتان رائعتان تتوسطان الهودجَ من الأعلى وتطلّان على الأطراف، والهودج الآخر لشؤون أمانة الصّرّة، وهو أزرق اللون، وأما داخلُ الهودج في ذاك الوقت فلقد كان مثلَ عرباتِ الخيول مفروشًا بالأقمشةِ الحريريّة ومُعلّقةً على نوافذه الستائر، والهودج: عبارة عن نقّالةٍ مخصّصةٍ لسترٍ وحمل شخصٍ واحدٍ يحملُها بغلان.

وتُصنع قطعة خشب يبلغ عرضُها مترًا وطولُها مترًا، ويُعلّقُ عليها خمسةٌ وعشرون جرسًا لتوضعَ على الناقة التي تسيرُ في طليعة القطيعِ الذي يحملُ صناديقَ النقود، ويُطلق عليها اسمُ "خشبة الجرس"، وتهتزُّ الخشبةُ عندما تسيرُ الناقةُ وترنُّ الأجراس فتُصدرُ صوتًا متناغمًا.

وبناءً على توصيةِ رئيس العكامين يُصنع لكل من سيذهب إلى الحج إبريقٌ صغيرٌ من النحاس له خُطّافٌ وسلسلةٌ في مقبضه، والهدف من صنع الأباريقِ بسلسلةٍ وخطاف أن يَسْهُلَ تعليقُها على الجمل.

وقد وضعتْ قارورتان مُلِئتا بمياه نبعِ "قَرَه قُولَاقْ (Karakulak)"(٧) في الصناديقِ التي صُنعت بشكلٍ ممتاز ومخصوصٍ طبقًا لما أوضحه رئيس العَكَّامين، وتم إحكام وضعها في الصناديق بالعشب، وقد أرسلناها بأسمائنا إلى مدنِ بيروتَ والشامِ والمدينةِ المنوّرة ومكّةَ المكرمة وجدّةَ، ولقد أُلصق على الصناديقِ الإشارة المعتادة الموضّحة أنّ هذا الشيءَ قابلٌ للكسر، كما كُتبت عليها عبارةُ "قابل للكسر"، واحتياطًا فقد أحضرنا معنا صندوقًا من مياه "قَرَه حِصَارْ (Karahisar)" المعدنية.

الاستعداد للرحلة

ولقد بذلتُ جهدًا وفيرًا في سبيل الحصولِ على المُؤَنِ اللازمة للسفرِ وتجهيزِ وإحضار الأموال التي يجب بذلها على الفقراء والمحتاجين في الطريق.

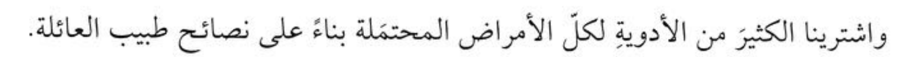
كان يلزم شراء هدية لـ"راتب باشا" والي الحجاز وقائدِها، وأثناءَ مناقشة هذا الأمر قال رئيس العكامين:

"لقد جرت العادة دائمًا أن يُهدي أمين الصرّة لوالي الحجاز طاقم شاي".

ولكنّ الفِكرةَ لم تنل إعجابي -ولا أعلم لذلك سببًا- وصمّمت على شراء هديةٍ أخرى، وقد وُفِّقْتُ في هذا الأمر؛ فقد اشتريتُ من محل "وردو (Verdu)" -المشهورِ ببيع النظارات والمناظير وآلاتِ الرصد الكائنِ في زاويةٍ أمام نفقِ خطِّ الترامِ في حيّ "بَيْ أُوغْلُو (Beyoğlu)"- آلةً كبيرة إلى حدٍّ ما خرجت من الجمركِ حديثًا، وهي آلةٌ إنجليزيّةُ الصنعِ، توضّحُ الأحوالَ الجوّيّة بالحبرِ على جداولَ ورقيّةٍ أسبوعيّةٍ مطبوعةٍ إلى جانب أنها تمتلكُ ميزاتٍ أخرى، ووضعناها في صندوقٍ صغيرٍ صنعناهُ خصّيصًا لها، وبذلنا الاهتمام اللازمَ لضمان سلامتها حتى لا تَفسد أو تُكْسَر في الطريق.



ناظر الأوقاف "طورخان باشا" (١٩٠٥م)



واشترينا الكثيرَ من الأدويةِ لكلّ الأمراض المحتمَلة بناءً على نصائح طبيب العائلة.

موكب الصرّة

كان قد عُقِد موكب الصُرّة -كالعادة- يومَ السبت الخامس عشر من شهر شعبان، وقد كان أصحابُ المعالي المعتادُ وجودُهم في الموكبِ وكنا نحنُ أيضًا معهم في قصرِ "يِلْدِزْ (Yıldız)"، وقربَ الظهيرةِ وعقب تناول الأطعمة في خيام نُصبت في حديقة القصر وزَّعْنَا المخصَّصات والرواتبَ الخاصةَ بموظَّفي الأوقافِ وعمَّالها المشتغلين بأمرِ الصرّةِ، ولحراس "الأندرون"[٨] وحرس "المَابَيْن"[٩] والخدم المكتوبة أسماؤهم في الدفتر المُعطى من التشريفات، كما دفعت نظارة الأوقاف مخصّصات المنسوبين إلى الطبقةِ العلميّة الذين سيكونون في الموكب.

وذُبحت القرابين، وظهرَ السلطان عبد الحميد الثاني من نافذة "المابين"، وبدأ الموكبُ، وطبقًا للعادة القديمةِ جدًّا أمسك "طُرْخَانْ باشا" ناظرُ الأوقافِ لجامَ ناقةِ المحمِل وسلّمها لأمينِ الصرّة، ثم دارَ بها أمينُ الصُرّة في الحديقةِ ثلاث مرّات، وكان من الأصول المعتادة أيضًا أن تُسَمّى الرسالةُ المرسلة من قِبَل السلطان عبد الحميد الثاني إلى أمير مكّة الشريفِ علي باشا، باسم "نَامَئي هُمَايُونْ (Nâme-i Hümayun)" أي الرسالة السلطانية، وتَسَلَّم أيضًا ناظرُ الأوقاف المشارُ إليه هذه الرسالةَ الموضوعةَ في كيسٍ من الأطلسِ الأحمرِ ثم قبّلَها وسَلّمَها إلى أمينِ الصرّة، وكذا قبّلَها أمينُ الصُرّة بكلّ تعظيمٍ وسلّمها لي، وقد أخذْتُها أنا أيضًا بنفس الصورةِ ورفعتُها عاليًا بيديّ الاثنتين وركبتُ الفرسَ ذا السرْجِ المرصّعِ، وأمسك لجامَ الفرسِ اثنان من خدمِ الإسطبل، ولم يتركوا لي مهمّة قيادةِ الدابة، وهكذا كنتُ أمضي خلفَ أمين الصُرّة الذي اعتلى دابّته، وكان في الموكبِ يمتطي دابته كلٌّ من كاتبِ الصُرّة ومحافظِ الخزانة و"آغا القَفْطَانْ (Kaftan Ağası)"[١٠] ورئيسِ المبشرين[١١] ورؤساءِ النظارات الواضعينَ على رؤوسهم العمائمَ ذات الشريط المذهّب، كذلك العلماءُ وكلُّ أئمّةِ وخطباءِ مساجدِ مدينةِ إسطنبول سواء أكانوا أصحاب رُتَبٍ أم لا.

ولقد اشتركَ في الموكب أركانُ نظارةِ[١٢] الأوقاف الذين لبِسوا أزياءَهم وعلّقوا أوسمَتَهم وكثيرٌ من أصحابِ المعالي الذين ركبوا خيولَهم احترامًا للصرّةِ وتوديعًا لها دون أن يذهبوا معها، وبتلك الصورةِ تمَّ خروجُ الصرّةِ من قصر "يِلْدِزْ".

وكان من بين الجنودِ الموجودين في مقدّمةِ وجانِبَي الموكبِ العديد من حُفَّاظ "الأندرون" يحملون المباخرَ في أيديهم، ويكبّرون بصوتٍ عالٍ، ويضعونَ العودَ في مباخرِهم من حينٍ لآخر، ومضى المحمِل في طريقه مع هودجِ أبي وخلفهُ العيرُ المحمّلة بالصناديقِ المغطّاةِ بالجلد والبغال المحمّلةُ بخُرُجِ النقود الجلديّة والعير المحمّلةُ بالعديدِ من الأشياءِ اللازمة وغير اللازمة، ولقد زُيّنتِ الدواب بالعديدِ من الأعلام الحمراءِ والخضراءِ



موكب الصرّة في طريقه من أمام جامع "دولْمه بَاغْجَه" إلى "قَباطَاش" وقد حَمَلَ معه الرسالة السلطانية إلى أمير مكّة المكرمة، وممّا لا شكّ فيه أن حملَ الرسالة السلطانيّة من أهم مراسم الموكب [أرشيف "يوسف جاغْلَار"]

والريشِ، وبخلاف هذه الدواب كانت تسيرُ في الموكِبِ -في صورةٍ جميلةٍ ومن غير عقالٍ- ناقةٌ بيضاء وحوارها (صغيرها) قد أهداهما ملك الحبشة "أُولُو مَنَلِكْ (Ulu Menelik)" إلى السلطان عبد الحميد الثاني.

كان يقرعُ الطبولَ الصغيرة في الموكبِ عشرون من العكامين ارتدوا زيًّا حِيكَ خصّيصًا لهم، وكان رئيس العَكّامين على ظهرِ جوادِهِ يقودُهم مرّةً في المقدّمة ومرّةً في الخلف، كما انتشر رجال الأمن وظهرت الشرطة في الموكب بالزي الرسميّ أيضًا.

أما نساءُ القصر فكنَّ موجودات خلفَ الموكبِ بعرباتهم المسمّاة "لَانْدُو (lando)" و"قُوبَا (kupa)"(١٣)، وبهذه الصورةِ وصَلْنا "بَشِكْطَاش (Beşiktaş)"، وبعد دعاءِ خطيبِ جامعِ "آيا صوفيا" أن تصل الصُّرّة بالسلامةِ استُقلّتْ باخرة الإدارة المخصوصة(١٤) الموجودة في الميناء والمسماةِ "فَنَارْ بَاغْجَه (Fenerbahçe)" وحُمّلتْ الأمتعة على ظهرها.

لقد رُفِع على صاري الباخرة المسمّاة "فَنَارْ بَاغْجَه" العَلَمُ الأخضر وأعلام الموكبِ التي تُعرِّفُ وتوضّح أن الباخرةَ مخصّصة للحجيج، وعندما أبحرتِ الباخرةُ أُطلقت قذائفُ المدافع من "دُولْمَه بَاغْجَه (Dolmabahçe)" وقُدِّمت التحيّةُ العسكريّة للصرّة، ثم نزلْنَا في ميناءِ الصنادلِ الكبرى -أكبر الموانئ- في "أُسْكُودَارْ" حيثُ رَسَتْ باخرتُنا هناك، وسُلِّمت للعاملين في الباخرةِ مرتَّباتُهم ومخصّصاتُهم، ولأنّ أغلبَ من في الموكبِ بقيَ في إسطنبول (أي القسم الأوربي منها) بدأ في "أُسْكُودَارْ" موكبٌ جديدٌ باشتراك أركان متصرفية[١٥] "أُسْكُودَارْ".

وسيرَ إلى المتصرفية المسماة "بَاشَا قَابيسي (Paşakapısı)" مقرّ المتصرف، ووُضِعت صناديقُ النقود والأشياء الأخرى في الخيام المجهَّزة لها مسبقًا، وكانت توجد في ساحةِ ذلك المقرّ.

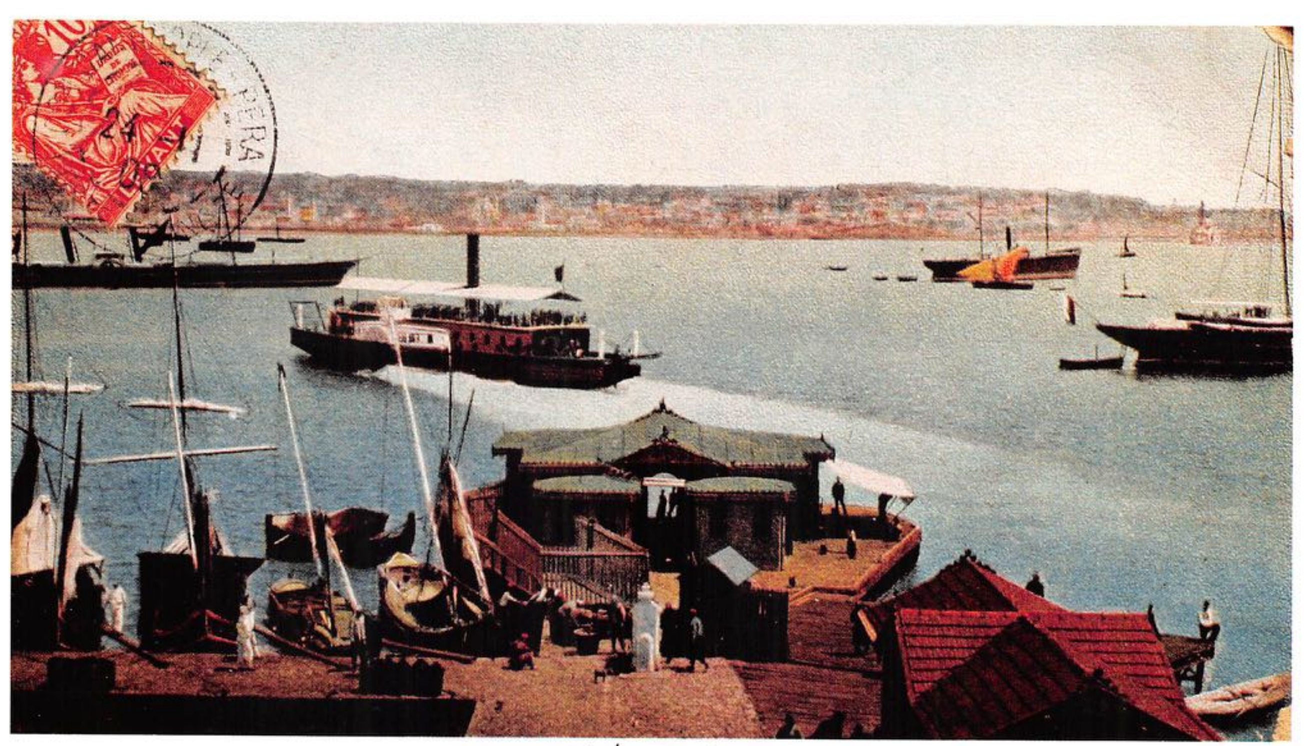
واجتمع الأهالي لمشاهدةِ الموكِب سواء في القسم الآسيوي من إسطنبول أم في القسم الأوروبي.

الانشـغال في نظارة الأوقاف

بعد الموكبِ انشغلتُ بإنهاءِ الأعمال والأشياء الأخرى في نظارة الأوقاف.

ولقد ذهبَ أبي أيضًا عدَّةَ أيّامٍ إلى النظارةِ بعدما تلقى الإشعارَ المكتوبَ والتبليغَ المخطوطَ من ناظرِ الأوقافِ الموجَّهَ إلى أمين الصُّرّة والخاصّ بقدومِ أمين الصُّرّة إلى إدارةِ الأوقافِ للبدءِ في وضعِ المرتّبات النقديّة الخاصّة بالصُّرّة السلطانية في أكياسٍ وربطِها وإغلاقِها، وحضورُ أمين الصرّة حتى ختمِ العد وإحصاء العدد أمرٌ لا بدّ منه، وهذا طبقًا للمعاملات الرسميّة والمعتادة، ولقد كنتُ موجودًا حتى انتهاءِ هذا العمل، وأنهينا أعمالنا مع النظارة، أي إنّني تسلّمتُ النقودَ والأشياءَ والجدولَ والدفاترَ التي تُبيّنُ أين ولمنْ ستُسلَّم هذه النقودُ وتسلّمتُ أيضًا كلّ المرفقات مع خطابات التحويل الصادرةِ من نظارةِ الماليّة والأوقافِ إلى ولايَتَي بيروتَ والشام الشريفِ لسدادِ المبلغِ المتبقّي الذي تمّ تحويلُه إلى كلٍّ منهما.

وُضعتِ النقودُ في أكياسٍ صُنِعَتْ من الجلد الأصفر، ورُبطت بخيوطِ الكتّانِ، وبعد ذلك وُضِعَ عليها في القصر الشمعُ الأحمر العسليّ وختمت بالختمِ الهمايوني (ختم السلطان)، وكان هناك مائتان واثنان وثلاثون كيسًا يوجدُ بداخلِ أغلبها ألفٌ من الذهبِ، وقد كان مقدار الذهبِ الموجودِ في داخلِها تبلغ قيمته بالنقود (٢,٦٣٢,٩٠٦) مليونين وستّمائة واثنين وثلاثين ألفًا وتسعمائة وستة قروش وخمس عشرة "بَارَه (para)"[١٦]، وقد أوضح هذا الجدول الذي أمامنا لِمَنْ ستُعْطَى ومقدارُ ما سيُعطى منها:



بطاقة بريدية تُظهر الانتقال من مرفإ "قَباطَاش" إلى "أُسْكُودَار" (١٩٠٨م) [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

(٧٩٠,٢٢٦) سبعمائة وتسعون ألفًا ومائتان وستة وعشرون قرشًا، وست عشرة باره [صرة مكة المكرمة القديمة والرواتب وزيادة الخدمات والوظائف اللازم إرسالها مقدمًا].

(٦٨,٩٣١) ثمانية وستون ألفًا وتسعمائة وواحد وثلاثون قرشًا، وعشر بارات [ما أرسل إلى مكة المكرمة للنفقات الأخرى].

(١,٥٥٩,٠٣٩) مليون وخمسمائة وتسعة وخمسون ألفًا وتسعة وثلاثون قرشًا، وستّ عشرة باره [الصُرّة القديمة للمدينة المنورة وما يلزم إرساله مقدمًا من وظائف وزيادة للخدمات ومرتبات الموظفين].

(٢٠٣,١٦٢) مائتان وثلاثة آلافٍ ومائة واثنان وستون قرشًا، وثلاث عشرة باره [ما أرسل للمدينة للنفقات الأخرى].

(٧,٩٣٨) سبعة آلاف وتسعمائة وثمانية وثلاثون قرشًا [من أجل القدس الشريف].

(١,٢٧٥) مائة ألفٍ ومائتان وخمسة وسبعون قرشًا [المرسل إلى الشام الشريف].

(٢,٣٣٤) مائتا ألفٍ وثلاثمائة وأربعةٌ وثلاثون قرشًا [من أجل البِرَك].

فكان **المبلغ الإجمالي** المرسَلُ (٢,٦٣٢,٩٠٦) مليونين وستّمائة واثنين وثلاثين ألفًا وتسعمائة وستة قروش، وخمس عشرة باره.



دَوَرَانُ جملِ الصرة ثلاث مرّات في حضرة السلطان كما هو معتاد تصوير: "سيبه (Sebah)" و"جويلر (Joaillier)" [معهد المتحف الألماني للحفريات، إسطنبول، (رقم الفيلم: ٧٦٩٢)]

لقد سُلِّم إلى الجناب العالي "كتخدا" الخزانة السلطانيّة سندًا ووصلًا باستلامِ عددِ اثنتين وثلاثين ومائتي صرّةٍ همايونيّة بأكياسِها وأربع صُررٍ عادية وأربعةِ دفاتر وأحد عشر صندوقًا مليئًا بالبخور التي حُرّرت سالفًا في المقام العالي لموكبِ الصُّرّة السلطانيّة التي أُخرجت لسنة (١٣٢٣هـ) الحالية (١٩٠٥م).

في الخامس عشر من شعبان سنة (١٣٢٣هـ) وفي الأول من أكتوبر/تشرين أول سنة (١٣٢١ رومية[١٧]).

كتخدا الصرة: صلاح الدين

التحرّك من إسطنبول

لقد صدرَ الأمرُ بالتحرّكِ بعدما أوضحتُ أنه تمّ الانتهاء من شراءِ وصُنعِ الأشياء اللازمة؛ إذ إن الوقتَ قد حان، وصدر الإذن لنا بالسفر.

لقد أُخِذَتِ الصُّرّة الموجودةُ في ساحةِ دائرةِ متصرفية "أُسْكُودَارْ" تحت حراسة الجنود، وسير في موكبٍ صغيرٍ إلى زاوية "حضرة نَصُوحِي" في يوم الجمعة الحادي والعشرين من رمضان، وهناك أيضًا وقفنا للدعاء أن تصل الصُّرّة بالسلامة، وعندما وصلَ الموكب إلى رصيفِ ميناء "حَيْدَرْ باشا" ذُبحت القرابين، ومنحت العطايا لمن يستحقون.

وقد كانت الباخرةُ التي ستقِلّنا تسمّى "الطائف" وهي تابعة للإدارة المخصوصة[١٨] وقد كانت راسية في رصيف الميناء تنتظرنا، وفعلًا ركبنا الباخرة، ووُضِعَت صناديق الصُّرّة في الكابينة (القَمَرَة) الأماميّة، واستمرّت أعمال الشحن حتى أذان المغرب غربت الشمسُ وبدأ الظلام يحلّ على المكان، وقال رئيس الفرسان: "إن الباخرة سوف تتحرّك بعد ساعةٍ ولذا يجب على الضيوف تركُ السفينة"، فودّعنا من جاؤوا لتوصيلنا.

خرجت باخرةُ الطائف من الميناء بعدما سلّمَتْ على الموجودين هناك بإطلاقِ ثلاثِ صفّارات توجّهَتْ بعدها مباشرةً نحو بحر "مَرْمَرَة"، فلم يكن هناك قمرٌ في السماء لأننا كنّا في نهاية الشهر العربي، وبالطبع فقد شرعنا بالرحلةِ والمسير في حلكةٍ وظلام لأنّ الجهازَ المخصّص للحصولِ على الكهرباءِ في الباخرةِ كان معطّلًا.

عبرنا فَنَار "آحِيرْ قَبي (Ahırkapı)" وكنا نبتعد عن إسطنبول، وكنا جميعًا على سطح مؤخّرة الباخرة، ونزل أغلبُ الموجودين إلى غُرَفِهم لبرودةِ الجوّ، أما أنا فانتظرتُ قليلًا، وتركنَا خلفَنَا فنار "زيتون بُورْنُونُو (Zeytinburnu)"، وقد بدأ يَقلّ نورُه وكنا نبتعِدُ عن البرّ شيئًا فشيئًا، ثم نزلتُ أنا أيضًا إلى غرفتي ونمتُ حتى انبلجَ الصبح، فصعدتُ إلى سطحِ المركب، فوجدت أننا ما زلنا نتبعُ ساحل "الرُّومَلِي (Rumeli)".

نمرّ من مضيق "جَانَقْ قَلْعَة"[١٩]، لقد رُفِعَت على الصاري الرئيسي للباخرة راية (بَالَا)[٢٠] لأن أبي قد نال الرتبة العليا، ولهذا فقد قُدِّمت لنا التحيّةُ من سفُن الحرب التي شاهدَتْنا ومن سفينةِ القائدِ ومن السناجق ومن الحصون الموجودةِ على اليمين واليسار ومن بعضِ الجنود في بعض الأماكن، وبالطبع كانت باخرتنا تردُّ التحيّةَ بإنزالِ الرايةِ الموجودةِ في المؤخّرةِ ورفعِها ثلاثَ مرّات...

كان مضيقُ الدردنيل يتّسع لنا، وكنا على وشك الخروج منه، والآن بدأْنَا في تتبّعِ ساحلِ الأناضول، وبعدما تخطينا رأسًا آخرَ -من رؤوسِ اليابسةِ المتداخلةِ مع الخلْجانِ على ساحلِ البحر- غابَ عنا "الرُّومَلِي" تمامًا،

ومررنا على جزيرة "إِيمْرُوزْ (İmroz)" و"بُوزْجَه آضَه (Bozcaada)"، وغربَت علينا الشمسُ أمامَ ميناء "بَشِيكَه (Beşike) "، ونحنُ ما زلنا على السطحِ، ودق جرس الطعام فذهبنا لتناوله.

كان فنار "صِغْرِي (Sığrı)" في جزيرة "مِيدِيلّي (Midilli)" منيرًا، وحلّ الصبحُ وكانت الشمسُ مشرقةً، وظهرَت جزيرةُ "سَاقِيزْ (Sakız)" في وقتِ صلاةِ الصبحِ من هذا اليوم؛ يوم الأحد.

وها نحنُ نمرُّ من أمام جزر "قُويُونْ (Koyun)"، وقد مضت ساعتان وما زلنا أمام هذه الجزر، وتمكّنا من تخطّيها في ثلاث ساعات فحسب، والآن ظهرت أمامنا جزيرة "سيسام (Sisam)"، الحمد لله لقد تخطينا هذه الجزيرة أيضًا ودُعينا إلى الطعام، واقتضى الوضـع أن نُبحِر باستمرارٍ بين الجزر، ومن المتوقّـعِ أن نصلَ إلى جزيرة "رُودُسْ (Rodos)" صباح الغد.

في الصباح الباكر جاء وكيل الخرج "صالح أفندي" إلى قمرتي، وأخبرني أننا نمرّ الآن بجوار جزيرة "رُودُسْ" وأننا اقتربنا من الميناء وأنّ الجوّ لطيفٌ للغاية.

زيارة "رُودُسْ"

ظهر لنا في آخر الميناءِ جامـعٌ له مئذنةٌ بشرفتين، وبينما كنّا نتحدّث وننظرُ إلى المئذنة تدخّل أحدُ البحّارة في الحديث قائلًا:

> *"إن المئذنةَ التي ترونها أمامكم ليست مثل مآذن الجوامع الأخرى مخصصةً للأذان فحسبْ، بل إن لها وظيفة أخرى أيضًا، فعندما يصعد المؤذن لأذان الظهر يرفـعُ الراية، وعندما يصعدُ لأذان العصر يُنزِلُ تلك الراية".*

وأوضـح لنا أنّ سببَ القيام بهذا الأمر هو إعلامُ البحّارة وتعريفهم بأوقات الصلاة، ثم ذهب إلى عمله، فخطر بذهني أن أسأله عن اسم الجامـع، فلما التفَتَ إلينا سألتُهُ، وعرفتُ أنه "جامـع السليمانية".

رسَت باخرتنا على ميناء "رودس"، وامتلأ ما حول الباخرة بالقوارب والزوارق الكبيرة والصغيرة، ونزلَ إلى الجزيرةِ منْ يريدُ التجوّلَ فيها فخرجوا فوجًا بعد فوجٍ، وخرجنا نحن أيضًا إلى البرّ من باخرتنا المسمّاة "الطائف" مُسْتَقِلّين أحدَ صنادلِها، وطبقًا للعادة المتّبعةِ فقد ذهبنا إلى ضريح "بُورَزَانِي علي بابا (Borazânî Ali Baba)" و"مراد رئيس" وهما من أكابر الترك، للزيارة وللدعاء أن تصل الصُرّة بالسلامة، وهناك ذُبحت القرابين التي جلبناها من إسطنبول.



بطاقة بريدية تَظْهَرُ فيها جزيرةُ "رودوس" في مطلع القرن العشرين [مجموعة "مراد قازكيلي"]

في تلك الحقبةِ الزمنيّة كانت جزيرة "كِريتْ (Girit)" تُحْكَمُ كولايةٍ مستقلّة، فكلّ الجُزُرِ الموجودة في البحر الأبيض -كبيرها وصغيرها- كانت تُعَدُّ ولايةً واحدةً، وكانت تُسمّى "ولاية جزائرِ البحرِ الأبيض"، وكان الوالي يقيمُ في "رودس"، أي إنّ هذا المكانَ كان عاصمةَ الولاية ومركزَها.

المغادرة من "رودس"

اشترينا من "رودس" باكورةَ ثمارِ الفولِ والرجلة التي رأيناها في السوق ثم اشترينا بعض الخضروات الطازجة والبيض، وأضفْنَا إلى الفاكهة الموجودة معنا في الباخرة الشمامَ والبطيخ.

عاد إلى الباخرة كلُّ من خرجَ إلى الجزيرة، وسُحِبَ سُلَّمُها، وبعد الظهرِ بساعةٍ أو ساعتين توجَّهْنا نحو بيروت، وعُدلَ رأسُ السفينة وراقبَ موظفُ الحساب البوصلةَ، وأعطى للباخرة طريقَها وضبَطَ مسارَها الصحيح.

اليومُ الأربعاءُ الموافقُ السادسَ والعشرين من رمضان هو اليوم الأخيرُ لنا على متن الباخرة، وكان من العادةِ -في هذا اليوم- تقديمُ حلوى السميد إلى العَكَّامين والحجيجِ وقباطِنَةِ وبحَّارةِ السفينةِ ولكلّ من على متنِ السفينة، فطُبِخَتْ الحلوى ووُزّعَت.

الوصـولُ إلى "بيروت"

وصلنا إلى "بيروت" ليلة الخميس السابع والعشرين من رمضان، ودخلْنا ميناءَ بيروت الأساسيّ في اليوم التالي في وقت السحَر، وقد زُيّنَتِ الباخرةُ بأعلامِ الموكبِ، وفي الصباحِ الباكرِ قُدِّمت ساعةٌ إلى قائد الباخرةِ، وأشرطة الزينة للرُّبَّان وللفنّيّين وللبحَّارةِ العطايا طبقًا للدفترِ المُعطى من التشريفات، وبعد الانتهاءِ من تسليمِ العطايا خرجْنا مع الموظّفين الذين جاؤوا إلى الباخرة، ووُضِعَت صناديقُ الصُّرّة والأشياءُ في مكانٍ آمنٍ، وذهبْنا إلى فندق "مارسليا" الكبيرِ المخصَّصِ لنا من قِبَلِ البلديّة واسترَحْنا هناك، وذهب أبي إلى دائرةِ الحكومةِ لتسليمِ الخطاباتِ المكتوبة إلى دفتردارية (مالية) الولاية.

يحيى عليه السلام

وطبقًا للعادةِ فقد قمنا بزيارةِ مقام سيدنا يحيى عليه السلام في بيروت، وقد قيلَ إن رأسَ سيدنا يحيى عليه السلام مدفونة في هذا المكان، وذُبِحَت الذبائح وأُعطِيَت لخادمِ الضريحِ جبّةٌ وعطيّة.

رحلة القطار

نزلْنا إلى رصيفِ الميناءِ قبل شروق يوم الإثنين الموافق الأوّل من شوّال -أي في يوم عيد الفطر؛ حيث يُستقلّ القطار من هذا المكان، ووَضَعْنا الصُّرّةَ في عربةٍ ذاتِ سقفٍ، وجعلناهم يربطونَها خلفَ القطار، ووضعْنا متاعَنا في عَرَبَةٍ بدون سقفٍ، لكي تُرسَلَ الأشياءُ إلى الشامِ بقطارِ البضائعِ الذي سيتحرَّكُ بعدَنا، ولأنّ الشركةَ كانت تستعملُ الساعة التقريبيّة فقد تحرَّكَ القطارُ الساعةَ السادسةَ صباحًا، وعبَرْنا "نهرَ الكلب" ودخلنا في جبلِ لبنان.

ريَّاق

التقى قطارُنا في محطّة "رَيَّاقْ" -التي تُعدُّ ملتقى الطُرُقِ- مع القطارات القادمة من الشام الشريفِ وحلب المحميّة، وودَّعْنَا أصدقاءَنا الذي سيذهبون إلى "بعلبك" وتركونا ليستقلّوا قطارَ حلب، وتركَ الركاب الآخرون -الذين سيقومون بتغيير القطار- عرباتهم.



منظر من بيروت [مجموعة "يوسف جاغْلاَز"]

الوصول إلى الشام الشريف

عندما وصلْنا إلى الشامِ قربَ المساء استقبلَنا أشخاصٌ من بينهم الوالي والقادة العسكريّون وأركان الولاية وأكابر المدينة، ولأن المحطّة الجديدة لم تكن قد بُنِيَتْ بعدُ، فقد دخلنا الشامَ من محطّة "برامكة" الكائنةِ خارجَ المدينة، واستمرَّت رحلتُنا عشر ساعات.

من النزل إلى الفندق

ولقد تُركت الصُّرَّة أيضًا في مكانٍ آمنٍ، ونزلْنا في النزلِ المُعَدّ لنا من قَبْلُ، وبقينَا حتى نهايةِ عيدِ الفطر.

إنّ أهالي الشام الشريف في غايةِ الكرمِ؛ فقد أوضحَ الكثيرُ من الأشرافِ أنهم سيخصِّصون لنا وبلا مقابلٍ مصايِفَهم الموجودة في "سَاحِلِيَة" وفي "مَزَّة" ونزلَهم في المدينةِ ومفروشاتِهم وعرباتِهم وحيواناتِهم، وبيَّنَّا لهم أنه لا يُعاب علينا استئجارُ منزلٍ آخر حتى لا نكون عبئًا على أحدٍ، لكنَّهم أصرّوا على كرَمهم موضِّحين أنهم سيحزنون إذا لم نوافقْ على هذا، ولا ريبَ أنّ ما أظهروه من كرَمٍ وإنسانيّةٍ يستحيلُ نسيانُه في أيِّ وقتٍ من الأوقات.

المواكبُ التي نُظّمت في الشام

موكب الشمع:

موكبُ الشمعِ موكبٌ تتقدّمُهُ موسيقى يخرج وينظم في ثالثِ أيامِ العيد، ويقومُ بهذا الموكبِ الشرطةُ وموظّفو البلديّة وعددٌ من الأهالي على النحو التالي:

تُجلب ثمانِي شمعاتٍ من الشمعِ الكبيرِ الضخمِ مثل الشمع الموجود في طرَفَي محرابِ الجامع، وتُلَفُّ كلُّ شمعةٍ منها بالشالِ ويحملها اثنان على كتفيهما، ويكونُ أربعُ شمعاتٍ منها في جانبٍ والأربعُ الأخرى في الجانبِ الآخر، ويسيرُ بين هذهِ الشموعِ رجلٌ يُمسِكُ في يديه زجاجةَ العطرِ وينثُرُ ماءَ الورد على الجانبين، إضافةً إلى ذلك فقد كان هناك شخصان يحمِلانِ على رأسيهما برطمانًا بلّوريًا مغطًّى من أعلاه وقد مُلِئَ بماء الورد، وفي الخلفِ يسيرُ عددٌ من الرجال يحمِلُ بعضُهم شموعًا صغيرةً بأيديهم أو شموعًا كبيرةً بأحضانهم، وبهذا الموكب تُؤْخَذ الشموع التي ستُرسَل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة من مكانِ تصنيعِها وتُنْقَلُ إلى دائرة القيادة.

موكب الراية:

يخرج موكبُ الرايةِ وينظم في الرابع من شوال بعد صلاة الظهر في جامع "سَنْجَقْدَارْ (Sancakdâr)" الكائنِ في القلعة، وقبلَ أداءِ السنّة والدعاءِ يتمُّ الوقوفُ وتُؤْخَذُ رايةُ سيدنا عمر الفاروق ﷺ من غرفةٍ موجودةٍ في الجامع، ويُطْلَقُ على هذه الراية اسمُ "سنجق شريف"، وفي الموكب جاءَ حامل الراية الذي ارتدى ثيابَهُ الحمراءَ المزيَّنَةَ بخيوطٍ ذهبيّةٍ فأمسكَ بيديه الرايةَ المذكورةَ الموجودةَ في غطاءٍ من القطيفةِ الحمراءِ، وأمسكَ أمينُ الصُّرّة من الشريط الموجود في اليمين، ومحافظُ الحجّ[٢١] من الشريطِ الموجودِ في اليسار، وبعدما خرجوا بهذا الشكل، تركَ الأمينُ والمحافظُ الشريطَين، وبدآ بالسير خلف السنجق الشريف بكلِّ تعظيمٍ، وفي المقدّمةِ كان الموكب يستمِعُ إلى الموسيقى برفقةِ الجنود.



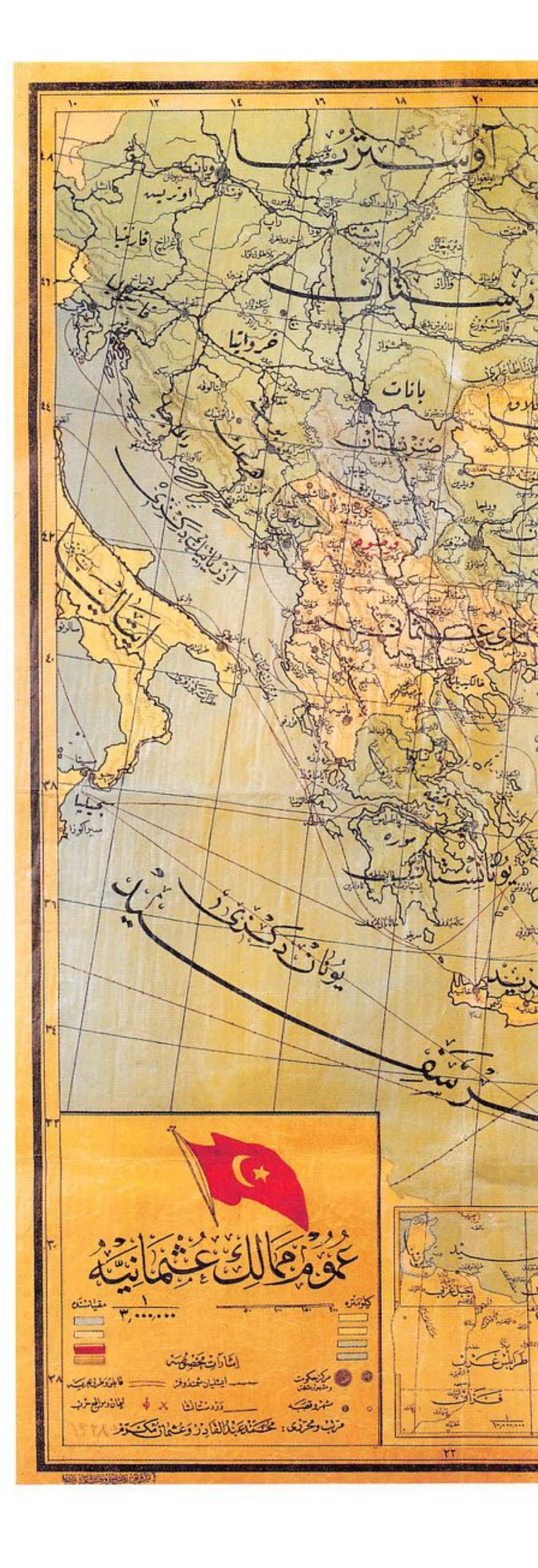
خريطة كاملة للدولة العثمانية مؤرخة في ١٩٠٩م وقد أُعدَّت في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني"، وتظهر على هذه الخريطة خطوط الملاحة البحرية وخطوط السكك الحديدية [مجموعة يوسف جَاغْلَارْ]

وكان خلف الموكب صفّان من الطلاب، إضافةً إلى اشتراك الكثير من الناس في هذا الموكب، وبعدما تجوّلنا في شوارعَ لم أَمُرَّ منها قطُّ، حُمِلَتِ الرايةُ إلى القيادةِ المذكورةِ، ووُضِعَتْ في المكان المخصَّصِ لغَرْسِها والمجهَّز مسبقًا في الدور العلويّ من الصالون الكبير، ورُبطت بحبل حتى تظلّ مرفوعةً خفَّاقةً.

موكب المحمل:

إن موكبَ المحمِل الذي تمّ تنظيمه في الخامس من شوال موكبٌ في غاية الروعة والأهمّيّة، حيثُ تمَّ تشكيلُ فوجٍ في ساحةِ دائرةِ القيادةِ الواسعةِ الفسيحةِ.

وكان يوجد في مقدمةِ الموكبِ هودجُ أمين الصُّرّة وخلفه العَكّامون والجنود وموظفو الولاية وطلّاب المدارس ورجالٌ يرتدون الكُوفيات والعمائمَ، وكان حاملُ السنجق مع السنجقِ الشريفِ على ظهر جملٍ، وكان هؤلاء الناس يتوسطون بين أمينِ الصُّرّة ومحافظ الحجّ، وكان يظهر المحمِل الشريفُ بين العَكّامين على ناقةٍ عظيمةٍ يهتزُّ يمينًا ويسارًا، وقد جُلِبَتْ أيضًا الشموعُ بالشكلِ الذي سارت به في موكبِ الشمعِ، ومِنْ خلفِهم صناديقُ الصُّرّة والأشياءُ المرسَلَةُ إلى الحرمينِ الشريفينِ وصناديقُ النقود على ظهرِ الجِمَالِ والبِغال، وخلفَ الموسيقى كان يوجدُ عددٌ من الجنودِ وفوجٌ من فرسانِ الهجّانةِ والشرطةِ وفرقةٌ أخرى نسيتُها وعددٌ من الرجال الرسميّين وغيرِ الرسميّين والأطفال، ولقد زُيِّنَتِ الشوارعُ والميادينُ والأراضي والمنازلُ والأسطحُ الموجودةُ على الطريقِ المؤدي إلى محطّةِ "القدم الشريف" بأعلام متباينة الحجم ما بين كبيرة وصغيرة، وعُمِلَتْ مدرَّجاتٌ في الأماكنِ العامّةِ المناسِبة لذلك، وامتلأت نوافذُ أبنيةِ الطرق التي سيمرُّ منها الموكبُ واكتظَّتِ





موكب المحمل الذي أُعدّ في دمشق الشام في أوائل (١٩٠٠م) [مجموعة يوسف جاغلاز]

المدرّجات قبل مرورِ الموكبِ بكثير، وكان هناك الكثيرُ من المشاهدينَ على الكراسي الموضوعةِ أمام المقاهي والحوانيتِ، وقد امتلأ المكان بالنساءِ والرجالِ والأطفالِ، وكان الموكبُ يمضي ببطءٍ شديدٍ بسببِ ازدحامِ الناسِ، والخلاصَةُ أن الموكبَ كانَ شديدَ الزحام كأنّه يومُ الحشر، وشاهدْنا هناك من مختلَفِ أنواع الأُطُرِ التي نُصِبت بُغيَةَ تزيين الطريق، ووصلْنَا إلى موقعِ "القدم الشريف" بعدَ ثلاثِ ساعاتٍ بالضبطِ من هذا الطريق الذي يستغرقُ نصفَ ساعةٍ أو ساعة إلا ربع في الأيّام العاديّة، ولقد وقفْنَا في الطريق عدة مرّاتٍ، وتُلِيَتْ الأدعيةُ، واستقبلَنا الوالي ناظم باشا والأكابرُ وأشرافُ البلد الذين سبقونا إلى هذا المكان، وأُطلِقَتِ المدافعُ، وتمّ تكريمُ الصرَّةِ بتقديم السلام العسكري، ولأن الجوَّ كان حارًّا وجافًّا، والطرقَ التي مضينَا منها كانت إمّا مرصوفةً بالحصباءِ أو طرقًا ترابيةً أضحى كلُّ شيءٍ مغبرًّا مُتْربًا.

إن إطلاقَ اسمِ "القَدَم الشريف" على هذا الحيّ سببُه هو أنَّ سيدنا رسول الله ﷺ قد جاءَ إلى هذا المكان ورجعَ قبل أن يدخلَ الشام.

إن صناديقَ الصُّرّةِ والأشياءَ الأخرى -التي وُضِعَتْ في الخيام بجوارِ المحطّة التي أُطلِق عليها الاسم نفسه- قد تُرِكَتْ في حمايةِ الجنودِ -مثلَما تمَّ في "بَاشَا قَبِيسِي" أي دائرةِ الباشا في "أُسْكُودَارْ"- وبعد انتهاءِ الموكب رُجِعَ إلى المدينةِ ونُفِّذَت مهامُّ الوظيفةِ، وذهبَ أبي إلى الولايةِ وسلّمَ الخطاباتِ المرسلة من أجلِ الحوالاتِ والتي أدرجْتُ صوَرَها فيما يلي:

صورةُ الخطابِ الطارئِ المُؤَرَّخِ في الأوَّل من تشرين الثاني/نوفمبر عام (١٩٢١م) المكتوب من نظارةِ الأوقافِ السلطانيّةِ إلى دفترداريّة ولاية سورية:

"يجبُ أن يُجهز للصرة السلطانية مبلغ (٥٠٨٤٠) قرشًا، وهو مبلغ يجب دفعه على الفور وإيداعُه لدى أمانة الصُرّة السلطانية، وهو المبلغُ المعتادُ دفعُه كعطايا وأثمان المُؤَنِ لثلاثةٍ من رؤساء العشائر والمشايخِ التابعين لهم القاطنين بجوارِ "العقبة"، على أن يحسب هذا المبلغُ من الضرائب ويسدَّدَ من أموالِ الولايةِ العامّة لسنة (١٣٢٢هـ)، ولقد أرسلت الحوالةُ المعدّةُ لأمينِ خزانةِ الأوقاف وملفوفاتها إلى جنابكم العالي، وأُرسِلَ في ملفوفاتها الخطابُ المكتوبُ من نظارةِ الماليّةِ الجليلةِ حتى يُسَلَّم ويُعطى المبلغ المذكور إلى سعادةِ "حسني أفندي" أمين الصُّرّة السلطانية".

صورة الخطاب المرقم برقم (٤٥٤) والمؤرّخ في الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر (١٣٢١ روميّة) والمكتوب من نظارةِ الماليّةِ إلى ولايةِ سورية:

"لقد أُرسِلَتِ الحوالة وملفوفُها التي نظمتها محاسبة المالية العموميّة لدفعها مقابل السند إلى نظارة الأوقاف السلطانية الجليلة من أموال الولاية لسنة (١٣٢٣هـ) على أن تُحْسَبَ من ضريبتها وهي عبارة عن (٢٧,٨٩٠) قرشًا الموجودة غير بدل العُشر (٥٧٠) ربعية لسنة (١٣٢٢هـ) وهو المبلغ المعتاد إرساله كلّ سنةٍ من المقامِ السامي للصدارةِ العظمى إلى الأهالي الكرامِ في مكة المكرمة والمدينةِ المنورة، والأمرُ لمن له الأمر".

صورة الخطاب المرقّم برقم (٤٥٥) في الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر عام (١٣٢٢ روميّة) المكتوب من نظارة المالية إلى دفتردارية سورية:

"لقد أُرسِلَتْ آنفًا الحوالةُ المعدّةُ من قِبلِ محاسبة الماليّة العموميّة لسدادِ ودفعِ مبلغ (٣,٥٧٤,٠٠٠) كمصاريفَ لمُؤَنِ الحجّ لسنة (١٣٢٣هـ) من أموالِ الولايةِ العامّة لسنة (١٣٢٢هـ) على أن تدفع مقابل السند لأمر نظارة الأوقاف السلطانية الجليلة من الأموال العامة لسنة (١٣٢٢هـ) وتحسَبُ من ضرائبِ الولايةِ، هذا وقد أُرْسِلَ مع الحوالةِ ملفوفاتُها، والأمر لمن له الأمر".

بضع كلمات عن المزارات

لقد تجوّلْتُ في الكثيرِ من الأماكنِ كلّما سنحت لي الفرصةُ واختلستُ وقتًا من العمل، ولم أُقَصِّر في الذهابِ لزيارةِ المقامات.

وقد ذهبتُ ذات يومٍ بعد الصلاة لزيارةِ قبرِ صلاحِ الدين الأيُّوبيّ المشهورِ والمدفونِ في ساحةِ الجامعِ الأمويّ.

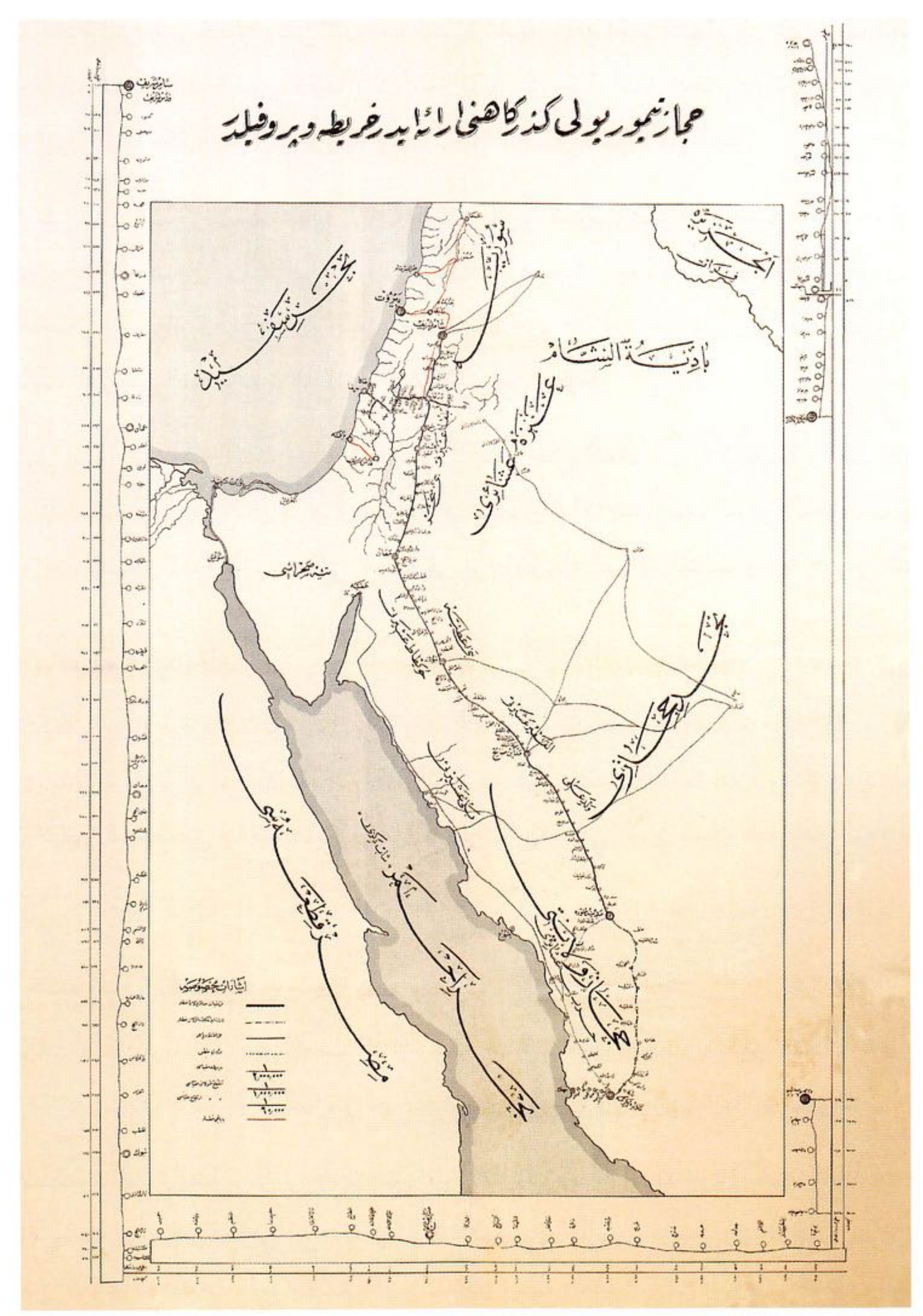
هولُ الشتاء حيث سنسير

لقد كان الثلجُ كثيفًا في الطرقِ التي سرنا فيها، وعندما أخبرَنَا محافظُ الحجّ "عبد الرحمن باشا" -الذي عرفَ بأنَّ الثلجَ قد وصَلَ في بعض الأماكنِ حتى أعمدة التلغراف- بهذا الأمر دُهِشْنَا جميعًا؛ إذ إننا موجودون في شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ! وأضافَ أنه يشغَلُ هذه الوظيفةَ منذ زمنٍ بعيدٍ ولم يرَ مثل هذا الشتاءِ حتّى اليوم.

التجهيزات التي اتُّخِذَتْ للسفرِ في الصحراء

وبموجبِ التشريفاتِ والدفاترِ المودَعَةِ لدينا من الأوقافِ كانَ يلزمُ تسليمُ جبَّةٍ ورِكَابٍ وساعةٍ وغيرها من المخصَّصات إلى المشايخِ والأئِمَّةِ والخطباءِ في المدينة، فبدأتُ في توزيعِ المبالغِ الواجب توزيعُها، وقد استغرق هذا الأمرُ ما بين خمسة عشر إلى عشرين يومًا، ولأنه كان من الأصولِ تخفيضُ سعرِ النوقِ والمَحفّة[٢٢] التي سيستأجِرها الحجيجُ فقد أُجري هذا الأمر في مجلسِ إدارةِ الولايةِ، كما قُلّل وخُفّض أجرُ النوقِ اللازمةِ للصرّة؛ وقد كان يطلق اسم "مُقَوّم" على الرجل الذي يقوم بالتخفيض.

اشتريتُ ستةَ بغالٍ للركوب، واشتريتُ ما يلزمُها من أَلْجِمَةٍ وسروجٍ والعديدَ من الأواني المخصّصة لماء زمزم والقربَ والأسقيةَ المصنوعةَ من الجلدِ حتى نضعَ فيها المياهَ التي سنشربُها في رحلتِنَا، وأكملت إعدادَ المُؤَنِ اللازمةِ لنا في الطريق.



خريطة تُظهر جميع محطّات "سكّة حديدِ الحجاز" التي تُسهّل وصول الصرة الهمايونية من الشام الشريف إلى مكة المكرمة، علمًا أن "سكّة حديدِ الحجاز" قد اكتملت في عام (١٩٠٨م) [أرشيف "يوسف جاغلار"]

وكانت الخيامُ التي اشتريتُها لنا ولِمَنْ كان معنا ممتازةً للغايةِ، ولقد أظهَرَ الشَّوَام حِرفِيَّتَهم ومهارتَهم في هذه الصناعةِ، وكانت خيمتُنا ذات طبقتين، وفيها تُرِكَ اتِّسَاعٌ يبلغُ مترًا حولَ أسفلِ الخيمةِ، وكان هذا الجزءُ يُستَخدَمُ كممرّ، كما أنَّ نوافِذَها مكوَّنةٌ من أربع زوايا، وكان داخِلُ الخيمةِ مصنوعًا من الحبال.

إن الكرسيّ الذي صُنِعَ خصّيصًا لهذه الرحلة كان محمولًا كسرير السفرِ الذي يُفتح ويُغلَقُ، وكان مجهّزًا بأريكةٍ كبيرةٍ وعاليةٍ تُوضَعُ في وسَطِ الخيمةِ عند النزولِ، وكان يجلسُ عليها أمينُ الصُّرَةِ وضيوفُهُ، وكانت هذه الأريكةُ تحجُبُ رؤيةَ سرائِرِنا الموضوعةِ خلفَها، وكان هناك هَودَجَان أحدهما على يمينِ الكرسيّ والآخرُ على يسارِهِ، وكانت الكراسي المحمولةُ توضعُ في أماكنَ شتّى من الخيمة.

لقد أُكْمِلَ إنشاءُ قسمٍ من "سكّة حديدِ الحجاز"[٢٣] يمتدّ حتى "مَعَان"، وبدأ تشغيلُه، ولذلك فإننا نسلك الطريقَ الممتدَّ لعشرةِ نُزُلٍ -أي الذي يستغرقُ عشرةَ أيّامٍ- بالقطار، ولذا فقد أرسلْنَا النوقَ والحيواناتِ والعَكّامين والحرَسَ وأحمالَهم من الشام الشريف إلى "معان" في يوم الأربعاء الموافقِ للثالث والعشرين من شوّال.

رحلتنا بـ"سكّة حديد الحجاز"

بعد استكمالِ إعداد لوازمِ الطريقِ وتجهيزِها وبعد أن تأكدنا من عدم توفّر مبالغ ماليّة أكثر من ذلك رغمَ الجهد الذي بذلناه؛ قرّرْنا أن نتحرّكَ يوم الأربعاء الثاني من ذي القعدة، فأبلغَتْنا إدارةُ سكّةِ حديدِ الحجازِ في خطابِها أنّ القطارَ المخصَّصَ لنا قد أصبحَ جاهزًا في ذاك اليوم، وفي اليومِ نفسِه انطلقْنَا من الشامِ من محَطَّةِ "القدم الشريف".

سكّةُ حديدِ الحجازِ الحميديّة

لقد شُكِّلَتْ هيئةٌ إداريةٌ أُطْلِقَ عليها اسم "نظارة سكّة حديدِ الحجاز الحميديّة" لمَدّ السككِ الحديدية حتى مكةَ المكرمة بهدفِ ذهابِ ورجوعِ الصُّرّةِ والحجيجِ بسهولةٍ ويسرٍ، وقد عُيّنَ عليها "كاظم باشا".

ولقد اسْتُحْدِثَ طابعٌ ثمنُهُ قرشٌ واحدٌ ليُلْصَقَ على الطلبات والأوراق الأخرى ليكونَ العائدُ منه جزءًا من الوارداتِ الأساسيّة لدى الدولة، وفي هذا العصر كانت تُلْصَقُ على الطلباتِ والشكاوى طوابعُ بريدٍ من فِئَةِ قرشٍ واحدٍ، ولكنّ النقودَ المجموعةَ بالطوابعِ لمْ تكفِ لسدادِ المبالغِ المقترَضَةِ من الدوَلِ الأجنبيّة، ولقد كان هذا الطابعُ المذكورُ يُعدُّ من الوارداتِ المخصَّصةِ لإدارةِ الديونِ العموميّةِ؛ لذلك فقد سُمّيَ باسم "رسوم ستة"، ثمّ استحدث طابعٌ يزيد في الحجم خمس أو ستّ مرّات عن هذه الطوابع المستخدمة وقد أطلق عليه اسم "وَرَقَة".



طوابع ثمنُها قرشٌ واحدٌ أُعدت بهدف دعم ومساعدة خطوط الحجاز الحميديّة [مجموعة يوسف جاغلار]

كانتِ الطوابعُ المذكورةُ التي سُمّيت "وَرَقَة" تُطْبَعُ في مطبعة "عثمان بك" في "جَمْبَرْلِي طَاش (Çemberlitaş)"، وبخلافِ المبالغِ المحصّلة من "الأوراق" من أجل سككِ الحديدِ المذكورةِ فقد كانت تُخْصَمُ أجزاءٌ بسيطةٌ من رواتبِ الموظّفين، كما كانت هناك تبرُّعات لمحبّي الأعمال الخيريّة، وقد أُرسِلَت مبالغ ضخمةٌ من مسلمي بعض الدولِ الأجنبيّة مثل الهند وروسيا على وجه الخصوص.

حادثة في المحطّة الأولى

كانت محطّة "كِسْوَة" هي المحطّة الأولى التي توقّفْنا فيها بعد "القدم الشريف"؛ إذ وصلنا إلى هذا المكان قُبيلَ حلول المغرب، وكانت توجد فيه دائرةٌ للموظّفين وبئرٌ ومخزنُ ماءٍ، وكانت تظهر لنا قريةٌ في الأطراف، ولقد غادر قطارُنا هذا المكان قبل الغروبِ بساعةٍ، وتخطّينا ثماني محطّاتٍ دون توقف، وفي صباحِ اليوم التالي وصلْنا إلى محطّةِ "دَرْعَا" الواقعة في الكيلو مائةٍ وثلاثةٍ وعشرين.

وتخطّينا أربعَ محطّاتٍ أخرى ووصلنا في صباحِ اليومِ التالي إلى محطة "عَيْن الزَّرْقَاء" في الكيلو مائتين واثنين وسبعمائة وخمسين مترًا، وبعدما توقّف القطارُ سمِعْتُ صياحًا وصوتًا يقول: "هناك حريق!"، ولم أهتمَّ بهذا الأمر لأن هذهِ الأصوات كانت مثلَ التي في المحطّةِ السابقةِ واعتقدتُ أنَّ النارَ قد اشتعلت في محورِ عجلةِ إحدى عرباتِ القطارِ مثلما حدثَ من قبل، وعندما نَزَلْتُ من العَرَبَةِ -وكان البردُ شديدًا مهلكًا- رأيتُ أن

الشرارَ الخارجَ من مدخَنةِ القاطِرةِ الأمامية -المربوطة بها العربَتَان المفتوحتَان المُحمّلتان بكلّ متاعِنا وأشيائِنا- قد لحق بالأشياءِ واشتعلتْ النارُ في جانبٍ من جوانبِ عَرَبَةِ المتاعِ، فنسيتُ البردَ من شدّة هولِ الموقفِ، ولله الحمد فلقد كانَ الجوُّ مضيئًا والنهارُ قد أشرقَ وكنا قد وصلنا إلى إحدى محطّات الطريق؛ فأدى تضافر الجهود إلى إطفاء الحريق في أسرع وقتٍ والنجاحِ في إخمادِ النارِ فورًا.

محطّة عمان

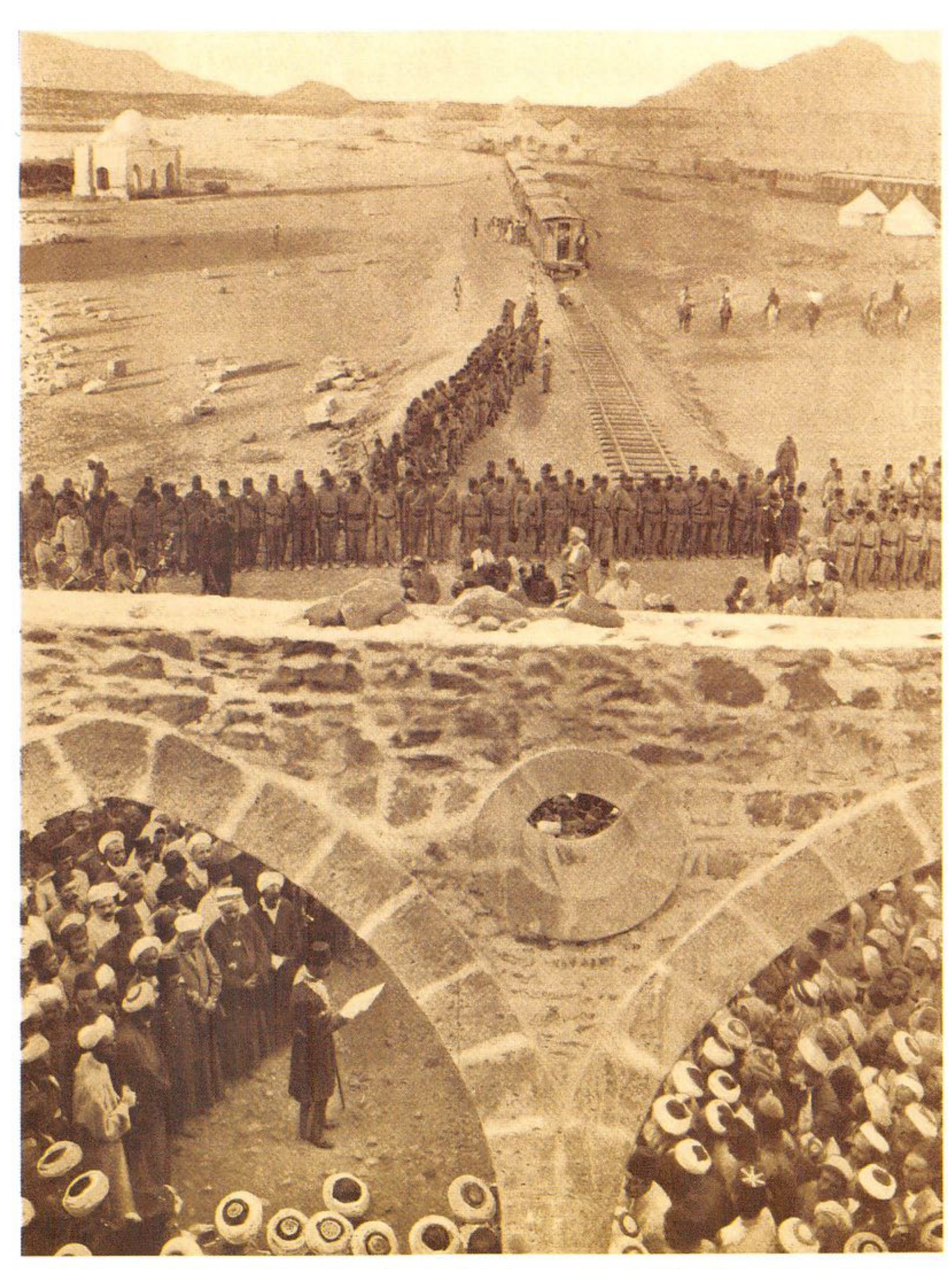
تحرّكنا من هذا المكان بعدما حصلنا على برقيّة من محطّةِ "عمّان" تُفيدُ بأنَّ الطريقَ خالٍ، ووصلْنَا إلى محطّة عمّان الموجودة في الكيلو مائتين واثنين وعشرين وأربعمائة متر.

وبعد عمّان تخطَّينا خمسَ محطَّاتٍ دونَ توقُّفٍ، وتوقَّفَ القطارُ في بدايةِ مرتفعٍ شاهقٍ، وكانت المحطّةُ التي سنذهبُ إليها هي محطّةُ "قَطْرَانِي"، ولأن قطارَنَا لنْ يتمكَّنَ من صعودِ هذا المرتفعِ، فقد اضطرَّ الفنيُّون إلى تقسيمِ القطارِ إلى قسمين لعدمِ تمكُّنِهم من استخدامِ القاطرتينِ في وقتٍ واحدٍ، وبالقاطرةِ المعدّةِ هناكَ صعدنا هذا المرتفع في صورة قطارين صغيرين.

البردُ الدائم

وصلنا عند السحَرِ إلى محطّةِ "الحسا"، الواقعة في الكيلو ثلاثمائةٍ وسبعةٍ وسبعينَ وثمانمائةٍ وستين مترًا. وكان يوجدُ في المحطّةِ آلةٌ ومَكَنَةٌ ذاتُ محرّكٍ يعملُ بالبخارِ لسحبِ المياهِ، وكان لهذه المَكَنَةِ مروحةُ تهويةٍ، وكان الجوُّ صحوًا إلا أنَّ البرودةَ كانت قارسةً وشديدةً، حتى إن جميعَ الماء الذي كان معنا في خزّان القطار قد تجمّد، مما اضطرّنا إلى معاناةٍ أكبر من ذلك؛ وبدأنا نسحبُ الماء من البئر بالجرادل، ولم نستطعْ أن نسدّ حاجتنا من المياه بجردلٍ واحدٍ أو جردلَين، بل كانت الكميّة التي سحبناها خمسمائة جردل.

استمرّت رحلتُنا في المساءِ، وهجمَ البدْوُ على قطارِنَا في محطّة "عنزة"، ولن أكذِبَ فقد طارَ عقلي من رأسِي، إذ ليسَ هناك ما يمكنُ فِعلُهُ، وكما ذكرتُ سالفًا فقد كنا أرسلْنَا الجنودَ والعَكّامين إلى "معان" من قبلُ دون أن نحتاطَ لمثل هذه المواقف، وبعد ضوضاء وجَلَبَةٍ فهِمْنا أنَّ بدوَ قبيلةِ بني صخرٍ اعتقدوا أنّ قطارَنا المخصوصَ هو قطارُ ركَّابٍ فركبوه، ولكنّنا فهِمْنا هذا بعدما بلغتِ القلوبُ الحناجرَ، وتمكّنوا من إنزالِهم من القطارِ بصعوبةٍ، وتابعنا المسير في الرحلة.



صورة غلاف مجلة (L' Illustration) الفرنسية المنشورة بتاريخ الثالث من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩٠٨م)؛ حيث تعلنُ المجلة للعالم أجمع وصولَ خطّ "سكّة حديدِ الحجاز" إلى المدينة وقراءة "مختار باشا" الرسالةَ الهمايونية (السلطانية) في محطّة المدينة المنورة [أرشيف "يوسف جاغْلَاز"]

يوجدُ بين محطّة "عمّان" و"الحسا" جسرٌ يعلو عشر قناطر مائية، ونفقٌ طويلٌ، وبعد أن سِرْنا فترةً صادَفْنا الجنودَ والعَكّامين ومن في معيّتهم من الذين أرسلناهم في هذا الطريق في الثالث والعشرين من شوال، والْتَقينا معهم قبلَ محطّة "معان" ببضعِ كيلومترات، ولما شاهَدَهُم الفنّيُّ أوقفَ القطارَ، ونزلَ أغلبُنا من العرباتِ ليتحدَّثوا معهم، وتحرَّكَ القطارُ ووصلْنا يومَ السبت إلى محطّةِ "معان" الواقعةِ في الكيلو أربعمائة وثمانيةٍ وخمسين، ومائةٍ وأربعة عشر مترًا.

محطّة "معان" وقضاء "معان"

كانت "معان" في ذاك العصرِ قضاءً تابعًا لولاية سورية، به ألفَا نسمةٍ وخمسمائةِ منزلٍ، ولقد زُرْنا هذا المكان مع الأسرة، وكانت أبنيَتُهُ من الطوبِ واللَّبِنِ ويصادف أنّ بعضَها من الأحجارِ المنحوتةِ، وقد نبَتَتْ في الحدائقِ ذاتِ المياه الجاريةِ كلّ أنواع الخضرة والفاكهةِ، ولقد رأينا التجّارَ الذين سيأتون معنا إلى مكة المكرمة حيثُ جاؤوا من قبلِنا وعرضوا بضائِعَهم في الأسواق محاولين بيعها.

وقد كانتِ المسافةُ بين "معان" وخليج "العقبة" تبلُغُ أربعًا وعشرينَ ساعةً، وكنَّا ننامُ ونستيقِظُ ونأكلُ ونشربُ في عرباتِ القطار في الفترة التي قضيناها في "معان".

حفل في محطّة "معان"

افتتح أبي رسميًّا المستشفى المؤقَّت ذي الثلاثةِ أجنحةٍ وسبعين سريرًا الذي بُنِيَ بجوارِ المحطَّةِ، ورغمَ أنه قد أُكْمِلَ وانتهى تجهيزُهُ منذُ أيّامٍ عديدةٍ فقد صدَرَ الأمرُ من "كاظم باشا" ناظرِ "سكّةِ حديدِ الحجازِ الحميديّة" بتأخيرِ هذا الأمرِ حتى نذهبَ إلى هناك، وكان يوجدُ في الحفلِ إلى جانب الوفدِ العسكريّ أركانُ القضاءِ وطلّابُ المدرسةِ الرشديّة.

كم كان جميلًا منظرُ الأطفال الواقفين في صفوفٍ منتظمةٍ، والكبار والمشايخ الذين وَضَعَ كلٌّ منهم عقالًا على الشالِ الذي يغطّي به رأسه، فذُبِحَتِ القرابينُ، وتلِيَتِ الأدعيةُ، وانتهى الحفلُ بعرض عسكري لفرقةِ فرسانِ الهجين.

انتظارُ حجيج إيران

لقد أخذنا أمرًا جديدًا يؤكد الأمر الصادرَ مسبقًا من إسطنبول من قبلُ بخصوصِ صحبةِ وحمايةِ الزوّار الحجيجِ الذين سيذهبون هذا العام من رعايا إيران؛ ولهذا اضطررنا إلى الانتظارِ في "معان" خمسةَ أيّامٍ حتى





الميداليّة التي منحها السلطان "عبد الحميد الثاني" إلى الجديرين بالتقدير ممّن ساهموا بخدماتٍ جليلة في مدّ خطِّ "سكّة حديدِ الحجاز" الحميديّة [مجموعة "يوسف جَاغْلَار"]

يلحَقَ بنا الحجيجُ المذكورون الذين زاد عددهم هذا العام، ولأنّ الوقتَ كانَ ضيّقًا أردنا الاستفادةَ من القِسْمِ الذي اكتملَ من "سكّة حديد الحجاز" والذي لم يُفْتَح للركّابِ بعدُ، وكان يمكنُنا الذهاب إلى قلعةِ "مدوّرة" القريبةِ جدًّا الواقعة بعد "معان" بثلاثِ محطّات، وكان الشخص الذي تصدى للإشراف على السكّة وإنشائها وحمايتها عقيدًا، وقد عانينا مشكلاتٍ جمّةً حتى استطاع الحجيجُ الوصولَ إلى هذا المكان من الطريق، ولم نتمكّن من أخذِ موافقته إلا بعد أن كررنا الطلبَ وقلنا: "إن الوقتَ قد ضاقَ وإنَّ الصُّرّةَ لن تصلَ إلى مكةَ المكرمةِ في وقتِها".

كاد قطارنا يتعرّض لحادثة

اعتبارًا من ليلةِ الخميسِ التاسعِ من شهر ذي القِعْدةِ وبعد الرحلةِ المُعَدّةِ في محطّةِ "معان" وإرسالِ قطارِ الأمتعةِ إلى "مُدوّرة" تحرّكَ قطارُنا مغادرًا المحطّةَ قُبَيلَ مساءِ يومِ الجمعةِ في اليوم العاشرِ من الشهرِ نفسه، وبعدما وقفْنا قليلًا عند تحويلة السكة الحديد استمرَّ القطارُ في طريقِهِ، وغربتِ الشمسُ أثناءَ العبورِ من سهلٍ واسعٍ، وكنّا نواصِلُ السيرَ في الدياجير والظلام، لكنّ صوتَ القاطرة -التي تتحرّكُ بانتظامٍ في هذا السهلِ القفرِ الفسيح- كان وكأنّه يُخْبِرُنا بكلِّ فخرٍ بالجهدِ الكبيرِ الذي بُذِلَ لعملِ الكثيرِ من مفاخرِ العمران في عالم الحضارة، وبعد أن تجاوزنا مسافةً طويلةً أوقفَ الفنّيُّ القطارَ بعد أن شاهد مصابيحَ في جانبِ سطحٍ مائلٍ ونارًا قد أُشْعِلَتْ لإضاءة المكان، ولما عرفنا أن الجنود -الذين اشتغلوا بمدِّ خطِّ السكّةِ الحديدية- قد فعلوا



هذا تبجيلًا وتوقيرًا للصرّةِ جاشتْ مشاعرُنا، فخرَجْنا من عرباتنا، وشرِبْنَا الشايَ والقهوةَ المقدّمةَ من الضبّاطِ، وبعد تبادُلٍ يسيرٍ لأطراف الحديث قدَّمنا لهم الشكرَ وواصلْنَا رحلتَنَا.

ولم أشاهد جيّدًا ذلك المكان المسمى بـ"بطن الغول"، لأنّنا عبَرنا منه ليلًا، وكما فهِمتُ من اسمِهِ واستدللتُ من بعضِ العلاماتِ فهذا المكانُ سيّئٌ للغاية.

ولقد عبرنا من ذلك المكان ورأينا فيه وديانًا مرعبةً ومليئةً بالحُفَرِ، وكنتُ كلّما رأيتُ نورَ القمرِ خافتًا استطعتُ الفهمَ بعضَ الشيءِ لماذا سُمّيَ هذا المكانُ بذلك الاسم.

ولأنّ آخر رحلةٍ لنا بالقطارِ قد اكتملتْ بعد نصفِ الليلِ فقد قضينا الليلَ في العرَباتِ، ولم يبق بيننا وبين قلعةِ "مدوّرة" سوى ثلاثةِ كيلو مترات، وقد تمَّ تسويتها وفرشُها بالأحجار اللازمة إلا أن قضبانَ السكّةِ الحديديّةِ لم تمدّ بعدُ، فهي ما تزال قيد المدّ والإنشاء، ولذلك ودَّعْنا السكة الحديدية في اليوم الثاني، وركبَ كلٌّ من أمينِ الصُّرّةِ وزوجتِهِ هودجَهُ، وركِبْنَا نحنُ أيضًا ركائبَنَا لأوّلِ مرّةٍ، ووصَلْنا إلى ميدانِ الرملِ المواجِهِ للقلعةِ المذكورةِ، وبعدما قطعنا مسافةً صغيرةً بالنوقِ أدركنا معنى التعبِ والمشقّةِ التي سنلقاها في باقي الطريق.

جُهِّزَتِ القافلةُ للمرّةِ الأولى في اليوم الثاني بعد وصولِنا إلى قلعةِ "مدوّرة" أي صباح يومِ السبتِ الحادي عشرَ من ذي القِعدةِ وانطلقْنَا للوصولِ إلى المنزلِ المُسَمَّى "ذات الحج".



رسم تقريبي يصوّر إرسال موكب الصرّة من قصر "دولْمَه بَاغْچَه" منشور في عدد مجلة "الجرافيك (The Graphic)" الصادر في التاسع عشر من أغسطس/آب (١٨٨٢م) [مجموعة "يوسف جَاغْلاَرْ"]

كنا نجدُ ونرى في طريقنا بعد "مدورة" عمّالَ السكّة الحديديّة وهم يقومون بتجهيز وإكمال خطِّ سيرِ السكّة الحديديّة، وأحيانًا ما كنّا نصادِفُ المهندسين المشرفين على العملِ، وكنا نرى زِحامًا شديدًا إلى حدٍّ ما، وغالبًا ما كنّا نستفيدُ من الطريقِ الذي مُدَّ منه خطُّ تلغراف المدينة.

في الساعة السادسة من تحرُّكِنا من "مدوّرة" نزَلْنا من على ظهرِ دوابّنا على سفح أحد الجبال من أجلِ "العواف"(٢٤)، وبعد أن تناولنا الطعامَ وصلينَا الظهرَ واصَلْنَا السيرَ.

الخيّامون المكلفون بحماية الصرة

كنا نشق طريقنا في حمايةِ كتيبةٍ عسكريّةٍ مكوّنةٍ من مشاةٍ وفرسان ومدفعيّة تحت قيادة ضابطٍ برتبة "رائد"، وقد قُسِّم الجنودُ إلى طليعةٍ ومؤخّرةٍ وجناحَين موزّعَين عن اليمينِ واليسارِ، وهكذا سُعي لحماية الحجيج من هجمات العربان، ومن المساء حتى الصباح كانت تُسمع صيحات الحرس المحيطين بالقافلة لينبّه بعضُهم البعضَ الآخر حتى لا يتسلّل النوم إلى عيونهم، وكان الحرسُ يحيطُ بهذهِ القافلةِ في كلّ منزلٍ وكأنّها مدينةٌ ذاتُ حدودٍ، وكان الحرسُ يطلق قذيفةً مدفعيّةً يُعْلِنُ من خلالها أنه من الممنوعِ الدخولُ أو الخروجُ من هذه القافلةِ، وعند الانطلاقِ كان يُطْلِقُ الحرسُ قذيفتَينِ بين القذيفةِ الأولى والثانية نصفُ ساعةٍ، ويقومُ الحجيجُ مع أوّلِ قذيفةٍ بالاستعدادِ للحركة، ويقومُ الخيَّامون بفَكِّ خيامِهِم وتحميلِها على ظهورِ العِير، دون تأخيرٍ أو انتظارٍ لأي أحدٍ بعد انتهاء الوقت المحدّد، وعندما يحين الوقتُ يرفعونَ الخيمةَ مِنْ على صاحبها الحاجّ مباشرةً، لأن القذيفةَ الثانيةَ تعني الانطلاقَ وبدايةَ المسيرِ بعد انتهاءِ الاستراحة، ورغم أن هذا الأمر يدخلُ ضمنَ قاعدةِ تقسيم العمل وتوزيع المهام إلا أن همّةَ وجهودَ الحجّاج الشاميّين وتنسيقهم ورعايتهم الفريدة لهذا الشأن أمرٌ يستحق التقدير.

وأُطلقتْ قذيفةٌ لتعلنَ أنّ وقتَ "العواف" أي الاستراحة قد انتهى، وفعلًا فإنك ترى أن الكلَّ -بمجرّدِ إطلاقِ القذيفة- يقفون في أماكنهم، وأما المسؤولون عن نصبِ الخيامِ الذاهبون مع القافلةِ فإنّهم لا يأخذونَ استراحةً حتى استراحةِ الظهر، فيستمرُّون في طريقِهم دون توقُّفٍ، وهم يسحبونَ العيرَ التي تحملُ الخيامَ والأمتعةَ والأدوات، ولهذا فإنّ الخيّامين يَصلون إلى محلِّ النزولِ قبلَ القافلةِ بنصفِ ساعةٍ وينصبُون الخيامَ التي تستوعبُ أكثرَ من أربعةِ آلافِ حاجّ، وعند التحرُّك أيضًا يفكُّون الخيامَ ويحملونَها في ظرفِ نصفِ ساعةٍ، وأثناء الاستراحةِ نرى في مقدّمةِ القافلةِ خيمةً صغيرةً وهي مخصَّصةٌ لأمين الصُّرّة ليتوضَّأ ويصلي الظهر فيها.

وكانت تُطلقُ الألعاب النارية أو القذائف الضوئية في وقت الاستراحة وأثناء تحرُّكِ القافلة في الليل وفي وقت صلاة الصبح.

يسيرُ خلفَ القافلةِ بنصفِ ساعةٍ كتيبةٌ تركبُ البغال، حتى إذا وجدوا حجيجًا انفصلوا عن القافلة أو ضلُّوا الطريقَ قاموا بتوصيلِهم إلى القافلة.

حقيقةٌ حَسِبْتها أسطورة

عندما وصَلْنا إلى موقع "ذات الحج" أعطينا الألبسةَ والعطايا إلى مشايخِ البدوِ القادمين إلى خيمتِنا وقدمتُ لهم القهوةَ والشرابَ الحُلْوَ.

خرجنا من الموقع المذكورِ إلى الطريقِ في صباحِ يومِ الأحد الثاني عشر من ذي القعدة، وكان جلُّ مسيرنا في أماكنَ وعرةٍ، وبعد الظهر بوقتٍ طويلٍ استرحنا في صحراءَ واسعةٍ ثم واصلْنا السيرَ، وفي المساءِ نِمْنَا في الخيمةِ التي نُصِبَتَ في الصحراء، وواصلْنَا السيرَ في الطريقِ منذُ صباحِ يومِ الإثنينِ الثالث عشرَ من الشهرِ المذكور.

وبعد فترة قصيرة شاهدتُ الفرسانَ يعدُون مسرعينَ من الأمام والخلف وهم يُطْلِقون النار؛ فقد أخذ العربانُ سبعًا من العيرِ -التي يبلغُ عددُها سبعًا وعشرين ناقةً محمَّلةً بالدقيقِ من أجل المدينة- التي كانت تسير في مقدمة القافلة، واستمرَّ الفرسانُ في مطاردةِ البدوِ السارقين وهم يطلقون الأعيرة النارية في جهاتٍ مختلفةٍ، وللاحتياطِ فقد أخذَ الجنودُ مواقعَهم على الأسلحةِ، وعُبِّئَتِ المدافعُ، وتحوّل المكان الذي كنّا فيه إلى ساحةِ معركةٍ حقيقية، مع العِلمِ أننا كنّا في مكانٍ مستوٍ للغاية، أي إنّنا كنّا في الصحراء، وطبعًا فإن الجميع قد أخذوا احتياطاتهم واحترازاتهم لتجنُّب أيّ خطرٍ محتَمَلٍ، وشَرَعَ كلّ فردٍ من أفرادِ القافلةِ بطرحِ الأسئلةِ العفويّة لمَنْ أمامَهُ ولِمَنْ خلفَه عمَّا يحدثُ محاولًا فهمَ حقيقةِ الأمرِ، بالتزامنِ مع مطاردةِ الجنود للعربان السارقين ومحاولة استرجاع العير المسروقة.

العربان

يطلقُ اسمُ "العربان" على القبائلِ العربيّة المختلفةِ الأسماء التي تعيشُ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة، وهم بشكلٍ عام جياعٌ وعُراةٌ، وليس لديهم عملٌ أساسيّ.

ولو مررتَ على واحدٍ منهم دون أن تعطيه شيئًا يهجُم عليك العربانُ كالذئابِ الجائعة، وعلى حدِّ قول العَكّامين فإن العربانَ كانوا يعترضون طريقَهم ويحاربونَهم في بعضِ السنواتِ السابقةِ، فوالله لو ألقوا علينا الحجارةَ من مرتفعاتهم وتلالِهم -فضلًا عن أن يضربونا بالسلاح- حالَ مرورِنا بين جبلين وعْرَين لكان هذا

كفيلًا بموتنا جميعًا، ولكن الحمدَ والشكرَ لله فلقد تجاوزنا هذه الأماكن الوعرةَ والمخيفةَ دون أيّ هجومٍ، بعد أن كان قلبي يرتعد خوفًا وتحسّبًا لأيّ هجماتٍ أو مفاجآت أخرى.

العربان -باستثناء المشايخ- يلبسون قميصًا طويلًا من "قماش أمريكان" (قماش سادة من القطن)، وعلى خصورِهم نطاقٌ ويلفُّون على رؤوسهم قطعةَ قماشٍ، حفاة الأقدام، يحمل كلٌّ منهم بندقيّةً في يديه وخنجرًا ملتويًا في خاصِرَتِه يُسمّى "الجنبية".

السقّاؤون وأزمة المياه في الطريق

لتسهيلِ توفير احتياجاتِ القافِلة من المياهِ كان يُسعى للنزول والاستراحة في الأماكن التي يوجد بها ماء، وكانت تُختارُ الأحواض الكبيرة التي تسمى "بركة" أو الآبار التي يوجد بها مياه كافية للمسافرين، وكانت مياه البرك تسحب من الآبار بالسواقي، وأمّا الأماكنُ التي لا يوجدُ بها آبارٌ فقد كانَتْ تُملأُ بركُها بمياهِ الأمطار، لكنَّ المياهَ التي بقيَتْ فترةً طويلةً في البركِ في مثلِ هذهِ الأماكنِ نجدُها قد تعفّنت وجفّت، ومع ذلك فإنّ بعضَ الحجيجِ كانوا يشربونَ من هذهِ المياهِ دون أن يفعلوا بها شيئًا، أما نحن فكنّا لا نشربُها دونَ أن تُصفّى أو تُغلى.

لقد كانت عمليّة سحبِ المياهِ من البركِ ممتعةً للغاية، حيث كان السقّاؤون يصدحون بالمواويل والأغاني الجميلةِ وهم يملؤون قِرَبهم بالمياه.

الهُديبات الغريبة

لقد ضاعَ منّا وقتٌ كثيرٌ في يوم هجوم العربان علينا وفي النهاية استعدّتْ القافلةُ للتحرُك، وترَكْنا هذا المكان، وملأنا قربَنا من بئرٍ في الطريق، ثمَّ مررنا بمضيقٍ استغرقَ عبورُه وتجاوُزُهُ ساعتين ونصف، ثمّ وصلنا بعد ذلك إلى "تبوك"، وقد كانت غرابةُ الجبالِ في هذه المنطقة داعيةً للدهشةِ والاستغراب والعبرة، فكانت توجد جبالٌ حادّةٌ للغاية أو مسطّحةٌ وعريضةٌ وبعضُها تراهُ فتظنُّ أنه سيقعُ على الفورِ لأنَّ أسفلَه صغيرٌ وأعلاهُ كبيرٌ، وبعضُها ذو أشكالٍ غير منتظمةٍ لا تخطر على العقل والخيال.

عطايا العربان

لقد غادَرْنا "تبوكَ" مع انبلاج فجر يوم الثلاثاء الرابع عشر من ذي القعدة، وكانت "تبوك" أوّلَ منزلٍ لنا في الصحراء، وفي يوم الأربعاء الخامس عشر عبَرْنَا من مضيق "أزهار" في مدة تتجاوزُ الساعتين ووصلنا إلى

القلعة التي أُطْلِقَ عليها هذا الاسم نفسه، وكان عربان "بنو عطية" ينتظروننا عند هذا المكان منذ عدّةِ أيام، وكنا قد تأخّرْنا للأسباب المعروفة، وبدأنا في توزيع العطايا، ومنحْنا الكثيرَ من الطرابيش والقمصان والنقود، ووزّعْنا على الأطفالِ والنساءِ خاصّةً إبَرَ الخياطةِ والخيطَ التي اشتراها رئيس العكّامِين لهذا المكان، ووزّعْنا بعض الأشياء الأخرى الخاصّة بالنساء.

الانتظام الظاهر في محل النزول

كانت القافلةُ تتحرّكُ بانتظامٍ أثناء السير، وكان انتظامُها وحالها هذا يلفت الانتباه أثناءَ النزول، وعندما نصِلُ للمكانِ الذي سننامُ فيه عند المساء يجد المسافرون -بعدَ أن يسبقَهم العكّامُون إلى مكان المبيتِ بنصفِ ساعةٍ ويجهِّزون الخيامَ وكلّ مستلزماتِ المبيتِ- كلّ شيءٍ كما تركوه في الليلةِ السابقة، وكأنّ الخيامَ قد نُصِبَت طبقًا لخطّةٍ هندسية، فكلّ واحدٍ من المسافرين يجدُ الفتحَات والأبواب والنوافذَ الموجودةَ في جوانبِ خيمتِه والخيامِ المجاورة له حتى الممرات التي بين الخيام كما كانت في المرّات السابقة.

وعندما نصل إلى المكان الذي سننزل ونبيتُ فيه ليلًا تكونُ الخيامُ كما ذكرتُ سالفًا في وسطِ الصحراءِ على الرملِ بنفس الشكل الذي كان في الليلة السابقةِ تمامًا، حتى إن بنات أختي الصغيرات اللاتي لم يعِينَ هذا الأمرَ قد قُلنَ لأبي: "لا نعرفُ يا جدّي! لماذا يجعلُنا رئيسُ العَكّامين نسيرُ ونتجوّلُ من الصباح حتى المساءِ ثم يجلبنا في النهاية إلى المكان نفسه الذي كنّا فيه!" ويفهم من كلام البناتِ مقدارُ انتظامِ وتوحيدِ هيكليّةِ وشكلِ الخيام عند كل منزلٍ ومبيت.

السوق المتنقّل

كان يوجدُ في القافلةِ كلُّ أنواعِ الصنّاع، وكان صنّاعُ القهوةِ يبيعونها هي والشايَ على الطريقِ وهم وقوفٌ، وقد كان هناك من يبيعُ ويشتري الفواكهَ المجفَّفةَ والفواكهَ الطازجةَ، وأمّا صياحُ البائعين ومواويلُ الجمّالين وصهيلُ الخيل ورُغاءُ الجِمال فلقد كانَ منبعَ متعةٍ غريبةٍ للمسافرين؛ فمن اللحظةِ التي تتوقّفُ فيها القافلةُ يبدأُ التّجّارُ في إخراجِ بضائعهم وعرضها، وينتظرونَ الزبائن، وفي أماكنِ النزولِ تُنْصَبُ خيامُهم بطريقةٍ منتظِمةٍ ومجتمِعةٍ بنفسِ الشكلِ في المكان نفسه، ولا تتغيّر هذه القواعد مطلقًا، ولو كان هناك من يريد شراءَ شيءٍ في أيّ منزلٍ من المنازل وفي أيّة ليلةٍ من ليالي المبيت يذهب إلى هناك على الفورِ ويشتري ما يريد، ولقد حصلَتْ عند الشاميّين خبرةٌ من كثرةِ الذهابِ والقدومِ وكانت أعمالهم في غاية الدقّة والانتظام لأنهم مدقِّقين وكثيري التجوال.

عاصفةٌ رملية

في أحدِ أيام المسير كنا نشعر بالضيق الشديد نتيجةَ الحرارة المرتفِعة، ولم نكن ندري ماذا سنفعل؟ ثم تحرّكتِ الرياح وهبّت علينا قليلًا ففرحنا، ولكنّ هذه الرياحَ سرعان ما تحوّلت إلى ريحٍ عاصفةٍ تحمل معها كلّ أنواع الأتربةِ والحصى والرمل الذي يتطاير بشكلٍ عشوائيّ ويضربُ وجوهَنا مثل الرصاص؛ فسارعْنا بتغطيةِ وجوهنا وحمايتها، وتابعت الدوابّ طريقها في الاتّجاه الصحيح، وكانت الرياحُ تهبُّ حولَنا وترتفعُ وتنخفضُ مثل هبوبِ الثلج ولم نكن ندري ما الذي يمكننا فعله.

ففي الصيف على وجهِ الخصوص تكونُ رياحُ السَّمُومِ شديدةً، ولله الحمد أننا كنّا في الشتاء ولم تستمرّ العاصفة كثيرًا، ولقد امتدّت تقريبًا من ساعةٍ ونصف إلى ساعتين، ثم سكنت الريحُ بصورة تدريجيّة.

حال القافلة في الليل

إن قافلتَنا التي كانت تُشْبِهُ مدينةً متحرّكةً كانت تأخذ وضعًا جميلًا ومتناسقًا عند حلولِ الليل، ولأنّنا كنّا في منتصَفِ فصلِ الشتاء فقد كانَ الجوُّ شديدَ البرودةِ ولذلك فكانت تُوقَدُ المشاعلُ حولَ الساحة الواسعة التي نشغلُها في أماكن النزول، وأمّا المشاعل وأضواءُ القناديل التي زُيّنَتْ بها الأرضُ فقد جعلت القافلةَ تُشبِه مدينةً مزيّنة، ولقد حَسَبْنا المسافات بين أماكن النزول والاستراحة حتى نتمكن من الوصول إلى المدينة في أسرع وقت ممكن؛ فكنّا ننهضُ في ساعاتٍ مختلفةٍ من الليل ونواصِلُ السير.

السفر ليلَ نهار

بعد عشاء يوم الخميس السادس عشر من ذي القعدة دخلنا خيمَتنا التي ضُربت بجوار قلعة "دار الحمرة"، والمسافةُ بين هذه القلعةِ و"قلعة أحضر" أربع عشرةَ ساعة، وتحرّكْنا من "دار الحمرة" يوم الجمعة السابع عشر من هذا الشهر، ونزلنا في خيمتِنا التي جُهّزَتْ في مكانٍ حجريّ، وواصلْنا السير يومَيْ الجمعة والسبتِ وهجَرْنا النومَ والراحةَ وتحمّلْنا العديدَ من المِحَنِ والمشاقِّ ليلًا ونهارًا صباحًا ومساءً، وقطعنا الجبالَ والصحراءَ حتى لا يضيعَ علينا موسمُ الحجّ، وكانت الطُّرُقُ معوجّةً ذات مرتفعاتٍ ومنحدراتٍ، وكانت القافلة تمضي بصعوبةٍ بالغةٍ، وكانت هناك معابرُ وممرّاتٌ لا تتّسِعُ لمرورِ جملَين سويًّا.

وكانت الحيوانات تسيرُ فرادى واحدًا تلو الآخَر، ولم يكن هناك شيءٌ استثنائيّ في الطرق التي عبَرْنا منها غير التعب، وفي النهاية وصلْنَا إلى "مدائن صالح".

الرحيلُ المستمرّ

تحرّكَتْ قافلتُنا من "مداين صالح" صباحَ ليلةِ يومِ الأحدِ التاسع عشرَ من ذي القعدة، وفي اليوم نفسه مرّت من "مضيق بئر غانم" ووصلت إلى وادي "سهل المطران"، ودخلنا خيامَنا التي نُصِبَتْ هناك، وفي المضيق الذي مررنا منه توجدُ قلعةٌ تحمِل الاسم نفسه، بها بئرٌ مياهُهُ مالحةٌ إلى حدٍّ ما.

وفي ليلةِ الإثنين الموافقِ العشرين من الشهر نفسه ترَكْنا هذا المكان في الصباح، ووصلْنا إلى قلعةِ "بئرِ زُمُرُدْ" بعد الظهر، وتناوَلْنا الطعامَ في هذا المنحدر واسترحنا فيه قليلًا، وتحرّكْنا ساعةَ العصرِ، فوصلنا بصعوبة إلى قلعةِ "البئرِ الجديد" بعد العشاءِ ليلةَ الثلاثاءِ الحادي والعشرين من هذا الشهرِ، ولمّا أصبحَ الصباح تحرّكْنَا من هذا المكان، وتابعْنا مسيرَنا إلى أن غربتِ الشمسُ ثمّ استرحنا قليلًا في الصحراء وعاودنا السيرَ فانطلقنا في منتصف الليل بالضبط، وكنا نستمرّ في طريقنا في سكونٍ وهدوءٍ علويٍّ مشحونٍ بالشجَنِ، وكأنَّ الطبيعةَ كانت تُقَدِّرُ بسُكونها وصمتِها رحلتَنا الدينيّة التي قطعناها من أجلِ عبادةِ ربّ البريّة، وكأنّ الظلامَ قد اتّحدَ مع النور.

السقاء

قلعةُ "هديّة أَشْمَسِي"

وصلنا إلى مقرّ القلعة المسماة "هديّة أَشْمَسِي (Hediye Eşmesi)" [أي: حفر "الهدية"] في صباح يوم الأربعاء الثاني والعشرين من الشهر، وعند حَفْرِ الأرض في هذا المكان بعمق مترٍ واحد تخرجُ مياهٌ غزيرةٌ، وقد ملَأَ السقاؤون قربَهم بسهولةٍ، وكانت المياهُ مالحةً قليلًا وبالطبع كانت عَكِرَةً، ولا شكَّ أنَّ إطلاقَ اسم "حفر الهدية" على هذا المكان نابعٌ من استخراج الماء بسهولة بعد حَفْرِ الأرض.

سعادة "ابن الرشيد" و"ابن سعود"

تمّ تسليمُ شيخٍ يُدعى عبد الله -المرسل من قِبل "ابن الرشيد" إلى الموقع المسمّى "أَشْمَة" المذكور- الأمانات المخصّصةَ له ضمن الصرّة والتي تبلغُ ستةً وثلاثين ألفَ قرشٍ وخلعةً لابن الرشيد ذاتَ ياقةٍ مزيّنةٍ بثلاثِ شمسيّات[٢٥] مبطّنةٍ بالأطلسِ إضافةً إلى عددِ ثلاثين خلعةً للمشايخِ الموجودينَ في معيّته منها ذات شمسيّتين ومنها ذاتُ شمسيّة واحدةٍ من الجوخِ الأحمر، ووقع المشار إليه بالاستلام في الدفترِ والأماكنِ الأخرى بختمِ ابن الرشيد المحفورِ فيه اسمُ "عبد العزيز" الذي كان يحمله معه، بخلاف هذا فقد أخذنا منه وصلين مكتوبين بالعربيّة، وقد انشغلْتُ ساعةً بهذه الأعمال.

كانت هناك خصومة وعداء قديمٌ بين ابن الرشيدِ وابن سعود ملكِ الحجاز الحاليّ، وكان يحاربُ كلٌّ منهم الآخرَ بشكل مستمرٍّ، وكانا مختلفين على الدوام، وكانت الغَلَبَةُ لسعادةِ ابنِ سعود باستمرارٍ، وكان كلٌّ منهما أميرُ قبيلةٍ من أكبر القبائلِ ذات النفوذِ الواسعِ في شبهِ الجزيرةِ العربيّة.

لقد صار الشريف حسين -الذي ثار على الدولة العثمانية- مَلِكًا على الحجاز، ثم سيطرَ ابنُ سعود على هذا المكان، ومن المعروفِ اليومَ أن آل سعود همْ من يحكمونَ ويملِكون العرشَ هناك.

سيلٌ لا يختلفُ عن النهر

بعدما أنهينا عملَنا توجَّهْنا نحوَ المكانِ المُسمّى "إسطبل عنتر"، وكان الجوُّ لطيفًا والجبالُ مظلمةً من حوله، ويُرى وميضُ البرقِ، وكنّا نسمعُ أصواتَ الرعدِ في السماء وهي بعيدةٌ جدًّا.

ولقد دُهِشَ ناصِبو الخيامِ الذاهبون في المقدّمة عندما ظهر أمامهم سيلٌ جارفٌ كالنهر، وخافوا ونصبوا خيامهم على سفح جبلٍ لا يصلحُ أساسًا للنزول فيه والإقامة عليه، ولما وصلنا إليهم أوضحوا لنا أنّ سببَ هذا الأمر هو عدمُ قدرتِهم على عبورِ المياهِ، وجاءَ إلينا ثلاثةٌ من مشايخِ العربانِ الموجودِين هناك، وأشارُوا إلى الجبالِ البعيدةِ المظلمةِ وقالوا:

"لقد هطلتْ أمطارٌ غزيرةٌ هناك، وسوفَ يتعاظمُ السيلُ إذا استمرّت الأمطارُ ساعةً أخرى أو ساعتين، ولن تستطيعوا تجاوُزَ هذا السيل أو عُبورَه بسهولة".

وأوضحوا لنا أنّه من المناسب العبورُ الآنَ إلى الطرف الآخر لأن المياهَ ستستمرُّ يومين أو ثلاثة، وإذا لم نعبرْ إلى الطرف الآخَر من السيلِ كما قال المشايخُ وبقينَا في الخيام التي نُصِبَتْ هناك كنّا سنتأخَّر عدّةَ أيّامٍ أخرى، وكان الوقت سيزدادُ ضيقًا ولن تُدركَ الصرّةُ والقافلة التي ترافقها موسمَ الحجّ.

وكان عرضُ مياهِ السيلِ حوالي أربعين مترًا، فخُيّلَ إلينا أنه نهرُ "الفرات"، وكانت مياهُ السيل تجرُف بعض الدوابّ، والبعض منها كانت تجرفُه المياهُ قليلًا فيُقاوِمُها ويُتابِعُ مسيره حتى ينجو، وكنا نرى أن المياهَ تعلو تدريجيًّا بصورةٍ ملحوظةٍ، وبسعيِ وجهدِ رئيسِ العكامين لم نخسَرْ بسبب هذا السيل سوى حمارٍ واحدٍ، ثمَّ نُصِبَتِ الخيامُ قبلَ حلول الظلام، واستقرّ كلٌّ في مكانه.

والخلاصةُ أننا بعد هذا القدر من التعب والضيق استطعنا أن نصلَ في النهاية إلى "إسطبل عنتر".

الوفدُ القادمُ من المدينة المنورة

تحرَّكْنا في النصفِ الثاني من ليلةِ الجمعةِ الموافقِ للرابع والعشرين من ذي القعدة، وبعدما سرنا حتى الصباح وصلْنا عند الشروق إلى أراضٍ رمليّةٍ مستويةٍ مزيّنةٍ بأشجارٍ مثل الصبّار، وقد كانت لطافةُ المكان وانتظامُ الأمطارِ التي تمنعُ الغبارَ والرّمالَ من التصاعُدِ تُذكّرنا بفصل الربيع في مدينة إسطنبول، فلقد عبرَ الموكبُ وديانًا لطيفةً للغاية، وسارَ طوالَ الليل حتّى وصلْنا بعد العِشاء إلى "بئر ناصف".

وفي هذا المكانِ وجدْنا في انتظارِنا شخصًا يُدعى "الشيخ دياب" مرسَلًا من قبل شيخِ الحرم(٢٦) "عثمان باشا"، ومعه بعضُ أهالي المدينة المنورة وعددٌ من المشايخ والدلّالين(٢٧).

الدخولُ إلى المدينة المنورة

وصلْنا إلى المدينةِ المنوّرةِ في اليوم التالي بعدما تحرّكْنا من "بئرِ ناصف" يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر نفسه، وكان في استقبالِنا شيخُ الحرم "عثمان باشا" والموظّفون وبعضُ أهالي المدينة في المكان المسمّى "بئر عثمان" الذي يبعد عن المدينة مسافةَ ساعة.

إن أهالي المدينة أناسٌ في غاية اللطف والكرم، ويُطلق عليهم اسم "أهل المدينة"؛ فعندما نزلْنا في الخيام التي نُصِبَتْ لنا وجدْنا مائدةً عامرةً بصنوفٍ وفيرةٍ من الأطعمةِ قد جُهّزت لنا، فأكلنا جيّدًا ممّا فيها من الأطعمة الجميلةِ والشهيّة كثيرةِ البهارات، واستلمْنا الخطابات المرسلةَ مع أحدِ الأشرافِ من قِبَلِ الشريفِ "علي باشا" أمير الحجاز والوالي "راتب باشا"، وانفصلَتْ عنّا القافلةُ التي استمرّت في طريقِها ذاهبةً إلى المدينة، ولبِسْنَا ملابِسَنَا الرسميّة وعلّقْنَا أوْسِمَتَنا ودخلْنا المدينةَ المنوّرةَ من بابِ الشامِ في موكبٍ صغيرٍ رتّبَهُ آغاوات الحرمِ، تضمّنَ هذا الموكبُ شيخَ الحرم ومديرَ الحرمِ الشريفِ والموظفين وبعض أهلِ المدينة.

زيارةُ الحجرةِ الشريفة والحرم الشريف

كما ذكرت سالفًا فقد دخلْنا المدينةَ المنوّرة قُرْبَ عصرِ يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة ثم ذهبْنَا إلى الحرَم الشريف، ووُضِع عَلم الرسول ﷺ في حجرة صاحبِ السعادةِ حضرةِ رسولِنا الكريم ﷺ، ووُضِع المحمِل أيضًا في الحرم الشريف، وزُرنا ذاكَ المقام العالي بكلّ تعظيمٍ وتبجيلٍ واحترامٍ، ودعَونا أن نصِلَ بالصرّة في الوقتِ المناسب وأن نُدْرِك الحجّ، ولا أستطيعُ تعريفَ أو وصفَ قدسيّة وروحانيّة هذا المكان؛ فالأحاسيسُ الروحانيّة هناك عميقةٌ تجعلُ الإنسان يستغرقُ في السعادةِ والرقّة حتى إنه ليتجرّد من الخواطرِ الصورية وينسلِخُ عن المادّيّة ويغيبُ عن الوعي وينسى أنّه في الدنيا.



رسم تقريبي يصور المدينة المنورة [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

إن الحرم الشريف يقع في مكان قرب وسط المدينة المنورة، ويَبْلُغ طوله من القبلة حتى النهاية مائةً وخمسةً وثلاثين مترًا، وتَبْلُغ المسافةُ من باب السلام حتى المئذنة الرئيسيّة اثنين وتسعين مترًا، ومساحة ميدان الحجرة الشريفة يعني بما في ذلك المساحات الرمليّة والمساحة السطحيّة للحرم الشريف تبلغُ ثلاثة عشر ألفًا وسبعمائة وخمسين مترًا مربّعًا ونصف المتر.

والحرم الشريفُ له أطرافٌ أربعةٌ محاطةٌ بالأعمدةِ والقِباب، وله خمسُ مآذنَ وثلاثةُ محاريبَ، واحدٌ من هذه المحاريبِ هو محراب سيدنا محمد ﷺ الذي كان يُصلّي فيه، ويسمى هذا المكان "محراب النبي"، وقالوا إنه -تأدُّبًا- تمَّ إرجاعُ المحرابِ للخلفِ قليلًا من أجلِ أن يَصِلَ المصلّي إلى مكان موطئِ قدمِ الرسولِ ﷺ، وفعلتُ مثلما فعلَ أكثرُ الحجيجِ وصلّيتُ ركعتين في هذا المحرابِ المباركِ ودعوتُ الله وأنا به، وأما المحرابان الآخران فيطلق على أحدهما "محراب عثمان" وعلى الآخر "محراب سليمان".

ويُطلق اسمُ "الروضةِ المطهّرةِ" على المكانِ الكائنِ بين المنبر والحجرةِ النبويّة، ولقد فُرش الفراغ الكائنُ بين القِبابِ بالرملِ الأصفر، والمكانُ الذي دُفِنَ فيه نبيّنا ﷺ يقعُ في الزاويةِ اليُسرى، ويُسمّى هذا المكانُ باسمِ "حُجْرَةِ السعادة" أو "الحُجْرة المعطّرة" أو "الحجرة الشريفة".

وكلّ أطراف حجرةِ السعادة مزيّنٌ بالأوسمةِ والحفرِ وقضبانٍ ذاتِ طلاءٍ أخضر، وبابُها يقع من ناحيةِ قدم سيّدِ الكائنات حضرةِ سيدنا محمد ﷺ، أي في الجِهَةِ الرمليّة، وهذا الباب المذكورُ المصنوعُ من نفسِ القضبانِ واسعٌ ذو جناحين، ولا يدخلُ داخلَ القضبان المسمّاةِ الشبكةَ إلا الخدّام، أو زعماء المدينة والأشراف والسادات الأكابرُ المنتسبون للمدينة، إضافةً إلى ذلك فإنَّ هذا الشرفَ ينالُه شيخُ الحرَمِ ومديرُ الحرم الشريفِ ومحاسبُه وبعضُ الزوّار.

يقالُ إنّ الحُجْرةَ النبويّة مزيّنةٌ بالكثيرِ من الأشياءِ والأحجارِ القيّمةِ، ولكن لمّا شَرُفْتُ بالدخول داخلَ الشبكةِ لم أنظُرْ إلى أيّ من هذه الأشياء؛ لأنّني زرتُها وأنا في غايةِ التعظيم والخشوعِ، وفي الحقيقة فإن داخلَ المرقد النبويّ لا يُرى لأنّ أطرافَه محاطةٌ بستارٍ من الأطلسِ طُرِّزَتْ عليه كلمةُ التوحيد بالحريرِ الأصفرِ، ويوجدُ في هذا المكانِ مرقدُ فخرِ الكائنات حضرةِ سيّدنا محمد ﷺ، وبجوارِه مرقدُ سيّدنا أبي بكر الصديق وسيدنا عمر رضي الله عنهما.

ويوجدُ بجوار القِبابِ الموجودةِ خلفَ الحجرةِ النبويّة ويسارِ المحلّ الرمليّ حديقةٌ صغيرةٌ اسمُها "روضةُ فاطمة"، وقد نبتَتْ فيها أشجارُ النخيلِ، وأما البئرُ الموجودُ في المَحَلِّ الرمليّ فقد كانت أطرافُهُ مُحاطةً بقضبانٍ حديديّة.



سُمِّيَتْ قبّةُ السعادة "القبّة الخضراء" لأن ظاهرها مدهونٌ بالطلاءِ الأخضَرِ، ويُجَدَّد طلاؤُها كلّ سنةٍ؛ فيقومُ شيخُ الحرَمِ بطلاءِ أوّلِ فرشاةٍ، ثم يقومُ كلّ واحدٍ من الموظّفين بطلاءِ فرشاةٍ تبرّكًا، ثم يقومُ واحدٌ من أصحابِ هذه المِهنَةِ بإكمالِ الطلاء.

يوجدُ في المدينةِ المنوّرة مقابرُ عظيمةٌ تُسمّى "جبانة بقيع الغرقد"، وقد دُفِنَ في هذا المكان الكثيرُ من آل البيت الكرام والصحابة ذوي الاحترام ﷺ.

التسليمات التي تمّت في المدينة المنورة

سُلِّمت أكياسُ النقودِ الخاصّةُ بالمدينةِ المنوّرةِ ومبلغُ خمسةٍ وسبعين ألفًا وتسعمائة وأربعةٍ وسبعين قرشًا المُرْسَلُ والمحوّلُ إلى "بيروت" كرواتب للعسكريّين المستوطنين في المدينة المنورة والمتقاعدين وأرامل العسكريين لِعام (١٣٣٢ رومية) إلى مديريّة الحرمِ الشريفِ ومحاسبتِها بسرعةٍ مقابلَ ورقةِ الإعلامِ والسندِ، كما أنه كانت هناك إرساليّة خاصّةٌ منفصلةٌ لكلٍّ من شيخ الحرم النبويّ ودائرةِ الخزانةِ النبويّةِ ونائبِ الحرمِ النبويّ ولقد سُلِّمَتْ لأصحابها، ووزّعت الجُبَبُ المختلفةُ الألوانِ المصنوعةُ من الصوفِ الأنقرويّ المرسلةُ من نظارةِ الأوقاف إلى القاضي وغيره.

وسُلِّمَ إلى خازنِ مخزنِ الحرم الشريف تسعُمائة وإحدى وستون قية[٢٨] من الشمعِ المصنوعِ من العسلِ وخمسة آلافٍ ومائة من عيدان البخور، وثلاثمائة قرصٍ مذهّب، وخمسةٌ وسبعون مثقالًا من زيت الورد.



دخولُ آخرِ مواكب الصرّة السلطانية المدينةَ ترافقه الموسيقى الهمايونية عام (١٩١٧م) [مجموعة عمر فاروق شريف أوغلُو]

وقد وَزَّعْتُ وسلّمتُ الخِلَعَ والعطايا المخصّصةَ للمشايخِ الموجودين في المدينةِ ولمشايخِ العربانِ الموجودين في الأطرافِ والمقيدةِ أسماؤهم في دفاتر المدينة المنورة -طوالَ الليل- ولم أحظَ بالنوم ساعةً.

وسلمْتُ مبلغَ خمسةٍ وعشرين ألفًا وخمسمائةٍ واثنين وأربعين قرشًا -التي لم يأتِ مستحقُّوها وأصحابُها لاستلامِها منّي مباشرةً لأسبابٍ غير معلومة- إلى خازنِ خزانة الحرمِ النبويّ الشريف مقابلَ السند ليقومَ هو بتوزيعِها على أصحابِها.

الخروجُ من المدينة المنورة

وصلْنا إلى المدينة المطهّرةِ بعد عصرِ يوم السبتِ الخامسِ والعشرين من ذي القعدة، وتحرّكنا يوم الإثنين في الوقت نفسه إلى مكة المكرّمة، وتمكَّنّا من البقاءِ في هذا المكان ثمانيةً وأربعين ساعةً فقط، وخلالَ تلك الفترةِ أَكْملْتُ الأعمالَ اللازمةَ ببذلِ جهدٍ جهيدٍ، وبعد أن ودّعْنا شيخَ الحرم والموظفين والموجودين من أهل المدينة ذهبْنا إلى الحرمِ الشريفِ، وزرْنا هذا المقامَ العالي مرّةً أخرى، وتركتُ هذا المكانَ مضطرًّا وأنا في غايةِ الحزنِ والتأثُّر، وأخرج العَكّامون السنجقَ والمحمِلَ من مكانيهما تحتَ إشراف ونظرِ رئيسهم والمقوّم وبمرافقةِ وإرشاد زعماء المدينة وملازمي الحرم النبويّ وسطَ صيحاتٍ من التهليلِ والتكبيرِ، ثمّ وضعوه أمام خيمتنا التي نُصبت في ميدان "مناخه"، وتمّ بعد ذلك تحميلُه على العيرِ، وتشكيلُ قافلةٍ، وأخذْنا في معيّتنا الحجيجَ الذين جاؤوا إلى المدينةِ للزيارةِ وكانوا في انتظار موكب الصُرّة ليُرافقوها في الذهابِ إلى مكّة، وسرنا في" طريق الواسطة" بينما أُطلِقت من القلعة قذائفُ النيرانِ للتحيّةِ وسطَ تأديةِ الجنودِ التحيّةَ العسكريّةَ والتصفيقَ الكثير، ثمّ وصلْنا إلى المكان المسمّى "أبيار علي" بعد ثلاث ساعات، وفي هذا المكان أحرمَ من الحجيجِ الشافعيّةُ والشيعةُ من الحجيج الإيرانيين.

إن الطريقَ الوسطَ الذي اتّبعناه هو أقصرُ الطرق بين المدينة المنورة ومكّة المكرمة، وبخلاف هذا فهناك طُرُقٌ تسمّى "فرعه" و"سلطان" و"جيار" و"شرق"، وكلُّ طريقٍ منها يمرّ من أماكنَ مختلفة، وطريق "الوسط" وطريق "فرعه" و"سلطان" تمرُّ جميعُها على ميقات "رابغ"، والطريق الذي سيتبعه المحمِل والصُّرّة يتمُّ تحديدُه من قِبَلِ أميرِ مكّة أو بقرارٍ صادرٍ من شيخ الحرمِ ومجلس الإدارة، ويكون سرّيًّا للغاية.

الهرولة مرّة أخرى

وقد اضطُرِرْنا للهرولةِ في الطريق ليلَ نهار لأن الوقتَ قد ضاقَ جدًّا، وخرجْنا من المكانِ المسمّى "أبيار علي" يومَ الثلاثاءِ الثامنِ والعشرين من ذي القعدة، واسترحْنا في المكان المسمّى "بئر الغزالة"، ووصلْنا في اليوم نفسه إلى "بئر الماشي"، وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة وصلنا إلى "غديره"،



صورة تذكارية التُقِطَت أمام المحمل الشريف قبل ذهابه من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرمة بتاريخ الثاني من كانون الأول/ديسمبر عام (١٣٣١ رومية)

وفي يوم الخميس وصلنا إلى "الريان"، وفي الجمعةِ الموافقِ الأول من ذي الحجة وصلْنا بصعوبةٍ وجهدٍ إلى "ظهر العقبة"، ولم يحدُثْ ما يستحقّ الذكرَ في الأماكنِ المذكورةِ التي مررْنا فيها بسرعة.

السراب:

ومثلما فعلْنا في الكثير من الأماكن خرجْنا من "ظهر العقبةِ" ليلةَ الأحد الثالثِ من الشهرِ المذكور، وكنتُ قد قلتُ إن الطريقَ الوسطَ الذي نسيرُ فيه يمرّ من مدينةِ "رابـغ".

و"رابـغ" تقـع على ساحلِ البحرِ الأحمرِ، وعندما عرف الحجيجُ هذا زادتْ الرغبةُ لدى أغلبِهم في مشاهدةِ البحرِ نظرًا لطولِ الطريقِ البرّيّ الذي ساروا فيه، ومنذُ أن تحرّكْنا من "مستوره" نحو "رابـغ" كانت أعينُنا تبحثُ عن البحر في كلّ لحظةٍ خلالَ سيرِنا الذي استمرَّ ثماني عشرةَ ساعةً، وبينما كان يسعى بعضُ الحجيجِ لإثباتِ





رسم تقريبي يصور مكة المكرمة، مأخوذ من كتاب "إغناطيوس موراديغا دوهسون (Ignatius Mouradgea d'Ohsson)" المسمّى "نظرة عامة على الإمبراطورية العثمانية" والمطبوع عام (١٧٩٠م) [صحيفة زمان، مجموعة ٤٠ أثرًا]

رأيِهِ لرفيقِه والبرهنةِ عليه مدّعيًا أنه رأى سفينةً شراعيّةً أو دخانَ باخرةٍ اقتنعْنَا جميعًا أنّنا رأينا البحرَ، حتى إنَّ مَن نظَرَ بالمنظار ومَنْ كان حادَّ البصرِ منّا كانوا يقولون إنّهم رأَوا أمواجَ البحرِ، وبعد أن اقتربنا بشوقٍ بالغٍ وفضولٍ عارمٍ فهِمْنا أنّ ما شاهدوهُ ليسَ إلّا سرابًا.

إن هذا الخداعَ البصريَّ من الطبيعة لأعيننا -التي نثقُ بقدرتِها على تشخيصِ كلِّ شيءٍ على حقيقته بالضبط- بالإضافةِ إلى وحشةِ الصحراءِ جعلَنا نغوصُ ونغرقُ في سكونٍ عميقٍ، وكأنّ هذا الأمرَ سرٌّ من أسرارِ هذه الصحاري الشاسعةِ الواسعةِ، وبعدما سِرْنا كثيرًا ظهرَ في النهايةِ البحرُ الأحمرُ الحقيقيُّ، وسِرْنا فترةً طويلةً في ممرٍّ للماشيةِ موحِلٍ للغاية، فلم تكنْ حوافرُ الحيواناتِ تُرَى من الطين، ووصلنا إلى "رابغ" مساءَ يومِ الأحدِ بينَ المغرب والعشاء، وأُطلِقَتِ النيرانُ من القلعة تحيّة لنا.

ما معنى الدخول في الإحرام؟

في هذا المكانِ أحرمْنا نحنُ لأننا نعتنق المذهب الحنفي -وكذلك أغلب الأتراك- وأما الدخول في الإحرام فهو يعني أن ينويَ المرءُ الحجَّ ويقول الأدعيةَ والأذكار اللازمةَ ويتجرّد من لبسِ المخيطِ من الثياب...

تحرّكْنا في يومِ الأحدِ الرابعِ من ذي الحجّة، ثمّ أخذنا استراحةً في "لحد صالح"، وفي يوم الثلاثاءِ الخامسِ من ذي الحجّةِ أخذنا قسطًا من الراحةِ في "عسفان" وفي "بئر الطفل" الذي يوجدُ فيه بئرُ ماءٍ عذبٍ، وفي يوم الأربعاء السادسِ منه وصلنا إلى "وادي فاطمة".

إن "وادي فاطمة" يبعدُ عن مكّةَ المكرّمة من خمس إلى ستِّ ساعاتٍ من جهةِ المدينة المنورة، ويبلغُ ارتفاعُهُ عن سطح البحر مائةً وتسعين مترًا.

الوصولُ إلى موقعِ "شهداء"

الآن اقتربْنا من مكّة، والحمد لله فلم يبقَ لدينا خوفٌ، وقد ارتسَمت على وجوهنا ملامحُ السعادة، فأكمَلْنا طريقنا وشاهدنا جمعًا غفيرًا من الناسِ يتقدّمُ باتّجاهنا وقالوا إنهم أدِلّاءُ على الطريق، وكان بعضُهم من أهالي مكةَ المكرّمة الذين أتَوا على ظهور الخيلِ والبعيرِ لاستقبالِ الصرّة.

ونجحْنا في الوصول إلى المكانِ المُسمّى "شهداء" في يوم الخميسِ الموافقِ للسابع من ذي الحجّة، ولقد كان "شهداء" من الأماكن المستوية والمسطّحة بجوارِ مكّة، ومن هذا المكان يتمّ الذهابُ إلى مكّة المكرّمة

وإلى عرفات، وقد انفصل عنّا الحجيجُ بسرعةٍ وذهبوا إلى مكّة المكرّمة لكي يستعدُّوا للوقوفِ بعرفات، أما نحنُ فقد أرسلْنا الصُّرّة وصناديقَ المخصّصات إلى مديريّة الحرمِ الشريفِ، وبقينا في هذا المكان.

زيارةُ الوالي والأمير

إن "راتب باشا" والي وقائدَ الحجاز -الذي علِم بوصولِنا- جاءَ إلى خيمتِنا مرتديًا زيًّا جميلًا وفخمًا خاصًّا بأهلِ هذه البلدة، وقال: "أهلًا وسهلًا بكم"، وسألَ عن سببِ تأخُرِنا كلّ هذا الوقت وقد أعطيتُ له الأجوبةَ اللازمةَ على الأسئلة، وأخذَ بعضَ المعلوماتِ عن إسطنبول وشكرَنا ثم مضى.

وبعد الوالي جاء أميرُ مكّة "الشريف علي باشا" راكبًا عربةً جميلةً -ذات أربع عجلاتٍ- تجرّها الخيل، فكانت فريدةً لم أرَ مثلها من قبلُ، فخرجْنا جميعًا من الخيمة وقبّلْنا يدَه تعظيمًا، وأظهرنا له الاحترامَ والتقديرَ، وقدّمَ جنودُنا التحيّةَ العسكريّةَ وهم يرتدونَ ملابسَ الإحرام.

مدينةُ مكّة المكرّمة

بعدما خُتمت المراسمُ كان أوّلُ عملٍ لنا هو دخولُ مكّة المكرّمة، ولقد كانت مكّةُ عبارةً عن وادٍ منخفضٍ يتوسط سلسلةً جبليّةً من الأحجارِ السوداءِ، ولِأنّ أهلَها في ازديادٍ مستمرٍ فقد بُنِيَتِ المنازلُ حتّى في أعلى الجبال، وكانت الأبنيةُ المعمولةُ من الحجرِ متينةً جدًّا، وقد بُنِيَتْ لتكونَ استراحاتٍ للحجيجِ، فكانت على شكلِ العمارات، وكان من بين هذه الأبنيةِ ما وصلَ إلى خمسةِ وحتى إلى ستّةِ طوابق.

السعادةُ عند رؤيةِ الكعبةِ لأوّلِ مرّةٍ

توجد منازلُ كبيرةٌ يُطلَق عليها اسم "مدرسة"، وتتصل بالحرم الشريفِ ولها أبوابٌ وممرّات على الحرَم، والقادمون من الخارجِ يمرّون من أسفلِها ليدخلوا إلى الحرمِ الشريف، فهذه المدارسُ تُعَدُّ جزءًا من الحرمِ الشريفِ، والصلاةُ فيها كالصلاةِ في الحرمِ الشريفِ بالضبطِ، وفيها يتمكّنُ الإنسان من الصلاةِ خلفَ إمامِ الحرَم، وبعد أن علِمْنا أنّ أميرَ مكّةَ المكرّمةِ قد خصّص مدرسةَ "الداوودية" -التي هي واحدة من تلك المدارس- لإقامتِنا ذهبْنا إلى هناك، ووضعنا حاجياتِنا في عدة غُرَفٍ، ونظرْنا إلى كعبةِ الله من نوافذِ غُرَفِنا المطلّةِ على الحرمِ الشريف، فحمِدْنا الله وشكرنَاه على وصولِنا في موعدِ الحجّ سالمين، وكان بينَنا مَن أكثرَ في الدعاءِ ومَنْ أكثرَ في البكاءِ، فما أشدّ قدسيّة وتديُّن وعظَمَة هذا المشهدِ المبارك، ولأنّه تمّ رفعُ الجزءِ

السفليّ السميكِ من ثوب الكعبةِ الأسودِ فقد كانت أحجارُها ظاهرةً، وكأنَّ الكعبةَ قد أَحرَمَتْ هي الأخرى، وكان العديدُ من الحجيجِ يطوفونَ وبعضُهم يصلُّون جماعةً، فكنْتَ ترى أمامكَ مباشرة الكعبةَ التي يتوجّه إليها المسلمون في جميعِ أنحاءِ العالم، فذهبْنا جميعًا تُسابقنا أشواقُنا إلى الحرمِ الشريفِ، وقُمنا بأداء الطواف المسمّى "طواف القدوم".

الطواف

الطوافُ: هو الطوافُ سبع مرّاتٍ حولَ البيتِ المعظّمِ -أي الكعبةِ- من اليسار إلى اليمين ابتداءً من الزاويةِ التي يوجدُ فيها الحجرُ الأسودُ، ويُؤَدّى الطوافُ مرّاتٍ عديدةً.

أثناء الطوافِ تمتَدُّ الأيادي إلى "الحجرِ الأسودِ" عند الوصولِ إلى الزاويةِ التي يوجدُ فيها ويقالُ: "بسم اللهِ واللهُ أكبرُ ولله الحمدُ"، ثم تُدلَكُ الأيادي بالوجوهُ، ويستحب أن تَمَسَّ الأيادي الحجرَ الأسودَ ولكنّ هذا مستحيلٌ بسببِ الزحام، ولهذا يُكتفى بالإشارةِ إليه ولو عن بُعد.

يتمّ الطوافُ بواسطة أدِلَّاء ومرشدين، فيقومُ الدليلُ الواحدُ منهم بجمعِ عددٍ كبيرٍ من الحجيجِ ويتلو الأدعيةَ أمامهم ويعلمهم كيفية الطواف والمناسكِ وما ينبغي أن يقوله الحاج من أدعيةٍ وأذكارٍ، ويتوفّر هناك مرشدين من كل الأمم[٢٩].

ومن الواجبِ أن تُصلى ركعتان بعدَ كلّ طوافٍ في مقامِ إبراهيم ﷺ، وبعدما قمنا بالطوافِ زرْنا المقام المذكور وصلّينا فيه صلاتنا.

السعي

عندما ذهبْنا إلى الصفا من أجل السعيِ كان الظلامُ قد حلّ؛ فأدّينا هذا الفرضَ الدينيّ في الليل.

يوجد جبلان يسمّيان الصفا والمروة والمسافةُ الموجودةُ بينهما تبلغ خمسمائة وسبعة وسبعين مترًا، وجبلُ الصفا موجودٌ ناحيةَ الكعبةِ بالقربِ من جبلِ "أبي قبيسٍ"، والطريق ضيّق نوعًا ما، وتوجد أقواسٌ وأُطُرٌ حجريّةٌ عند رأسَي الجبلين، ويُطلَقُ السعيُ على الذهابِ والإيابِ سبعَ مرّاتٍ هرولةً في هذا الطريق، ويبدأ السعي من الصفا وينتهي عند المروة، وتؤدّى تلك الفريضةُ أيضًا بإرشاد الدليلِ، وهناك أدعيةٌ مخصوصةٌ بالسعي أيضًا مثل الطواف، وهذه الأدعيةُ يقولُها الدليلُ بصوتٍ مرتفعٍ والحجيجُ يردّدون خلفَه.

الصعود إلى عرفات

بعدما أدّينا فريضةَ السعيِ عُدْنا إلى خيمتِنا الموجودةِ في "شهداء" بعد العشاءِ بوقتٍ طويلٍ، وفي اليومِ التالي -يعني يومَ الجمعةِ الثامنِ من ذي الحجّةِ- انطلقْنا وقد تقدّمَتْنا الفرقةُ الموسيقيّةُ العسكريّةُ التي ترتدي ملابسَ الإحرامِ، والجنود الذين يستقلُّون البغال وخلفهم اللواءُ الشريفُ والمحمِلُ والهودجُ إلى ساحةِ عرفات الموجودةِ في المنطقةِ الشرقيّةِ من مكّة، وخرج أهالي مكّة المكرّمة إلى شوارعِها الداخليّة والخارجيّة لمشاهدتنا، وطبقًا لعادةِ العربِ فلقد كانت النساءُ تصفّقْنَ وتطلقْنَ الزغاريد، وشاهدنا منطِقةَ "المزدلفةِ" من بعيدٍ، وبعدما نزلْنا بـ"منى" قليلًا وصلْنا إلى خيمتِنا التي نُصِبَت في ساحةِ "جبلِ عرفات".

بدأ الحجيج الموجودون في مكة المكرمة -سواء كانوا من أهالي مكّة أو ممّن جاء إليها من البلاد الأخرى (الآفاقيون) بقصْدِ الحجّ - في الصعود إلى "عرفات" وهم محرِمون وذلك بدايةً من الخامس من ذي الحجة حتى التاسع من ذي الحجة.

قضينا الليل في ساحةِ عرفات، وكانت خيمتُنا تضيئها القناديل وتزينها في آن واحد، وبقينا هناك حتى (الوقفة) في يوم الجمعةِ التاسعِ من ذي الحجّة، ويُطلقُ اسمُ الوقفةِ على الوقوفِ في ساحة "جبلِ عرفات" من الصباح حتى الزوال في اليوم السابقِ ليوم عيد الأضحى.

وكانت الراية الشريفةُ والمحمِلُ الشريف موضوعين في مكان ظاهر أمامَ خيمتِنا، وكان الحجيجُ يأتون لزيارتِهِ أفواجًا؛ فكان كلُّ فوجٍ يدعو بِلُغَتِهِ.

عين زُبَيْدَة

نُقِلَتِ المياهُ المجتمعةُ أسفلَ الجبالِ الموجودةِ في المكانِ المسمّى "وادي النعمان" البعيد عن مكّة المكرّمة مسافةَ ثماني ساعاتٍ إلى مكّة المكرّمة بواسطةِ مجارٍ مغطّاةٍ من أعلاها أُنشِئَت من قِبَلِ السيدة زُبَيدَةَ -زوجةِ هارون الرشيد-، ورغمَ أنَّ هذه المياه قد وصلت إلى الجبالِ القريبةِ من عرفات إلا أنّهم لمْ يستطيعوا التقدمَ بها أكثر من ذلك لصلابةِ الحجارةِ الصوّانيّةِ في ذلك المكان.

المحمِل المصري والشاميّ

ترسِلُ مصرُ أيضًا صرّةً ومحمِلًا إلى مكّة المكرّمة، وتلك الصُّرّة لها أمينٌ وموظفون وجنودٌ وحتى فرقةٌ عسكريّةٌ، أمّا محملنا أي الصرة الهمايونية التي تسمى بالمحمِلِ الشامي فكانت تذهَبُ أوّلًا إلى المدينةِ المنوّرةِ،



موكب المحمل المصري [مجموعة "يوسف جاغْلار"]

ثمّ تأتي إلى مكّة، وبعد عملِ المراسِمِ المعتادَةِ يَصْعَدُ إلى عرفات، ويوم الوقوف بعرَفَةَ يوضَع المحمِلان بجوارِ بعضِهما البعض على جبلِ عرفات، وبعدَ أذانِ المغربِ يُتْركان سويًّا في هذا المكانِ ويذهبان إلى "مِنى"، ومحملُنا أخضرُ اللون أمّا المحمِل المصريّ فهو أحمرُ اللون.

"لبّيك اللهم لبّيك"

إن الحجيجَ الذين بقوا في خيامِهم على جبلِ عرفاتٍ حتى العصرِ من يومِ عرفةَ صلّوا العصرَ هناك، ثمَّ بدؤوا في حلِّ خيامِهم وتحميلِها على الجِمال والدوابِّ، وركِبُوا دوابّهم التي جاؤوا بها وتجمّعوا في طرفِ الجبلِ الموجودِ باتّجاهِ مكّة المكرّمة أمام مكانِ إلقاء خطبةِ الجمعةِ، ولقد أُطْلِقَتْ قذيفةٌ من ناحيةِ الصخورِ الصلْبةِ من هذا الجبلِ المقدّس قبلَ عدّةِ ساعاتٍ للإعلانِ عن بدايةِ وقتِ الوقوف بعرفة، ولهذا فقد امتلأ الجبلُ

بالحجيجِ من جميع المذاهب والفِرقِ الإسلامية من العرب والعجم الذين جاؤوا مشيًا فصارَ الجبلُ كأنّه كتلةٌ من البشرِ، وفي أسفلِ الجبلِ وقف قاضي مكّةَ المكرّمة راكبًا جملًا عند المكان الذي صلّى فيه النبيّ ﷺ وظلّ يخطُبُ ويدعو بـ"الحزبِ الأعظمِ" حتّى غربَتِ الشمسُ، وبينما كان يدعو ويخطُب كان ما يزيد على مائتي ألفِ حاجٍّ يصيحون عندما يُشار إليهم قائلينَ: "لبّيك اللهمّ لبيك..." وكان الجسد يقشعرّ من صدى أصواتِهم.

الإفاضة من عرفات

بعدما انتهتِ الخطبةُ وغربتِ الشمسُ وأُطلِقتِ الألعاب الناريّة في الهواء أضحى كلٌّ منهم حاجًّا، واتَّجهتِ الأنظار نحوَ مكّة المكرّمةِ من أجل العودةِ إليها، وبعضُهم كان يُطْلِقُ النارَ في الهواءِ من الفرحِ، وكانت الفرقتان الموسيقيّتان تعزِفانِ بالتناوبِ ألحانًا جميلةً، وأَطلَقتِ المدافِعُ قذائِفها، وكان المحمِلان الشاميّ والمصريّ يسبحان بتناغمٍ بين الجنودِ والحجيجِ، ووصلْنا إلى جوارِ مسجدِ المشعرِ الحرامِ في المزدلفةِ بعد الغروبِ بثلاثِ ساعاتٍ، وقد مضى وقتُ صلاةِ المغربِ، ولأنَّنا لم نصلِّ المغربَ فقد جمعْنا صلاةَ المغرب والعشاء بأذانٍ واحدٍ وإقامةٍ واحدةٍ.

صلاةُ العيد وموقعُ "مِنى"

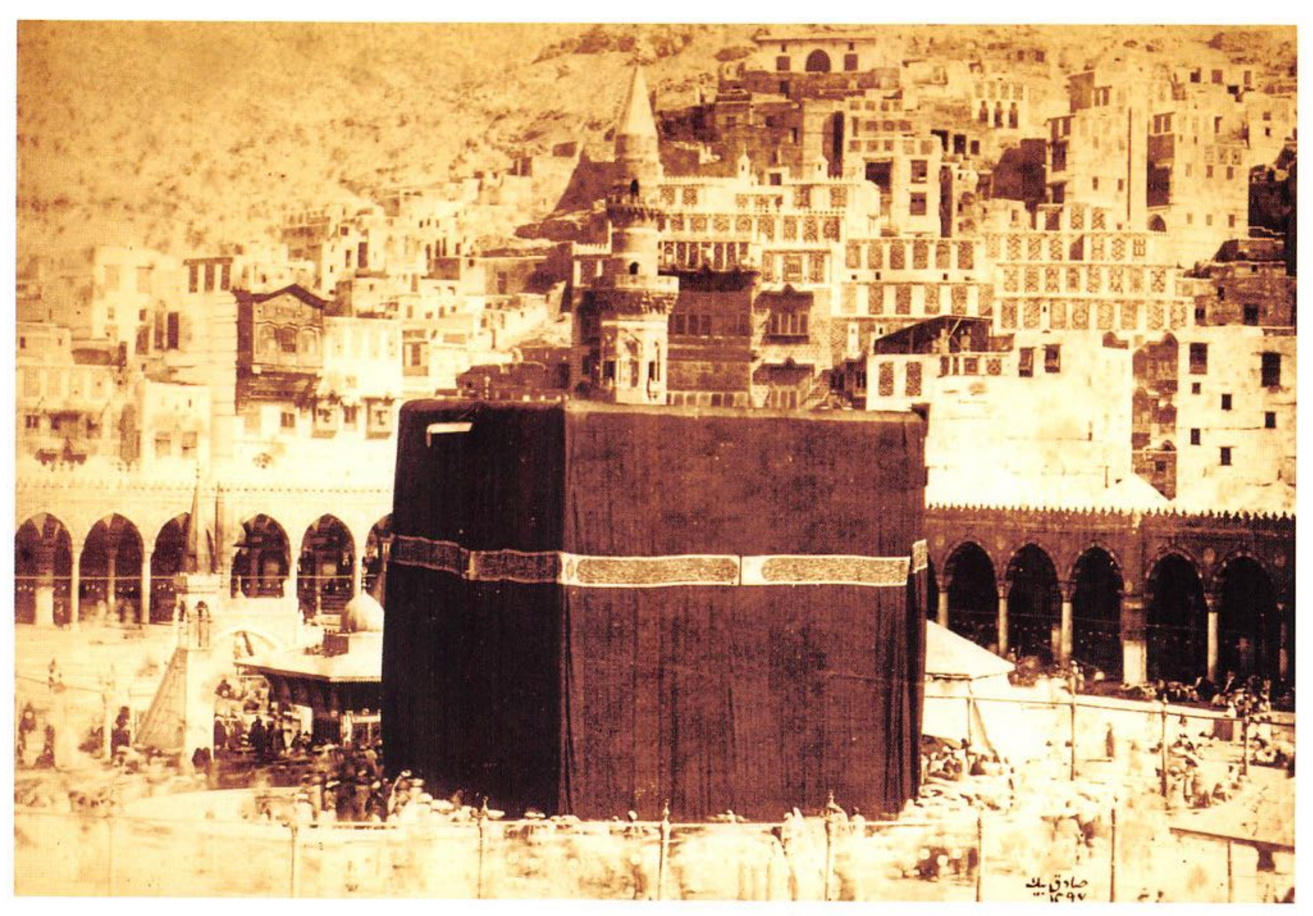
اليومُ التالي كان يومَ العيدِ، وفي الصباح الباكرِ اتّحدَ المحمِلان، وأُدِّيت صلاة العيد في المسجد الحرام، وأثناء الخطبة وُضِعَت على الخطيب خلعةٌ وبعد الصلاة سُلِّمت المخصّصاتُ، أمّا صلاةُ العيدِ فقد صلاها مَن رغب من الحجيج في الجامع في "منى"، وبعد صلاة العيد وسماع الخطبة ذهبنا إلى "منى" لنذبح الأضاحي.

"منى": سهلٌ كبيرٌ ولطيفٌ، ويُوجَد فيه جامعٌ يُسمَّى "مسجد الخيف" وهو مسجدٌ كبيرٌ مُحاطٌ بجدران وله بابان.

وإذا نظرتَ إلى الجبال القريبةِ من السهل تراها مليئةً بقطعانٍ من النعاج، فقد رُبِّيَتْ هذه النعاجُ وجيءَ بها إلى هذا المكان ليشتريَ منها من يريدُ أن يذبحَ الهديَ أو الفداءَ أو الأضاحي.

ذبحُ الأضحية

في وسط هذا السهل المذكور حُفرت خنادقُ عمقُها خمسةُ أمتارٍ، ولعدم وجودِ أشجارٍ تُعلَّقُ عليها النعاجُ فقد غُرِسَتْ أعمدةٌ غيرُ منتظمةٍ، وكلُّ حاجٍّ يذبحُ أضحيتَهُ بنفسه أو يذبحُها عنه وكيلُه.



الكعبة المشرفة [ألبومات يِلديز۹۰۷۷۰-۱۲ - جامعة إسطنبول]

الثلاثةُ أيام التي قضيناها في "مِنى"

يبقى الأحنافُ في "مِنى" ثلاثةَ أيَّامٍ، والشافعيّةُ وحجيجُ إيرانَ أربعةَ أيّامٍ وعند العودةِ من عرفات يُنصب في "منى" سوقٌ كبيرٌ، وفيه يبيعُ الحجيج الأشياءَ الزائدةَ التي لم يعُدْ لها حاجة، وأكثرُ بضاعة السوقِ هي السجّاد.

يوجد في "منى" دائرةٌ صحّيّةٌ ومستشفى بها أربعون سريرًا، وفي النهارِ يوضعُ عليها عَلَمٌ، وفي الليل يُعلّق عليها قنديلٌ أحمر اللونِ حتى يُرى البناءُ من كلّ الأطراف.

رميُ الجمراتِ

الآن سوف يُرجَم الشيطان، ويكونُ الرجْمُ في ثلاثةِ أماكنَ مختلفةٍ في سهلِ "منى"، وقد تمَّ تحديدُ كلّ مكانٍ من أماكن الرجم بحائطٍ مستديرٍ.

وبعد ذبحِ الأضاحي والرجمِ تحلّلْنا من الإحرامِ، والتحلُّلُ من الإحرامِ يعني الاغتسالَ والحلقَ ولبسَ المَخيطِ من الثيابِ والحذاءِ.

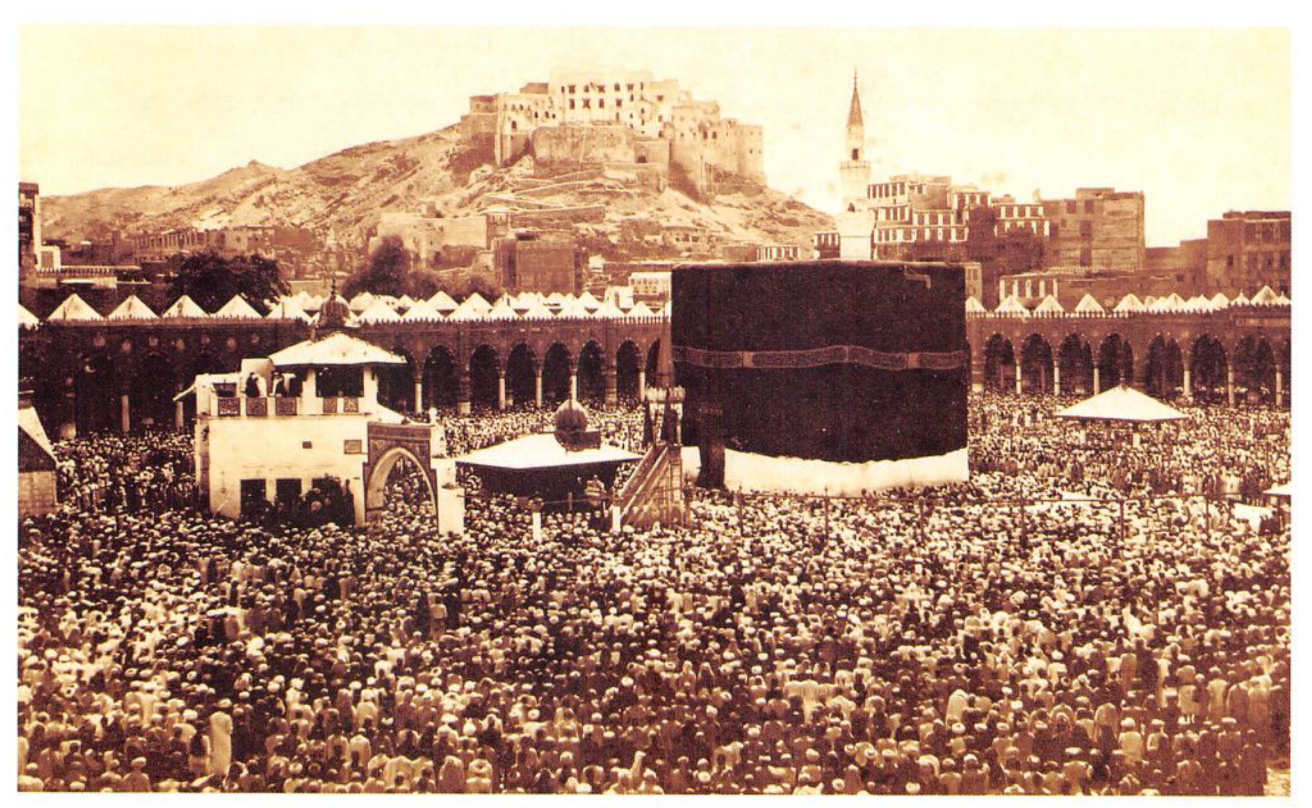
في تلكَ الليلةِ زُيّنت وأُضيئت خيمتُنا بالقناديلِ الملوّنةِ التي جلبناها معنا من إسطنبول، وأُطْلِقت النيرانُ في الهواءِ، وأُشعِلتِ المشاعلُ.

وكما ذكرتُ في البداية فإنَّ تلكَ الرحلةَ الدينيّةَ كانتْ متعِبَةً وخطيرةً جِدًّا كما كانت حلوةً ومثيرةً للغاية أيضًا.

قراءةُ الخِطاب المرسَل من السلطان "عبد الحميد الثاني"

وفي ثاني أيّام العيد ارتدى كلٌّ من أمينِ الصُرّة ومحافظِ الحجِّ وكاتبِ الصُرّة ومحافظِ الخزانة وآغا القفطان ورئيسِ المبشرين زيّهُ الرسميّ وركِبَ دابّتَه، وذهبْنا خصّيصًا للمعايدةِ على أميرِ مكّةَ المكرّمة في خيمتِهِ التي نُصِبَت في "مِنى" وكان في معيّتِنا عددٌ من الأفرادِ وعددٌ من الجنود، وكانت الخيمةُ ذات عمودَين مرتفعةً وكبيرةً جدًّا، وكان يوجَد فيها ما بين أربعمائةِ إلى خمسمائةِ شخصٍ، وكان يجلِسُ في الجزءِ العلويّ منها الأميرُ والوالي وكلّ الأشرافِ والساداتُ والعلماء والقادة العسكريون وقد ارتدى كلٌّ منهم زيّهُ الرسميّ، واجتمع الموظّفون والزائرون ينتظرون قدومَنا، وعندما دخلْنا الخيمةَ هبَّ الجميعُ واقفين، وقدّمَ أبي الرسالةَ السلطانيّة إلى الأميرِ، وأعطاها الأميرُ إلى كاتب التحريرات، وأمرَهُ بفتحِها وقراءتِها، وقدّم أمينُ الصُرّة إلى الأمير صرّةً من الأطلس تحتوي على عباءتين، الأولى: للعيد -وهي مزيّنةٌ بالماس ومرصّعةٌ باللآلئ والخيوطِ الذهبيّة ومبطّنةٌ بالحرير- والأخرى: للجُمُعَةِ وكانت ياقتُها وأكمامُها مزيّنةً بالخيوط الذهبيّة، واتّباعًا للعادات والتقاليدِ فقد قامَ أميرُ مكّة المكرّمة بإعطاءِ فروٍ لكلٍّ من أبي ومحافظِ الحجِّ والموظفين المنسوبين للقصر.

بعد انتهاءِ المراسمِ ذهبَ الوالي والأميرُ إلى خيامِهم الخاصّة واحتفلوا بالعيد، ثم جاء الوالي والأميرُ إلى خيمتِنا بعد ذلك وردّوا لنا الزيارةَ، وقُدِّمت لهم القهوةُ والحلوى، ثمَّ جاءت إلى خيمتِنا فرقتُنا الموسيقيّة والفرقة الموسيقيّة المصريّة المكوّنةُ من خمسةٍ إلى ستّةِ أشخاصٍ، وبعدما عزفوا بعضَ المقطوعاتِ أمامَ خيمتِنا أخذوا عيديّتَهم وذهبوا، وبهذا انتهت المراسم ولم يعد لنا هنا أيُّ واجبٍ دينيٍ أو رسميٍ ولهذا قمنا مباشرةً بالعودةِ إلى مكّة.



إحرام الكعبة المشرفة رمزٌ مهمٌّ من رموز الحجّ [ألبومات يِلدِز ٩٠٧٤٨-٣ - جامعة إسطنبول]

بعض المعلومات عن مكّة المكرّمة والكعبةِ المشرّفة

يوجد في شرقِ مدينةِ مكّة المكرّمة جبلٌ صغيرٌ يُطلَقُ عليه اسم "جبل أبي قبيس"، وهنا كانَ أوّلُ أذانٍ أذّنَهُ سيّدنا بلال الحبشيّ ﷺ، وفي هذا المكان يوجدُ مسجدٌ صغيرٌ، ولقد كان هذا المكانُ مثيرًا للدهشةِ والغرابةِ لأنه من هنا يُمكِنُ مشاهدةُ المنظرِ الأفقيّ لمكّة المكرّمة والحرمِ الشريف.

والكعبةُ عبارةٌ عن أربعةِ جدران محاطةٍ بخمسمائةِ قبّةٍ مؤسّسةٍ على ثلاثةِ خطوطٍ وموزَّعةٍ على ثلاث دوائر متوازيةٍ، وتبلغُ المسافةُ بين "باب السلام" الموجودِ في الجهةِ الشرقيّة و"بابِ العمرة" الموجودِ في الجهةِ الغربيّة ثلاثمائة مترٍ، والمسافةُ من "باب الصفا" الواقعِ في الجهةِ الجنوبيّة إلى "باب الزيادة" الموجودِ في الجهةِ الشماليّة مائتين وثمانين مترًا، وكان للحرمِ المكّيّ أربعون بابًا وسبع مآذنَ ومن أبوابه "باب إبراهيم" -ولا ينسب هذا الباب لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام، ولكنّه يُنسَبُ إلى خيّاطٍ يُدعى "إبراهيم" أقام هناك طوالَ عمرِهِ ومارسَ مهنَتَهُ في هذا المكانِ ولهذا ذاعَ صيتُه وسُمِّيَ الباب باسمِه- وأما الساحةُ الرمليّةُ الفارغةُ الموجودةُ وسطَ القِبابِ فهي التي يُطلَقُ عليها اسم المسجدِ الحرامِ أو الحرمِ الشريف.

تقعُ الكعبةُ المشرّفةُ في وسطِ الحرمِ الشريفِ، وأُطْلِقَ عليها اسم "الكعبة" لأنّ لها أربع زوايا، يُطلق على الزاوية الشرقيّة منها -التي تكونُ مبدأ الطوافِ- اسم "ركنِ الحجرِ الأسودِ"، والمسافةُ بينها وبين الزاويةِ الثانيةِ المسمّاة "الركن اليمانيّ" تبلغُ خمسةَ عشرَ مترًا[٣٠]، والمسافة بين "الركنِ اليمانيّ" و"الركنِ الشاميّ" تبلغُ ثلاثةً وعشرين مترًا وخمسةً وعشرين سنتيمترًا، والمسافةُ بين الركنِ الرابعِ المسمّى "الركن العراقيّ" و"الركن الشاميّ" تبلغُ ستّةَ عشر مترًا ونصفَ المترِ، والمسافةُ بين هذا الركنِ والركنِ الأوّلِ أي "ركن الحجرِ الأسودِ" تبلغُ أربعةً وعشرين مترًا.

يبلغ ارتفاعُ مبنى الكعبةِ اعتبارًا من أرضِ المطافِ عشرين مترًا وتسعةً وعشرين سنتيمترًا[٣١]، وجدرانُها مبنيّةٌ من الحجرِ المنحوتِ، ويبلغُ عرْضُ وسُمْكُها حوائطِ الكعبةِ مترًا ونصف،[٣٢] ولقد خُيّل إليّ أن جدرانها مغطاة بالرخام، ولقد كُتِبَ على بعضِ أماكنِها التي تمكنْتُ من مشاهدتِها بعضُ أسماءِ اللهِ الحُسنى وقد أُلْبِست ثوبًا أطلسًا أحمر اللون قاني، ويوجد عمودان رفيعان داخلَ الكعبةِ يُمْسِكان سقفَها، ويوجدُ بها سُلّمٌ لمن أراد الصعودَ أعلاها، وقد تمَّ تصنيعُ مزرابٍ من الذهب لتصريفِ مياهِ الأمطار التي تتجمّعُ فوق سطحِ الكعبة وأطلقوا عليه اسمَ "الميزاب" أو" الميزاب الذهبي"، وقد كان هذا الميزابُ في البدايةِ يُصنع من الفضّة ثم صُنِعَ من الذهب، وفي سنةِ (١٢٢٤هـ) تمَّ تصنيعُ ميزابٍ جديدٍ ونُقِلَ القديمُ إلى إسطنبول.

في وقتٍ من الأوقاتِ كان للكعبةِ بابانِ؛ بابٌ في الشرق وبابٌ في الغرب، وقد أُغلِقَ سابقًا بابُها الموجودُ في الغرب، وبقيَ البابُ المفتوحُ في الشرق الذي يبلغُ طولُه أربعةَ أمتارٍ وستين سنتيمترًا، وعرضُه مترين وثمانيةً وعشرين سنتيمترًا، ولقد صُنِعَ جانبَي الباب من شجرٍ يسمّى "الساج" ينبتُ في الهند، ولقد زُيّن وجهُ الباب بألواحٍ من الفضة، وترتفعُ عتبةُ الباب عن الأرض بمسافةٍ قدرُها مترٌ واثنان وأربعون سنتيمترًا، ويوجد سلّمٌ متحرّكٌ يستخدم عندما يلزم دخول وخروج شخصٍ ما، وهو موضوع بين مقامِ إبراهيم وبئرِ زمزم، ويجلب إلى الباب عند اللزوم بمساعدةٍ من خمسةٍ إلى عشرةِ أشخاص.

إنّ مفتاحَ الكعبةِ ومفتاحَ مقامِ إبراهيم عليه السلام موجودان عند واحدٍ من عائلةِ الشيبي، والمفاتيحُ وقفلُ مقامِ إبراهيمَ مصنوعةٌ من الفضّة.

بعدما يُنهي الحجيجُ طوافَهم يذهبون إلى المكان الكائن بين الزاويةِ التي يُبْدَأُ منها الطواف وبين باب الكعبةِ ويمسحون أيديهم بجدارِ الكعبةِ، ويلتزمون هذا المكان للتضرُّع والدعاء، ولهذا سمي هذا المكان بـ"الملتَزَم".

إن الدائرةَ الموجودةَ حولَ الكعبةِ -والتي يطوفُ فيها الناسُ- يُطلَق عليها اسم "مَطاف" أي مكانُ الطواف.

وبجوارِ بابِ الكعبة توجَد حفرة، وفيها كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يجهِّزُ الطينَ ليستخدمَه في بناءِ الكعبةِ، وعندما فُرِضتِ الصلاةُ كانت أوّلُ صلاةٍ لسيدنا محمد ﷺ في هذا المكانِ، ويسمّى هذا المكانُ "مقامَ جبريل".

يوجد مبنى أمام الميزابِ الذهبيّ في الجهةِ الشماليّة من الكعبة يُسَمّى "مقامَ الحنفيّة"، وفيه يُرفع الأذان.

بئرُ زمزم ومقامُ إبراهيم عليه السلام

يقع بئرُ زمزم أمام بابِ الكعبةِ، خلفَ الزاويةِ التي يوجَدُ فيها الحجرُ الأسود بمسافةِ تسعةٍ وعشرين مترًا وخمسةٍ وعشرين سنتيمترًا.

ويُسْحَبُ الماء من بئر زمزم بواسطة قربة مصنوعة من جلد الماعز بدلًا عن الدلو؛ إذ تُنْزَل هذه القربة وتخرج من البئر بواسطةِ سلسلةٍ حديدية عوضًا عن الحبل، وتتعلّق هذه السلسلةُ ببكرةٍ في أعلى البئر، والسبيلُ الموجودُ بجوارِها مهمل مثل الأسبلةِ الموجودةِ عندنا، وفي الحرم الشريف يتمُّ توزيعُ مياهِ زمزم على الحجيجِ في أوانٍ تُسمّى "زَوْرَقْ"، ويسدّون فتحات الأواني بالليف، وكلّ حاجّ يدخلُ إلى هناك ويشربُ من ماءِ زمزم فورَ خروجِ الماءِ من البئر.

وأما "مقام إبراهيم" فيقع أمامَ بابِ الكعبةِ وبجوارِ بئرِ زمزم، ولقد تمّ تجديدُ المنبرِ الخشبي الذي كان موجودًا هنا مرتين، وفي النهاية تمّ إرسالُ منبرٍ مزخرفٍ للغاية ومصنوعٍ من المَرْمَرِ من إسطنبول، وفي أيّام الجُمَعِ والأعياد يُعلّق على جانبي المنبرِ أعلامٌ من الأطلسِ الأخضرِ وقد كُتِبت عليها آياتٌ قرآنيّةٌ بالحرير الأصفر.

ثوب الكعبة

نُسِجَ ثوبُ الكعبة من الحريرالأسودِ، ولهذا يُقالُ عليه في الأناضول "الإزار الأسود لبيتِ الله"، وعندما نُسِجَ الثوب يدويًا كُتِبَ عليه العديدُ من كلماتِ التوحيد من الأعلى إلى الأسفل بحروفٍ كبيرةٍ، ويعْلو منتَصفَ الثوب نطاقٌ شُغِلَتْ عليه بعضُ الآياتِ القرآنيّة الكريمة واسمُ الخليفةِ بالذهبِ الخالصِ، وهذا النطاقُ يُحيطُ بالكعبة من أطرافِها الأربعةِ، ويُنسَجُ الثوبُ المذكور كلّ سنةٍ في "مصر"، ويُجلبُ إلى مكّة المكرّمة مع الصُّرّة المصريّة، ويُطلَقُ على الستارِ اسمُ "بُوشِيدة السعادة (pûşîde-i saadet)" و"ستارة السعادة" و"كسوة السعادة"، ويُربَطُ ثوبُ الكعبةِ في الحلقات الموجودةِ على المناطقِ البارزةِ من أسفلِ الكعبةِ والمتصلةِ بالأرضِ من

جدرانِ الكعبةِ المسمّاة "شَادِرْوَانْ"، وكما ذكرتُ سالفًا يتمُ قبلَ الحجّ رفعُ إزارِ الكعبةِ وشريطُ الحليَةِ السميكِ، وتظهرُ أحجارُ البناءِ، وفي أوَّلِ أيامِ العيدِ يوضَع الثوب الجديدُ على الثوب القديم، ثم يتمّ استخراجُ الثوب القديم، ويقومُ حاملُ مفتاحِ بيت الله المنسوبُ إلى عائلة "الشيبي" بتقطيعهِ وتحويلهِ إلى قطعٍ صغيرةٍ وتوزيعِه على الحجيجِ، كان هذا العمل من العادات القديمة، ولكنه تغيّر في سنوات الحجّ الأكبرِ؛ إذ كان يتمُّ إرسالُ ستارِ الباب المزخرفِ بالذهبِ وأهدابِه إلى إسطنبول، ويُطلق اسمُ الحجّ الأكبرِ على السنةِ التي يوافقُ فيها يومُ الوقوف بعرفة يومَ الجمعة.

مولد النبي ﷺ

أحضَروني إلى منزلٍ كبيرٍ في منطقةٍ نسيتُ اسمَها لزيارةِ المكانِ المباركِ الذي وُلِد فيه سيدنا محمد ﷺ والمسمّى "مولد النبي"، وبدأتُ بالصلاةِ والتسليمِ عندما دخلتُ تلك الغرفةَ الواسعةَ التي يوجَد في وسطها علامةٌ على مساحةٍ بطولِ مائةٍ وعرضِ ثمانين سنتيمترًا حتى لا يطأَها أحدٌ وقد كُسِيَت بالجوخِ الأخضر، وقمتُ بالزيارةِ فمسحْتُ وجهي وعيني وابتهلتُ وأكثرتُ من الدعاءِ، وسمعْتُ أنَّ هذا المكانَ قد هدمَه أتباع محمد ابن عبد الوهاب مثل سائر المقابر الأخرى ولكن تمَّ تحديدُ أطرافِهِ وزواياه.

هدية "راتب باشا"

أثناءَ مكوثِنا في مكّةَ المكرّمة دُعينا للكثير من الولائم، ولكني لم أُلَبِّ سوى دعوة الأميرِ والوالي فقط، وأثناءَ تناوُلِ الطعامِ في منزلِ الوالي قال:

> *"منذ أن عُيّنتُ واليًا على مكّة المكرمة دائمًا ما يأتيني أُمناءُ الصرّة في كلِّ سنةٍ بهديّة موحَّدةٍ لا يغيّرونها -وكأنهم اتّفقوا عليها- وهي عبارةٌ عن طاقم شاي، إلا الهديّة التي جاءتني هذه السنة -يقصد الهديّة التي جلبناها له-".*

ثمّ قال بعضَ الكلماتِ موضّحًا سعادتَه من هديّتنا له، فنظرْتُ إلى وجه صِهْري وشرحتُ له كم كنّا مصيبين في عدمِ تنفيذِ ما أوصى بهِ رئيسُ العَكّامين.

التسلميات التي تمّت في مكّة

سلّمْنا إلى الشريفِ "علي باشا" أميرِ مكّةَ المكرّمة عددَ سبعةٍ من فرْوِ "السمّورِ" وعددَ ستّةٍ من فرْوِ "السنجاب" وعدد ستّةٍ من الفرْوِ الأحمرِ، وستّ قِطَعٍ من الصوفِ الأنقروي خصّيصًا له وخمسًا وعشرين صرّةً من الهدايا،

وكما سُلِّمَ لـ"صالح الشيبي" حاملِ مفتاحِ البيتِ المعظَّمِ عدد ثلاثمائة مثقالٍ من زيتِ الوردِ في إناءٍ واحدٍ وصندوق بخورٍ مختوم ليستخدِمَها داخلَ الكعبة.

وطبقًا للعادةِ سُلّمَ لنائبِ الحرمِ وشيخِ الآغاوات -أي الوجهاء- ثلاثة صناديق بها ألفان وخمسمائة قطعة بخورٍ وصندوق به ألفان وخمسمائة عملةٍ نقديّةٍ وحذاءٌ طويلٌ وحذاءٌ قصيرٌ، وستّةُ صناديقَ مليئةٌ بالشمع المصنوع من العسلِ، وخمسةُ آلافِ قرشٍ إضافةً إلى العودِ والعنبرِ، وسُلّمت النقودُ المذكورةُ إلى مديريّة الحرمِ الشريفِ.

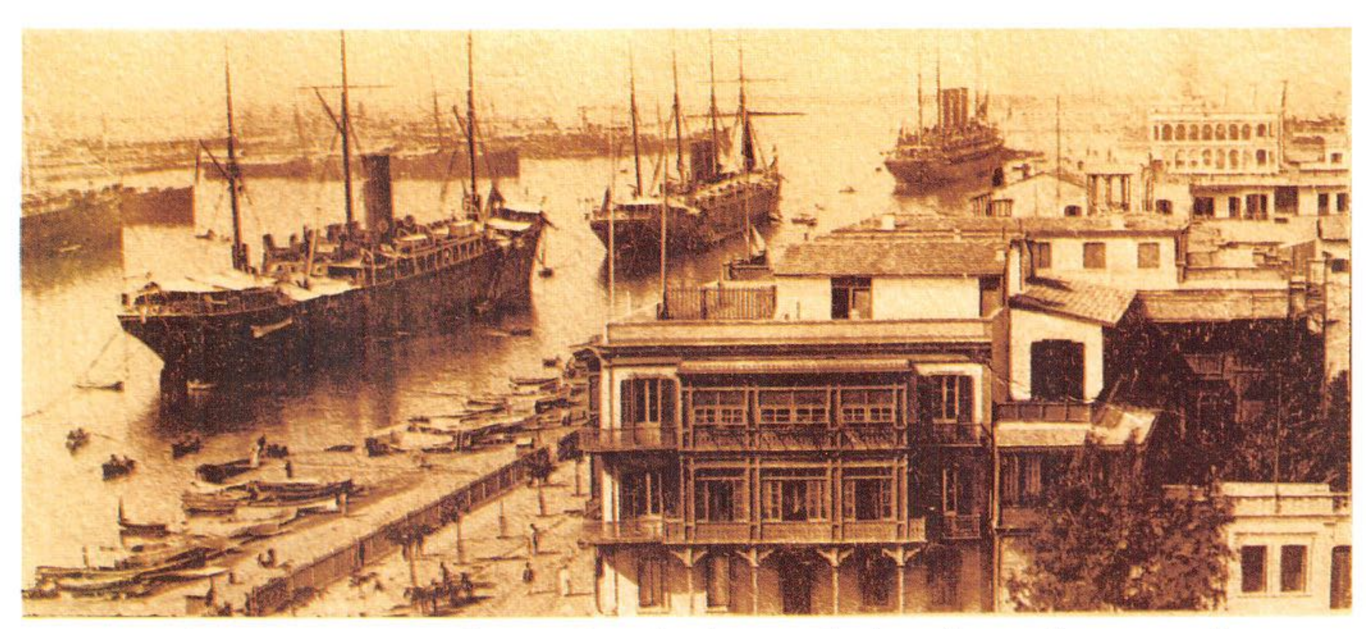
بعد أن انتهينا من توزيـعِ الأشياءِ والنقودِ التي وُكّلْنا بها لم يعدْ هناك مراسمُ أو عملٌ لنا نفعله هنا، وقد صدر الإذنُ لنا بالرجوع من الطريقِ البحريّ بناءً على الرسالةِ المشفّرةِ التي كُنا أرسلناها إلى إسطنبول نطلُبُ فيها هذا الأمر.

صورة الاستلام المأخوذةُ من مديريّة الحرمِ الشريف في مكّة المكرّمة:

سلّمتُ لخزانةِ مديريّة مكّة المكرمة المرتبات المحسوبة الخاصة بسنة (١٣٢٤هـ) و(١٣٢٢ روميّة) قطعتين من التحريرات المؤرخة في الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني (١٣٢١روميّة) المرسلة من قبل نظارة الأوقاف السلطانية مع أمانة الصُرّة السلطانية وملفوفاتها المبلغ المذكور في الدفترين (٢,٩٠٣,١٩٢) -مليونان وتسعمائةٍ وثلاثة آلاف ومائة واثنان وتسعون قرشًا وستّ وعشرون بَارَه-، يطرح منها البقايا الموجودة في ولاية بيروت ومقدارها تسعمائة وتسعةٌ وخمسون ألفًا وخمسمائة وواحدٌ وثمانون قرشًا فيكون الباقي منها (١,٩٤٣,٦١١) -مليونًا وتسعمائة وثلاثة وأربعين ألفًا وستّمائة وأحد عشر قرشًا وستًّا وعشرين بَارَه-، وهو ما تمّ تسليمُه من قِبَلِ حضرة أمين الصُرّة السلطانية سعادة "حسين حسني أفندي" إلى الخزانة، وقد قامت الخزانة المذكورة بإعطاء الأمين المشار إليه وصلًا بالاستلام لتقديمه إلى نظارة الأوقاف السلطانية الجليلة تبين فيه أن البقايا الباقية من حوالات مرتّبات السنة السابقة والسنة الحالية قد بلغت خمسةَ عشر مليونًا وستّمائةً وأربعةً وستين ألف قرشٍ.

في السابع عشر من ذي الحجة سنة (١٣٢٣هـ)،
وفي التاسع والعشرين من يناير/كانون الثاني لعام (١٣٢١روميّة).

بقلم الكاتب رفعت
مدير الحرم المكي الشريف



أوائل (١٩٠٠م) حيثُ صار ميناء "بورسعيد" نقطةَ مرورٍ مهمّة بالنسبة للحجّاج العائدين من جدّة إلى إسطنبول [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

العودة من مكّة

بعدما قمْنا بأداءِ آخرِ طوافٍ لنا والمسمّى طوافَ الوداعِ ركِبْنا خيلَنا وجِمالنا وغادرْنا مكّة، وبعد أن أقمْنا ليلةً في قريةٍ اسمها "بهره" تابعنا سيرنا ووصلْنا إلى جدّة سالمين.

في جدّة

وصلْنا إلى جدّة في اليوم الخامسِ وكان يوافق اليوم الأوّل من محرّم، ووصلْنا إلى الميناءِ لنركبَ باخرةَ "أسْوَان" التابعةَ لشركة "هُويُويَا (Hoyoya)"، وكانت الباخرةُ تقِفُ بعيدًا جدًّا، وكان يُفْهَم أنها من السفن ذاتِ الثلاث صواري التي لم تُبْنَ حديثًا، ولقد وصلنا بحمد الله إلى الباخرة واستقرّ كلٌّ منّا في مكانِه، وقرأتُ الفاتحةَ عدّةَ مرّاتٍ وأهديتها لأهل مكّة.

الحَجْر الصّحي في الطور

بعدما استمرّت رحلتُنا في البحرِ الأحمرِ ثلاثةَ أيّامٍ بلياليهن رسَتِ الباخرةُ بجوارِ مركز الحجر الصحّيّ وتَلَقّي العلاج في الطور، وتمَّ إنزالُ كلِّ الحجيجِ -باستثناءِ الموجودين في المقصورةِ الأولى- في القواربِ الصغيرة ثمّ بعد ذلك تمّ سحبُها وإخراجُها إلى مركز تلقي العلاج الصحّي المذكور، وبعد إنهاءِ عمليّة التأكّد من سلامة الحجيجِ ظلّوا في المركزِ الصحّيّ لمدّةِ يومين، وتحركنا من الطورِ في السابعِ من شهرِ محرّم ووصلنا إلى ميناء السويس.



دعاءٌ جماعيٌ من أجل وصول المحمل الشريف إلى مكة المكرمة سالمًا الثاني من كانون الأول (١٣٣١ رومية) الموافق للخامس عشر من كانون الأول/ديسمبر (١٩١٥م) [مجموعة "يوسف جاغْلاَرْ"]

قناة السويس

عندما كانت باخرتُنا تعبرُ من القناةِ شعَرْنا أنها تمشي في وسطِ الصحراءِ، وتمرّ القناةُ من عدّةِ بحيراتٍ، وأكبرُ البحيرات التي تمرُّ منها هي بحيرةُ "التمساح"، وطولُ القناةِ يبلغُ مائةً واثنين وستين كيلومترًا، وفي بعض الأماكنِ التي مررْنا منها كانت تُرى أشجار المغيلان(٣٣) ونوع من الأشجار يشبه السرو، كان المنظر شاعريًّا للغاية، وفي المساء وصلنا الإسماعيلية، ورَسَت باخرتُنا هناك، وقضينا الليل فيها، وفي اليوم التالي تابعنا السير في طريقنا إلى أن وصلنا إلى "بورسعيد" ورأينا الميناء والمدينة، كانت الرياح الشديدة ترافقنا منذ خروجنا من الإسماعيلية حتى وصولِنا إلى هنا ويصحبها مطرٌ خفيفٌ، وأما الجوّ فقد كان باردًا إلى حدٍّ ما، ورغمَ هذا لمْ أُغادِر سطحَ الباخرة، وأثناءَ المرورِ من "بورسعيد" كان القلب يهوى الخروج من الباخرة للتجولِ ورؤيةِ تلك الأماكن.

وبعد الرحلة البريّة والبحريّة التي استمرّت مائةً وخمسة عشر يومًا تيسَّر لنا الوصول سالمين إلى إسطنبول بحمد الله.

دعاء الصرة ورد في إحدى المجلات في غرة القرن التاسع عشر الميلادي ومن المحتمل أنه يعود إلى الحقبة ما بين (١٨١٥م) إلى (١٨٤٥م) [مجموعة م. صبري قوز (Koz)]

دعاء الصرة السلطانية[٣٤]:

اللهمّ إن هذه الصرّة السلطانيّة المرسلة بفضلك يا كريم ثم بالعنايةِ السلطانيّة لنوالِ رضَا العاكفين في البيت الحرام، والمجاورين لروضة حضرة سيّد الأنام، والحجيجِ الذاهبين إلى البيت العتيق والهدي الأكبر، القاصدين تقبيلَ ترابِ سيّد البشر، فاجعل العناية الصمدانيّةَ عونًا ورفيقًا لها، اللهم وفّق ويسّر لها الخير في الذهاب والإياب.

اللهم أسبِلْ رداءَ الصحّة والعافيةِ على جسدِ صاحب القدرة والشوكة حضرةِ سلطان الأنام خادم الحرمَين المحترمَين والبلدتَين المطهّرتين، نائبِ منابِ سيّد الثقلين الواجبِ الدعاء له في كلّ وقتٍ وحين، سبيلِ قضاء حاجة المحتاجين وقبلةِ آمال المسلمين.

اللهمّ واجعل الفتحَ والنصر مستقرًا في مقرِ جناب أميرِ العالم صاحب باب السلام إلى يوم القيامة.

اللهم بحرمةِ خزائنِ قلوبِ المتّقين من الحجيجِ على عرفات وبحرمةِ أمّةِ محمد التي لبّت دعوتَك في كلّ مكان، وبحرمةِ مقام إبراهيم الحليمِ والمزدلفةَ ومنى وكلّ الأماكن المباركة، اللهمّ يا ربّ البيت يا ذا القدرة والملكوت اجعل لسلطاننا كلّ يوم من السعادة زيادة، وبلّغه بسعيه إلى مرادِه.

لله تعالى الفاتحة





رسم تقريبي يصوّر سبيل "آيرِيلِكْ جِشْمَسِي (Ayrılık Çeşmesi)" (أي: "سبيل الفراق") مأخوذ من كتاب "نظرة عامّة على الإمبراطورية العثمانية" [مجموعة عمر فاروق شريف أوغلو]



قطعة رخامية منقوش عليها بعض أبيات الشعر مثبتة على "سبيل الوداع"، وقد أمرت "دُرّيّة سلطان" بترميمها عام (١٣٤٠هـ)

سبيل الوداع: المحطّة الأولى في رحلة الحج

إعداد: عمر فاروق شريف أوغلو (Şerifoğlu)[1]

ترجمة: أحمد كمال

هل شعرتم قبل ذلك بالشغف حول مبنى تاريخيٍّ تمرُّون من أمامه كلّ يوم؟ أو هل قمتم بعملٍ بحثٍ ولو صغيرٍ بشأنِ هذا المبنى؟ وهل فكّرتم من أين يأتي اسمُ الشارعِ أو الطريقِ الذي يتواجدُ به منزلُكم أو مكانُ عملِكم؟ وما هو معنى العديد من الأسماءِ التي نستخدِمها كلَّ يومٍ إلى أن حُفِرَت في أذهاننا وتركت بصمةً خالدةً في تاريخنا القديمِ أو الحديث؟

في الطريق من "قاضي كُويْ (Kadıköy)" إلى "آجِي بَادَمْ (Acıbadem)" في إسطنبول لم يكن "سبيل الوداع" -الذي يُطِلُّ على ميدانٍ صغيرٍ يحمل اسمَه والواقع على جهة اليمين بعد العبورِ مباشرةً من طريق القطار- يعني لي شيئًا لفترة طويلة من الزمن، وذلك على الرغم من أنني كنت أمرّ به يوميًا، حتى تحوّل ذلك إلى لغزٍ صغيرٍ في ذهني.

"سبيل الوداع" واحدٌ من الأسماءِ التاريخيّة المشهورة التي تركَت بصمةً في التاريخِ العثمانيّ... فيُروى أنّ السلطانَ العثمانيّ "مراد الرابع" -وهو في طريقه إلى بغداد- شرِبَ من صنبور هذا السبيل الذي لم نعُدْ نجد له اليومَ أيَّ أثر[2].

في مطلعِ القرنِ السابع عشر أمر رئيس الخصيان "غَضنْفَرْ آغا (Gazanfer Ağa)" ببناء "سبيل الوداع" الذي يُعتبَر أوّل محطّة على طريق إسطنبول - الشام أو بغداد - الحجاز، وأمرَ أيضًا ببناء مُصلّى إلا أن المُصلّى لم يستطعِ الصمود والبقاء إلى يومنا هذا بعد أن استسْلَم لغزوِ الأحياء الفقيرة والعشوائيات، ومع مرور الوقت فقد تكوّنت في القسم الخلفيّ للمصلّى مقصورةٌ صغيرةٌ تضم بين جدرانها قبورَ عددٍ من الأشخاص ينتمي معظمُهم إلى القصر السلطاني[3].



لا يزال سبيل "آيرِبلِكْ جَشْمَسِي" موجودًا شامخًا يبدو وكأنه نصبٌ تذكاريٌّ دُفن في الرصيف بذكرياته التي لا تنتهي ومائه الذي لا يتدفّق وصنبوره غير الموجود

ويلفت السبيلُ الانتباهَ من حيث إنّه يمثّل نموذجًا مبسّطًا للأسلوب المعماريّ العثمانيّ الكلاسيكيّ، كما أنه متناسِق الشكلِ ظريفٌ ولطيف، ووفقًا للكتابة المدوّنة عليه، فقد خضَع لعمليّة الصيانة والإصلاح مرّتين أولاهما عام (١٧٤١م) بأمر من رئيس الخصيان "أحمد آغا"، وثانيتهما عام (١٩٢١-١٩٢٢م) بتكليف من "دُرّيّة سلطان" حفيدةِ السلطان العثماني "محمد الخامس"، وبحسب ما توصَّلْنا إليه من بعض المصادر، فقد كانت هناك فيما مضى عدةُ أحواضٍ على جانبَي السبيل كي تتمكن الحيوانات من الشرب منها، ويبلغ ارتفاعُ السبيلِ المنحوتِ من الحجر الجيري ثلاثمائة وخمسةً وثلاثين سنتيمترًا وعرضه مائتين وسبعةً وثمانين سنتيمترًا وسُمْكُه مائةً وخمسةً وعشرين سنتيمترًا.

كانت مواكبُ الصُرّة السلطانيّة تحملُ هدايا السلطان والعاصمةِ والشعبِ إلى مكّة المكرّمة والمدينةِ المنوّرة كلّ عامٍ في موسمِ الحجّ منذ أن انتقلت الخلافةُ الإسلاميّة إلى الدولة العثمانيّة وحتى عام (١٩١٧م)، حيث كانت المواكبُ تمضي نحو منطقة "أُسْكُودَارْ" بعاصمة الخلافة بعد أن تُودَّع من القصر السلطاني،

وينزل الموكب أوّلًا بمنطقةٍ تقع فيها الآن حديقة "دُوغَانْجِيلَارْ (Doğancılar)" ثم يزور تكيَتي "عزيز محمود خُودَائِي" و"نَصُوحِي أفندي"، وفي هذه الأثناء، كان المتخلّفون عن الركب يلحقون بمواكبِ الصرّة، ويجري إكمال أيّ نقصٍ بشكلٍ نهائيّ استعدادًا للرحلة الطويلة، وينطلق موكب الصُرّة السلطانيّة من "دُوغَانْجِيلَارْ" عقبَ صلاةِ الفجر، ويصلُ وقتَ الضحى أمام سبيل الوداع، ويودِّع الموكبُ القادمين لوداعه، وينطلِق إلى رحلة الحجّ مردِّدًا البسملة والأدعية.

وكان كلُّ المسافرين المغادرين لـ"إسطنبول"، وعلى رأسهم موكبُ الصُّرّة السلطانية، يودِّعون من أمام هذا السبيل، وكان المسافرون المتوجّهون إلى مُدُنِ الأناضول والشام وبغداد والحجاز واليمن، يودِّعون بالدموع أهليهم وأحبابَهم وأزواجهم وأولادَهم عند هذا السبيل، كما كانوا يشربون قبلَ السفر من مياهِ السبيل... وكم من موكبٍ مرّ بهذا السبيل، وكم من مراسمَ شهِدَها، وكم من وداعٍ حزين رأى على مرّ تاريخهِ الممتدّ لأربعمائةِ عام...

وفي أربعينيّات القرن العشرين تعرّض سبيلُ الوداع إلى انتزاع صنبورِه وانقطاع مياهِه وَرَدَمَتْهُ الأتربةُ بتعاقُبِ الليالي والأيام، حتى شرعَت بلديّة "قاضي كُويْ" في حقبة الثمانينيّات في رفعِه إلى مستوى الطريق وتنظيفه، ومع حلول سنوات الألفيّة الثالثة، نرى "سبيل الوداع" يواصِلُ الحياة بصفتِه نصبًا تذكاريًّا لكنّ الأتربةَ قد ردمَتْه من جديد وانكسَر صنبورُه وانقطعَتْ مياهُه!





رسم تقريبي يُصوِّر موكبَ الصرّة المرسل من قصر "طوب قابي" إلى الحرمين الشريفين أثناء مروره من "بشيكطاش" إلى "أُسكودار"
(مأخوذ من كتاب "**نظرة عامة على الإمبراطورية العثمانية**") [مجموعة دار النشر "الكنز المفقود"]



اتحاد

1 LIVRE TURQUE

1 ACTION

"ITTIHAD"

SOCIÉTÉ ANONYME DE NAVIGATION OTTOMANE

fondée par Iradé Impérial en date du 9 Mai 1327 v.s.

SIÈGE SOCIAL: SALONIQUE

CAPITAL SOCIAL: 250.000. LTQ
DIVISÉ EN
ACTIONS DE 1 LIVRE TURQUE

UNE ACTION NOMINALE

نومرو ١٠٦٤٠٢

N° 106402

Salonique, le 9/22 Juin 1911

في ٩ حزيران ١٣٢٧

مجلس اداره اعضاسندن
Un Membre du Conseil d'Administration

مجلس اداره اعضاسندن
Un Membre du Conseil d'Administration

سند ملكية حصّة عَرَضَتْهُ شركة "اتحاد سير السفن العثمانية المساهمة" للبيع عام (١٩١١م)

[مجموعة "يوسف جاغلاز"]

نقل الصُّرّة السلطانية من ميناء "حَرَمْ" إلى الحرمين الشريفين بحرًا

إعداد: شاكر بَاطْمَازْ (Batmaz)[1]

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

سنحاول في هذه الدراسة توضيحَ أسباب البدء في نقل الصُرّة السلطانية من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين بالطريق البحريّ بدلًا من الطريق البري وتخصيصِ السفن لهذا، وتحديد ممرّ الطريق البحري والصعوبات التي تمّت مواجهتُها والتغيير الذي حدث خلال ذلك.

ا- النقل بالسفن من "حَرَمْ"[2] إلى "بيروت"

إن تعبيرَ "إخراجِ صرّة الحرمين الشريفين" يأتي بمعنى خروج الصُرّة وإنزالها وإرسالها، وقد استُخْدِم بمناسبة خروج الصُرّة السلطانية من إسطنبول إلى طريقِ مكّة المكرّمة[3]، وقد أخذت عادةُ إرسال الصُرّة إلى الحرمين الشريفين صورةً رسميّةً في عصرِ السلطان سليم الأوّل، وفي كلّ عام قبل إرسال الصُرّة بيومٍ واحدٍ تُرْسَلُ مذكرةٌ مخصوصةٌ من آغا دارِ السعادةِ إلى الدفتردارِ ورئيسِ الكتّاب و"النِيشَانْجِي (Nişancı)"[4] ويتمّ إخطارُهم بحضورِ المراسم، وينتظرُ المدعوّون -الذين جاؤوا مرتدينَ الملابسَ الرسميّة- في صفوفٍ منتظمةٍ قدومَ السلطان إلى "قُبّه آلْتِي (Kubbealtı)" (أي: الديوان)، وتبدأُ مراسمُ الصُرّة في "قُبّه آلْتِي"، وهنا يخلعُ السلطان الخِلَعَ ويُكْثِرُ العطايا والهبات، وفي تلك الأثناء يمسك "قِيزْلَرْ آغَاسِي (Kızlar Ağası)"[5] -أي: آغا الخصيان- عقالَ العير التي جهّزها " أمير آخور (İmrahor)"[6] لحمل المتاع، ويمشي بها أمامَ السلطان وأثناء ذلك يكبّرُ المؤذّنون، وبعد ذلك تُحمّل الصرر على العير، وتسلُكُ طرُقًا محدّدةً حتى تصلَ إلى ميناء "كِيرَجْ (Kireç)"، ومن هناك تُحمل على سفن "جَكْ دِرِي (Çekdiri)"[7] وتنقل إلى "أُسْكُودَارْ"[8].



الدعاء الجماعي لموكب الصرة أثناء توديعه من مرفإ "قباطاش" إلى "أُسْكُودَارْ" [تصوير: سيبه (Sebah) جويلر (Joaillier) معهد المتحف الألماني للحفريات، إسطنبول، (رقم الفيلم: ٧٦٨٦)]

إن المعلومات التي أوردها "علي سيّد بك" بخصوص المراسم الخاصّة بنقل الصُرّة إلى "بَشِكْطَاشْ" وتجهيزِها ونقلِها إلى "أُسْكُودَارْ" تُشبهُ المعلومات التي وردت في المصادر الأخرى المتعلّقة بهذا الموضوع، ويشرح كاتب الوقائع "أحمد لطفي أفندي" في كتابه" **تاريخ لطفي**" أحداثَ نقلِ الصُرّة السلطانية إلى "أُسْكُودَارْ" كما يلي:

"إن الصُرّة المعتاد إخراجها كل سنة في شهر رجب الشريف قد أخرجت سنة (١٢٤٤هـ) في الثالث عشر من شهر رجب من القصر الجديد بموكب مخصوص، وتمّ إرسالُها إلى "أُسْكُودَارْ" بعد الظهر بسفن "جَكْ دِرِي" من "بَاغْجَه قَبِيسِي (Bahçe Kapısı)"[٩]، وفي هذا اليوم كان الجوّ عاصفًا للغاية فقد تمّ الاقتراب من "أُسْكُودَارْ" بعد العشاء بصعوبة بالغةٍ، وبعد خمسةِ أيامٍ توجّه المحمِل قاصدًا الكعبة الشريفة"[١٠].

إن المعلومات المتعلّقة بإخراج الصُرّة بعد تجهيزها والتي أوردَها "لطفي أفندي" قد أوردها "أسعد أفندي" أيضًا في كتابه "**تشريفات قديمة**" كما يلي:

"يكتَبُ أمرٌ ويُرسَل إلى القبطان باشا لتجهيز سفينة "جَكْ دِرِي" من الترسانة في وقت السحَر في الميناء لنقل الصُرّة السلطانية من ميناء "كِيرَجْ" إلى "أُسْكُودَارْ"... ويُدعى شيوخُ السلاطين والأئمّة وطاقمُ الحرمين الشريفين... وبعد الدعاءِ تُحمَل المنحُ والعطايا على سفينة "جَكْ دِرِي" الجاهزةِ في الميناء ويرجِع الجميع بعد ذلك، عندما تصِل سفينةُ "جَكْ دِرِي" إلى أُسْكُودَارْ يُخلع أمين الصُرّة خلعةً على قبطان السفينة "جَكْ دِرِي"[١١].

ويجب أن نوضّحَ أنّه قد ذُكر في المصادر -التي تناولت نقلَ الصُرّة السلطانيّة من دار السعادةِ (إسطنبول) إلى الشام الشريف ومنها إلى الحجاز بالطريق البرّيّ- نقلُ الصُرّة بال"جَكْ دِرِي" من بشكطاش إلى "أُسْكُودَارْ"، ففي الوقت الذي انتشرَ فيه استعمالُ السفُن الشراعيّة ذات المجاديف كانت تُحمّل سفينة "جَكْ دِرِي" التي تعدّ من هذا النوع والمخصّصة من قِبل "القبطان باشا" للعبورِ بالصُّرّة السلطانيّة من جانب البوسفور إلى جانبه الآخر، ورغم أنّ المسافةَ قصيرة إلا أنّه قد ظهرت بعضُ المشاكل لل"جَكْ دِرِي" التي تحمل الصُّرّة من حينٍ لآخر بسببِ سوءِ الأحوالِ الجوّيّة في ذاك الفصل.

حلّت السفنُ البخاريّة محلّ السفن الشراعيّة والسفن ذاتِ المجاديف في عصر السلطان "محمود الثاني"، وبهذا انتهت مغامرة الصُرّة في البوسفور مع سفينة "جَكْ دِرِي"، وبُدئَ في نقلِها للطرف الآخر من المضيق بوسيلةِ نقلٍ أكثر أمانًا، فاعتبارًا من عام (١٨٣٠م) بدأت تعملُ شركات السفُنِ الأجنبيّة في الموانئِ العثمانيّة، وكانت شركة السفُنِ النمساويّة "لويد (Lloyd)" أشدّ هذه الشركات تأثيرًا، فقد كبُرت هذه الشركة بسرعة فائقةٍ وذلك بخطوطِ الرحلات التي أمدّتْها إلى إسطنبول عن طريق نهر "الدانوب"، هذا بالإضافةِ إلى خطّ البحر الأحمرِ والبحر الأبيض، وأسّسَتْ أسطولَ نقلٍ تجاريّ كبيرٍ، وفي فترةٍ قصيرةٍ بدأتْ تظهرُ في الموانئِ العثمانيّة الشركات الفرنسيّة والروسيّة والإنجليزيّة، وفي سنة (١٨٤٠م) دخلت المؤسّسات الخاصّة والرسميّة العثمانية في مجال النقلِ البحريّ، وهكذا سُعِيَ لعملِ رحلاتٍ بالشركاتِ الخاصّة والرسميّة التي رفعَت علمَ الدولة العثمانيّة بالإضافةِ إلى رحلات السفنِ التي رفعَت أعلامًا أجنبيّة[١٢].

ومن الشركات التي أسّست بأيدي الدولة العثمانيّة "شركة عثمانية" سنة (١٨٣٩م)، و"إدارة سفنِ الخزينة الخاصّة" سنة (١٨٤٠م)، و" شركة مجيدية" المشتق اسمُها من اسم السلطان عبد المجيد سنة (١٨٤٢م) و"إدارة فوائد عثمانية" سنة (١٨٤٣م)، و"شركة خيرية" المؤسّسة في سنة (١٨٥١م) و"شركة إدارة عزيزة" المؤسّسة سنة (١٨٧١م)، ورغم أن النقلَ بالقوارب العاديّة بين طرفَي البوسفور فقَدَ أهمّيّته بسبب كثرة هذه الشركات؛ إلا أنها أتاحت الفرصةَ لعمَلِ رحلاتٍ طويلةٍ ومريحةٍ وآمنةٍ[١٣]، وعندما ازدهرَ أسطولُ التجارة العثمانيّة وتنوَّع

بأنواعِ السفنِ الجديدةِ؛ أُمِرَ بتغييرِ طريق الصرّة من برّيّ إلى بحريّ وذلك في المسافةِ من إسطنبول إلى الشام، حيثُ بدأَتْ تُرسَل الصرة بالسفن بحرًا إلى ميناء بيروت أقرب ميناءٍ إلى الشام، وقد دُوِّنت هذه المعلومات في المذكّرة المؤرّخة في الثالث عشر من أكتوبر عام (١٨٦٤م) الصادرةِ من المجلِس المخصوصِ بشأن نقلِ الصُّرّة باستخدامِ وسائلِ النقلِ البحريِ بدلَ الطريقِ البريّ بين إسطنبول وبيروت:

١- يسَّرَ الرحلةَ زيادةُ السفنِ البخاريّةِ:

إن التقدُّمَ الظاهرَ في البحريّة في عصرِ السلطان "عبد العزيز" لم يكنْ في المجال العسكريّ فحسْب، بل كان في التجارةِ أيضًا، فقد تشكَّلَ لدى الدولة العثمانية أسطولُ نقلٍ قويّ[١٤] وبجانبِ السفنِ المدرّعةِ الحديثةِ التي شُريَتْ لأهدافٍ عسكريّة فإنّ كلًّا من شركة "فوائد عثمانيّة" و"إدارة عزيزية" قد أخرجَت وسائلَ النقلِ البحريّة المتنوّعةِ لمنافسةِ الطرقِ البرّيّة التي لم يكن لها بدائلُ كثيرةٌ في ذاك الوقت، فمن سنة (١٨٦٤م) حتى سنة (١٨٧١م) تم نقل الصُّرّة إلى ميناء بيروت بحرًا بالسفن المخصّصةِ من قبل شركة "فوائد عثمانية"، أما بعد ذلك فقد نُقِلَتْ بالسفن المخصّصة من قِبَلِ شركة "إدارة عزيزية"، ولقد عرض في تلك المذكرة الخاصّة بالموضوع المعلوماتِ التالية:

> *"طبقًا لما يعرفه صاحبُ المقام العالي كان المعيّن في منصبِ أمينِ الصُّرّة السلطانيّة يصحب الصُّرّة السلطانيّة والحجيجَ الذين سيرافقونه ويذهبُ من "أُسكُودَار" إلى الشام الشريفِ عبرَ الطرق البريّة لعدمِ وجود البواخرِ الموجودةِ حاليًا، وهناك كان يجتمِع كلّ الحجيج ويتم الذهاب إلى المكان المقصود برًّا، ولكثرة البواخر في الفترةِ الأخيرةِ فإنّ السفرَ عن طريق البحرِ قد صارَ أسهل..."*[١٥].

٢- ترجيحُ أفواج الحجيج المصاحبين للصرّة الطريقَ البحريّ:

إن أهمّ سببٍ لإرسال الصُّرّة الهمايونيّة بحرًا هو زيادةُ وسائل النقلِ البحريّة الحديثةِ في تلك الفترة، وتفضيلُ الحجيج القادمين من "إزمير" و"إسطنبول" الطريقَ البحريّ للذهاب إلى بيروت، ولقد كانت أفواجُ الحجيج القادمةُ إلى بيروت تذهبُ إلى الشام عن طريق البرّ أو تذهبُ إلى مكّة المكرّمة مباشرةً بالسكك الحديدِ المصريّة أو ببواخرِ السويس، وقد ورد في المذكرة عن هذا الأمر ما يلي:

> *"...في ظلّ هذه السهولةِ واليسرِ فإنّ حجيجَ الأناضول يركبون البواخرَ من إسطنبول وإزمير وكلّ السواحل الأخرى ويذهبون إلى بيروت، ومن هناك يذهبون من الشام الشريف عن طريقِ البرّ، ولكنّ الأغلبيّة منهم وجد أنّه من الأيسرِ له الذهاب إلى مكّة المكرّمة بالسكك الحديدِ المصريّة أو الذهاب إلى*

هناك مباشرةً عن طريق البحر ببواخر السويس، ولهذا فلم يعدْ هناك حجيجٌ يرغبون في مرافقة الصُّرَة السلطانية في طريق البرّ منذ عدّة سنوات، ولم يعُدْ لأمانة الصُّرَة عملٌ إلا توصيل النقود إلى الشام، ولأن هذا العملَ غير موجود أثناءَ العودة فقد رجـعَ الأمينُ الأسبقُ عن طريقِ بيروت البحري".

٣- زيادةُ أمنِ الطريق وقلةُ التكلفةِ والنفقات:

فقدَ الطريقُ البرّيُّ جاذبيّتَهُ بسبب الصعوباتِ الناتجةِ عن فصلِ الشتاء، أضِفْ إلى ذلك أعمالَ النهب والقتلِ التي يتعرّضُ لها المسافرون بين الحين والآخر، ويذكر "أحمد باشا" في كتابه "**معروضات**" أن موكِبَ الصُّرّة قد تعرّضَ لهجومٍ عند جسر "بُورْنَازْ (Burnaz)" قرب "بَيَاس (Payas)"(١٦) ثم بعدَ ذلك أخذ "فؤاد باشا" قرارًا بتغير طريقِ الموكِبِ(١٧) بخلاف هذا: فإن العدولَ عن الطريقِ البرّيّ إلى البحريّ سيحقّق مصالحَ للدولةِ العثمانيّة منها:

- التخفيفُ من المبالـغ الماليّة التي تُدفَعُ وتنفَقُ في الطريق من أجلِ حمايةِ الصرّة وضمانِ سلامتِها من الأخطار.

- التخفيفُ أيضًا من تكاليفِ إصلاحِ الطرُقِ والقِلاعِ على طولِ الطريقِ.

- إعفاءُ المتطوّعين -مجّانًا- من كلّ عشيرةٍ أو قريةٍ يمرّون بها من ضرورةِ القيامِ بواجبِ الحمايةِ وتعبيدِ الطرُق للصرّة حيثُ كان ذلك العمل شاقًّا -خصوصًا في الشتاء القارس- مـع أنهم يقومون به دون أيّ مقابل مادّي.

ولقد أوضـحَ هذا الأمر في المذكّرة كما يلي:

"...لقد فضّلت الدولةُ إنفاقَ الكثيرِ من النفقاتِ لحمايةِ الصُّرّةِ السلطانيةِ كي تصل بسلامٍ وأمانٍ، كما أنه يرى في الإخطارات أن نقلَ الصُّرَة السلطانية قد صادفَ وقتَ الشتاءِ القارس في بعض الأحيان مما زادَ من التعب والمشقّة، كما أنّ الأهالي الذين صادفَ مرورُ موكِبِ الصُّرَة من مناطقِهم كانوا مجبرين على إرسال متطوّعين ليقوموا بخدماتٍ لتسهيلِ عبور الصرّةِ مثل الحمايةِ وتسويةِ الطرقِ مجّانًا وترميمِ جسورٍ مثل جسر "أنقره"، وبناءً عليه فبعد الاستئذان يُرى أنه من الأمور المستحسَنة إرسال الصُّرَة السلطانية من إسطنبول إلى بيروت عن طريق البحر حتى تذهب الصُّرَة السلطانية بأمانٍ وسهولةٍ وحتى يتم إعفاءُ الأهالي من هذا العمل المجّانيّ وليتم توفيرُ النفقات التي ستنفَق في الذهاب من إسطنبول إلى الشام...(١٨)".



أوائل (١٩٠٠م) سفينة بخاريّة تعبرُ من قناة السويس [ألبومات يلدِز ٩٠٦١٢-٣-٤٣ - جامعة إسطنبول]

٤- تحديدُ الطريق الجديدِ وتخصيصُ باخرةٍ:

تناولَ المجلسُ المخصوصُ الأمورَ المتعلّقة بتخصيصِ سفينةٍ لنقل الصُرّة وتحديد الطريق الجديد، وبيّن في مذكراته المعلومات التالية:

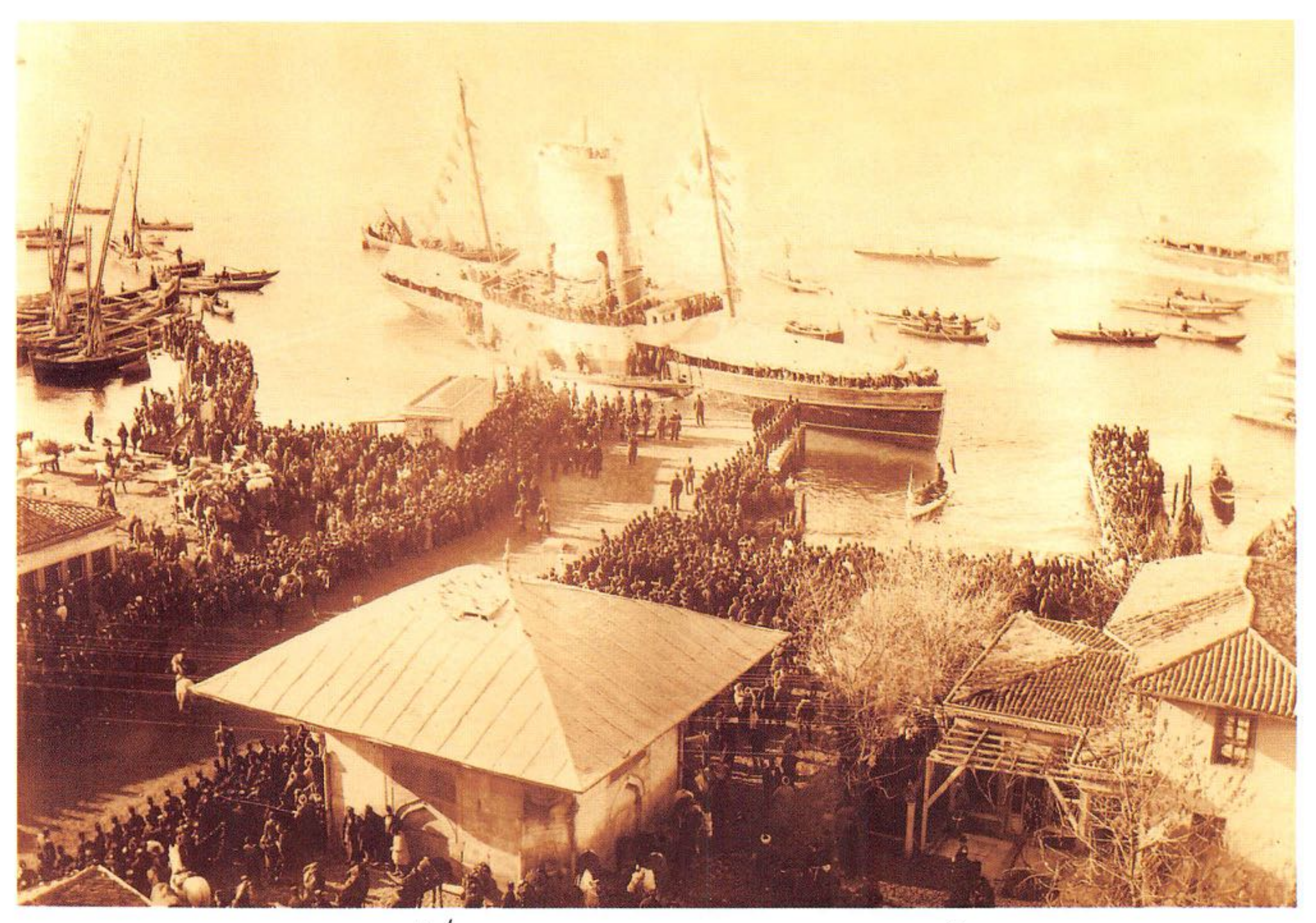
"...لقد صدر الأمر بتخصيص باخرةٍ كبيرةٍ إلى حدٍّ ما من الترسانة العامرةِ، وسوف تمرُّ هذه الباخرةُ على موانئ القلعة السلطانيّة وإزمير وأَنْطَالْيا وطرسوس وترسَل إلى بيروت، وبعد النزولِ في بيروت سيركَبُ الحجيجُ -الذين يريدون الذهابَ بطريق مصر إلى الإسكندريّة مباشرةً- السفينةَ التي أُعِدَّتْ لهم من قَبلُ دون دفع أيّ نفقاتٍ في ظلّ عنايةِ حضرةِ السلطان؛ ولاستجلابِ الأدعية الخيرية للدولة العليّة، وأما نفقاتُ الطريق التي تُبذَلُ عادةً من هنا (أي إسطنبول) إلى الشام؛ فإنها ستكفي لسد نفقات الباخرةِ بفضله تعالى، ولأن الفصل والميعادَ قد حلّ فطبقًا لما هو معتادٌ سيتمّ نقلُ الصُرّة السلطانية من القصرِ السلطاني إلى "باغْجَه قَبِيسِي" ومن هناك إلى "أُسْكُودَارْ"، وسيتمّ البقاء مدةً في "أُسْكُودَارْ" بعد

إجراءِ الموكبِ الرسميّ كما كان، وبعد إكمال المؤنِ يتمّ تحميلُها على الباخرة الكبيرة التي ستُجهّز في ميناء حيدر باشا...[١٩]".

وطبقًا لِما أوضحَ في المذكّرة فإن الباخرةَ بعد أن تغادرَ الحرمَ ستمرّ على موانئ "جَانَقْ قَلْعَة" (قلعة سلطانيّة) و"إزمير" و"أَنْطَالْيا" و"طرسوس"، ولكن هذا الطريقَ العام الذي ورد ذكرُه في المذكّرة لم يبقَ كما هو بلْ تمَّ تغييرُ الموانئ التي سيتمُّ المرورُ عليها بعد ذلك، فقد مرّت سفينةُ الصُّرّة بعد ميناء "جانق قلعة" على ميناء "بُوزْجَه آضَه" و"مِيدِلِّي (Midilli)" و"سَاقِيزْ (Sakız)" و"سِيسَام (Sisam)" و"رودس (Rodos)" و"قبرص (Kıbrıs)"[٢٠].

يحضر السلطان وأركان الدولة ورجال الدين المراسمَ والاحتفالات التي تتمّ أثناء تحميل الصُّرّة على السفينة في ميناء "بَشِيكْطَاشْ"، وفي البداية يُسلِّم أمينُ الصُّرّة الأكياسَ المختومة والصناديقَ والرسالةَ المرسلة إلى شريف مكّة المكرّمة والأشياءَ الأخرى، وفي تلك الأثناء يقوم السادةُ المشايخ والخطباء والأئمة بقراءةِ العشر الشريف ويردّدون الأدعيةَ، وطبقًا لقواعدِ المراسمِ التي أُحدِثَت في الفترات التالية فأثناء تحميلِ أماناتِ الصُّرّةِ على السفينةِ تطلق ثلاث عشرة قذيفة مدفعيّةٍ من قِبلِ الفوج الأوّل من المدفعيّة السيّارة، ولقد كانت تلك العادة مطبقّة في الاحتفالات الخاصّة بميلاد السلطان وجلوسِه والأعيادِ والمولدِ النبويّ ثم أضيفَت إلى احتفالات الصُّرّة السلطانيّة، ويُرى أن "الطوبخانة العامرةَ" قد جهّزت مدفعين من الصباح الباكر في "بشيكطاش" يوم خروجِ الصُّرّة وفي صحبة كلِّ مدفعٍ ضابطٌ من ضبّاط المدفعيّة، وبعد إطلاق المدافع لهذهِ القذائفِ الخاصّة بالمراسمِ يتمّ إرسالُها إلى المعسكرِ مع ضبّاطها على الفور[٢١].

وبعد وصول الصُّرّة إلى "أُسْكُودَارْ" يتمّ تشكيلُ موكبٍ يكونُ فيه متصرف "أُسْكُودَارْ" وموظفُ الأوقافِ وأركانُ اللواء، ويمر الموكِبُ بين زحامِ المتفرّجين على طول السوق ثم يخرج إلى ميدان "دُوغَانْجِيلَرْ"، ثمّ يتوجه من هناك إلى دائرة المتصرفية "بَاشَا قَبِيسِي" الكائنة بعد الميدان بمسافةٍ بسيطةٍ، وانطلاق الصُّرّة من هذا المكان يحمل أهمّيّة تاريخيّة؛ فهذا المكان هو قصر إبراهيم آغا الذي كان ملكًا له في عصر السلطان مراد الثالث، وفي كل سنةٍ -عند انطلاق الصُّرّة من هذا المكان- يتمُّ ترديد الأدعيةِ، ولأن الحجيجَ كانوا يودّعون أقاربهم في هذا المكان فقد اشتهرَ باسم "أَيْرِيلِكْ (Ayrılık)" (أي: الفراق)، ولكنه بعد الشروع في استخدام الطريقِ البحريّ تمّ إرسالُ الأمانات الموجودةِ في دائرةِ المتصرفيّة إلى ميناء "حيدر باشا" في منطقةِ "حَرَمْ"، حيث تمّ تحميلها على السفينة الجاهزةِ في هذا المكان، ولقد تمّ إرسالُ فرقٍ موسيقيّة إلى هذا الجانب -أي الطرف الآسيوي من إسطنبول- اعتبارًا من انتقالِ الصُّرّة من "أُسْكُودَارْ"[٢٢].



باخرة الخطوط المحلّيّة التي تحمل موكب الصرّة والمحمل الشريف تدنو من مرفإ "أُسكُودَار" [مجموعة "مراد قازكيلي"]

تُطلب السفينة المخصصة لنقل الصُّرَّة الهمايونية بالخطاب المكتوب من قبل أمانة الصرة، ولكي تُخصّص السفينة الموضحة خصائصها في هذا الخطاب المحول إلى الترسانة العامرة يتم الرجوع إلى "إدارة عزيزة" -التي حملت اسم "إدارة مخصوصة" بعد ذلك(٢٣)-، وقد كانت السفينة تتغير كلّ عام وكان من ضمن السفن التي خصصت من قبل شركة "إدارة مخصوصة" السفن المسمّاة "طائف" و"مَجِيدِيّة" و"كامل باشا" و"عسير" و"قُونْيَه" و"سَقَارْيَا" و"قَبْلَانْ"، ولكن يُرَى أنه قد حدث بعض التقصير في تخصيص السفن من حين لآخر(٢٤)، وكان يحدث هذا الأمر بسبب أزمة السفن الناتجة عن تسليحِ سفنِ "إدارة مخصوصة" واستخدامها في الأغراضِ العسكريّة في حالةِ الحاجة إليها أو بسبب عدمِ وجود المصادر الماليّة للسفينة التي سيتم تخصيصها، وكان موضوع تحديدِ الجهة التي ستسدّد نفقات السفينة التي سيتمّ تخصيصها محلّ بحث ونقاشٍ في كلّ سنة،

ويُرى أن هذا الأمرَ قد صدرَ فيه قرارٌ في مضبطةِ مجلسِ الوكلاءِ المؤرّخةِ في السادس من نوفمبر عام (١٨٨٦م)، وطبقًا لهذا فإن الباخرة المسمّاة "كامل باشا" التابعةَ للإدارة المخصوصةِ التي قامت بنقلِ الصُرّة السلطانية إلى بيروت في هذا العام قد أَنفقت في هذه الرحلة مبلغ اثنين وأربعين ألف قرش، وأنتجت المباحثات -الخاصّة بالجهة التي ستقومُ بدفع هذه النقود- قرارًا ينصُ على أن هذه النفقات يتمّ دفعها من ميزانية الإدارة المخصوصة وإبلاغ نظارة البحرية بهذا القرار[٢٥].

وبعد إكمال الاستعدادات الخاصّة بإرسال الصُرّة ووصول السفينة إلى منطقة "حَرَمْ" كان من العادة أن ترسِل أمانةُ الصُرّة مذكّرة إلى السلطان بخصوصِ ميعادِ بدءِ رحلةِ نقلِ الصرّة، وفي الغالب كان يبدأ التحرّك في اليوم الخامس عشر من شهر شعبان[٢٦]، ولو صادفَ الخامس عشر من شعبان يومَ الجمعة تُرسَل الصُرّة يوم الخميس أو يوم السبت، ويتواجدُ على السفينة التي ستخرجُ من منطقة "حَرَمْ" أمين الصُرّة ومن في معيّته والإمامُ والأطباء وبجانبهم بحارةُ السفينة وبعضُ الشخصيّات العسكريّة وكان يوجد معهم بعض الشخصيات غير القادرة ماديًّا على الحجّ، ففي عام (١٩٠٢م) عند إرسال الصُرّة السلطانية على الباخرة "قَبْلَانْ" كان يوجد عليها أمين الصُرّة وثلاثة ضباطٍ برتبةِ "ملازم ثان" قد تخرجوا في المدرسة الحربيّة السلطانيّة في البوسنة وتمّ تعيينهم في الجيش الخامس الهمايوني وثمانية من فقراء الحجيج وثلاثة أفراد جدد، وثلاثة أفرادٍ منقولين واثنان من الأساتذة المنقولين من المدرسة إلى الفوج، وملازم أوّل أُرسل لتغييرِ وظيفته وعددٌ من الحجيج وملابسُ إلى "إسكندرون" وأربعةُ صناديقَ أدوية طبّيّة إلى "بيروت"[٢٧]، ولقد كان الفقراء من المسلمين الذين لا يجدون مؤنةَ الحجِ وتكاليفَه يذهبون مجّانًا ودون مقابلٍ مع الصرّة الهمايونيّة وهذا ما توضّحه وتنصّ عليه الوثيقة التالية:

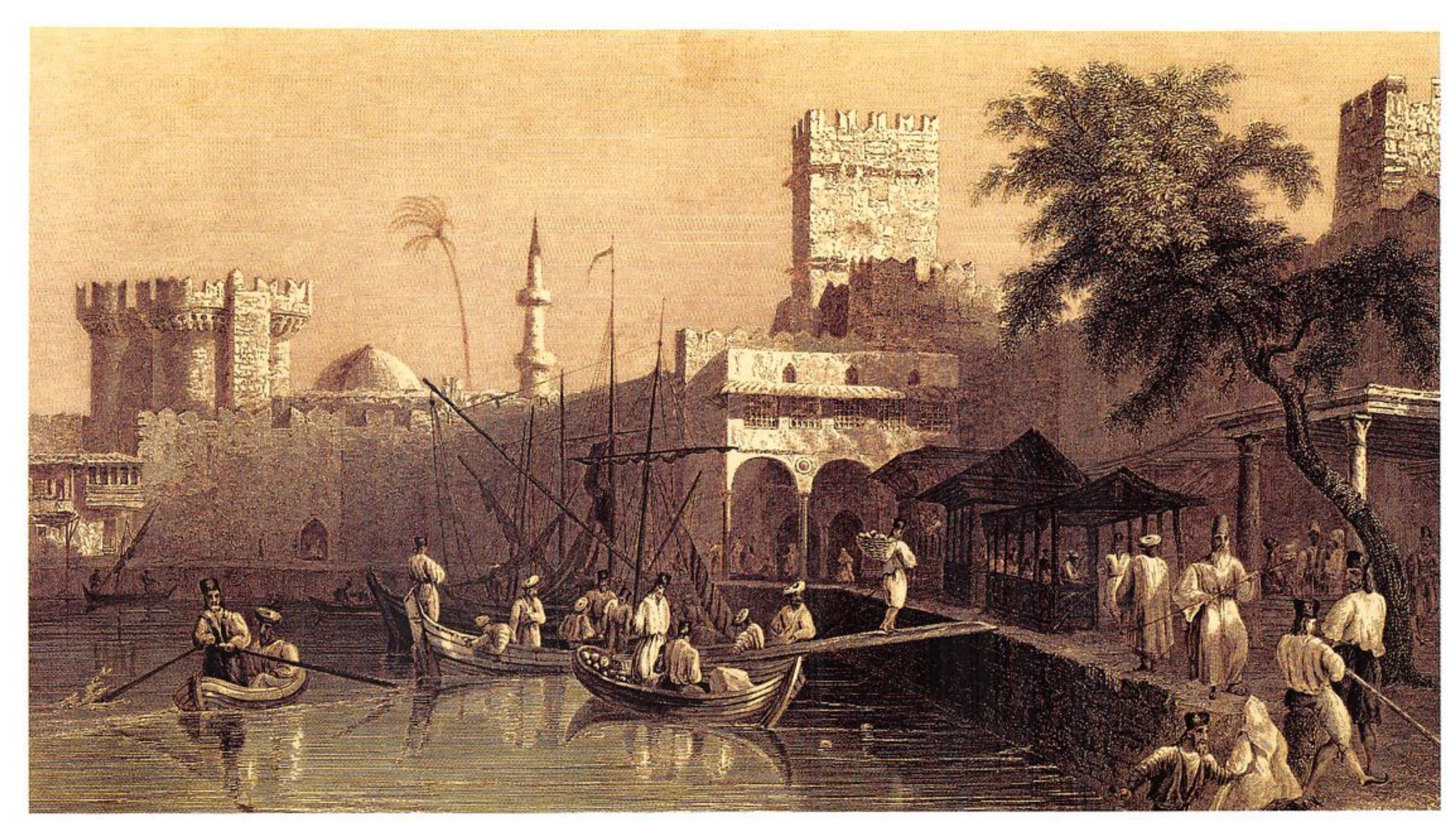
إلى رئاسة كُتاب "المابين الهمايوني" الجليلة:

> *"هناك خمسةَ عشر نفرًا من مهاجري داغستان عزموا على الذهاب إلى الحجاز مع باخرة الصُرّة السلطانية من دار السعادة إلى بيروت، ولأنهم من الفقراء فقد صدر الأمر من حضرة السلطان بحملهم على واحدةٍ من بواخر الإدارة المخصوصةِ ونقلِهم إلى "جدّة"، كما صدرَ الإذنُ من السلطان بأن يسدّدَ ثمنُ الرحلة البالغُ مائتي قرشٍ عن كلّ واحدٍ منهم والبالغُ ثلاثةَ آلافٍ عن مجموعهم من صندوق بيت المال".*
>
> *والي بيروت*

ب- رحلة بباخرة "طائف"

أورد "أمين يُوجَه (Emin Yüce)" الذي عمل في البحرية العثمانية في عصر السلطان "عبد الحميد الثاني" في مذكراته التي عنون لها بـ"مَسْلَكْ حَيَاتِمْ (Meslek Hayatım)" (أي: حياتي المهنية) تلك المعلومات الخاصة بنقل الصُّرّة من إسطنبول إلى بيروت بسفينة "طائف" سنة (١٩٠٥م)(٢٨) .

"جاءت السفينة "طائف" إلى إسطنبول، وقد خصصت لنقل الصُّرّة السلطانية، وكان عليّ أيضًا الذهاب إلى هناك، فرحلة بيروت ليست من الأشياء غير المرغوبة، ولقد تجهزت للرحلة بكل سعادة، وكان بحارة السفينة هم القدامى فيها، ولم يخرج منهم أحدٌ غيرُ القبطان الثاني، وطبقًا لما أتذكره فإنه يوافق نوفمبر العشرين أو الثاني والعشرين من شهر رمضان لسنة (١٣٢٣هـ)، وفي ساعة العصر رُفعت رايةُ السفينة، واقتربنا من ميناء "حيدر باشا"، وعند التحرك جاء وفدٌ عسكريٌّ مكلّف بمهمّة ما ومكوّن من لواء الأركان الحربية "فاروق سامي باشا" البغدادي وميرآلاي(٢٩) الأركان الحربية "سعيد بك" وطبيبٌ على درجة نقيبٍ وركبوا السفينة واستقروا في أماكنهم، وجاء رئيس المبشّرين الذي يكون واحدًا من آغوات قصر "طوب قابي" وهو رجل أناضوليّ مسنٌّ أتى مع عائلته التي كانت كبيرة إلى حدٍّ ما، وبعد الإفطار جاء عددٌ من الفرسان والعَكّامين وغيرهم وجاء الفريقُ "بدرخاني (Bedirhani) علي شامل باشا" قائد "أُسْكُودَارْ" ومساعد حضرة السلطان و"حسني أفندي" أمين الصُّرّة الهمايونية والذي كان مديرًا لبيت المال وعائلته ومعه وفدٌ كبيرٌ من الأركان، وأحضر العديدُ من البغال الصناديقَ الفارغة المحمّلة على ظهورها وتركوها، كنّا نعتقد أن هذه الصناديق التي شاهدناها في موكب الصُّرّة مليئةٌ، وعندما حملناها على السفينة وجدناها كلّها فارغة، وتمّ استقبالُ السادةِ الكرامِ وإجلاسهم في أماكنهم، ومضت من خمسٍ إلى عشرِ دقائقَ من المراسِمِ في الصالون، وأعطى القائدُ أمرَ التحرّك للقبطان بأسلوبٍ لطيفٍ بلهجةِ حمّالي السفن، ونزل من السفينة، وبعد قليل تحركنا فكان داخلُ السفينةِ يُشبِه منازلَ العرسِ، واستقرّ أمين الصُّرّة وأهلُه رجالًا ونساءً في القمراتِ الأولى كما استقرّ على السطح خدمُ المطبخِ ذوو السراويل الواسعة والعَكّامون وعددٌ كبيرٌ من التابعين له، وفي هذه الرحلة لم يكن هناك قبطان ثان، ولهذا فقد أخذتُ أنا مقصورته الموجودةَ على السطح وكنت مستريحًا فيها فقد كانت جيّدةً، وفي اليوم التالي عبرنا إلى "جانق قلعة"، ولأنه كان يوجد علم أمين الصُّرّة على صاري السفينة فقد أعطيَتْ لنا التحيّة من قِبلِ الجند المصفوفين على الحصون في الجانبين، وبعد يوم وصلنا إلى "رودس"، وطبقًا للعادة فقد أرسل أمين الصُّرّة الذبائح والمخصّصات المعيّنة لتربة المرحوم "مراد رئيس" المدفون في "رودس"، وجاء الموظّف المكلّف من قِبَلِ والي رودس، وبعد الانتظارِ ساعةً أو ساعتين واصلْنا السفر.."(٣٠).



رسم تقريبي يصوّر جزيرة "رودوس" [مجموعة "يوسف جاغلار"]

إن سفينة "طائف" واحدة من السفنِ القديمة التابعة لـ"إدارة مخصوصة"، وقد تمّ تخصيصُها لنقلِ الصُرّة إلى بيروتَ سنة (١٩٠٥م)، وكانت قد بلغت من العمرِ إحدى وأربعين سنة[٣١]، وطبقًا للعادة فقد كان يوجد على متنِ السفينة أمينُ الصُرّة ورئيسُ المبشِّرين بعائلتيهما والعَكّامين والجندُ وطبيبٌ، وما يلفتُ النظرَ هنا هو أن الصناديقَ التي حُملت على السفينة في حفلٍ رسميٍ كانت فارغةً، ويحتملُ أن صناديقَ الهدايا والأمانات قد حُملت على السفينة من قَبْلِ المراسمِ بحجّة تأمينها، وطبقًا لقواعد المراسم فقد رُفِعَ فوق السفينة التي تحمل الصُرّة علمُ أمين الصُرّة ولهذا قُدّمتْ التحيّة الرسمية للسفينة، وكان من العادات المتعِبَةِ أيضًا الذهابُ إلى قبرِ "مراد رئيس" وتركُ الذبائح والمخصّصات، وفي الفترات التي كانت ترسَل فيها الصُرّة برًا كان يُرسَل خبرٌ إلى كل الإداريين الموجودين على طريقها ويُطلب إليهم عملُ كلِّ التسهيلات المطلوبة، ولما غُيّر طريق الصُرّة من الطريق البريّ إلى الطريق البحريّ طُبِّقت القاعدة نفسها على الإداريّين الموجودين على هذا الطريق، ولم يذكرْ "أمين يُوجَه" الموانئ الأخرى التي مرّ عليها في هذا الطريق ولا أيّةَ معلومات تفيد مروره على موانئ "بُوزْجَه آضَه" و"مِيدِلِّي" و"سَاقِيزْ" و"سيسام" و"قبرص" أم لا، وفي بقيّةِ مذكّراته يورد هذه المعلومات المتعلّقة بالرحلة:

"ولقد كان هناك تحسُّنٌ في الجو يقلّ مصادفته في هذا الفصل، وكان ركّابنا الخائفون من الرحلة البحريّة قد سعِدوا جدًّا لهذا الأمر، وكان أمينُ الصُّرّة مكلّفًا بإطعام السفينة، فكنّا نأكل معه في الصالون الموجود في الموقع الأوّل، وابنه الذي كان يقوم بمنصب "كتخدا الصُّرّة" قد أعطى أهمّيّة كبرى للتوفير، ولذلك كان أغلبُ طعامنا عبارة عن الكرنب أو الملفوف والكراث الإفرنجي، وأعتقد أنّنا أكلنا الحلوى في ليلة ما، كان "حسني أفندي" أمين الصُّرّة عجوزًا كبير السن أبيضَ اللحية قد انحنى ظهرُه قليلًا، وكان يجلس دائمًا على مائدة الطعام بالجلابية، أما صهره "غالب بك" الذي كان من رؤساء العدليّة فكان رجلًا رفيع الخُلُق مهذّبًا، أما أظرفُ المسافرين وأحسنُهم معاملةً فكان "سعيد باشا"، وكان صاحبه المير آلاي "سليم الأرناؤوطي" حلوَ المعشرِ طيّبَ الحديث.

قبل وصولِنا إلى بيروت بيوم وأثناء الإبحار فيما بين "رودس" و"قبرص" حدثت مراسم جميلةٌ بين العَكّامين الموجودين على السطح، فقرعوا الطبول الصغيرة وتجوّلوا في السفينة، وكان هذا من المراسِمِ المعتادة وخرج أمين الصُّرّة ومن معه إلى مؤخرة السفينة، وقام العَكّامون بأداء رقصةِ السيف والدرع وقدموا بعضَ العروض الأخرى، فكانوا يهزّون واحدًا منهم ويُمَرْجِحُونَه ويلقونَه في الهواء ويلتقطونه قبل أن يقعَ على الأرض، ثم بعد ذلك ردّدوا الأدعية المأثورةَ والمعتاد قولها في مثل هذه الأماكن، فنثر أمين الصُّرّة وحَرَمه وكل الموجودين عليهم النقودَ التي كانت بمثابة العطية"[٣٢].

إن المراسمَ الأخرى التي تمّت في السفينة أثناء ذهابِ الرحلة كانت عبارةً عن العروض التي قدّمها العَكّامون، وفي الفترات التي كان يتم فيها إرسال الصُّرّة بالقافلة عن طريق البرّ كان العَكّامون يرتدون القمصان البيضاء الطويلة المفتوحة الياقة والنصف كمّ، ويربط كلٌّ منهم خصرَه بالقماش الحرير ويضع على رأسه قلنسوةً ويحمل في يده نوعًا من الطبول تُقرَع بقطعةٍ من الجلد، وكانوا يغنّون المواويل ويقفزون ويرقصون ويسامرون مَنْ في الفوج، إن هؤلاء العَكّامين يرافقون المسؤولين عن الهوادج المستَخدَمةِ في نقل الصُّرّة السلطانية وكانوا يذهبون حتى الشام،[٣٣] وفي هذه المذكّرات يُرى أن العَكّامين قد استمرّ وجودُهم مع الصُّرّة رغمَ تغييرِ الطريق من برّيّ إلى بحريّ، فقرعوا الطبولَ الصغيرةَ بدلًا من الكبيرة ورقصوا رقصةَ السيفِ والدرعِ[٣٤] وقدّموا كثيرًا من العروض الأخرى أمام أمينِ الصرّة.

"في صباح اليوم الرابع من تحرّكنا ظهرت بيروت الجميلة بحدائقها اللطيفة وأبنيتها البيضاء المتناثرة أسفل جبال لبنان العظيمة التي اختلطت ذراها بالسحب، وكانت تزداد جمالًا ورونقًا كلما اقترابنا منها، وكان لديَّ شوقٌ عظيمٌ لرؤية هذا المكان بسبب المناقب الكثيرة التي سمعتها عنها طوال حياتي،

وفي النهاية وصلنا إلى الميناء ورست السفينة أمام الحَجْر الصّحيّ، وكانت هناك ضوضاء شديدةٌ تخرج من "حارة الصنادل" ومن العرب الموجودين في الميناء، وجاء عددٌ كبيرٌ من الشخصيّات الرسميّة للترحيب بقدومِ أمين الصرّة، ودُعينا نحن أيضًا إلى مؤخّرة السفينة في الوقت الذي سيخرج فيه الوفد، وطبقًا للعادة وُضِعت مخصصات الصُرّة الهمايونيّة التي ستعطى لنا والساعات ونقود البحّارة على منضدةٍ، ووزعوا على البحارة عطايا لا أتذكّر مقدارَها، فكانت ساعات حرّاس البحريّة ذات غطاءٍ مزدوجٍ، وساعاتُ موظفي الحساب ذهبيّةٌ ذات غطاءٍ واحدٍ، أما ساعاتنا فكانت عبارةً عن إطارٍ التصق طرفاه بساعةٍ عليها زجاجٌ ومصنوعةٌ من ذهب أقلّ درجة، وانتهت المراسمُ بالدعاء وبترديد "يحيا السلطان"، ونزل الوفد بقارب القيادة إلى البر"(٣٥).

بعدما غادَرَتِ السفينة من "رودس" تحرّكَت فورًا ووصَلَتْ إلى بيروت في رحلةٍ دامَت أربعةَ أيّام، ويذكرُ "أمين يُوجَه" في مذكّراتِهِ أنّ الرحلة قد انتهت بتوزيعِ أمين الصُرّة الهدايا والعطايا، كما أوضح وبيّن أنه أصبحَ من جملةِ القواعد المتّبعةِ والمطبّقةِ كل عام؛ أن تُردَّدَ الأدعيةُ وتُستَقبلَ الصرّةُ السلطانيةُ بحضور وفدٍ رسميّ.

ومع الأسف فإن تلك الأحداث أظهرت أنّه قد حدث جدالُ مصالحٍ ومنافعٍ من أجل الصُرّة السلطانيّة في الفترةِ الأخيرةِ، ويظهَرُ أنه لا توجد معلوماتٌ كافيةٌ عن قواعدِ المراسم الخاصّة بمن سيستقبل أمين الصُرّة، مع العلمِ بأن منصب أمين الصرة هذا كان يُعيّنُ فيه واحدٌ من أصحاب النفوذ الذين شغلوا وظائفَ مهمّةً ويصطحِبُ عائلتَه معه أثناء الرحلة، وطبقًا لما ذكره "أمين يُوجَه" فقد كان هناك اضطراب في الأعمال الداخلية ومن المحتمل أن هذا الأمر كان سببًا في المظاهرِ غير الجيدة التي حدثت أثناءَ توزيع الهدايا.

ج- الدخول إلى الحَجْر الصّحيّ في "بيروت"

ومن الملاحظ أنه بعد توصيلِ الصُرّة الهمايونيّة إلى بيروت توضع السفينة في مركزِ الصحّة بسبب الأمراضِ المعدية، كما أنّ الأطبّاء العاملين في السفينة الذين وصلَ عددهم إلى ثلاثة كانوا يقومون بالكشف والمعاينةِ باستمرارٍ، ورغم الكشفِ الصحّي الذي تمّ في بداية الرحلةِ في الحجْر الصحّيّ في إسطنبول إلا أنّ الكشفَ والتدقيق في بيروت كان أكثر شدّةً، ففي بعض الأحيان يركبُ السفينةَ الكثيرُ من فقراء الحجيج ويشكّلون تهديدًا خطيرًا بسبب الأمراض المعدية، وكان هذا الأمر سببًا في ترك قواعد البرتوكول جانبًا وأخذِ السفينة إلى مركزِ الحجر الصحّي وتلقي العلاج، وفي الغالب تتسلّم الإدارةُ العامّة للصحّة بيانًا مكتوبًا من الشركة المالكة للسفينة التي ستنقل الصُرّة يفيدُ بأنه لن يُسمح بركوب السفينة إلا لتسعةٍ وأربعين شخصًا فقط، ولكن يُفهَم من الوثائق أن هذا الأمرَ لا يتمّ تنفيذه،(٣٦) ولقد شُرح هذا الأمر في وثائق الأرشيف العثمانيّ كما يلي:

"إلى نظارة الداخلية الجليلة:

> *لقد وصلت اليوم إلى بيروت باخرةُ "قُونْيه" التي تحمل الصُّرّة السلطانية، ولقد أخبرت أن الصحة العامة في الباخرة خلال الأيام الخمسة التي قضاها الحجيج فيها في منتهى الكمال، وقد قدم الأطباء الثلاثة الموجودون في الباخرة تقريرًا بهذا الشأن، كما أن الإدارة العامّة للصحة في إسطنبول سوف تقوم بالتطهيرات الفنّية ورغم هذا فإن إدارة الصحة الموجودة في بيروت تريدُ إبقاء هيئةِ الصُّرّة كلّها في الحَجْر الصّحيّ سبعةَ أيام نظرًا لوجود مائةٍ وأربعين راكبًا في الباخرة، وإن هذا الأمر سيؤدي إلى تأخير التجهيزاتِ الخاصّة بالصُّرّة السلطانية في "الشام الشريف" كما سَيُحول هذا دون خروج الصُّرّة في ميعادها، ولهذا نرجوا أن تَصْدُرَ الأوامرُ السريعة الملزِمَة بإخراج الصُّرّة الهمايونيّة بعد إجراء التطهير الفنّي والكشف الصحّي وبعد الخمسة أيام الخاصّة بالرحلة من أيام الحجر"*(٣٧).

سعَتِ الدولة العثمانيّة لعملِ سلسلةٍ من التعديلات مثلَ ما حدث في الخدمات الصحّيّة المتعلّقة بمنطقةِ الحجاز اعتبارًا من سنة (١٨٩٥م)، وقد كان على رأس هذه الأشياء موضوع التأكُّدِ من سلامةِ الأوضاع الصحّيّة للحجيج القادمين من الدول الاستعماريّة مثل روسيا وهولندا والسعيُ لمنعِهم من التدخُّل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانيّة، وقد تمَّ إنشاءُ أماكن للكشف الصحيّ وتلقّي العلاج في الأماكنِ المناسبة لمنعِ انتشارِ الأمراض المعدية التي قد تتحوّل إلى وباءٍ بين القادمين من أجلِ الحجّ وقد أطلق عليها اسمُ "تحفُّظ خانه" (أي: الحَجْر الصّحيّ)،(٣٨) ومن الملاحظ أن بعضَ السفن قد تضرّرت لهذا السبب، ومن هذا ما حدث مع السفينة التي نقلت الصُّرّة كما ذكرنا سالفًا.

بعد وصولِ الصُّرّة السلطانيّة إلى بيروت سالمةً كانت تُنقل إلى الشام عن طريق البرّ، ومن هناك يتمّ إرسالُها إلى مكّة المكرّمة مصحوبة بالمراسم والاحتفالات التي تتمّ مع الحجيج القادمين إلى الشام من طُرُقٍ مختلفة، وبعد أن يودّع وَالي الشام الحجيج والصُّرّة السلطانية ويتركهم عند أول الطريق كان يستمرّ في إخبار المابين الهمايوني بالوضع القائم، ورغم الاختلافات بين المصادر فالمسافة بين الشام الشريف ومكة المكرمة تبلغ أربعمائةً وتسعين ساعة تستغرقُ ستين يومًا من السير العادي، ورغم هذا فقد كان هذا الطريق يستغرقُ أربعين يومًا في الأعمّ الأغلب بسببِ الخوف من الطريق وقلة الإمكانيات، أضف إلى ذلك الخوف من العربان، وهذا يعني السير أكثر من اثنتي عشرةَ ساعةً يوميًّا لا يُحسَب منها ساعات النزول التي تستغرقُ فترات قليلةً وقصيرةً جدًّا، وفي أيام الصيف تسير القافلةُ ساعةً أو ساعتين بدءًا من الساعة الخامسة بعد العصر، أما في الشتاء فيتم السير بالنهار فقط، وإضافةً إلى القافلة القادمة من إسطنبول فهناك قافلة أخرى تأتي من القاهرة،

وكل من القافلتَين الذاهبتَين إلى مكّة المكرّمة يتقابلان في "بدر حنين" التي تُعَدُّ ثلثَ الطريق تقريبًا، وبعد توزيعِ الصُرّة وعملِ طوافِ الوداعِ يبدأُ البيعُ والشراء، فيعرض المغارِبةُ الطرابيشَ والعباءات الحرير، ويبيعُ أتراكُ أوروبّا الأحذيةَ والخردوات والأقمشةَ المشغولةَ والجواهرَ الأوربيّة، أما أتراكُ الأناضول فيبيعون السجّاد والأقمشةَ الحريرية والشيلان الأنقرويّة، بينما يعرض الإيرانيّون المناديلَ الحريريّة واللآلئ والأقمشة الكشمير، أما الأفغان فيبيعون السواك والشيلان الكبيرة، وفي رحلةِ العودة يشتري الحجيجُ القهوةَ اليمنيّة والسنامكي(٣٩) والصمغ والبهارات والأقمشة الصينية وغيرها من الأشياء(٤٠).

وفي تلك الرحلات كانت شركات البواخِر الأجنبيّة والجمّالين الذين ينقلُون الحجيج بالجِمال يطلبون أجرًا أعلى من المعتاد دفعُه للنقل في باقي الأيّام العاديّة، ولهذا صدَرَ الأمرُ إلى هيئةٍ مكوّنةٍ من أميرِ مكّة المكرّمة ووالي الحجاز وقاضي مكّة المكرّمة ودفتردار الحجاز ومديرِ الحرم الشريف واثنين من الأشراف بتحديدِ أجرةِ النقل بالجمال طبقًا لظروف العصرِ اعتبارًا من سنة (١٨٩٦م)، بخلاف هذا فقد نشرت البيانات والإعلانات التي تُوضِّح أن للحجيجِ كاملَ الحرية في تأجير العير والبواخر والخدمات المساعدة وتوصي بأنه إذا حدثت أيّة مشكلة فعليهم الرجوعُ إلى أقرب مسؤولٍ عثمانيٍ وطلب المساعدة منه(٤١).

وبعدما ينهي أمين الصُرّة مهمّته يرجعُ مع الحجيج بشكلٍ طبيعيّ عن طريق البحر، وتعطي الوثيقةُ المؤرّخة في الخامس عشر من مايو/أيار (١٩٠٢م) المعلومات التالية عن عودةِ أمين الصُرّة:

> *"نعرضُ على حضرتِكم أن "فيضي بك أفندي" أمين الصُرّة وبرفقته مائتين من الحجيجِ والفريق "محمود باشا" المكلّف بمدّ خطّ التلغراف بين الحرمين الشريفين والقائد العام الأكرم لإيران "عبد الله خان" قد تحرّكوا إلى دار السعادة على متنِ الباخرةِ العثمانيّة المسمّاة أنْقَره"(٤٢).*

ولقد حُمِلت الصرّةُ بالقطار عند بدءِ تشغيلِ خطّ سكّةِ حديدِ الحجاز في أواخر عصرِ السلطان "عبد الحميد الثاني"، وربما كان تيسيرُ رحلة الحجّ على الحجيجِ هو السببُ الأوّل في إنشاءِ خطّ سكّة حديدٍ على هذا الطريق، ولقد أوضِحَتْ أسبابُ إنشاءِ خطّ سكّة حديد الحجاز في المصادر كما يلي:

> *"حتى يتمكّن أهل الإسلام من إتمامِ فريضةِ الحجِّ بكلّ سرعة وسلام"(٤٣).*

إن إرسال الصُرّة عن طريق سكّة حديدِ الحجاز يبدو أقلّ مشقّةً من الطريقِ البرّيّ والبحريّ إلا أنّه من الممكن العثورُ على الكثير من الأمثلةِ المتعلّقة بالمشاقّ التي وقعت في هذا الطريقِ في وثائقِ الأرشيف،



أوائل (١٩٠٠م) مراسم الاستقبال في ميناء "بيروت" [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

وعلى سبيل المثال فالوثيقةُ المؤرّخةُ في الثالث عشر من مايو/أيار عام (١٩١٠م) تعطينا هذه المعلومات المتعلّقة بهذا الموضوع كما يلي:

"إلى الجناب العالي للمديريّة العموميّة لسكّة حديد الحجاز في دار السعادة،

حضرة صاحب الدولة:

في العام الماضي عند إرسال الصُّرّة السلطانية بالمراسم المخصوصةِ من الشام الشريف إلى البلدةِ المطهّرة قام "بابسيان أفندي (Papasyan Efendi)" مسؤول محطّة "القدم الشريف" ببعضِ الأفعال غير اللائقة في الوقت الذي كان يجب عليه تأمينُ الراحة لأمين الصُّرّة ومن في معيته، ولهذا يُرجى التنبيهُ على الموظّف المشارِ إليه بعدمِ القيامِ بمثل هذه الأفعال غير اللائقة مرّةً أخرى واتخاذُ اللازمِ لعدم تكرُّرها..."(٤٤).

وكما يُرى فإن تأمينَ الراحة لوفدِ الصُّرّة لم يكنْ أمرًا متاحًا في كلّ الأوقات.

الخاتمة

إن الصُرّة السلطانية التي استُحدِثت لأسبابٍ سياسيّة ودينيّة كانت من المراسم الدينية المهمّة التي استمرّت حتى سقوطِ الدولةِ العثمانيّة، ورغم الأزمات الماليّة التي توالَت بكثرةٍ على الدولةِ العثمانية بدءًا من عصرِ السلطان "عبد المجيد" على وجه الخصوص لم تُترَك عادةُ إرسال الصرّة، كما أنّ الأخبارَ المنشورةَ في الصحفِ الأوربيّة التي تزعُم أن الدولة العثمانيّة لن تتمكّن من إرسالِ الصُرّة كان يتمّ الردّ عليها في "الجريدة البحريّة" -الجريدةِ الرسميّة في تلك الفترة-، ويلاحظ أنه لتوفيرِ نفقات الصُرّة التي تعذر توفيرُها بأيّ شكل من الأشكال تمّ اللجوءُ إلى شخصٍ غير مسلمٍ مثل السيد "قالوس (Kolas)" مستلزم الفنارات.

لقد ظهرت الوحدة المتوازنة بين علماء الدولة والرعايا في هذه المراسم التي حدث فيها تغييرٌ طفيفٌ، والسبب في التغيّر النسبيّ الذي حدث في إرسال الصُرّة السلطانية هو الحقوق التي منحتها "التنظيمات" لغير المسلمين وزيادةُ عدد شركات البواخرِ الأجنبيّة بسرعة.

إن السفُنَ الأجنبية التي تحرّكت من الموانئ العثمانيّة قد حلّت بطريقةٍ جزئيّة مشكلةَ الأمن التي كان يعاني منها الحجيج والتجارُ على وجهِ الخصوصِ، وخلقت جوًّا أكثر أمانًا وراحةً، وفي فترة بسيطة تمكنت الدولة العثمانية التي انضمّت إلى هذا السباقِ التكنولوجيّ بإمكانياتها القليلة من تأسيسِ شركاتٍ كانت مكمّلة لبعضها البعض بشكل ما، وكان منها شركة "الفوائد العثمانية" و"الشركة العزيزية" التي بدأت نشاطها في عصر السلطان "عبد العزيزِ" بالإضافة إلى أسطولِ السفن البخاريّة؛ وبهذا تحوّلَ نقلُ الصُرّة السلطانية من الطريق البرّيّ إلى الطريق البحريّ، ولكن الرحلةَ البحريّة استمرّت إلى بيروت فقط ثم توقفت هناك، والسبب في هذا أن بيروت أقربُ ميناءٍ إلى الشامِ الشريف وهي نقطةُ التقاءِ العديدِ من الطرقِ المختلفةِ المؤدّية إلى مكّة المكرّمة، وبمعنى آخر فإن سيرَ الحجيج إلى الحرمين الشريفين خلفَ الصُرّة بهذا الشكل والدعمَ الكبير الذي قدمه الخليفةُ يمثل تتويجًا له أمام الموجودين في القافلة، ولكن المعلومات المتعلّقة بالفترة الزمنيّة الواردة في المذكّرات والجدال والنزاع على السلطة وعلى استحواذ لقب أمين الصرة بين الموظفين المكلّفين بنقل الصُرّة يُظهر أن الصُرّة قد تأثّرت بالتغيير الحادثِ في الكثير من المؤسّسات العثمانيّة في الفترة الأخيرة.



رسم تقريبي يُصوِّر موكب الصرّة المرسَل إلى الحجاز في عهد السلطان عبد العزيز الثاني (١٨٦١ - ١٨٧٦م) [جريدة Le Journal Illustre]





برقية الوسام العثماني المقدم إلى "إسماعيل بك" كاتب الصرّة الهمايونية في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦ م) [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

دفاتر الصُّرّة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء[1]

إعداد: حسين أُوزْدَمِيرْ (Özdemir)[2]

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

يحتوي الأرشيف العثمانيُّ على العديدِ من الوثائق ومجموعاتِ الدفاتر التي صُنِّفت ضمنَ وحدات مختلفة، ودفاتر الصُّرّة واحدةٌ من مجموعات الوثائق التي تُلقي الضوءَ على الحياة الدينيّة والسياسيّة والقانونيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة عند العثمانيّين، وهذه الدفاتر التي تضمُّ تسجيل النقود والذهَب والهدايا المختلفة المرسلة من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين -وقد تمّ جمعُها في كراسة تحتوي على أربعةِ آلافٍ ومائة وسبعين (٤١٧٠) دفترًا- تخصّ الفترةَ الممتدّة من (١٦٠١م) حتى (١٩٠٩م)[3]، ورغم هذا فهناك دفتر بين دفاتر الأوقاف ودفاتر المالية مختصٌّ بتفاصيلِ توزيع الصُّرّة.

إن دفاترَ الصُّرّة عبارةٌ عن الدفاتر الخاصّة بتوزيع الصرّة، وتحتوي الدفاترُ على قائمةٍ بأسماءِ من سيتمّ منحُهُم من الصررِ المرسلةِ إلى مكّة المكرّمة والمدينةِ المنوّرة والقدسِ في بعض الأحيان، وتنصُّ الدفاترُ على مقدار ما سيعطى لهم، وعلى مقدار المساعدات النقديّة والعينيّة، وأسماءِ العشائر التي تساعِد في ذهاب وعودةِ قافلةِ الحجّ بأمانٍ مع مقدارِ المساعدات التي أخذوها، ومن الممكنِ أن نجدَ في هذه الدفاتر قوائمَ بأسماء مَن تنازل برغبته عن حقه في الصُّرّة، وقوائم بأسماء مَن صار له الحقُّ في الصرّة، وأسماءِ الأوقاف المرسلة للصرّة.

وأكثر الجمل التي تَرِدُ في دفاتر الصُّرّة كما يلي:

- *"الصُّرّة المرسَلة من السلطنة السنيّةِ إلى المدينة المنورة".*
- *"الصُّرّة المرسَلةُ من قِبلِ الصدر الأعظم علي باشا إلى مكة المكرمة".*
- *"الصُّرّة المرسلة من وقف والدة سلطان (والدة السلطان مراد خان) إلى القدس".*

- *"الصُرّة المبينة لدخل الجمرك والمقاطعات في الشام الشريف وما حولها والرواتب المخصّصة من زيادات الأوقاف المصرية للعربان الموجودين على طريق الحجّ وللخدم الموظّفين في القلاع والرواتب المدفوعة لمن يقوم بتوفير لوازم ومؤن موكب الصرة".*

- *"الصُرّة المرسلة من أوقاف "فوينق (Voynuk) أحمد آغا" و"كوجوك (Küçük) حسين أفندي..."*

وبين دفاترِ الأوقاف ودفاترِ الحرمين الشريفَين توجدُ "دفاترُ الفِراشة" التي سجلت فيها حقائب الهدايا المرسلة إلى الفقراء العاملين بالخدمات المختلفة في الأماكن المقدسة والمعروفة باسمِ "حقائب الفِراشة" وأسماء موظفي الفِراشة، وطبقًا لما هو معروف فقد كان يتمُّ إرسال المساعدة بواسطة مواكب الصُرّة إلى الموظفين في المقامات المقدّسة والخدم والفقراء وكلّ من يطلب المساعدة، فبعد أن تُسلِّمَ نظارةُ الأوقاف الهدايا الموجودةَ في الحقائبِ التي تسلَّمَتْها كانت تعيدُ نفسَ الحقائب إلى أصحابها أثناءَ العودةِ، وكان يُعثَر في هذه الحقائبِ بعد عودتِها على هدايا بسيطةٍ مثل ماء زمزم أو تمر أو حنّاء أو شجر العود أو خاتم عقيق... الخ.

عند النظر إلى محتوى دفاتر الفِراشة نُصادِفُ عباراتٍ مثل:

- *"مقدار أكياس الفِراشة المرسلة من القصر الهمايوني والأسِتانة العليّة والبلاد الثلاثة[٤] إلى المدينة في شهر شعبان سنة (١٢٨٣هـ/١٨٧٦م)"[٥].*

- *"دفتر قيد فِراشة أصحاب الخير الموجودين في الأحياء المختلفة داخل إسطنبول الموجود أسماؤهم في دفتر "آقسراي (Aksaray)" و"فاتح" و"أيوب" و"غالاطة (Galata)" في شهر رمضان (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)"[٦].*

- *"أسماء ووظائف المكلفين بالفِراشة في مكة المكرمة والمدينة المنورة اعتبارًا من شهر رمضان (١٠٧٣هـ/١٦٦٣م)"[٧].*

تكتب دفاتر الصُرّة التي يتراوحُ عدد صفحاتِها ما بين ثلاث صفحات إلى قرابة سبعين أو ثمانين صفحة في سجلّات ولاية الحرمين الشريفين ويختمها آغا دار السعادة ومفتّش الحرمين الشريفين، ثم يوقّع عليها سعادةُ الدفتردار بتوقيعِه المذيّل، وأخيرًا يرسُم النيشانجي الطغراء على أول الدفتر، ويختم الدفتردار والنيشانجي دفاترهم في حضور السلطان ويسلمونها إلى آغا دار السعادة، ويسلّمها هو الآخر إلى أمين الصرّة، ثمّ تقدّمُ الدفاتر المحتوية على أسماء الذين سيأخذون من الصُرّة ومقدارِ عطاياهم إلى الشريف، ويتم توزيع النقود

المسمّاة "معلوميّة" على أصحابها تحت سمع وبصر أميرِ مكّة المكرّمة وشيخِ الحرم وأمينِ الصُّرّة وقاضي مكّة، وتُوزَّعُ الصُّرّة طبقًا للدفاتر، وتُضافُ في كل عامٍ أسماء جديدةٌ إلى القوائم الموجودةِ في ظهر دفاترِ الصُّرّة بحيثُ يستطيع هؤلاء الجدد الأخذ من الصُّرّة في العام القادم، ويوجدُ في بعض الدفاتر التي سُجّلت بخطّ "سِيَاقَتْ (siyakat)"[٨] الأرقام مكتوبة بخطّ السياقة، ويُرفَقُ معها توضيحٌ لها بالأرقام العادية[٩].

ورغم تسجيل الصُّرّة في دفاتر بصورة منتظمة منذ عهد السلطان "سليمان القانونيّ" سنة (١٥٥٩م) إلا أنه استحال إرسال الصُّرّة في بعض السنوات بسبب الاضطرابات السياسيّة وفقدانِ دفاترِ الصُّرّة الخاصّة ببعضِ السنوات[١٠].

تجهيزُ الصُّرّة وإرسالها بالاستدانة

إن تكوينَ الدفاتر أمرٌ مرتبط بتجهيز الصرة، وكما توجد في الأرشيف العثمانيّ الدفاترُ المسجّل فيها توزيعُ الصررِ فهناك دفاترُ أخرى لا تقلّ عنها أهمّيّة وهي دفاتر المحاسبة المتعلّقةُ بمرتّبات ومؤنِ الصرّة، ونلاحِظُ أنه مع البدء في إرسال الصُّرّة من الدولة العثمانيّة إلى الحرمين الشريفين وُضِعَتْ بعض الشروط على الأوقاف المخصوصة بالصرّة، وذلك كي يتمّ إفساحُ المجال أمام تخصيصِ مخصّصات للحرمين، وبعد ذلك فإن هيئةَ محاسبةِ الحرمين الشريفين التي تأسّست قد وصلت بعد ذلك إلى مستوى نظارة الحرمين الشريفين، وكما ظهرت هيئة محاسبة الحرمين الشريفين فقد ظهرت أيضًا وحدةُ أوقافِ الحرَمين الشريفين، ولكنّ أهمّ جزءٍ من الصُّرّة المرتّبة لمكّة المكرمة والمدينة المنوّرة كان يتكوّن من الدخل الذي جُمِعَ من أوقاف الحرَمين الشريفَين، بخلاف هذا فقد خُصِّصت مبالغُ ماليّة لتجهيزِ الصرة السلطانية من خزانةِ الأوقافِ الهمايونيّة ومن خزانةِ الماليّة الجليلة والخزانةِ الخاصّةِ السلطانيّة ومن بعضِ الأوقافِ ومن بعضِ الأشخاص، فعلى سبيل المثال يتبين لنا من السجلات الخاصة بأحد الوزراء أنه قد أرسل الصرة هو أيضًا على نفقته الخاصّة،[١١] ومن الممكن أن نجدَ مثلَ هذه الوثائقِ في الأرشيف العثمانيّ في السجلّات الجامعةِ لدفاتر الأوقاف وفي سجلِّ محاسبة الحرمين الشريفين والتصانيف الملحقة بمحاسبة الحرمين الشريفين ولجنات وهيئات محاسبة الأوقاف والمقاطعات.

إن جمعَ الصرَر -التي تصلُ إلى مبالغَ كبيرةٍ من الأوقاف المختلفة وخزانة المالية والخزانةِ الخاصّة وغيرها- وإرسالَها إلى الحرمين الشريفين مرجعُه حبُّ النبي ﷺ والتفاني من أجل حمايةِ البلاد المقدّسة، ولم تفرّ الدولة العثمانيّة ولم تتهرّبْ من أداء هذا الواجب، حتى إننا نجدها في الفترات التي مرّت فيها بأشدّ الأزمات الماليّة قد اقترضت حتى من غير المسلمين للقيام بتلك المسؤولية[١٢].

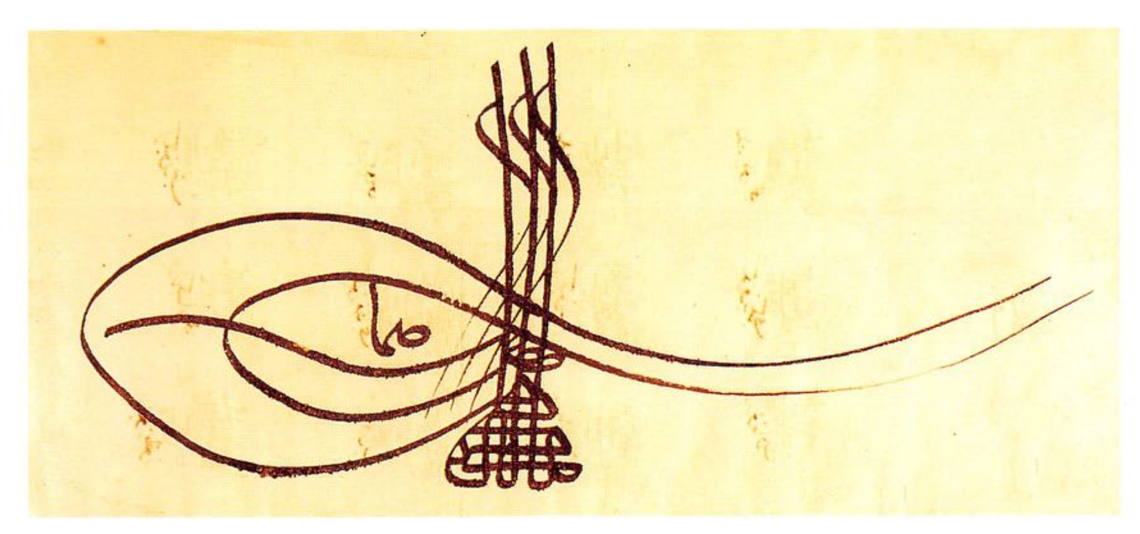
ظهرت أزماتٌ كبيرةٌ في تجهيز الصُرّة وخاصّةً في عصرِ تدهوُرِ الدولة العثمانيّة وفي الفترات التي غرِقَت فيها الدولة في مستنقعِ الديون العموميّة، هذا وقد اقترضَتِ الدولةُ نقودًا من أماكنَ مختلفة ولم تهربْ من مسؤولية إرسالِ الصُرّة إلى الحرمَين الشريفين، وتظهرُ في الوثائق أسماءُ الأماكن التي طُلِبَ منها نقود، وعلى سبيل المثال فقد طلبت دفتردارية الشام زيادةَ الدخل بمقدار خمسةٍ وعشرين ألف قرش لوجود صعوبة[١٣] في دفع صرّة الحرمين الشريفين؛ لأن الواردات أقلّ من المصروفات، وقد وجدت نظارة الماليّة أن العملَ بموجبه أمرٌ مناسبٌ،[١٤] وفي وثيقة أخرى أُوضِحَ أن دخلَ رسومِ أغنامِ سورية وبُورْصَه وبيروت الخاصّة بسنة (١٣١٤هـ/١٨٩٦م) غيرُ كافٍ لسدادِ الستين ألف ليرة التي تمَّ اقتراضُها من البنك العثمانيّ من أجل الصُرّة الهمايونيّة على أن تُسدَّد من قِبَلِ ولاية بيروت وسورية، وطَلَبَ البنكُ إضافةَ رسوم بعض الولايات الأخرى حتى تكفي لسدادِ الدين[١٥]، كما طلب قرضًا من شركةِ سككِ حديدِ الأناضولِ من أجلِ ترتيبِ صرّةِ سورية وبيروت،[١٦] ولقد تمّ ترتيبُ الصُرّة من جهات مختلفة ومن هذا ما وردَ في الوثيقة التالية:

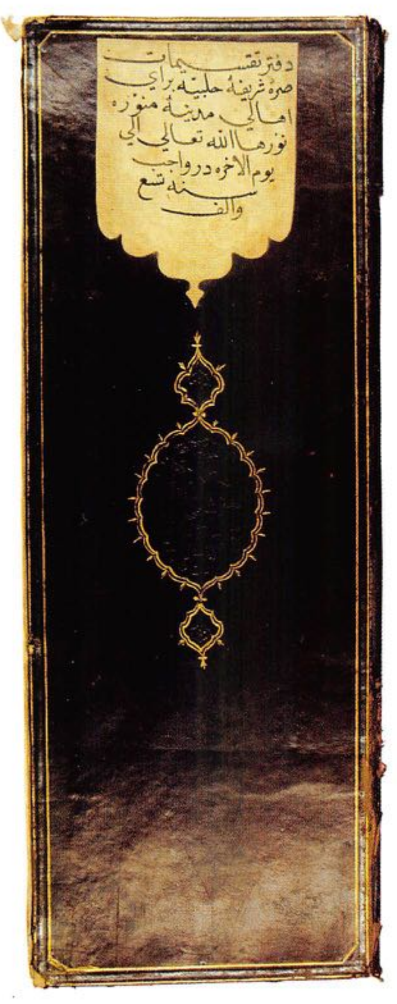
> *"لقد عرض حضرة الصدر الأعظم أن يتم سداد خمسةً وثلاثين ألفًا وستّمائة وثلاثين ليرة اللازم سدادها لنظارة الأوقاف الجليلة من الخزينة الجليلة لهذا العام من أجل الصُرّة السلطانية بأن يُسدد ثمانية آلافٍ ومائة وثلاثون ليرةً من الخزانة الجليلة ومن المبلغِ الباقي يسدّد الدفتر الخاقاني خمسة آلاف ليرة، وتسدِّد نظارةُ الغابات والمدن والزراعة عشرةَ آلاف ليرة، ويسدّد من أموال أمانة الرسوم مبلغ اثني عشر ألفًا وخمسمائة قرشٍ، وقد صدرت إرادة السلطان طبقًا لهذا"*[١٧].

وفي وثيقة أخرى ورد ما يلي:

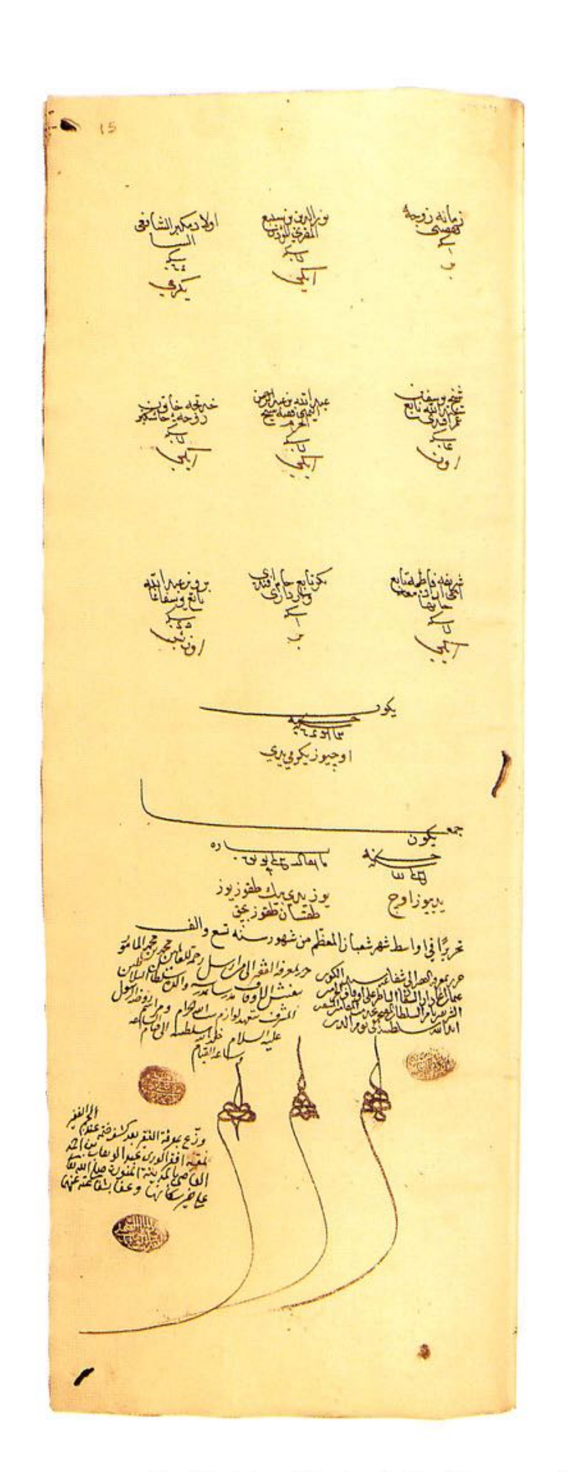
> *"لقد تم اقتراض مبلغِ ثلاثين ألف ليرة اللازمة للصرة السلطانية من السيد "ظريفي (Zarifi)"، ولقد تم التوصّل إلى اتفاقٍ شريطةَ أن تكونَ فائدةُ القرضِ السنوية (٨ ٪) ثمانيةً بالمائة وأن يُعطِي سندًا بسداده من أعشارِ زيتون جزيرة "مِيدِلّي (Midilli)" في سنتي (١٣٢١-١٣٢٢هـ/١٩٠٣-١٩٠٤م)، وتم إقرارُ الاتفاقية بين حضرةِ الباشا ناظرِ الماليّة باسمِ الحكومة السنية كطرفٍ أوّل وصاحبِ البنكِ السيد "ظريفي" المقيمِ في "غلطه" كطرف ثان"*[١٨].

وفي الأيام التي وصلت فيها الأزمة المالية للسلاطين العثمانيين درجة أنهم لم يكن لديهم القدرة على دفع رواتبِ الموظفين بصورةٍ منتظمةٍ اقترضوا وأرسلوا الصُرّة إلى الحرمين الشريفين، وأثبتوا أنهم يستحقُّون لقبَ "خادم الحرمين الشريفين"، فقد طلبوا قروضًا ماليّة من طرابزون[١٩] ومن الولايات المختلفة ومن البنوك المختلفة كيلا يقصِّروا في القيام بهذه المهمّة[٢٠].




دفتر تقسيمات
صرة شريفة حلبية براي
اهالي مدينة منوره
نورها الله تعالى الى
يوم الاخره در واجب
سنه تسع
والف







صفحات من دفتر الصرة المؤرخ في (١٠٠٩هـ/١٦٠١م) الموجود في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء

نماذج من دفاتر الصرة

النموذج الأول: دفتر الصُرّة المسجل برقم (١) في سجلّ دفاترِ الصُرّة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسةِ الوزراء[٢١].

إن محتوى دفتر الصُرّة رقم (١) كما يلي:

"يبدأ الدفتر بعنوان "**دفتر تقسيمات الصُرّة الشريفة الجليلة على أهالي المدينة المنورة**[٢٢] **نورها الله تعالى وعمّرها**"، وبعد ذلك على الفور يبدأ بذكر اسم من لهم نصيب أكثر من الصُرّة ومقدار نصيب كلٍّ منهم، كما يلي:

١- مولانا السيد قاضي المدينة المنورة ١٢٥٠ بَارَه (Para)	مولانا شيخ الحرم النبوي ٨٢٠ بَارَه	كتخدا الحرم النبوي ٤١٠ بَارَه
خطيب المدينة المنورة ١٠٠٠ بَارَه	أئِمّة الحنفية في المدينة المنورة ٢٠٠ بَارَه	أعزة الحرم الشريف ٧٥٠٠ بَارَه
كاتب دفتر في المدينة المنورة ١٠٢٥باره	مكبرو المذهب الحنفي تسعة أفراد ٢٤٦ بَارَه	مكبرو المذهب الشافعي عشرة أفراد ٤١ بَارَه
خادم الكيس ٢٠٥ بَارَه	صراف الحرم الشريف ١٨٢ بَارَه	مصالح رباط مولانا القاضي عبد الوهاب في المدينة المنورة ٥٠٩ بَارَه
مصالح رباط اريسه ٧٢ بَارَه	مصالح رباط خوذ زادي ٣٤٨ بَارَه	
المجموع: (١٣٨٠٨) بَارَه ثلاثة عشر ألفًا وثمانمائة وثمانية بارات		
٢- الجماعة الثانية أهل المدينة المنورة		
أولاد القاضي جمال الدين المالكي ١٥٢٠ بَارَه	أولاد الشيخ على ابن عبد القادر ٤٦٦ بَارَه	أولاد القاضي عبد البر ١١٠٥ بَارَه
أولاد السيد حسين السمهودي ١٣٠٨ بَارَه	السيد عمر بن السيد حسين السمهودي ١٢٣ بَارَه	أولاد سيد علي الشافعي السمهودي ٥٠٠ بَارَه (مقسمة على ثلاث حصص
وآخرون...		
ما أعطي سِكّة[٢٣]		
"زمانه" زوجة "قفاصي" ١ سكة	نور الدين بن سبع المكري المؤذن ٢ سكة	أولاد مكبر الشافعي ٢٠ سكة

عمر أفندي تابع الشيخ يوسف بن عبد الله ١٠ سكة	كسائي شيخ الحرم عبد الله بن عبد الرحمن اليماني ٢سكة	خديجة خاتون زوج جَاشْنِكِيرْ ٢ سكة
الشريفة فاطمة (لا تعرَف نسبتها) ٢ سكة	"بكر" أحد أتباع حاتم أفندي الوارداري ١ سكة	"برويز عبد الله" أحد أتباع يوسف آغا ١٥ سكة
وعلى آخرين... ويكون **مجموع** ما تم توزيعه من السكة: (٣٢٧) ثلاثمائةً وسبعةً وعشرين سكة.		
٣- جماعة آغوات خدام حرم سيد السادات		
٤- جماعة المجاورين بالمدينة المنورة (من جاء من الخارج واستقر في المدينة المنورة)		
٥- جماعة فقهاء النساء وغيرهم (لفقهاء النساء المشغولين بتحصيل العلم مثل سعادة بنت القاضي جلال الحنفي)		
٦- عن وقف ابن ريحان لتعليم القرآن.		
٧- ٨- جماعة الجديد المذكورون في أواخر دفتر الحلبية الواصل من حلب المحميّة، وقد أرسل لعدد من الأشخاص مجموعهم أربعمائة وواحد وتسعون شخصًا مبلغُ مائةٍ وسبعةِ آلافٍ وتسعمائةٍ وتسعةٍ وتسعين بَارَه ونصف الباره، وسبعمائةٍ وثلاث سكة وتمّ توزيعه عليهم.		

وتتّضِحُ في هذا الدفترِ -الذي أُعِدَّ من أجلِ الصُّرّة المرسلةِ إلى أهالي المدينة المنوّرة- الحصصُ الموزّعة تنازليًا من الكبير إلى الصغير، ومقدارُ مجموعِ الصُّرّة المرسلةِ بالنقودِ والسِّكَّة، وأسماءُ من أخذَ من الصُّرّة نصيبًا -حيث لم نذكر نحنُ جميعَ الأسماء هنا- وفي نهاية الدفتر يوجد توقيعات اللجنة التي قامت بتوزيعِ الصُّرّة، يعني آغا دار السعادة ومفتّش الأوقاف وقاضي المدينة المنوّرة.

وخُتِمَ الدفترُ بجملةٍ مثل:

"*تحريرًا في أواسط شهر شعبان المعظّم من شهور سنة تسع وألف*" (شعبان ١٠٠٩هـ/فبراير ١٦٠١م)".

ومثل:

"*حُرّرَ بمعرفة الفقير إلى شفاعة سيّد الكونين "عثمان" آغا دار السعادة الناظرُ على أوقاف الحرمين الشريفين بأمر السلطان المفتخر بخدمة المقامات المنيفة أمدّ الله سلطنته إلى يوم الدين.*

خَتْم وتوقيـع"

ومثل:

"حَرَرَ بمعرفة الفقير إلى شفاعة من أُرسل رحمة للعالمين، محمد بن محمد المأمورُ بتفتيش الأوقاف والمدرِّس بمدرسة والدةِ سلطانِ السلاطين المشرّفُ بتعهّد لوازمِ بيت الله الحرام ومراسمِ روضةِ الرسول ﷺ خلّد الله سلطنَتَه إلى قيام الساعة وساعة القيام...

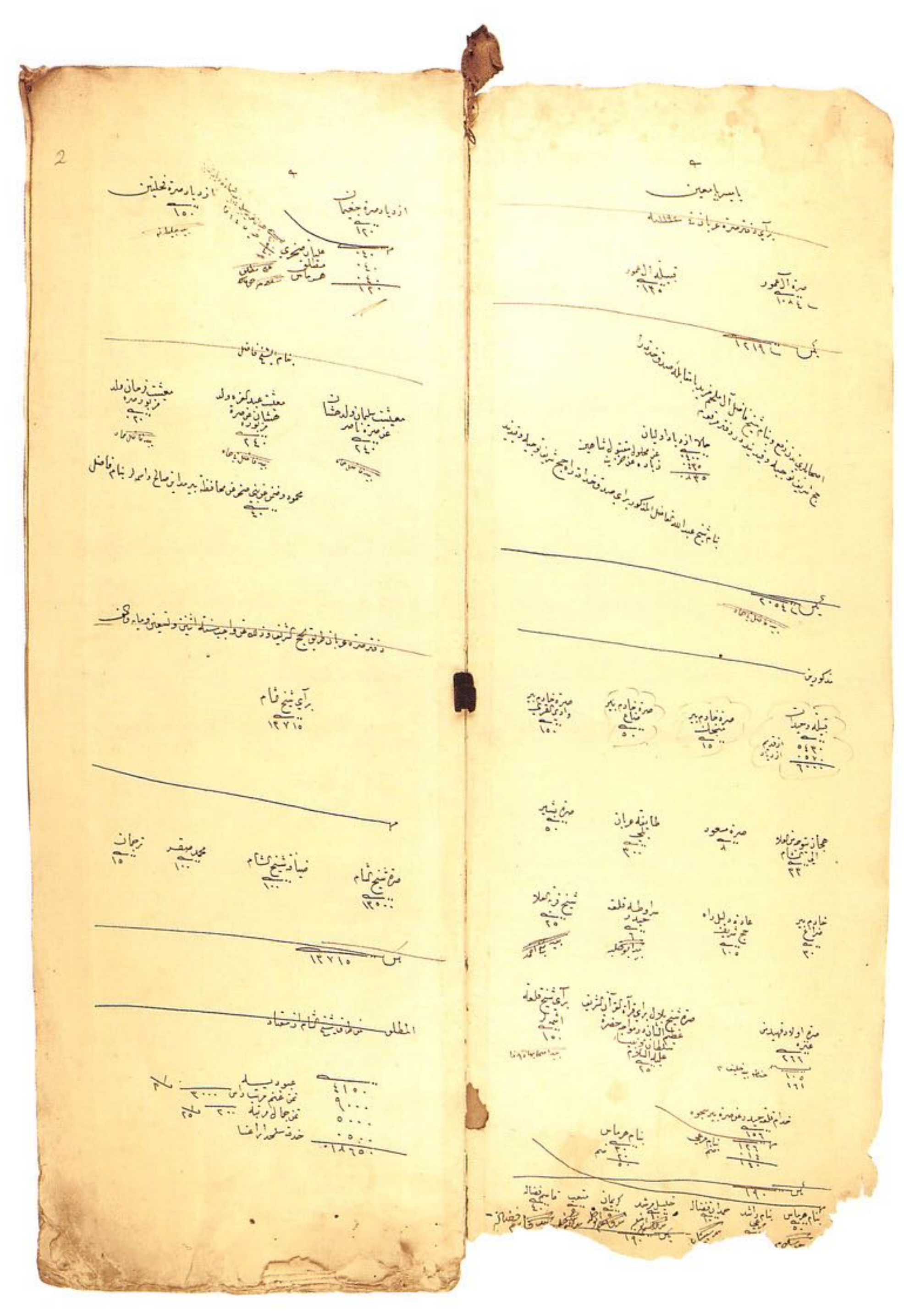
خَتم وتوقيع".

"وُزّع بمعرفة الفقير، بعد كشف ختمه عند الجمّ الغفير، نَمَقَهُ أفقر الورى عبد الوهاب بن أحمد القاضي بالمدينة المنورة صلى الله وسلم على خير سكّانها وعَفَا بشفاعته عنهما...

ختم وتوقيع".

ويوجد في نهاية دفاتر الصُرّة ختمُ وتوقيعُ مفتّشِ الأوقاف (وقد يكون ناظر الأوقاف في بعض الأحيان) وآغا دار السعادة، وكذلك توقيعُ شيخ الحرم وأمين الصُرّة وقاضي المكان الذي أرسِلت إليه الصرّة.

النموذج الثاني: دفتر الصُرّة المرقّم برقم (٢٤٢٢) الخاص بالصُرّة المرسلة لبعض القبائل والعشائر العربيّة الموجودة على طريق الحجّ والخدم الموظّفين في القلاع والموظّفين المكلّفين بحراسة الآبار[٢٤].



صفحة من دفتر الصرة رقم ٢٤٢٢



صفحة من دفتر الصرة رقم ٢٤٢٢

أسماء بعض العُربان

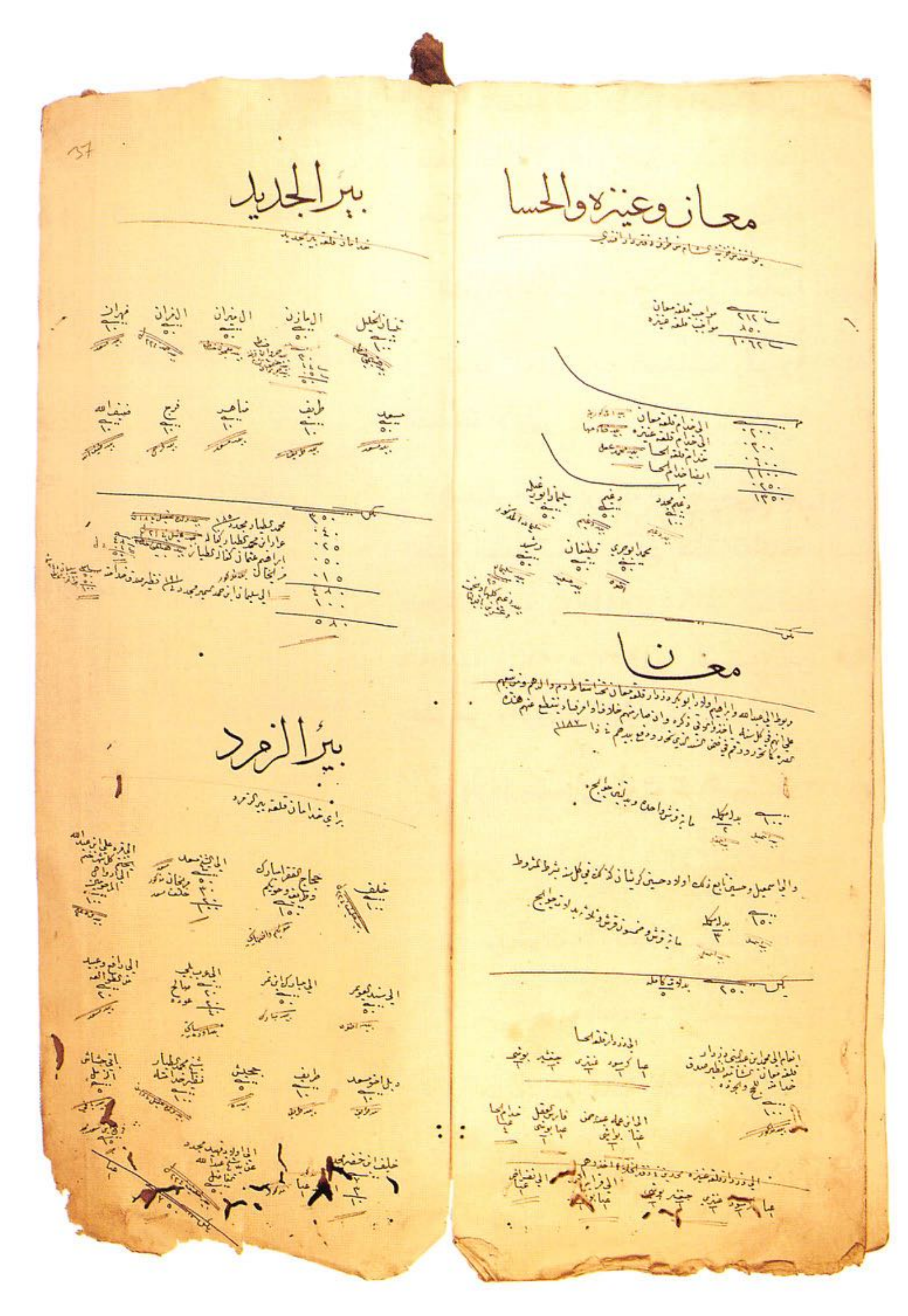
إن دفتر الصُرّة رقم (٢٤٢٢) الذي يوجد في الصفحة الأولى منه طغراء السلطان عبد الحميد الأول يحتوي بصفةٍ عامّة على أسماء بعض العربان كما يلي:

يبدأ هذا الدفتر بجملةٍ:

"يا مُيسّر يا مُعين، دفتر صرة العربان في سنة (١١٩٢هـ)".

ثم يعدّد في قوائم طويلة أسماءَ القبائل العربيّة الموجودة على طريق الحجّ وخدمَ الآبار والقلاعِ ومقدارَ حصّة كلٍّ منهم من الصرة، ومن أسماء القبائل العربيّة وخدم القلاع والآبار ما يلي:

- صرة آل عمود، قبيلة آل عمود
- قبيلة وهداد
- لمشايخ العشائر الموجودين عند الآبار
- صرة فحلتين
- الشيخ فاضل حارس القلعة
- سمام شيخ براي
- لخدم قلعة "عنزة"
- لخدم قلعة "جغمان"
- لخدم "القلعة المعظمة"
- لخدم قلعة "دار الحمرة"
- لخدم قلعة "مَفرَّقَة"
- لخدم "الزرقاء"
- لخدم "البركة" و"جَغِمَانْ"
- لخدم "ظهر العقبة"
- لخدم قلعة "البئر الجديد"


معان وعنيزه والحسا

بير الجديد

معان

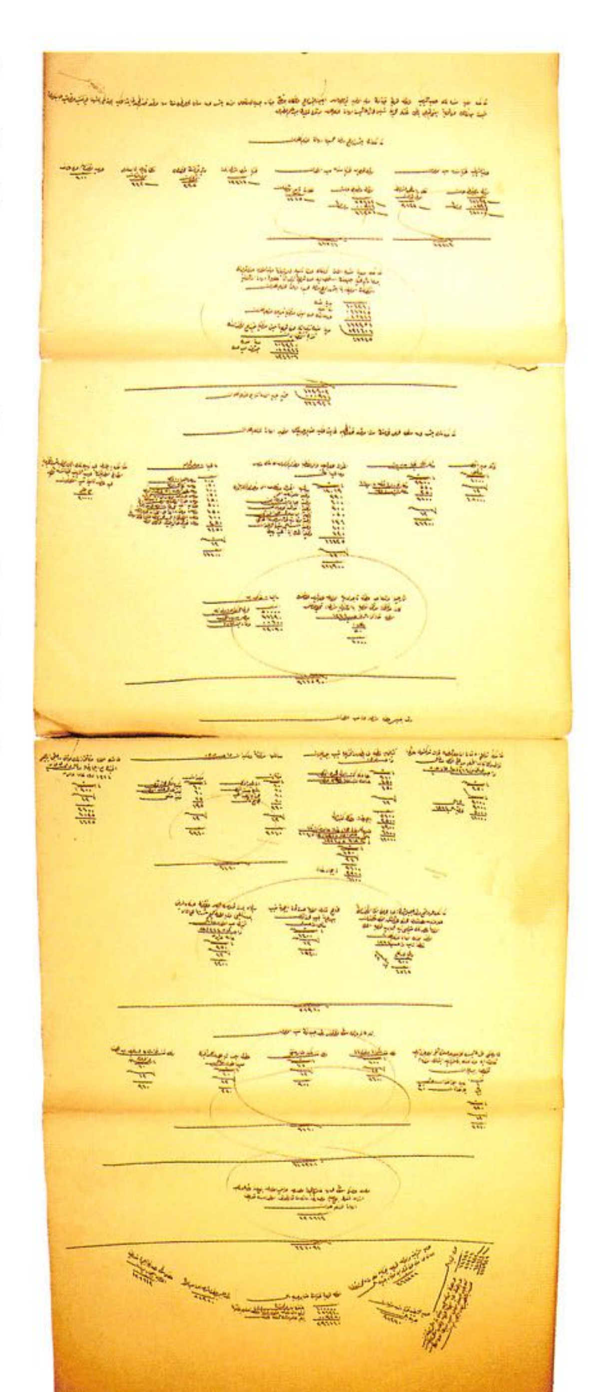
بير الزرد

صفحة من دفتر الصرة رقم ٢٤٢٢

كما ذكر مقدار الصُرّة الموزعة على الموظفين في قلعة "معين" وقلعة "عباد الأنام" وقلعة "فحلتين" وقلعة "مداين" وقلعة "هَدْيَة"، وهذه القلاع ممتدّة وموجودة على طريقِ الحجّ.

النموذج الثالث: نموذج سجلّ محاسبة تجهيز الصُرّة[٢٥].

المنظر العام لدفتر المحاسبة رقم (٨٣٢١٩) ومحتوى الصفحة الأولى:



المقدار اللازم إرساله إلى "قَبِيجِي باشي محمد بك" أمين الصُرّة الهمايونية كمرتبات مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة الخاصّة بسنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) الماضية ومرتّبات السنة الجديدة (١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) المجهّزة من خزانة الحرمين الشريفين والأوقاف الهمايونيّة كما يلي:

ما يلزمُ إرسالُه إلى مكّة المكرّمة في سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م):

١- من خزانة الحرمين الشريفين: (٧٣٣١٢) قرشًا.

٢- من خزانة الأوقاف الهمايونيّة: (٣٧٥٤٤) قرشًا.

٣- من الخزانة الخاصّة الشاهانية: (١٣٣٧٣) قرشًا.

٤- من خزانة المالية: (٢٩٥) قرشًا.

٥- من الأوقاف مجهولة النظارات: (٣٣٢) قرشًا.

٦- من أوقاف الحرمين الشريفين: (٣٠٠) قرش.

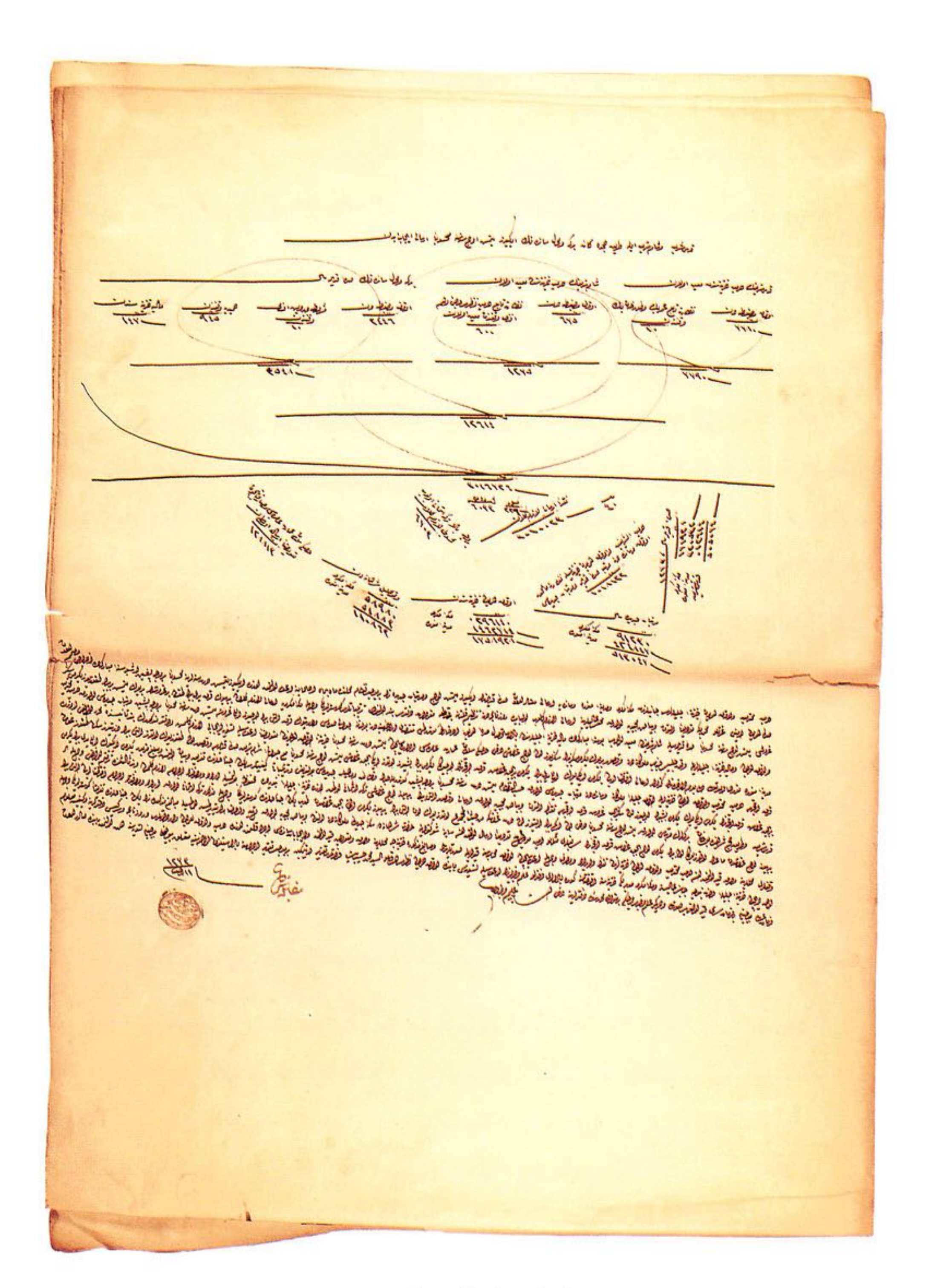
المجموع: (١٢٥١٥٦) مائةٌ وخمسةٌ وعشرون ألفًا ومائةٌ وستّةٌ وخمسون قرشًا.

ويستمر في ذكر باقي حساب مكّة المكرّمة لسنة (١٢٧٤هـ/١٨٥٧م).

محتوى الصفحة الأخيرة من سجلّ محاسبة الصُرّة: (المكان الذي وُفّرت منه الصرر المرسلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف):

"لقد نظمت الروزنامة دفترا يحتوي على حساب الصُرّة القديمة المرسلةِ سنة (١٨٥٦م) وحساب المرتبات الجديدة الخاصة بالصُرّة سنة (١٨٦٧م) تلك الصُرّة المعتاد إرسالها من خزانة الحرمين المحترمين وخزانة الأوقاف الجليلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها، وقد كتبت طبقًا للنظام الموجود في محلّه لتُعطى إلى أصحابها شهرًا بشهر، ومقدار ما يلزم إرساله إلى المحال العالية من الذهب والمجيدية البيضاء كوديعة في ذمة حضرة "محمد عزت بك" أمين الصُرّة السلطانيّة المحسوبة والمصمّمة؛ وهذا لإخراجها مقدّمًا في هذه السنة الماليّة المباركة، وطبقًا إلى ما تبيّن في التجهيزات فإن ما يلزم إرسالُه إلى مكّة المكرّمة هو سبعة أحمال وسبعة وأربعون ألفًا وواحد وتسعون قرشًا منها حمل وواحدٌ وسبعون ألفًا وتسعمائة وثمانية وعشرون قرشًا يتم تعيينها من الشام الشريف بالصُرّة القديمة المحسوبة لسنة (١٢٧٣ رومية)، ومنها ما تم تحصيله في هذه السنة المباركة من قِبل خزانة الماليّة الجليلة وما تمّ ضمّه إلى الصُرّة السلطانية بموجب الإرادة السنيّة وهو عبارة عن أربعة أحمال وستة وأربعين ألفًا وثلاثمائة وخمسين قرشًا، والمرتبات الجديدة التي حُسبت مقدّمًا والخاصّة بسنة (١٢٧٤ رومية) والتي تم تجهيزُها من خزينة الحرمين المحترمين وخزينةِ الأوقاف الهمايونيّة وخزانة الماليّة الجليلة والوقف الجليل لجناب صاحب الملك تَبلُغ حملًا وثمانيةً وعشرين ألفًا وثمانمائة وثلاثة عشر قرشًا، كما تم عملُ اللازم لسداد وتوزيع المبالغ المحسوبة لسنة (١٢٧٤ رومية) من أجلِ إدارة العمارة العامرة لخاصكي سلطان من قِبل خزانة الأوقاف الهمايونيّة.

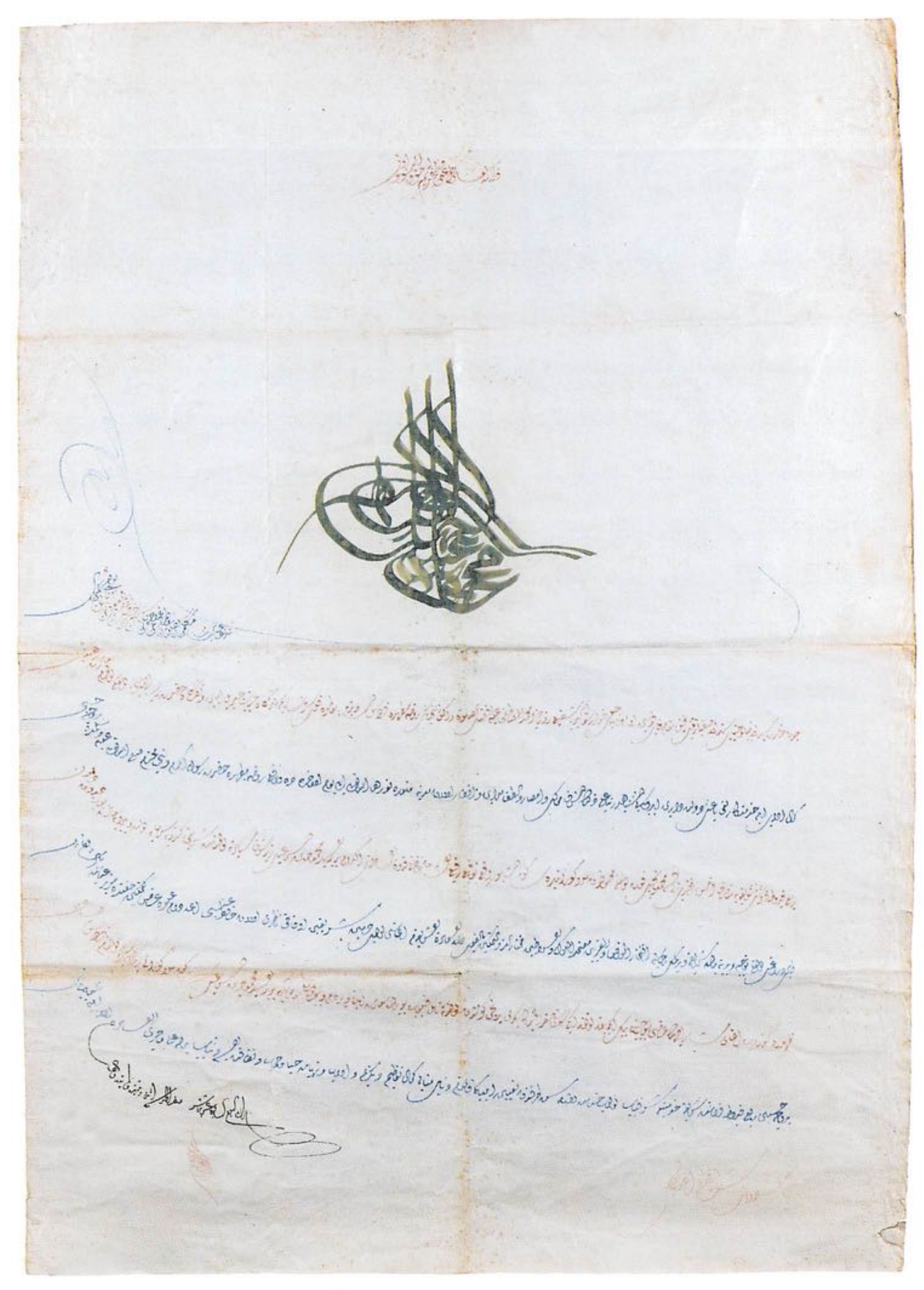
وطبقًا لـم حُرر في أوّل الدفتر فإن ما خصّص للمدينة المنورة -نوّرها الله تعالى إلى اليوم الآخر- بناءً على الأمر العالي هو اثنان وعشرون حملًا وسبعةٌ وخمسون ألفًا وواحد وعشرون قرشًا ونصف وأربعون أقجه، حُسِبَ منها ثلاثة أحمال وعشرون ألفًا وخمسمائة واثنان وثلاثون قرشًا ونصف من صرّة الشام الشريف طبقًا لما حسب في سنة (١٢٧٣ رومية)، ومنها تسعة عشر حملًا وستة وثلاثون ألفًا وأربعمائة وتسعة وثمانون قرشًا وأربعون أقجه من خزانة الحرمين المحترمين وخزانة الأوقاف الهمايونيّة وأملاك الأوقاف الجليلة وغيرها، وسوف تُرسَل مقدّمًا لمرتّبات سنة (١٢٧٤ رومية) المحسوبة طبقًا للمرتبات الجديدة، ولقد شرحت كيفيّة ترتيب وتجهيز الوظائف والرواتب الجديدة وتوزيعِ مجموعها على



صفحة من دفتر الصرة رقم ١٦٣٧

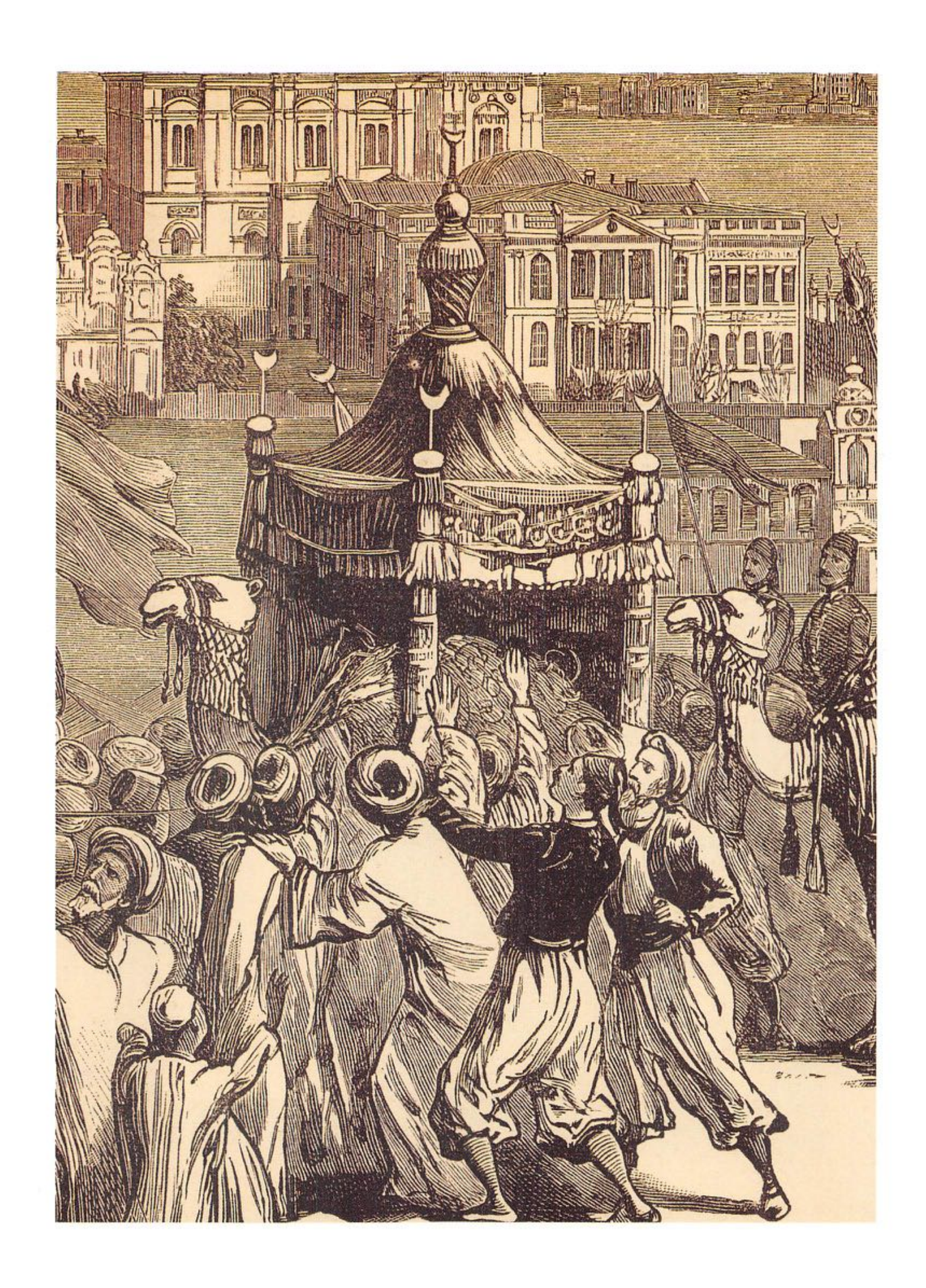
الجناحين، وتبيّنَ أن المبلغَ المذكور لهذا الأمر مكوَّنٌ من اثنين وعشرين حملًا وسبعة وخمسين ألفًا وواحد وعشرين قرشًا ونصف وأربعين أقجه، وسيُرسل منها نقدًا من الذهب والمجيديّة البيضاء اثنان وعشرون حملًا وخمسةٌ وعشرون ألفًا وثلاثمائة وثمانية عشر قرشًا وأربعون أقجه، أما الباقي وهو ستةُ آلافٍ وسبعمائة وثلاثة قروشٍ فهو أثمانُ التركة المحفوظة في الخزانة النبويّة الجليلة.

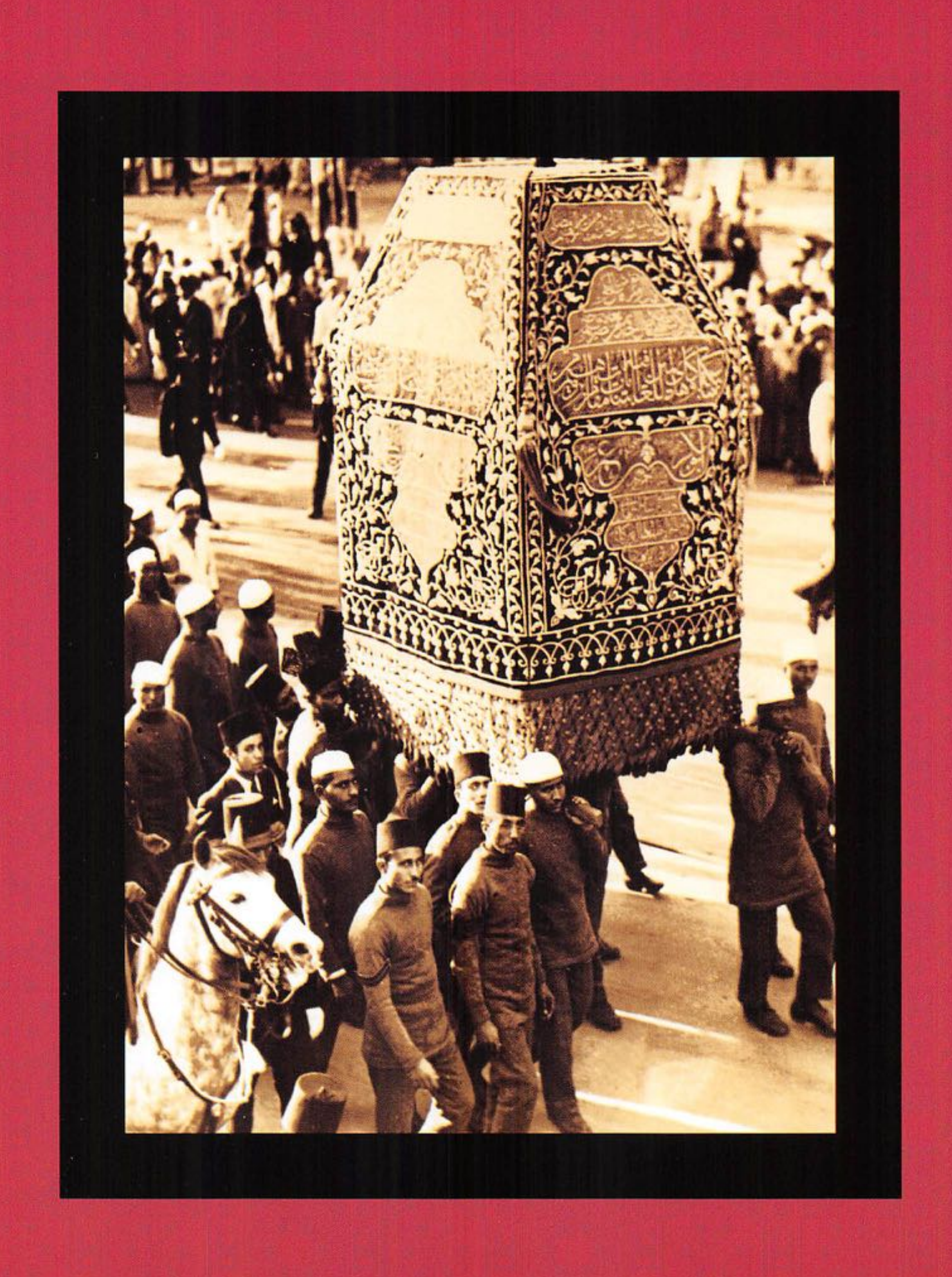
أما البندُ الثالث فهو مرتّبات القدس الشريف والبِرَك الموجودة على طريق الحجّ، وقد حُسِبَت لسنة (١٢٧٣ رومية) بمبلغ قدره اثنا عشر ألفًا وستمائة وأربعة عشر قرشًا، ويكون المجموع الكلي ثلاثين حملًا وستّةَ عشر ألفًا وسبعمائة وستّة وعشرين قرشًا ونصف، ستُسَلّم كلّها باستثناء أثمان التركة المحفوظة في الخزانة النبويّة وعلى هذا يكونُ مقدارُ ما سيتم تسليمُه ثلاثين حملًا وعشرة آلافٍ وثلاثة وعشرين قرشًا ونصف وأربعين أقجه، وتودّع كما كانت في السابق عند المتسلّم أمين الصُّرّة المشار إليه لإرسالها، على أن تسدّد تلك النقود نقدًا في شكل الذهبِ والمجيديّة البيضاء من السكّة الجديدة في ظلّ شوكةِ حضرة السلطان، وأن يتم جمع تلك المبالغ المذكورةِ طبقًا لما سبَق شرحُه نقدًا من خزانةِ الحرمين المحترمين والأوقاف الهمايونيّة وتسليمها مع مصروفاتها إلى محاسبةِ الأوقاف بسجلّاتها على أن يُسجّلَ فيها مصاريفُ توزيعِ المبالغ المذكورة في أماكنها طبقًا لما ورد من الخزانة، ولعمل كلّ ما يلزم لذلك يرسل هذا الدفتر ليُسجّل في دفاتر السركِ الكبيرِ الخاصّ بواردات وكتابةِ الحرمين الشريفين والأوقاف الهمايونيّة طبقًا لما هو متّبع في هذا الشأن، وتُرسَلُ نسخةٌ من الدفاتر إلى الخزانة النبويّة الجليلة وخزانة مديريّة مكّة المكرمة لعمل اللازم، وبعد إقرار حضرة "محمد حسيب باشا" ناظرِ الأوقاف الهمايونيّة ما يلزمُ يوصي بالاستئذان لصدور الإرادة السنية في هذا الشأن، وبموجب هذه الإرادة السنيّة يُبذَل الجهد والهمّة لسداد وتسوية هذه المبالغ بموجب الفرمان العالي الصادر بهذا الشأن، ويتم تعميمُ صورةِ هذا الفرمان على الجهات المتعلّقة للعلم، وقد تم إعطاءُ هذا العلم والخبر لمحرّر دفاتر الصرّة.



القرار السلطاني بخصوص الفِراشة الشريفة الممنوحة في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" (١٧٨٤-١٨٦١م)

[مجموعة "يوسف جاغْلاز"]







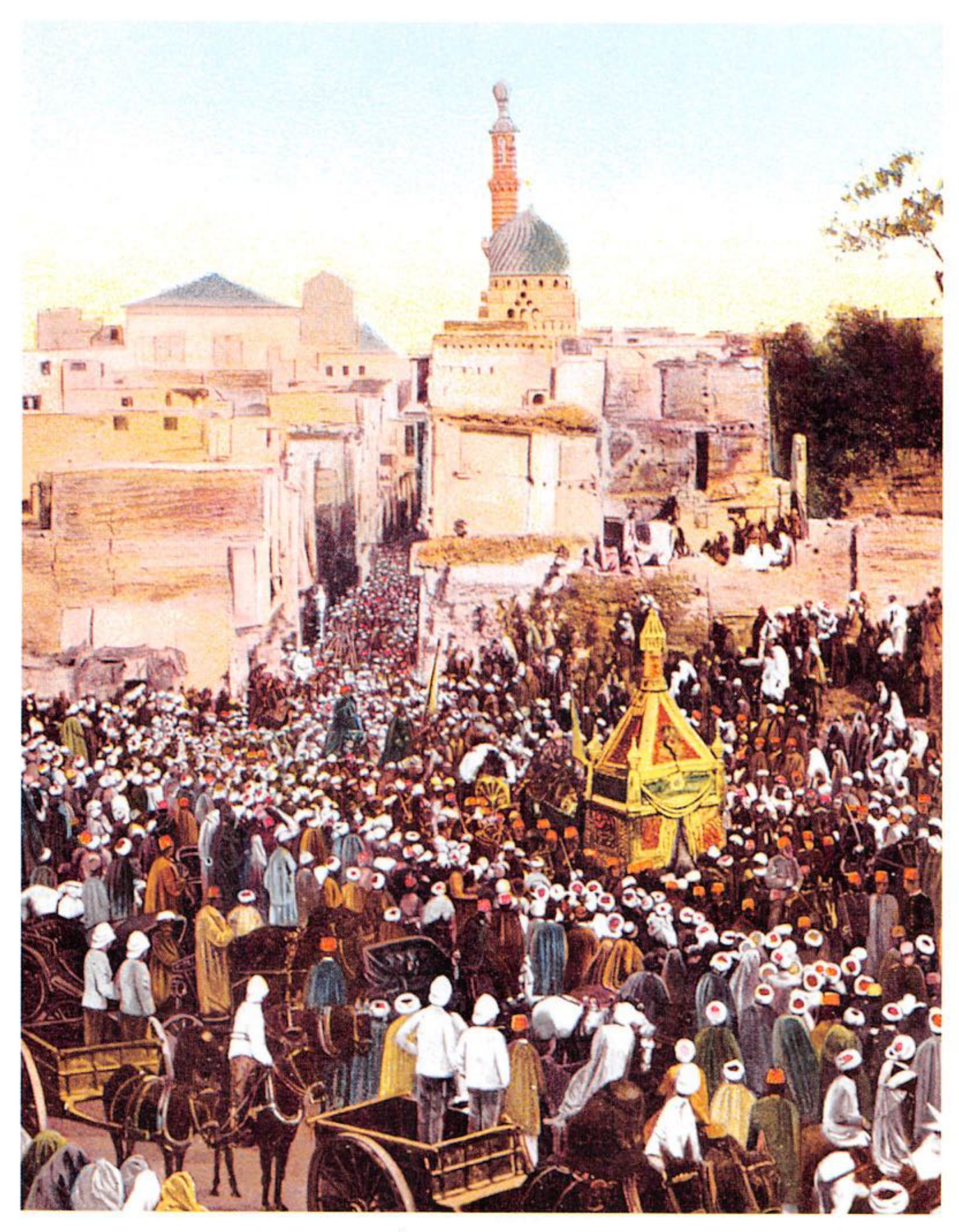
الفصل الثاني:

إرسال الصُّرّة من مصر إلى الحرمين الشريفين



رسم تقريبي يصوّر موكب المحمل المجهّز في القاهرة وقد نُشر في مجلة "(Allgemeine Illustrirte Zeitung)" [من مجموعة مراد فازكيلي]





يجهَّز الموكبُ في القاهرة سنويًّا من أجل المحمل، ويتجوّل المحمِلُ في الشوراع المزيّنة مثل ساحة العيد، وقد كان الناس يؤجّرون بيوتَهم وحوانيتَهم وأسقفَها من أجل مشاهدة مرور المحمل وموكبِهِ، وكان أوّل المراسم يقام في "رجب" ويقامُ ثانيها في "شوال" [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

المحامِلُ وتاريخها[1]

تأليف: إبراهيم رفعت باشا[2]

المحمِل أعوادٌ من خشبٍ على شكل الهودج[3] وهو مربّع الشكل ذو سقف يأخُذُ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائمٌ ينتهي بهلالٍ، وفي العادة يُسدَلُ على ذلك الهيكلِ الخشبيّ كسوةٌ قد تكونُ من الحرير وقد تكونُ من غيره، ويوضَع أثناء السفر على ظهرِ جمل.

وقد جاء في كتاب "**الكنز المدفون**" للسيوطي: "أنّ أوّلَ مَن أحدث المحامل في طريقِ مكّة -شرّفها الله وعظّمها- الحجّاجُ بن يوسف الثقفي"[4].

وذكر صاحبُ "**الدرر الفرائد**":

"أن المحاملَ التي اعتادت أن ترِدَ من الأقاليم إلى الحجاز أربعةٌ: العراقي والمصري والشامي واليمني، وحجّ في بعض السنين الحلبيُّون بمحملٍ وحجّ آخرون بمحامل في سنين مختلفة"[5].

المحمِل العراقي:

كان المحمِل العراقي أجلَّ المحامل في وقتِه لأنّ الخلافةَ الإسلاميّة كانت في مدينة "بغداد" عاصمة العراق، وكان معوّل أقاليم الإسلام على ما يصدُرُ منها ويُرَدُّ إليها والولاياتُ والأمورُ الدينيّة والدنيويّة إنما تنشأ منها، والأخبار والخطوب تصدرُ عنها، ولقد اعتنى "أبو سعيد بن خَرْبَنْدَا" بأمرِ حجّاج العراق عنايةً تامّةً، فغشّى المحمِل بالحرير ورصّعه بالذهب واللؤلؤِ والياقوت وشتّى أنواع الجواهر الأخرى حتى بلغت قيمةُ الحِلية مائتين وخمسين ألف دينار من الذهب المصري أو مائةً وخمسةً وعشرين ألف جنيه، وجَعَل للمحمِل خزًّا يُسبَل عليه إذا وُضِعَ، ولما تقلّص ظلُّ الخلافة عن العراق وآلَ أمرُه إلى الملوك المتغلّبين من الأمراء والأعيان ضعُفَ شأنُ المحمِل العراقي؛ فكان العربان كثيرًا ما يستهترون بركبه ويعتدون عليه.

ففي سنةٍ (٦٣١هـ) رجع الحجّاج العراقيّون بعد أن ردم عرب "الأجاودة" الآبارَ، واختلف الحجّاج مع العربان حتى ضاقَ الوقتُ فرجعوا من حيثُ أتَوا، وفي سني (٦٣٣ و٦٣٤ و٦٣٥ و٦٣٦ و٦٣٩هـ) لم يحجّ العراقيّون لدخول التتر بغداد، ثم صار المحمِل العراقي يجيءُ تارةً وينقطعُ أخرى إلى القرن التاسع الهجري.

المحمِل اليمني:

كان أهلُ اليمن يحجُّون من طريق البحر، وقلّ منهم من سلَك طريقَ البرّ؛ لأن العربان كانوا يعتدون عليهم ويفرضون على كلّ جملٍ ضريبةً قدرُها مائةُ درهم سواء أكان صاحب الجمل حاجًّا أو تاجرًا، وسواء أكان الجملُ محمِلًا أم لا، فكانوا من أجل ذلك معرضين عن طريق البرّ إلا من سخَت يده وخشي ركوب البحر، وبقي الأمر كذلك إلى زمن "مصطفى باشا" المعروف بالمنشار -لأنه كان يقتل اللصوص بالمنشار- فلقد مهّد السبيلَ البرّيّ لحجّاج اليمن عام (٩٤٩هـ)، وضرب على أيدي العربان العابثين، وجعل صحبةَ الحجّاج أميرًا وجندًا، وما زال الأمرُ على ذلك إلى سنة (٩٦٣هـ) التي عرضَ فيها "مصطفى باشا" والي اليمن على السلطان أن يُحدِث محمِلًا يمنيًّا، فأذن له واستمرَّ مجيئُه إلى سنة (١٠٤٩هـ)، ثم انقطع لما ظهرت الفتن.



المولويّة يزورون محمل دمشق [مجموعة الخزينة المفقودة]

المحمِل الشامي:

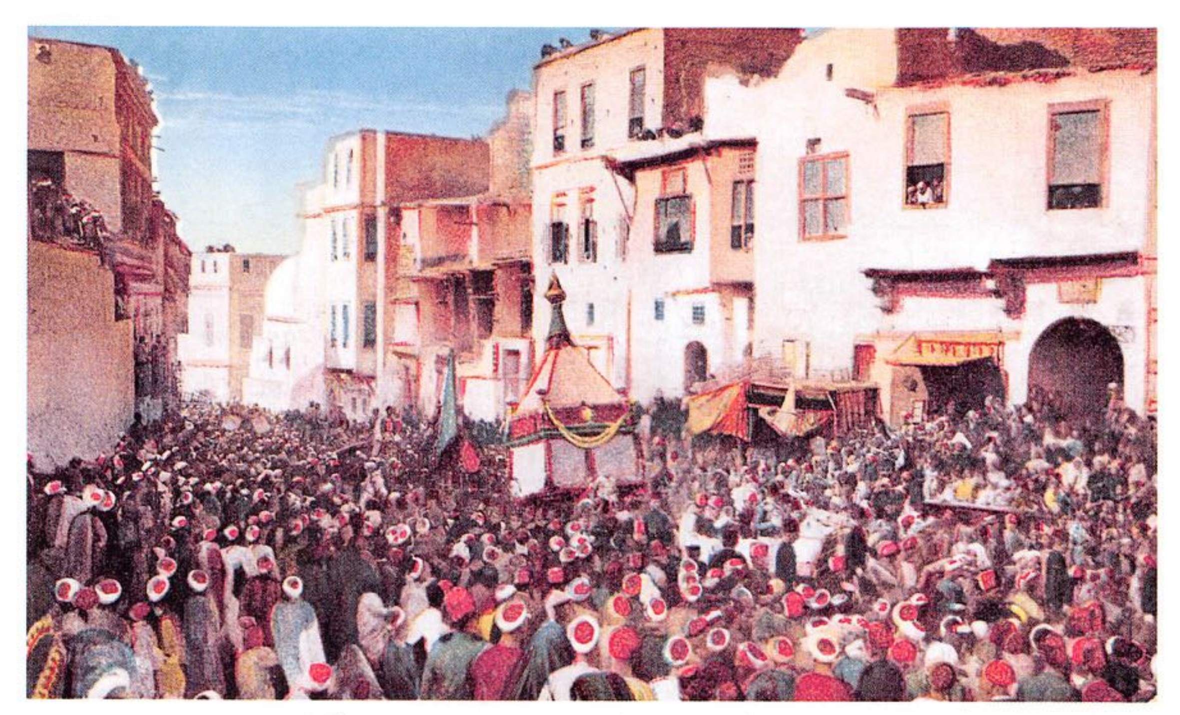
جاء في كتاب ("**خلاصة الكلام**" ص ٥١) أن المحمِل الروميّ ابتدأ مجيئُه إلى الحجازِ في سنة (٩٢٣هـ) زمن السلطان "سليم" إذ أُرسِلَ الأمير "مصلح بك" بمحملٍ روميّ وكسوةٍ للكعبةِ وصدقاتٍ فهل هذا هو المحمِل الشاميّ أو غيره؟" وقد جاء في "**درر الفرائد**، ص ١٤٩": ما يدل على أنه غيره وأن المحمِل الشاميّ بدأ سفره إلى الحجاز قبل هذا التاريخ؛ إذ ذكر في الدرر أنه في سنة (٩١٩هـ) تسابَق المحمِل الشاميّ والمصريّ فسبقَ الشاميّ، فشقّ ذلك على المصريين فعقروا جملَ المحمِل الشاميّ، فجاء الأمير الأول للمحمِل المصريّ وقدّم جملًا عوضًا عن الجمل الذي عقره المصريون، لكن أمير المحمل الشامي قال غاضبًا: "أنا لن أرجع بالمحمل على هذا الجمل، فليرجعوا هم به" إلى أن أصلح الشريفُ "بركات" بين الركبين في "منى".

وما زال المحمِل الشامي يقدمُ مكّة المكرّمة والمدينةَ المنورة من ذلك التاريخ بصحبة الأمير والسلطان والحجاج والجنود والموسيقى السلطانية والذخيرة الكافية إلى أن قامت الحربُ الكبرى في سنة (١٩١٤م)، فإن الأتراكَ شُغِلُوا عن إرساله منذ دخلوا في الحرب بجانب دولِ المِحْوَر، ولما كانت سنة (١٩١٨م) وضعتِ الحربُ أوزارَها وتقلّص ملكُ الأتراك عن بلاد الحجاز.

المحمِل المصري:

شاعَ على الألسن أن المحمِل المصريّ يرجعُ تاريخ إرساله للحجاز إلى عهد "شجرة الدرّ" سنة (٦٤٨هـ)، وأنه كان هودجًا لها حين حجّت وقد زيّنتْه بخمائلِ الحرير والتطريز البديع ومن فوقه الأحجار الكريمة وكانت تحمل معها هدايا للكعبة والحجرة الشريفة، ثم تتابَع إرساله وإرسال تلك الهدايا حتى يومنا هذا، ولكن لم نعثرْ -فيما اطّلعنا عليه من التاريخ- على مصدرِ هذه الإشاعة، بل لم نرَ فيها أن "شجرة الدر" من بين الملوك الذين حجّوا، وما كان لحجِّ الملكة أن يخفى ويُحجَب عن آذان الناس وعيون التاريخ التي لا تغفل، فضلًا عن أن يغفلَها المؤرّخون الذين يتتبّعون خطى الملوكِ والأمراءِ خطوةً بخطوة ويقيدونها في بطون كتبهم، والمحمِل المصري منذُ القِدَم تصحبُه كسوةُ الكعبة ومستلزمات الحرمين الشريفين والصدقاتُ التي تُوَزَّعُ على فقرائهما لذلك كان في مقدّمة المحامِل، وكان أميرُه مقدّمًا في الرتبة والمنزلة.

وقد مكث حجاجُ مصر والمغرب من سنة بضعٍ وخمسين وأربعمائة إلى سنة ستٍّ وستين وستّمائة أي من سنة الفتنة التي كانت في عصر الخليفة "المستنصر بالله أبي تميم معدّ بن الظاهر"، وانقطع الحجّ في البرّ إلى السنة التي كسَا فيها الملك "الظاهر بَيْبَرْس البُنْدُقْدَارِي" الكعبةَ وصنعَ لها مفتاحًا وأخرج قافلةَ الحجّ من البرّ لا يتوجّهون إلى مكة المكرمة إلا من صحراء "عَيْذاب"[٦] يركبون النيل من ساحل مدينة "الفسطاط" إلى "قوص"[٧]



طواف المحمل الشريف بشوارع القاهرة في مصر [مجموعة "يوسف جاغْلار"]

ويعبرون هذه الصحراء إلى "عيذاب" ومنها يركبون الجلاب في البحر إلى "جدة" ومنها إلى "مكّة"، وكان تجّار الهند واليمن والحبشة يركبون البحر -في غير طريق الحج- إلى "عيذاب" ويعبرون صحراءَها إلى "قوص" ثم يركبون النيلَ إلى القاهرة، فكانت "عيذاب" عقدةَ مواصلاتٍ مهمّةً وعامرةً، وكانت الصحراء لا تخلو من القوافل الغادية والرائحة يتّجرون ويحجّون، ولما غيّر طريق الحج نقل السالكون لهذه الصحراء من الحجّاج وما زال التجّار يسلكونها حتى انقطع منها السير بعد عام (٧٦٠هـ)، فزالت عظمةُ "قوص"، وكانت الصحراءُ تستغرِق سبعةَ عشرَ يومًا من المسير حتى يتمّ تجاوُزها، فكان الماءُ ينفَدُ من قِرَبِ المسافرين قبل الخروج من الصحراءِ بثلاثة أيّام أو أربعة.

وأول سنة نُقِلَ فيها المحمِل إلى السويس عام (٩٥١هـ/١٥٤٥م) ولقد غرق نصفُه في البحر، وغرِقَ كلُّه في سنيّ (٩٦١هـ/١٥٥٤م) و(٩٦٢هـ/١٥٥٥م) و(٩٦٣هـ/١٥٥٦م).

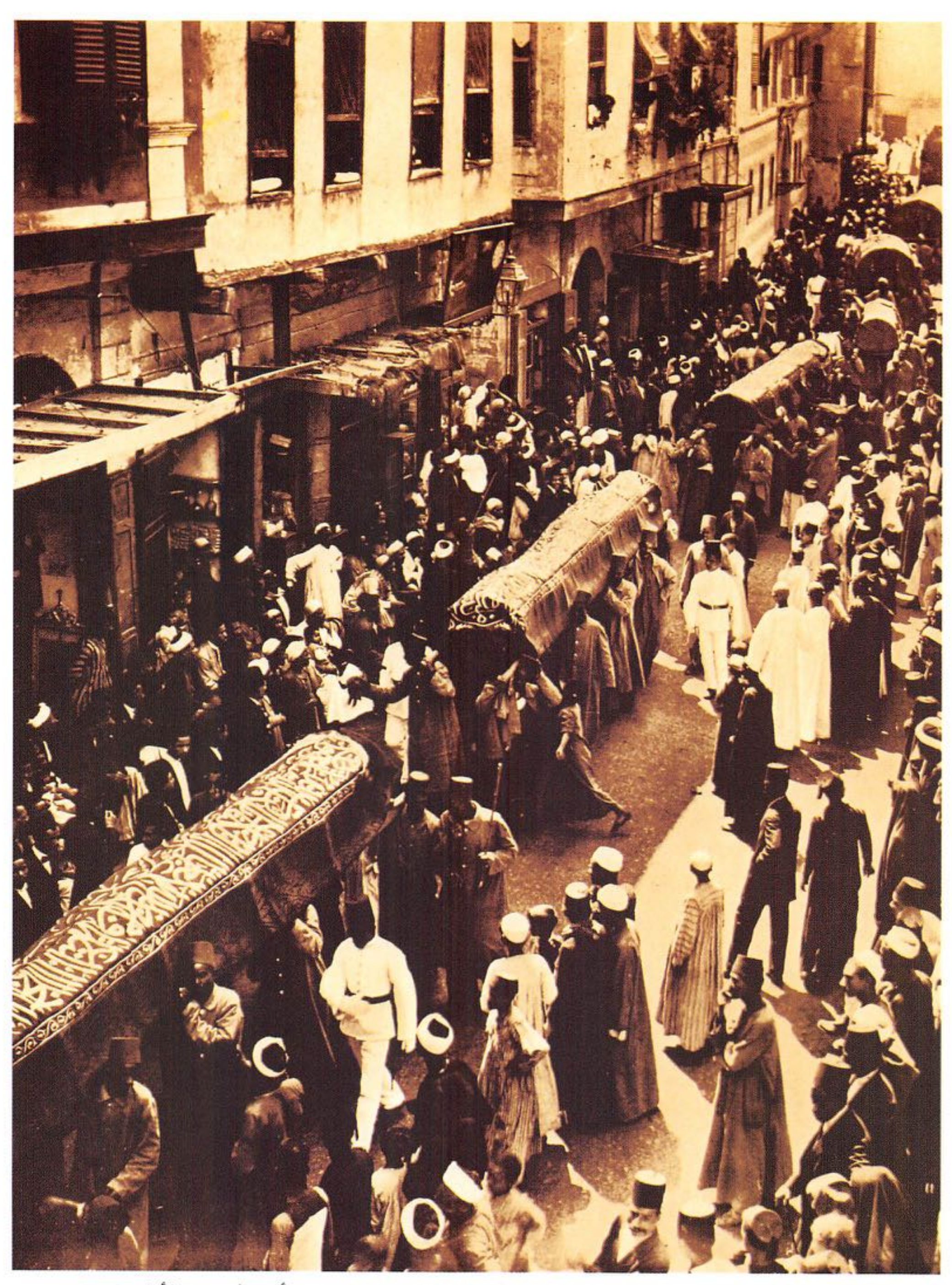
وكان يُقام للمحمِل حفلتان بالقاهرة كلّ عام فيتجوّل المحمِل في شوارِعها التي تكونُ قد زُيّنت واكترى فيها الناسُ البيوتَ والحوانيتَ والسطوحَ ليشاهدوا المحمِل وحفلتَه، فالمرّة الأولى في "رجب"، والثانية في "منتصف شوّال"، وبدأ ذلك من سنة (٧٠٠هـ)، وفي سنة (٨٤٨هـ) أبطلَ "السلطان الظاهر جَقْمَقْ (Çakmak)" دوران وتجوال المحمل، فخالفَ بذلك رغبةَ الجماهير، ثمّ أمر "الأشرف إينَالْ (İnal)" بدورانِهِ وتجواله في



ضريح الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان" في "بغداد" [ألبومات يِلدِز ٧٧٩ -٨٠ - جامعة إسطنبول]

الشوارع في شهر رجب سنة (٨٥٨هـ)، وأمر بلَعِبِ الرماحةِ -بعد منعٍ وتوقُّفِ هذه الألعاب قرابة عشرين عامًا- بين يدي السلطان كما كانت عادة السلاطين السابقين، ثم أبطل الملك "الأشرف قَايِتْبَايْ (Kayıtbay)" دورانَ المحمِل وتجواله الرجبيّ، وكذلك أُبْطِلَ أيضًا في عصر خلفهِ الناصر الذي تولّى سنة (٩٠١هـ)، وكان يرافق المحمل عفاريتُ وموهوبون من الإنس يأتون بألعاب يضحك منها ويستغرب ويستمتع بها الناظرون.

وقد حرق "السعود" المحمِل المصري سنة (١٢٢١هـ/١٨٠٧م)، بعد أن أنذر أميره في العام السابق بأن لا يسترجِع معه هذه الأعواد -على حدّ تعبيره، ويعني بذلك المحمِل- لأنها بدعة محدثة، وكذلك بعثَ إلى أمير الحجّ الشاميّ في السنة نفسها بعد أن وصل إلى منطقة "هدية" يحذّره من حضور الحجاج إلى بيت الله متلبسين بالبدع، فرجع الأمير بركبِه ولم يحجّ، ولا حقَّ لـ"سعود" في حرقِ المحمِل لأنه مثل العَلَم الذي يلتفُّ حولَه المسافرون إلى الحجّ، ولا يكتنفُهُ أيُّ مظهرٍ من مظاهر الشِرك بالله.



صورة نشرت في عدد مجلة "سبيير (The Sphere)" الصادر في الثاني عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩١٢م)، وهي تظهر موكب الكسوة الشريفة في القاهرة [مجموعة "مراد قازكيلي"]

المحمِل المصري: رمزٌ مهمّ من رموز الخلافة

إعداد: مُرَادْ قَارْكِيلِي (Kargılı)[1]

ترجمة: أحمد كمال

منذ عهد الأمويّين وحتى عصر الدولة العثمانيّة، كان تجهيزُ المحمِل وإرسال الصُّرّة السلطانيّة من مصر إلى الحرمين الشريفين، مناسَبة شريفة وجليلةٌ لكل خليفة كان يحكم الحجاز بعد فتح مصر.

وكان من بين أهم الأشياء التي تحظى باهتمام كبير لدى إعداد المحمِل الشريف؛ اختيارُ الناقة التي تنقل المحمِل على ظهرها وتزيينُ الأغطية المُعدّة للمحمل بزينةٍ فخمةٍ تجذِبُ الأنظار ونقشُ الآيات القرآنيّة والأحاديثِ النبويّة الشريفة والأدعية عليها؛ ذلك لأن المحمِل كان ينطلق في مقدّمة قوافلِ الحجّ المتّجهة إلى الحرمين الشريفين ويمثّل الناقةَ التي امتطاها النبي ﷺ، ولقد نظر جميع حكام وسلاطين الدول الإسلامية على مرّ التاريخ إلى تجهيزِ قافلة المحمِل على أنه شرفٌ كبيرٌ بصفته رمزًا للخلافة الإسلامية، وأَولى حُكَّام الدول الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبيّة والرسوليّة والمملوكيّة والعثمانيّة اهتمامًا كبيرًا بإرسال المحمِل الشريف برفقة الصُّرّة السلطانية على رأس قوافل الحجّ المتّجهة من بلدانهم إلى الأراضي المقدسة، وذلك من أجل إظهار سيطرتهم على دول العالم الإسلامي كافة وأنهم حُماة وخادمو الأراضي المقدسة في الحجاز، وعلى الرغم من إشارة المصادر التاريخية إلى أن هذه العادة تعود إلى العصر الأموي، فإن السلطان المملوكي "بَيْبَرْس (Baybars)" قد أعد موكب المحمِل الشريف والصُّرّة السلطانية عام (١٢٦٦م) في القاهرة مع إقامةِ مراسمَ في غاية الروعة، حتى إن بعض المصادر التاريخيّة تروي أن هذه المراسم التي أقامها "بيبرس" تُعْتَبَرُ تاريخًا لميلاد هذه العادة، والحاصل فقد تشكلت مراسم الصُّرّة السلطانية والمحمِل الشريف وفق هذه العادة في بلدان العالم الإسلامي مثل سورية والعراق واليمن، ولهذا السبب فقد حظيَ المحمِل المصري بالأولويّة والامتياز على مرّ التاريخ مقارنة ببقيّة المحامل التي انطلقت من سائر البلدان الإسلامية.

كان هناك عنصران أساسيّان يشيران إلى بسطِ السيطرة في الحجاز على مرّ العصور التاريخية، **أوّل** هذين العنصرين هو: إرسال المحمِل الشريف وكسوةِ الكعبة المشرّفة كلّ عام، **وثانيهما** هو: قراءة خُطبة وقفةِ عرفات باسم الحاكم أو السلطان، وكانت تحدث صراعات بالمعنى السياسي والعسكري بين الحكام والسلاطين المسلمين الراغبين في فرضِ هيمنتهم وحمايتهم في الحجاز التي كان يديرها الأشراف، وعقب سقوط الخلافة العباسيّة في بغداد عام (١٢٥٨م) وإعلان السلطان المملوكي "بيبرس" تولّيه الخلافة في القاهرة، ولم تكن هناك أيّة رغبة لدى "بيبرس" تعلو على رغبتِه في نقلِ امتيازِ إرسال المحمِل وكسوة الكعبة المشرفة إلى القاهرة بعد أن كان خاصًا بالعباسيين، وفي عام (١٢٦١م) قام حاكم الرسوليين في اليمن "يوسف المنصور" بإرسال كسوةِ الكعبة بعد أن أدّى مناسك الحجّ، وذلك بصفته وريثًا للخلفاء العباسيّين، ثم بسطَ سيطرتَه على الحجاز، من جانبه تمكن السلطان "بيبرس" من تحويلِ صراع الخلافة الدائر بينه وبين السلطان "يوسف المنصور" لصالحهِ خلال فترة قصيرة، واستطاع أن يفوزَ بامتيازات المحمِل والكسوة وذكرِ اسمهِ في الخُطبة، ومنذ ذلك التاريخ ظهر المحمِل المصري إلى الوجود وانحنى له شرفاء الحجاز واتبعته خطى سائر القوافل الأخرى، وصار بمثابة رمزٍ للسيادة والهيمنة لدى الدول الإسلامية.

مـع دخول السلطان العثماني "سليم الأول" مصر عام (١٥١٧م) انتهت سيطرة المماليك على الحجاز بعد أن امتدّت على مدار قرنين ونصف من الزمان، وكان الدعاء للسلطان "سليم الأول" في خطبة يوم عرفات في موسم حج عام (١٥١٧م) برهانًا على انتقالِ الخلافة الإسلامية من المماليك إلى العثمانيين، وقد حافظ العثمانيون على عادة إرسال المحمِل الشريف وكسوةِ الكعبة كما هي لاستخدامها بشكل يتناسب مـع المكانة والهيبة الخاصّة بهم، ومـع دخول اليمن عام (١٥١٧م)، اتخذت ثلاثة محامل مرسلة من "اليمن" و"سورية" و"مصر" في الوقت نفسه، مكانًا لها في عرفات باسم السلطان العثماني.

وأضاف العثمانيّون سبعةَ قُرى أخرى إلى قَريتين كان قد أوقف المماليك إيراداتهما من أجل تغطية تكاليف كسوة الكعبة المشرفة، وضمنوا بهذه الطريقة نسج الكسوة في مصر وإرسالها إلى الأراضي المقدسة باسم السلطان العثماني، وكانت أسماء السلاطين العثمانيين تُنقَش على كسوة الكعبة، حيث ظهرت عادة منذ ذلك التاريخ تقتضي نقش اسم السلطان الحاكم وقت نسجِ الكسوة على ستائرِ الرباط والباب بواسطة ضفائر خيوطِ الذهب، وكانت الكسوة تُنسج حتى القرن الثامن عشر داخل قلعة صلاحِ الدين بالقاهرة وفق نماذجِ التصميمات المُرسلة من إسطنبول، وعقب احتلال الحملة الفرنسية لمصر بقيادة "نابوليون بونابرت" عام (١٧٩٨م)، أرسلت كسوة الكعبة المشرفة من إسطنبول لفترة من الزمان، ومـع استقلال مصر بعدها بثلاثة

سنوات أعيد إرسال كسوة الكعبة من مصر، وكانت كسوة الكعبة تُنسَج وترسَل من إسطنبول في السنوات التي كانت تصادف اعتلاءَ أحد السلاطين العرش في الدولة العثمانية، وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نُسجت كسوة الكعبة في ورشة أُسست في القاهرة خصيصًا لهذا الغرض وحملت اسم "دار الكسوة"، وكان يجري داخل هذه الورشة -إلى جانب كسوة الكعبة المشرفة- إعدادُ كسوة سوداء اللون على شكل مستطيل مشغولةٌ بالنقوش الذهبية لمقام إبراهيم في الحرم المكّي، ومحفظة مصنوعة من القماش الأخضر ومطرّزة بالذهب لمفاتيح الكعبة المشرفة.

كان المحمِل المصري يتكوّن -كما هو الحال بالنسبة لسائر المحامل الأخرى- من هرمٍ ذي أربعة أوجهٍ منصوب على هيكلٍ شجريّ على هيئة مربع، وكان هذا الهيكل يُغطَّى بقماشٍ أطلسيّ حريريّ مزركشٍ بالتزيينات والكتابات المزيّنة بالذهب والفضة، وكان اللون الأصفرُ هو لونُ كسوةِ المحمِل في عصر المماليك، ذلك لأنّ اللونَ الأصفرَ كان يمثّل المماليك في المراسِمِ والاحتفالات والأمور الرسمية، كما استُخدِمت ألوان الأسود والأحمر والأصفر والأخضر فيما بعد، وكان يُكتب على كسوة المحمِل العديدُ من العبارات مثل "**آية الكرسي**"، ولفظ "**الشهادة**" و"**ما شاء الله**" و"**يا الله**" و"**الله ربي ومحمد نبيّي**" وبعض الآيات من سورة الفتح وبعض الأسماء والألفاظ واسم الحاكم أو السلطان المرسِل للمحمِل وأدعية له بالسعادة والصحة وطول الأجل، وكانت كسوة المحمِل الشريف ذات القيمة العالية والمصنوعة بدقة فنيّة بالغة، تُستخدم فقط في المراسم قبل الرحيل من مصر وعند العبور من المناطق السكنية الرئيسية بالجزيرة العربية وعند مراسم الوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبخلاف ذلك فقد كانت هناك كسوة أخرى لرحلات المحمل مصنوعة من القماش الأخضر ومنقوش عليها تفاصيل أقلّ من تلك المنقوشة على كسوة المراسم، وكانت كسوةُ الرحلات تُجدَّد كلّ عام بعد أن تبلى وتخلق في ظلّ الظروف المناخيّة الصعبة في الصحارى، وأما كسوةُ المراسم فلم تكن تُجدّد كلّ عام طالما لم تكن هناك مناسبة تستدعي ذلك.

ووفقًا لما هو منتشرٌ بين العامة وما أورده الكُتّابُ والرَّحَّالةُ مثل "أوليا شلبي" و"فريدريك هاسلكيست (Hasselquist)" و"محمد لبيب البتانوني"، فقد كانت هناك بعضُ الاعتقادات والقناعات الخاطئة مثل إقامة شعائر العبادة داخل المحمِل أثناء الرحلة، وحمل المصحف الشريف أو كتاب للأدعية، وكان أكثر هذه الاعتقادات الخاطئة هو أن المحمِل كان ينقل بداخله كسوة الكعبة المشرفة، بيد أن المحمِل الشريف كان دائمًا فارغًا من الداخل، فالمحمِل كانت له أهمية كبيرة من الناحية الرمزية أكثر من كونه يحمل شيئًا بداخله، فكان المحمِل الشريف يوقّر توقيرًا بالغًا، ممّا يستدعي إلى الذاكرة ذكرى النبي محمد ﷺ، وكان من بين أكثر الاعتقادات

السائدةِ عند البعض أن الناقةَ كانت تحمِل داخل المحمِل الشريف كسوةَ الكعبة، وهو ما كان دربًا من دروب الخيال؛ إذ إنّ وزنَ كسوةِ الكعبة المشرّفة كان يبلغ (٧٠٠) كغ وتصل مساحتها إلى (٦٦٠م٢) فلا يستطيع أيّ جمل حملَ هذا الوزن بمفرده.

كانت للمحملِ الشريف راية مزيّنة بزخارف متعدّدة ومطرّزة بالفضّة على القماش الحريريّ الأحمر حيث كان الجملُ الذي يحمل هذه الرايةَ يتبع المحمِل الشريفَ في كل الرحلات الرسمية، وأما الناقة التي كان يُوكل إليها مهمّة مقدّسة كحمل المحمِل الشريف على ظهرها فقد كانت تختار وفقًا لشروطٍ معيّنة، منها تمتّعها بالقوّة والصلابة مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ كثيرًا من الأحمال المزيّنة التي تحملها على ظهرها سيكون لها بالغُ الأثر على القافلة بأسرِها، وكان يتمّ الاعتناء بهذه الناقة فيُقدّم لها الغذاء الجيد في حظيرة خاصّة مع إعفائها تمامًا من أي عملٍ آخر حتى موعد انطلاق الرحلة المقدسة، وتُزَيّنُ بالحناء والأغطيةِ الجميلة من أجل المراسم الرسمية، وكان عامّة الشعب يظهر احترامًا جمًّا للناقة التي تحمل المحمِل بنفس القدرِ الذي كانوا يظهِرونه من الاحترام للمحمل ذاته، وكان الناس في أغلب الأحيان يتنافسون فيما بينهم من أجل التمكّن من لمس هذا الجمل على الرغم من منع الحرّاس المكلّفين برعايته، وكانت الجمال التي كُلّفت بأداء هذه المهمّة المقدسة لا تُكلّف بمهمةٍ أخرى سوى مهمّة حمل المحمِل، فإذا تقدّم بها العمر ولم تستطع حملَ المحمِل الشريف أُعْفِيَتْ من أيّة أعمالٍ أخرى تمامًا وتبقى هكذا إلى أن تموت، وفي وسط روعةِ وبهاءِ المراسم والزحام كان تأثيرُ المحمِل الشريف رائعًا للغاية وذلك بما عليه من زينةٍ وتفاصيل ونقوش وأشياءَ تأسِر العيون، وكان المحمِل يلعب دورًا محوريًّا في مراسم الحجّ كلّ عام.

المراسم

لقد كانت خدمة الأمراء والسلاطين المسلمين لمكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة ولسائر الأماكن المقدسة ولمعابر قوافل الحج ركيزةً أساسية من ركائز إحكام السيطرة على البلاد الإسلامية كافة، وكأنّ توفير هذه الخدمات وتنشيطها -على مر التاريخ- بمثابة ختم السيادة على باقي الأراضي الإسلامية، بحيث اعتُبِرَت مواكبُ المحمل التي هي جزءٌ لا يتجزّأ من هذه الأشياء وسيلةً مهمّة لبرهنةِ الحاكم إلى أتباعه وسائر الأمم الأخرى على أنه هو حامي الحمى وأنه درعُ حماية قوافل الحجّ والأراضي المقدسة، وكأنّ هذا يُعتبَرُ تذكيرًا لشعب منطقةِ الحجاز بنفوذه عليهم.

وكانت مشاعر عامّة الناس -في القاهرة على وجه الخصوص- تجاه مراسم المحمِل مختلفةً تمامًا عن تلك التي يشعر بها المسؤولون، حيث إنهم كانوا يخرجون -بفضل مثل هذه الاحتفالات البهيجة- من حياتهم الروتينيّة ويجدون أنفسَهم وكأنّهم يعيشون أجواء العيد، وكانت هذه الاحتفالات تخفّف -إلى حدٍّ ما- من لوعة فراق الحجيجِ الذين سيتركون أهليهم وذويهم لأشهرٍ ويخرجون في قوافل الحجّ، كما أنّ احتفالات مراسم خروج المحمِل من القاهرة كانت بمثابة متنفّس لفقراء القاهرة الذين لم يخرجوا طيلةَ حياتهم في رحلة من رحلات قوافل الحجّ مع أنهم يتمنّون ذلك دائمًا، فبالنسبة لهم كانت ملامسة المحمِل الشريف تُعْتَبَر وكأنها ملامسة الأماكن المقدسة، وذلك احترامًا للأماكن التي طافَ وسيطوف بها المحمِل هناك، وكذلك فإنّ من لم يستطع ملامسة المحمِل الشريف، كان يربط قطعةً من القماش بحبلٍ ويرميها فوق المحمِل لتلامسَه كما كانت النساء -اللاتي يراقِبْنَ المحمِل من الشرفات- يمددن أوشحتهنّ وأغطيةَ رؤوسهنّ نحو المحمِل وهنّ واقفات في الشرفات؛ لأن الجمل الذي يحمل المحمِل كان يُجَسّدُ أو يرمُزُ إلى جمل النبيّ ﷺ، فقد كان يحظى بالاحترام ويُنْظَرُ إليه وكأنّه شعيرةٌ دينيّة، لدرجة أن بعضَ علماء الدين على مرّ العصور التاريخيّة المختلفة أصدروا فتاوى تَعتبِر إعطاءَ المحمِل قيمةً دينيّةً وتنظيمَ المراسم بدعةً لا أصلَ لها في الدين، وأما الآخرون من علماء الدين المتسامحين فرأوا أن ذلك يُعتبَرُ بدعةً حسنةً لا تناقضُ أصول الشريعة أي اعتبروه بدعةً يمكن قبولُها في الدين، وحتى تسميته بالمحمِل الشريف أو المحمِل السلطاني والتردّد بين كونه رمزًا دينيًّا أو رمزًا سياسيًّا؛ كان دليلًا على تعدُّد وجهات النظر والتصوّرات بالنسبةِ للمحمِل الشريف.

استمرّت إقامةُ مراسمِ مواكب المحمِل في القاهرة على مدارِ سبعة قرون من الزمان، وقد تعرّضت أحيانًا للانقطاع في ظروف طارئة مثل احتلال الفرنسيّين لمصر، وإنّ تغيُّرَ الأزمنة وتبدُّلَ الحكّام وتعاقبَ الدول قد أحدثَ بكلّ تأكيدٍ تغيُّرًا في نوعيّة مراسم هذه العادة وتطوُّرًا على حسب الزمام والمكان، وأما مراسمُ مواكب المحمِل المنطلقة من القاهرة فقد كان يجري الترتيب لها وفق خصائصها وخطوطها العريضة التي لم تتغيّر كالتالي:

كان ينطلقُ **أوّل موكبٍ** من مواكب المحمِل مع نهاية شهر رجب وغُرّة شعبان من كلّ عام، وكان من بين أهداف هذا الموكب -إضافةً إلى عرضِ كسوةِ الكعبة الجديدة على عامة الشعب- إعلامُ الراغبين في الحجّ باقتراب موسم الحجّ، وحثُّ الناس على الذهاب إلى الحجّ في ظلّ هذا المحمِل المهيب والبدءُ في الإعداد للتجهيزات اللازمة لذلك، وكانت مراسمُ موكبِ المحمِل تجوبُ شوارع القاهرة في موكب مهيب وسطَ جموعٍ من عامّة الناس الذين كانوا يسعَون لملامسة هذا الركب المبارك، وفي المقدمة نجد المحمِل الشريف



وصول الخديوي إلى الميدان من أجل موكب المحمل الذي سيبدأ رحلَتَه من ميدان القلعة في القاهرة عام (١٩٠٨م) [مجموعة "يوسف جاغْلاز"]

ومن ورائه كسوةُ الكعبة المشرّفة وكسوةُ مقام إبراهيم اللتان كانتا مُثبّتَتين على هيئةِ قطع فوق صناديق خشبيّة يحملها الناس، ومحفظةُ مفاتيح الكعبة التي كان يحملُها أحدُ الضباط.

وأما **الموكب الثاني**: فكان ذلك الذي يُجهّز لانطلاقه في شهر شوال، وكانت تقامُ المراسمُ والاحتفالاتُ ذاتها التي أقيمت عند خروج الموكب الأوّل، ويمتازُ هذا الموكب عن الموكب الأول بأمرين، أحدهما: عدمُ عرضِ كسوةِ الكعبةِ المشرّفة على عامّة الناس في هذه المراسم، والثاني: خروج المحمِل إلى خارج المدينة من أجل إقامةِ المعسكر.

بينما كان **الموكبُ الثالث** عبارةً عن مراسم تتضمّن العادات ذاتها بسببِ عودة الحجيجِ في شهر محرّم.

كيف كان يُقام موكب المحمل؟

كانت مراسمُ يوم موكبِ المحمِل تبدأُ بإطلاق قذائف المدافع بعد شروق الشمس بثلاث ساعات، ويتحرّك الموكب من دار الكسوة -الواقعةِ بجانب جامعِ الحكيم الذي يبعُدُ مسافةَ ثلاثة كيلومترات شمالَ قلعةِ "صلاح الدين"- تجاهَ ميدان القلعة، بحيث يكون المحمِل في بداية الموكب ومن خلفه تأتي كسوةُ الكعبة المشرّفة،

ويقومُ الوالي أو الباشا أو الخديوي الحاكمُ في هذه الفترة باستقبالِ الموكب والإمساك بزمام المحمِل الفضّيّ والتجوّلِ به في الميدان، وكان هذا التصرّف التمثيليّ يهدُف إلى إبراز الحكّام على أنهم رعاةُ وخدّام جمل النبي ﷺ، ويقوم هذا الحاكم بالتأكّد من كفاية الأموال المصروفة لـ"أمير الحجّ"[٢] من أجل الطريق والتبرّعات المرسَلة إلى المدن المقدّسة واحتياجاتهم في الطريق، ثمّ يقوم بتسليمِ زمام المحمِل إلى أمير الحجّ بعد التأكّد رسميًا من جهوزية وسلامة كلّ شيء، وكان أمير الحج يُمْسِك بزمامِ جملِ المحمِل الفضّي باعتناء بالغ ويُقبّله، ثم بعد ذلك يتوجّه الموكبُ في أجواء مختلطةٍ ما بين عسكريّة ودينيّة واحتفاليّة في طريقه نحوَ "جامع سيدنا الحسين" المجاوِر للجامعِ الأزهر.

وكان يعبر في البداية خلالَ الموكِب مجموعةٌ من الفرسان مكوّنةٌ من خمسمائة فارس، وبعد فترة قصيرة تعبرُ مجموعةٌ من الأشخاص على ظهورِ الجمال يقرعون الطبولَ المربوطةَ على سروجِهما، ويعقُب ذلك عبورُ الجمالِ الفارغة المزيّنة سروجها بأغصان النخيلِ والأعلامِ الصغيرة والأجراسِ والقِرَب، وكان أحد هذه الجمال يحملُ على ظهره صندوقًا مكسوًّا بغطاءٍ من القماش الأطلسيّ أحمرِ اللون ويحتوي بداخِله على النفقات الخاصّة بقافلة الحجّ لهذا العام، وبعد مرورِ عددٍ من الجمال المزيّنة، كان يبدو إلى العيان محملُ الرحلات الخاصّ بأمير الحجّ وقد غُطّي بقطعةٍ من القماش الأحمر وقد حُمِل على جملين اثنين، ثم بعدَ ذلك كان يمرّ "دليل الحجّ"[٣] والعامّة والضبّاط الذاهبون إلى الحجّ وموظّفو المحكمة وهم يرتدون قفاطين ذهبيّة اللون، ثم بعد ذلك تسيرُ سريّةٌ من الجنود تصاحِبُها أصواتُ الطبولِ والمزامير، ويتبعهم رئيسُ الشرطة وضبّاطه وخادمو أمير الحج، ثم يعبرُ من شوارع القاهرةِ المزيّنةِ البهلواناتُ والدواراتُ والسقّاؤون والكنّاسون بين الحين والآخر، ويُضْفون ألوانًا من البهجة والسرور على موكبِ المحمِل.

وكانت الطرقُ الصوفيّة تلعبُ أدوارًا مهمّة للغاية سواء في إعدادِ موكب المحمِل أو في تجهيز المراسم؛ فكان أتباعُ الطرق الصوفيّة القادريّة والسعديّة والبدويّة والدسوقيّة يُردّدون الأذكار الخاصّة بالطريقة التي ينتمون إليها أثناء عبورِ الموكِب، وكان دراويش وأتباعُ هذه الطرق وشيوخُهم يصِلُون برفقة الموكب إلى جامع سيدنا الحسين ويحمِلون أمامَهم رايات الطريقة التي ينتمون إليها إضافةً إلى انتمائهم إلى واحدٍ من المذاهب الأربعة، بحيث يُخْتَتَمُ هذا اليوم في "جامع الحسين" بتلاوات متعدّدةٍ من القرآن الكريم وبالأدعية المتنوّعة وبالتأمين عليها.

وكان العقيدُ "محمد صادق باشا"، الذي تولى وظيفةَ أمينِ صندوق المحمِل المصريّ في الفترة ما بين عامي (١٨٨٠-١٨٨٥م)، والتقَطَ أقدمَ صورٍ مشهورةٍ في يومنا هذا للأراضي المقدّسة قد دوّن في مذكّراته أن موكِبَ

محمِل عام (١٨٨٠م) كان يضمّ ألفًا ومائةً وثلاثةَ أشخاص وستمائة وسبعةً وأربعين جملًا وأربعمائة وثمانيةً وثمانين حصانًا ومائةَ حمار، وإنَّ هذه الأرقام لتساعدنا -إلى حد ما- في فهمِ حجمِ وأبعادِ موكبِ المحمِل المصري ومراسمِه.

وبعد انتهاءِ كافّة المراسم، كان المحمِل الشريفُ ومتعلّقات أمير الحجّ وسائر المستلزمات الأخرى تمكُث في القاهرة لعدّة أيّام، ثم تُحفَظُ لاحقًا في مكانٍ يُطلَق عليه "بِرْكة الحج" يبعد خمسةَ عشر كيلومترًا عن القاهرة، فهذه المحطّة تُعتبر محطّةَ اللقاء الأخير بالنسبةِ للحجيج المشاركين في قافلة الحجّ، وكانت القافلة تتحرّك عادةً يوم السابع والعشرين من شهر "شوال".

وبسببِ أنّ معظمَ طريقِ القافلةِ يكون في الصحاري وبين الرمال والصخور فقد كانت القافلةُ تنطلِقُ ليلًا قبلَ غروبِ الشمسِ بساعتين وتتابعُ مسيرها إلى ما بعد بزوغِ الفجرِ بقليل، وذلك بغرض تقليل المصاعب التي تواجهها في الرحلة الشاقّة التي كانت تتواصَلُ لمدّة تقريبيّة تصل إلى سبعةٍ وثلاثين يومًا، ومع اختراع السفُنِ البخاريّة والسككِ الحديديّة لاحِقًا، صارت هذه الرحلةُ أكثرَ سهولةً، وأصبحَ المحمِل يُنقَل عبرَ السكك الحديديّة حتى مدينة "السويس"، ثم يُنْقَلُ من هناك بحرًا عبر الباخرة إلى ميناءِ "جدَّة"، وكان المحمِل يُستقبل كذلك في الأراضي المقدسة بمراسم خاصّة، حيث كانت الأماكن المقدّسة التي تضمُّ شعائر ومناسكَ فريضةِ الحجّ مثل مكّة المكرّمة وداخل الحرم الشريف وجبل عرفات ومنى ومزدلفة، تستعدُّ لاستقبال المحمِل الشريف القادمِ من مصر.

نهاية التقليد

كان تولي "آل سعود" سدّة الحكم في الحجاز في أعقاب الحرب العالمية الأولى بمثابة إعلان نهايةِ رحلة المحمِل الشريف.

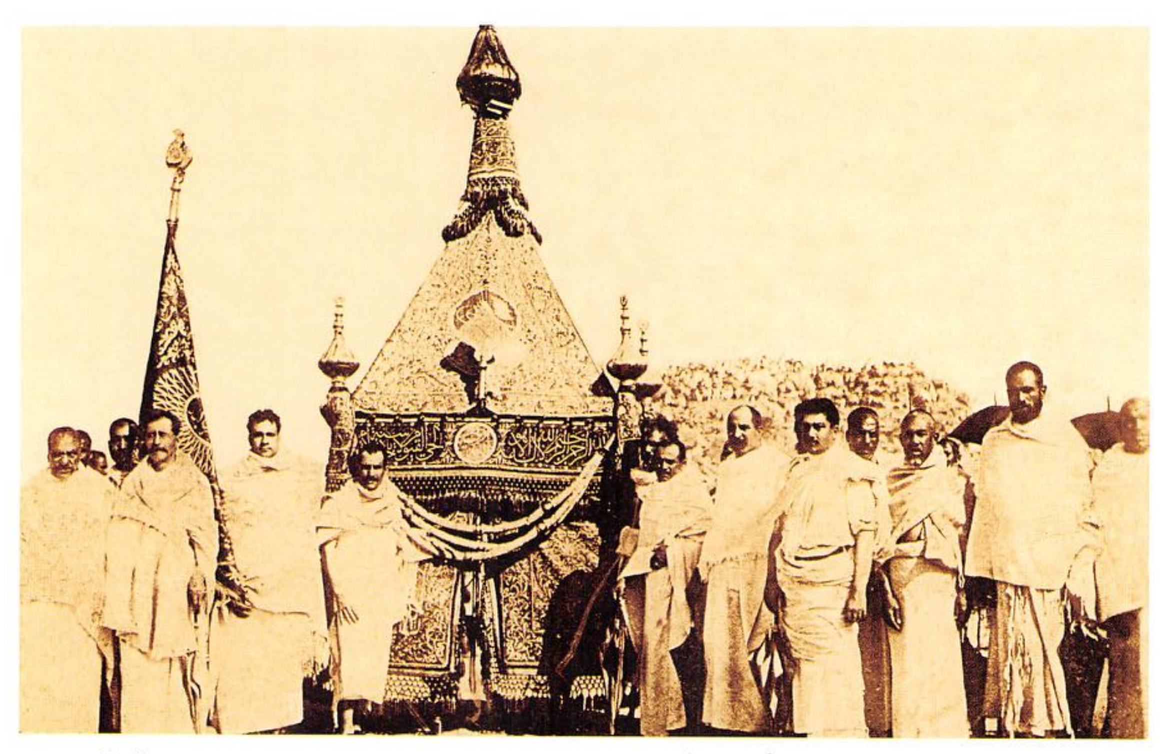
فقد أُحرق المحمِل المصري ومُنع دخوله إلى الأراضي المقدسة في أثناء ثورة محمد بن عبد الوهاب الأولى التي اندلعت عام (١٨٠٧م)، حيث نُظِرَ إلى الاحترام المفرِطِ الذي كان يلقاه المحمِل، على أنه انحرافٌ وخللٌ، وكان ردّ الفعل هذا -الذي ظهر خلالَ الثورة الوهابيّة الأولى التي قُمعت في وقتٍ لاحقٍ- متعلّقٌ في المقام الأول بالجانبِ العقائديّ، وأما الواقعةُ التي حدثت عام (١٩٢٦م) فكانت ذاتَ علاقة بالبُعْدِ السياسيّ للمحمِل الشريف.

فقبل الواقعة بستّة أشهر، أي في يوم الثامن من كانون الثاني/يناير لعام (١٩٢٦م)، هُزم "الشريف حسين"

أمام "عبد العزيز آل سعود" وأُلحقت الأراضي المقدسةُ إلى حاكميّة قبيلةِ "آل سعود" التي اعتمدت في تأسيسِ فلسفاتِ الدولة الخاصّة بها على فكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفي موسم الحجّ من العام ذاتِه، أي في يوم الرابع والعشرين من حزيران/يونيو (١٩٢٦م)، اندلعت حادثةٌ في "مِنى" بين القافلة القادمةِ من مصر وبين الحجّاج من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فبينما كانت القافلة المصريّة تستريحُ لبعض من الوقت إذ استخدمَ بعضٌ من أفرادِها الأبواقَ من أجلِ جذبِ انتباهِ من تخلّف عنهم للّحاق بركب القافلة، فبدأ هؤلاء الحجّاج -الذين يَعتبرون كلّ الآلات الموسيقيّة محرّمةً وملعونةً- في رجمِ القافلةِ المصريّة، وعلى الرغم من تحذيرِ الجنود المصريّين لهؤلاء الحجاج كي يبتعدوا عن القافلة إلا أنهم لم يكترثوا بهذه التحذيرات وواصلوا رجمَ المحمِل والقافلة المصريّة، وفي نهاية المطاف أطلق فوجُ الحرّاس المصريّ النارَ على أولئك الحجيج فسقط منهم خمسةٌ وعشرون قتيلًا وعددٌ من المصابين، فكانت هذه الحادثةُ كفيلةً بظهور أوّل ردّة فعل من "عبد العزيز آل سعود" باعتباره الحاكم الوحيد على منطقة الحجاز وأنّه هو من يستطيعُ تأمين المنطقةِ وتسيير النظام فيها.

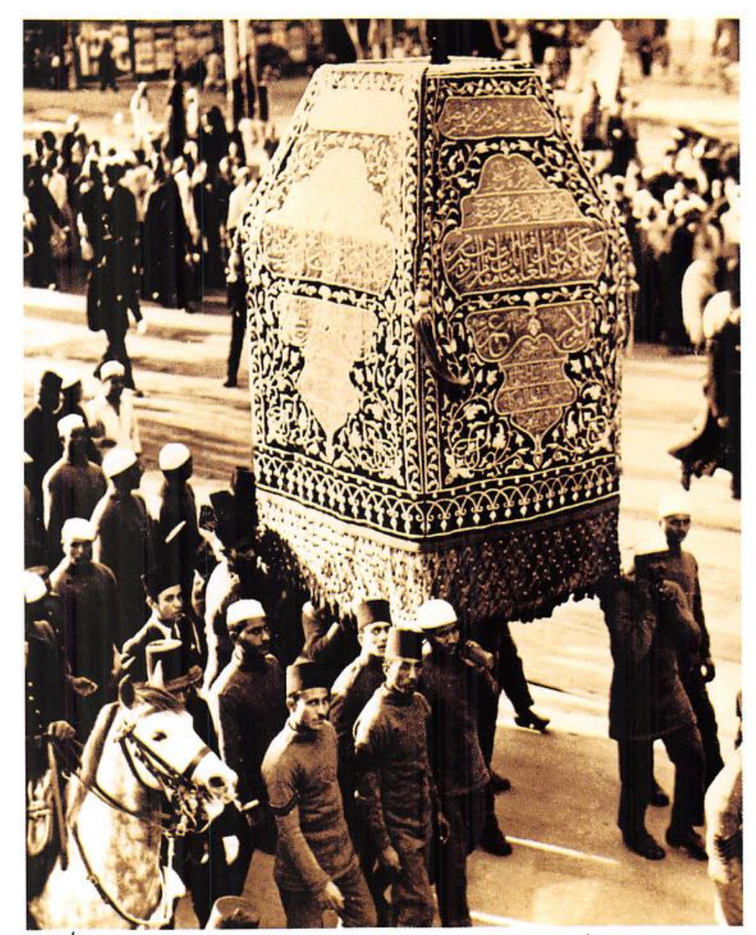
ومما لا شكّ فيه أنه لم يكن من السهل أن تقبلَ دولةٌ مستقلّة حديثةُ النشوء أيّ شعارٍ أو رمزٍ يمثّل هيمنةَ أيّةِ دولةٍ أخرى على أراضيها، فإذا ما أُضيف إلى هذه الحادثة عددٌ من الوقائع غير المرغوب فيها مثل تواجُدِ المحمِل وتواجدِ القافلة المصريّة على أراضي الحجاز برفقة مجموعةٍ كبيرةٍ من الجنود وتوفُّر عددٍ من العادات المخالفة للعقيدةِ التي بدأت تسود هناك مثل الموسيقى والنرجيلة والاحترام الزائد تجاه المحمِل وتقديم الهدايا لشرفاء الأراضي المقدّسة الذي كان يعترِضُ عليه "آل سعود" بشدة بالغةٍ طيلة الوقت، عند ذلك وبتوفُّر كل هذه الأسباب تكون النهاية حتميّة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مخاوفَ حاكمِ الحجاز الجديدِ بشأنِ بسْطِ سيطرتهِ وإحكام قبضته على البلاد، ومن ناحيةٍ أخرى العداء الذي حدث بين هؤلاء الناس الذين يخالفونه وبين أجداده في الماضي، لم يكن من المتوقع منه أن يقابل هذه الحادثة بتسامحٍ أبدًا وكان من المؤكّد أن ردّ الفعل السياسيّ سيكونُ أكثر حسمًا وحدّةً من ردّ الفعل الدينيّ، وهكذا قام الملك "عبد العزيز آل سعود" بإلغاء عادة المحمِل لأسبابٍ سياسيّةٍ، كما كانت الأسباب السياسية هي ذاتها سببًا في تجهيزِ أوّل محمِل قبل سبعة قرون في عهد السلطان المملوكي "بَيبَرْس".

وكانت هناك عادة تقتضي أن يمكث المحمِل في الحرم الشريف منذ عودته من "منى" وحتى مغادرة مكة المكرمة، فلم يسمح الملك "عبد العزيز آل سعود" بهذا في بادئ الأمر، ثم لم يسمح بعد ذلك بتوزيع التبرّعات والهدايا على أسياد وشرفاء الأراضي المقدّسة ومن هم مسؤولون عن إدارتها وصيانتها، وكذلك لم



آخر مواكب المحمل المصري صورة التُقِطَت في مكّة المكرمة مع الحجّاج المصريّين عام (١٩٣٠م) [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

يسمح بتوزيع الصدقات على المحتاجين، حتى وقعت أزمةٌ كبيرةٌ بعد هذا العام بين مصر والمملكة العربية السعودية، فامتنعت مصر عن إرسال المحمِل وكسوة الكعبة المشرفة لعشرة أعوام، إلا أنّه في عام (١٩٣٦م) تمَّ توقيع اتفاقية بين الطرفين أسهمت في إعادة إرسال كسوة الكعبة المشرفة ومقام إبراهيم الخليل عليه السلام في عام (١٩٣٧م)، وبهذه المناسبة ظهر موكب المحمِل من جديد في شوارع القاهرة، فأُقيمت الاحتفالاتُ وأُرسل المحمِل إلى السويس، إلا أنه لم يستطع العبورَ من جدّة إلى الجهة المقابلة جرّاء بعض المشاكل التي وقعت في ذلك التاريخ، فلم يغادر المحمِلُ القاهرةَ منذ ذلك الوقت حتى عام (١٩٥٢م)، وصار يخرج فقط عند إقامة مراسم ذهابِ الحجيج وعودتهم من الأراضي المقدّسة، وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٩٥٢م) ماتَ جملُ آخِرِ محمِل وأُقيمت مراسمُ رسميّة حكوميّة لدفنهِ، وأما المحمِل فنُقل إلى المتحَف، ولم يعُد المحمِل يظهر مجدّدًا في شوارع القاهرة خلال السنوات اللاحقة لهذا التاريخ، إلا أن مراسم عرض كسوة الكعبة المشرفة استمرت لفترة من الزمن. وفي تلك الأثناء، أقام "عبد العزيز آل سعود" ورشة لتصنيع كسوة الكعبة في مكة المكرمة على أيدي عمّال مهرة استدعاهم من الهند، وهكذا أُسدل الستار على آخر شعار للقيام بخدمة قوافل الحجّ من خارج أسرة "آل سعود".



عام (١٩٣٩م)، نقلُ ثوب مقام إبراهيم الخليل أثناء موكب الكسوة الشريفة الذي أُعِدَّ مؤخّرًا في القاهرة [مجموعة "مراد قازكيلي"]

وأما جماهيرُ عموم الشعب المصريّ الذين عايشوا هذه المراسِم بكلّ وجدانهم وعواطفهم، فإن الأسباب السياسية بشأن المحمِل لم تعنِ لهم أيّة أهمّيّة في أيّ وقتٍ من الأوقات، وكان من العاداتِ القديمةِ عند المصريّين رسمُهم مناظرَ وصورًا تذكاريّة من متعلّقات الحجّ على واجهات منازلهم بالتزامن مع عودتهم من الأراضي المقدسة، وما زال الحجّاج المصريّون يرسمون على واجهات منازلهم تصميمات الكعبة المشرفة والقبّة الخضراء وجبل عرفات ومِنى والسفينة والطائرة، ذلك إلى جانب المحمِل الشريف والجنود المرافقين له والحاملين لرايته، ولا يزال المحمِل الشريف -الذي شعر المصريّون بالتشرُّف به والاستمتاع بمشاعرِ مراسِمه والترفيه والذهاب إلى الحجّ تحت ظلّه- محافظًا على مكانته في قلوب المصريّين وعقولِهم على الرغم من انقضاءِ نصف قرنٍ على آخر موكبٍ انطلقَ من القاهرة.



لوحة فنية بالألوان الزيتية تجسّد خروج موكب الصرة من القاهرة عام (١٨٧٦م)، بريشة "ستيفانو أوسّي (Stefano Ussi)" (متحف قصر "دولمه باغجه")





المحملُ الشريف المرسلُ من مِصرَ إلى الحرمين الشريفين [ألبومات يِلْدِزْ ٩٠٦١٢-٤٣ - جامعة إسطنبول]

المحمِل المصري بقلم ضابط عثماني

إعداد: صالح كولن

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

"إبراهيم رفعت باشا"[1] ضابطٌ عثمانيّ ذهب من القاهرة إلى الحرمين الشريفين أربع مرّات على رأس قافلة الحجّ التي ذهبت إلى مكّة المكرّمة في العصر العثمانيّ أميرًا للحج وقائدًا لحرس الصرّة، فأوّل مرّة ذهبَ فيها "إبراهيم رفعت باشا" إلى الحجّ من القاهرة كانت قبلَ تعيينِه في منصبِ أميرِ الحجّ أثناءَ شغله منصبَ القائم مقام بصفته "قائد محافظي الصُّرّة" في ربيع (١٩٠١م)، ومنحه السلطان عبد الحميد الثاني رتبةَ اللواء عندما تمَّ تعيينُه في منصبِ أميرِ الحجِّ في الأول من كانون الأول/ديسمبر لعام (١٩٠٢م)[2]، وفي السنوات التالية كُلِّف إبراهيم رفعت باشا بمهام أمير الحجّ مرّات عديدة، فعمل قائدًا لقوافل المحمِل الذاهبة من مصر إلى الحجاز لفترة طويلة، وشرحَ ما وقع له من أحداث في هذه الرحلات بالتفصيل في كتابه المسمى "**مرآة الحرمين الشريفين**"[3].

ويذكر إبراهيم رفعت باشا في المقدّمة سببَ كتابةِ مؤلّفه المسمّى "**مرآة الحرمين الشريفين**" كما يلي:

"كنت ولوعًا بالحجّ شغوفًا بأداء هذا الفرض متضرّعًا إلى الله أن يوفقني لرؤيةِ بيته الحرام وما اكتنفه من المناسك، فمنّ عليّ بالإجابة بعد الإهابة[4]، وباركَ في دعوتي كما باركَ لإبراهيم ﷺ *في دعوتِه الطيّبة التي أحيتْ أمةً إلى يوم القيامة وعمّرت قطرَها الجدب ونشرَتْ فيه المدنيّة الصادقةَ والشرعةَ القائمةَ، فعُيّنْتُ في سنة (١٣١٨هـ/١٩٠١م) رئيسًا لحرس المحمِل فرأيتُ أن نعمةَ الله عليّ لا يفي بشكرها إلا تدوينُ رحلتي من أوّل خطوة فيها إلى آخر خطوة وإخراجها للناس لينتفعوا بها وليستضيئوا بنورها إذا حجّوا إلى البيت الحرام أو قصدوا الجزيرة، فلم أَدَعْ صغيرةً ولا كبيرةً مما رأيتُ أو سمعتُ إلا قيدتُها..."*.



دخول السلطان ياووز سليم (١٤٧٠-١٥٢٠م) القاهرة بريشة الرسام "علي جمال" [أرشيف "يوسف جاغلاز"]

يُعدُّ كتابُ "**مرآة الحرمين الشريفين**" المطبوعُ في مطبعةِ دارِ الكتبِ القوميّة في الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر لعام (١٩٢٥م) رحلةً جميلةً تشرحُ بكلّ تفصيلٍ رحلات الصرّة وتنقّلاتها، والكتاب غنيّ بالمذكّرات والصور التي أدرجها الباشا في كتابه، ويشرح إبراهيم رفعت باشا موضوعَ تصويرِ المناظرِ الجميلةِ التي شاهدها كما يلي:

"لما رجعت من حجّتي الأولى تعلّمْتُ فنّ التصوير وجعلتُه مسلاتي في وقت فراغي، ونزعَتْ نفسي إلى حجّة أخرى أقيّد فيها الصور، فأنالني الله بغيتي ومنّ عليّ منّةً أخرى في سنة (١٣٢٠هـ/١٩٠٣م)؛ إذ عيّنْتُ أميرًا للحجّ فكتبتُ على نفسي أن أسلك سبيلي الأوّل في تقييد كل ما أجد وتصويرِ كلّ ما يقع، ومنّ الله علي بحجّة ثالثة في (١٣٢١هـ/١٩٠٤م) كنت فيها أميرًا للحج".

موظفو موكب المحمل

يشرح إبراهيم رفعت باشا في "**مرآة الحرمين الشريفين**" الأعمال الأولى التي تمّت من أجل حراسة الصُرّة سنة (١٩٠١م) كما يلي:

"صدرَ أمرٌ عسكريٌّ بتعييني رئيسًا لحرس المحمِل وأمرٌ آخر في التاريخ نفسه بتعيين مائةٍ وثمانين ضابطًا وصفّ ضابطٍ وعسكريًا حرسًا للمحمِل، وكان الضباط في القافلةِ ستّة".

ثم بيّن أنه كان من ضمن العسكر أربعة عشر موسيقيًا، بخلاف هذا يفهم أنه في تلك السنة قد عيّن للصرّة إمامٌ للمحمِل وكاتبٌ أوّل وثان للصرّة وكاتبٌ للقسم العسكريّ وصرّافٌ للصرّة وطبيب وطبيبة، وعن عدد الموظفين في محمِل الصُرّة في هذا العام يقول ما يلي:

"جملة من كان في خدمة المحمِل في هذه السنة أربعمائة وثلاثة وسبعون ما بين ضبّاط وعسكر وموظفين وتوابعهم من قادة الجمال والخيول وحاملي المصابيح (المشاعل) والسقّائيين والفرّاشين والزامرين ولم يكن مع المحمِل أحد من الأهالي غير عمّاله وأتباعهم".

تحدّث "إبراهيم رفعت باشا" في التقرير الذي كتبه أثناءَ عودة قافلة المحمِل في العام الثاني حالَ كونه أميرًا للحجّ عن موظفين مثلَ صرّاف الصُرّة والعَكّامين والفرّاشين، ويُفهم من هذا التقرير أنه كان يوجدُ مع المحمِل صيدليّة، وفي تلك السنة خرج مع القافلة طبيبٌ وصيدليّ، وطبيبتان تمّ اختيارُهم من قِبل المؤسّسة الصحّيّة، وفي العام التالي نبّهت وزارةُ الماليّة بالتعليمات التي أرسلَتْها إلى إبراهيم رفعت باشا بعدمِ ضمّ أيّ شخص إلى القافلة سوى أربعمائةٍ وأربعة وعشرين شخصًا وقد أَرْفَقَت معلومات عامّةً عن تعدادِ القافلة، ويُفهَم أنه في السنوات السالفةِ كان يوجَد في القافلةِ قاضي الصُرّة الذي يحكُم في النزاعِ الحادِثِ بين الحجيجِ طبقًا لأحكامِ الشريعة الإسلاميّة، وفي السنوات التاليةِ بعد ذلك تمّ إلغاءُ نظامِ القضاءِ هذا لسوء استعمالِهِ في بعض الأحيان.

المراسم التي ينظمها الموظفون

تحدث إبراهيم رفعت باشا عن مراسم تقليديّة تسمّى "العَرَاضَة" تتمّ في حضور أمير الحجّ وأمين الصُرّة قبل السفر للحجّ، وبيّن كيفيّة عملِ هذه المراسمِ ودَورَ موظّفي المحمِل فيها مقسّمًا إيّاهم إلى أربعِ طوائف، فبعدَ تعيينِ أميرِ الحجّ وأمينِ الصُرّة يقوم الضوئيّة -حاملو المشاعل- والعَكّامون والفراشون والسقاؤون بعمل هذه المراسمِ، وتذهبُ كلّ طائفةٍ منهم ومعها رئيسُها إلى منزلِ أميرِ الحجّ، فيذكرُ الكاتب هذه المعلومات شارحًا وموضّحًا من خلالها الأعمالِ والمراسم التي يقوم بها موظّفو المحمِل في منزل أمير الحجّ:

*"**طائفة الضوئية**: هم الذين يضيئون الطريق أثناء السفر في الليالي المظلمة بإشعالهم الخشبَ في مشاعلَ يحملونها أمام الركبِ وعلى جانبيه، ويسير رئيسهم دائمًا مرافقًا لأمير الحجّ ويلقّب "ضوئي باشا"، وعددهم سبعة وكيفيّة احتفالِهم هي: أن يحضُرَ رئيسهم لابسًا "بنشه (benşa)" ومن خلفه رجاله حاملين مشاعلَ مكسوّةً رؤوسُها بأنسجةٍ ملوّنةٍ ويبتدئون بمديح، وعقبه يسقون شرابًا حلوًا ويُعطَى رئيسُهم "شالًا" كشميريًّا يتقلّده حالًا ثم ينصرفون"[٥].*

وسيكون من المناسب أن نوضّح الأعمال التي يقوم بها أصحاب الطوائف الأخرى:

*"**طائفة العَكّامين**: هم أشخاصٌ وظيفتُهم وضعُ الأحمال على الجمال وقيادتها والمحافظة عليها وإنزالها.*

***طائفةُ الفراشين والسقّائين**: إن وظيفة الفراشين نصب الخيام وطيّها، ويتقدمون الركب مع بعض الحرس قبل وصوله إلى أية محطة بوقت كاف ويقيمون له الخيام، والسقّاؤون يملؤون القرب ويضعونها في الخيام، حتى إذا وصل الركب وجد الخيام مقامة والمياه فيها داخل القرب...*

وهؤلاء الرؤساء الأربعة يلبسون البنشات والشيلان الكشميرية المهداة إليهم من أمير الحج في كل حفلة تعمل أثناء تنقلات موكب المحمِل في مصر والسويس وجدة ومكة المكرمة ومنى وينبع والمدينة"[٦].

ولقد ذُكِرَ في الكتاب كشفٌ ببيانِ عددِ الحجّاج المرافقين وغير المرافقين للمحمِل فيما بين (١٩٠٣م) و(١٩٠٨م) كما يلي[٧]:

السنة	عدد الحجاج المصريين	الحجاج الذين سافروا برفقة المحمِل	الحجاج الذين سافروا بغير مرافقة المحمل
١٩٠٣م	--	٢٨[٨]	--
١٩٠٤م	١٠٣١٩	٦٩٦	٩٦٢٣
١٩٠٥م	١٤٣٦٦	١٦٠٥	١٢٧٦١
١٩٠٦م	١١٦١٥	٨٤٧	١٠٧٦٨
١٩٠٧م	١٨١٧٠	١٥٨٤	١٦٥٨٦
١٩٠٨م	١٥٨٥٦	١٨٢٩	١٤٠٢٨

الكسوة المرسلة مع المحمِل

لقد تحدث "إبراهيم رفعت باشا" عن الكسوة المرسَلة مع الصُرّة بكلّ تفصيل، وشرح تفصيلًا كيفيّة تجهيزِ كسوةِ الكعبة وخصائصَ القماش المستخدمِ فيها، وبخلافِ كسوة الكعبة فقد شرح المؤلّفُ في أماكن شتّى في كتابه خصائصَ كسوةِ مقام إبراهيم وبابِ التوبة ومنبر الحرم الشريف والمعلومات التي أوردها عن كيسِ مفتاح الكعبة مثيرةٌ للدهشة وهي كما يلي":

"وكيُس مفتاح بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترِترِ ملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شُترَابتان من قصب وكنتير وقيطان قصب[٩]".

ويوضّح الباشا الأمانات التي كانت في عهدته باعتباره قائد حرس الصرة فيقول:

"وهي ثلاثةُ مجاديل -أي حبال قطنٍ- نستخدمها في تعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المشرّفة، وواحدٌ وأربعون عصفورةً -أي حبلَ قطنٍ مجدول- هو احتياجُ الحِلَقِ، وغلايتان من النحاس مغطاتين مملوءتين بماء الورد نستخدمهم لغسيل بيت الله الحرام"[١٠].

ولقد شرح "إبراهيم رفعت باشا" في مؤلَّفِه كيفيّة المراسمِ التي أُقيمت في القاهرة من أجلِ الكسوةِ الشريفةِ التي سيتمّ إرسالُها مع الصُرّة وشارك فيها خديوي مصر وأكابرُ الدولة بشكلٍ مفصّلٍ، وكانت بعضُ صورِ المراسم التي أُقيمت هناك تُشْبِهُ مراسمَ إخراج الصُرّة في قصر "طوب قابي (Topkapı)".

مراسم المحمِل الشريف

يحدّد أميرُ الحجّ يوم الاحتفال بسفرِ المحمِل ويُصادِقُ على ذلك المقرّبون من السلطان، وتقومُ الجهات المختصّة بإبلاغِ وإخطارِ نظارةِ الداخليّة والماليّة والحربيّة والوالي باليومِ المعيّن ليستعدّ الشرطة والجندُ، والغريبُ أنه يتمّ تعطيلُ المصالحِ الحكوميّة ودواوينِ الحكومة يوم خروجِ المحمِل المصري.

وتلقَى المراسمُ والاحتفالات التي تُقامُ من أجل موكِب الصُرّة اهتمامًا كبيرًا:

"فالشوارعُ التي يمرّ منها المحمِل والكسوة تكون حافلةً بالمشاهدين وكذلك الشرفاتُ والرواشنُ وأسطُحُ المنازلِ، وتصدحُ الدعوات والابتهالات إلى المولى أن يُيَسّرَ ويسهّل للحجّاج أداءَ فريضةِ الحجّ وزيارةَ النبيّ ﷺ"[١١].



عام (١٩٠٨م) حفل رسمي لموكب المحمل الشريف في مصر بميدان القلعة [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

"أُطلِق للخديوي ساعةَ حضورِه واحدٌ وعشرون طلقةً مدفعيةً، وصدَحت الموسيقى بسلامه ثلاثًا أعقبها الضبّاط والعساكر والحضورُ في كلّ مرّة بالهتافِ لسموّه بصوتٍ عذبٍ قائلين بالتركية "أَفَنْدِمِزْ جُوقْ يَشَا (Efendimiz çok yaşa!) بمعنى "عاش الملك".

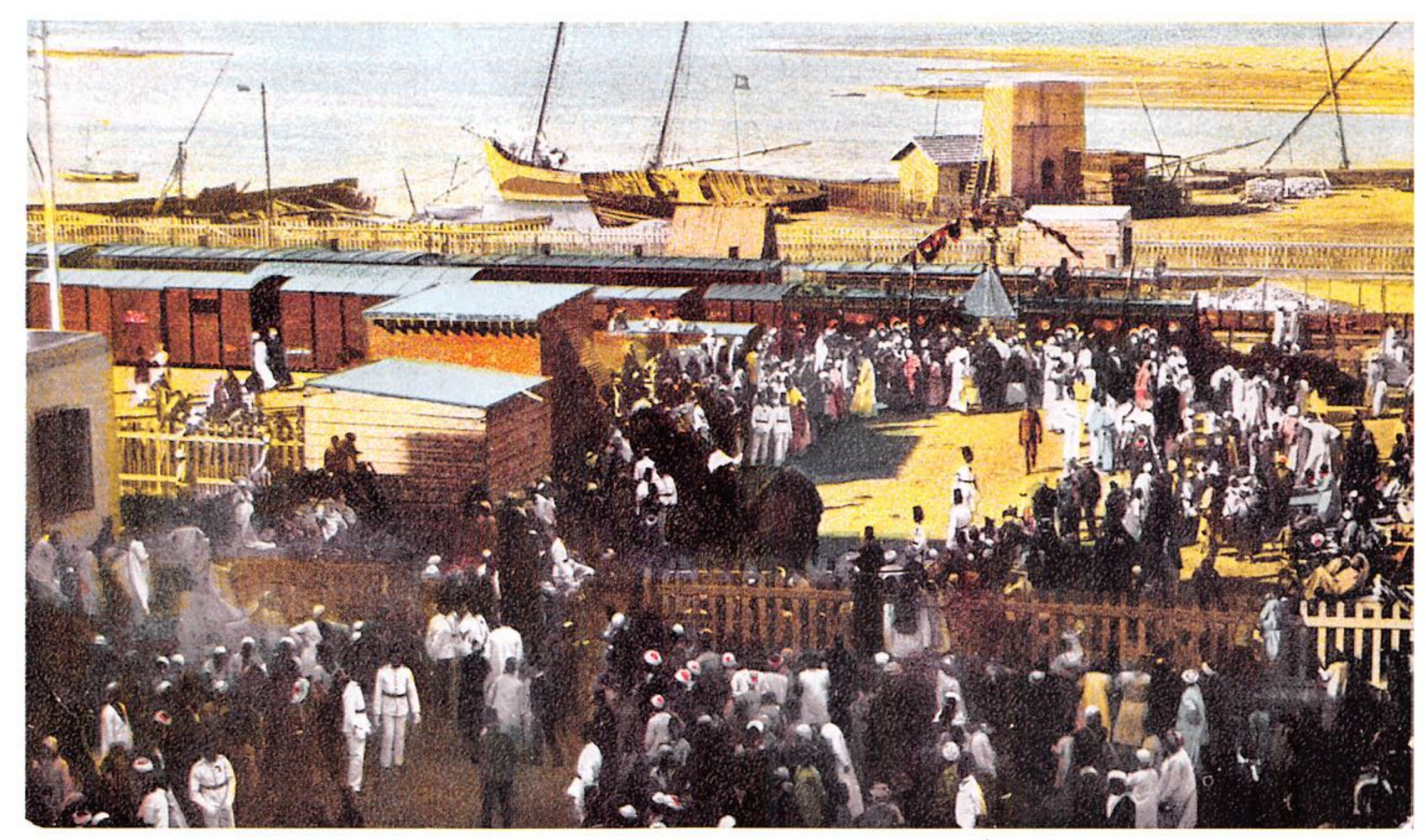
ومن الغريب أن يدعو الشعبُ المصريّ العربيّ بالتركيّة لخديوي مصر.

وقد شُرِحَتِ الأعمالُ التي تتمّ بعد انتهاءِ الاحتفالِ كما يلي:

"أُطْلِقَت إحدى وعشرون طلقةَ مدفعٍ إيذانًا بانتهاء الحفلة فانصرفَ الخديوي والحضور، ثم سِيرَ بالكسوتين والمحمِلِ إلى مسجد سيدنا الحسين ﷺ تحتَ حمايةِ رجال الجيشِ والشرطةِ وبصحبةِ أربابِ الطُرُقِ وفي المسجد استقبلَ الكسوتين أميرُ الحجّ وأمينُ الصرّة، وهنالك ضُمّت بالخياطة قطعُ الكسوة بعضُها إلى بعضٍ ثم نُقلت إلى العباسية(١٢) مع كسوةِ المقام في صناديقِها المعدّة لها استعدادًا للسفر بهما إلى الحجازِ بعد ذلك(١٣)".

أوضحَ الباشا بعد ذلك أنه:

"تم نقل الصُرّة إلى ميدان "صلاح الدين" في صبيحةِ يوم الثالث عشر من ذي القعدة لسنة (١٣١٨هـ) الموافق للرابع من آذار/مارس (١٩٠١م) وهنا سلّم مديرُ مصنع الكسوة زمامَ المحمِلِ إلى سموّ



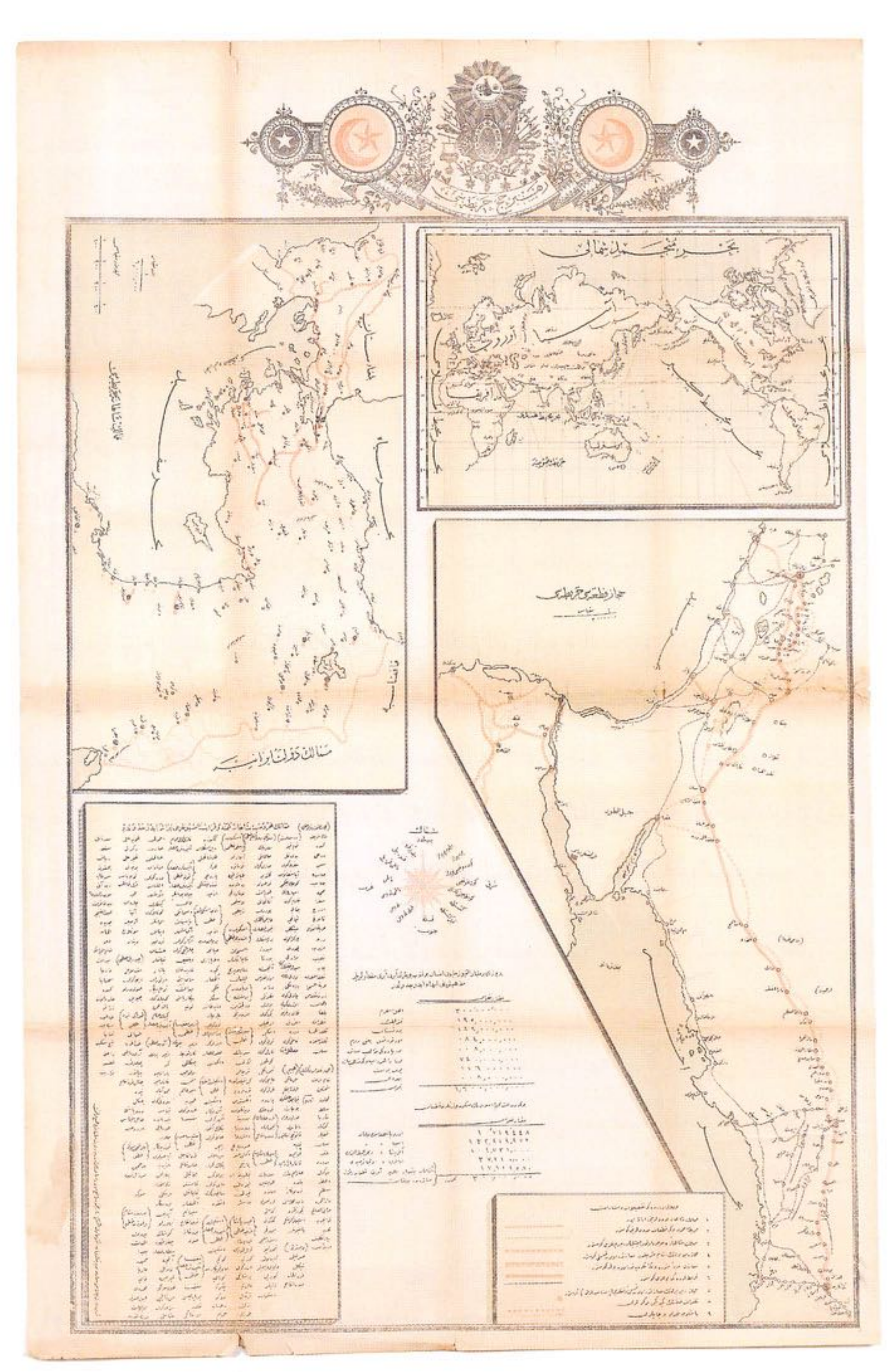
وصولُ المحمل المصري إلى "السويس" بواسطة القطار [مجموعة "يوسف جاغَلاز"]

الخديوي وأما سمو الخديوي فقد قام بدوره بتسليمه لأمير الحجّ حيث قادَهُ إلى العبّاسيّة ليسافر من هناك إلى السويس ثمّ إلى مكّة المكرمة مع الكسوتين والروائحِ العطريّة والخِرَقِ الجديدة التي تُغْسَلُ بها الكعبة(١٤)".

ويشرحُ "إبراهيم رفعتْ باشا" المراسمَ التي تمّتْ قبل ذهابِهِ بالمحمِل المصريّ للمرّة الرابعة كما يلي:

"ترسل المحافظةُ -أي مبنى المحافظ وهو الوالي قديمًا- إلى العلماء والأعيانِ وكبار التجّار تذاكر الدعوة لحضورِ الاحتفال الذي يكون في الغالبِ من الساعة التاسعةِ صباحًا -حسب التوقيت الفرنسيّ-، وقبل أن يحين الموعدُ بساعةٍ يصطفُّ الجنودُ بميدانِ القلعةِ تجاهَ المِسْطَبة التي هنالكَ حاملينَ أسلحتهم، ويتوافد المدعوون ويستقبلُهم هنالك وكيلُ المحافظة ومندوبوها، ويجلسون كلٌّ في مجلسه، فالعلماء في الميمنة وخلفهم الأعيان، وفي الميسرةِ التجّار والمندوبُ العثمانيّ وحضرات النظّار والأمراءُ

والزعماء وكبارُ الموظّفين بالديوان الخديوي وخلفهم كبارُ العسكريّين والملكيين، والكلُّ مُرْتَدٍ لباسَ التشريفة الكبرى -ويتألّف من بنطلون أسود ذي شريطٍ مقصّبٍ وسترةٍ سوداء موشّاة بالقصب وسيفٍ له علّاقةٌ وحزامٍ قصبيّ وقفّازٍ أبيض وعلى الصدورِ تُوضَعُ الأوسمةُ والنياشينُ المختلفةُ، وهذا هو لباس التشريفةِ بالنسبةِ للملكيين أما العسكريّون فيلبسون لباسَهم المعروف- وفي الساعة المحدّدة يحضُرُ سموّ الخديوي في عرَبَةٍ يجرُّها أربعةُ جيادٍ على يسارِه رئيسُ النظّار وأمامَه اثنان من النظّار المتقاعدين وخلفَ عربتِهِ عرباتٌ تُقِلّ كبيرَ الموظّفين ومساعديه وكبارَ رجال الدولة ويحيطُ به فرسانُ الحرسِ والذين يبلغ عددهم مائةً وثمانيةً وأربعين معظمُهُم عسكرٌ وقليلٌ منهم صفّ ضابط، وبينهم أربعةُ ضبّاط واحدٌ منهم عن يمينِ العرَبة والثاني عن يسارِها والثالثُ أمامَها يتقدّمه رقيبٌ برفقةِ ثلّةٍ صغيرةٍ من الحرس، وأما القِسمُ الأكبرُ من الحرسِ فيكون مع الضابط الرابع الذي يمشي خلف العرَبات، وحينما ينزلُ سموّ الخديوي من العربة تحيّيه القوّة العسكرية، ويطلق رجال المدفعية إحدى وعشرين طلقةَ مدفعٍ وتصدحُ الموسيقى بالسلامِ المعتاد والخديوي متّجهٌ نحو العسكرِ يُحيطُ به النظّار وكبار رجال الدولة رافعًا يديه بالتحيّة، ثم يجلسُ وسطَ مكانِ الاستقبالِ ويُحَيي الحاضرين، وبعدَ دقائق يأخذُ مأمورُ الكسوة بزمامِ الجملِ الذي عليه المحمِل ويدور به ثلاث دورات ثم يتّجه إلى مكان الاستقبال، فيقومُ سموّ الخديوي من مجلسِهِ وينزلُ إلى السلّم الأوّل من المصطَبة والناسُ محتشدون حولَهُ، وإذ ذاك يتقدّمُ إليه مأمورُ الكسوة بكيسِ مفتاحِ الكعبة قد بَسطَهُ على كفّيهِ، فيتناوله سموُّهُ ويقبّلُه ويتلوهُ فضيلةُ قاضي مصر، ثم يدعو الشيخُ السنباطيّ دعاءَ المحمِل، وبينما تُتلى الأدعية تُقَدَّمُ الهدايا إلى حملةِ الكسوة، ثم يسير المأمور بعض خطوات والكيس على يديه، ثم يعتلي جوادَه ويسيرُ من خلفه المحمِل على جملِهِ تتبعُه كسوةُ الكعبة وكسوة مقام سيدنا إبراهيم الخليل وقد بُسِطَتْ كلُّ قطعةٍ منها على أنصافِ دوائر حديديّة ركبت في قائمين من الخشب ويحمل هذه الأعمدةَ بعضُ الحراس، ويمرون بين يدي الخديوي ويذهبون بها إلى المسجد الحسيني مخترقين شارعَ محمد علي فسوق السلاحِ فالدرب الأحمر فباب زويلة المعروف ببوابةِ المتولّي فالغوريّة فالسّكّة الحديدية، ويصاحب الكسوة مجموعةٌ من رجال الشرطة بالإضافةِ إلى كتيبةِ مشاةٍ عسكريّةٍ مهمّتها حفظُ النظام ومنعُ الناس من التزاحم على طول الطريق، ولا تُغادر فِرَقُ حفظِ النظام من الشرطة والجيش أماكنها من أمام المسجد الحسيني حتى تدخلَ إليه كاملُ الكسوة، ويبدأُ سعادةُ "السردار"[١٥] أو نائبه باستعراض الجيشِ، ويمرّ من أمام سموّه الفرسان المتخصّصون بالمدفعية ثم ألويةُ المشاةِ ثم القِسم الطبّي، وبعد هذا الاستعراض يُثني الخديوي على الجيش ونظامِه، ويأمرُ بتبليغِ ذلك إلى الضبّاطِ والعساكِر، ثم يصافحُ "السردار" وقاضي مصرَ وأكابرَ



خريطة دليل الحجاج بتاريخ (١٣١٧هـ/ ١٩٠١م)؛ حيث تُظهر الخطوطَ الرئيسيةَ لطريق السكك الحديدية الواصل من القاهرة إلى السويس [مجموعة "يوسف جاغْلار"]

الحاضرين، ثم يركبُ عربتَه إلى "قصر عابدين" مارًا بالصليبة فالخضيري فميدان السّيدةِ زينب فشارع الدواوين فشارع الشيخ عبد الله، وعند تحرّكِ العَرَبةِ تضربُ المدافِعُ إحدى وعشرين قذيفةً للتحيّة وللإيذان بانتهاءِ الحفلة، عند ذاك ينصرفُ الحضورُ.

ويحضر هذا الاحتفال أمير الحج وأمين الصُّرّة مشاهدين فقط ويتوجهان بعد الاحتفال إلى المسجد الحسيني ليستقبلا الكسوة هنالك، وبعد أن تدخل يزوران قبر الحسين ﷺ معهما السدنة ورئيسهم، ثم يشربان القهوة في حجرة الرئيس وينصرفان"(١٦).

الرحلة بالقطار إلى السويس

يبدأ الجزء الأوّل من الرحلة إلى الأراضي المقدّسة، ويتحرّكُ القطارُ الذي يحملُ الصُّرّة والموظفين في المحمِل من العباسية إلى السويس، ولقد كانت حوادث هذه الرحلة عجيبة:

"ففي صبيحة يوم الخامس عشر من ذي القعدة الموافق لليوم السادس من آذار/مارس سافرَ قطارُ الركاب في منتصفِ الساعةِ الأولى العربيّة من العبّاسيّة وهو يُقِلُّ المحمِل والأميرَ والموظّفين وبقيّة الحرس وأتباعَهم من الأهالي، وقد وقفَ القطارُ بمحطّات "القاهرةِ" و"طوخ" و"بنها" و"الزقازيق" و"أبي حمّاد" و"نفيشة" و"الإسماعيليّة" و"فايد"، وقد كان الأهالي ومشايخُ الطُّرُقِ وطلبةُ المدارس -بنين وبنات- ينتظرون المحمِل في محطّات الوقوفِ ومعهم الموسيقى والمزمار البلدي.

وممّا رأيناه من عادات الأهالي إحضارُهم أولادَهم الرضّع ليروا المحمِل ويلمسوه ولكي يُبارَكَ لهم في ذريتهم، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمَسه قذفوا بمناديلِهم إلى خدام المحمِل بعد أن يضعوا فيها شيئًا من النقود، أو يملؤوها باللحومِ البيضاءِ أو الفطيرِ، فيأخُذَ الخدمُ ذلك منها ويردّونها إلى أربابها بعد تمريرِها على المحمل، وكان ما يدفعُهم إلى ذلك هو علْمُهم أن المحمِل سيوضَعُ داخلَ المسجد الحرام، كما يوضـع في المقصورةِ النحاسيّة التي حول قبرَ الرسول ﷺ ما دام بالمدينة، فيريدون التبرُّكَ بمحمِلٍ يزورُ تلك الأماكن المقدّسة(١٧)".

ويوضّح إبراهيم رفعت باشا أنه لا يرى هذا الأمر صحيحًا أو صوابًا، بل يرى وجوبَ اتّفاق عاداتِ الناس مع آدابِ دينهم.

ويشيرُ إبراهيم باشا إلى وصول الصُّرّة إلى السويس كما يلي:

"وصلنا السويس في اليوم نفسه في الساعة السابعةِ وخمسةٍ وأربعين دقيقة بالتوقيت العربي، وكانت المحطّة تغصُّ بالمتفرجين ورجالُ الشرطة مصطفّون على الإفريز وفي مقدّمة الجميعِ سعادةُ المحافظِ والموظّفون، وقد أَطلقَ ساعةَ وصولِ القطارِ واحدٌ وعشرون مدفعًا قذائف التحية من قلعةِ السويس، وصدَحتِ الموسيقى بالسلام الخديويّ وهتفَ الحضورُ بالدعاءِ المعتادِ لوليّ النِّعَمِ بالتركية "أَفَنْدِمِزْ جُوقْ يَشا" وتَقَدّمَ سعادةُ المحافظ إلى أميرِ الحجّ وأمينِ الصُّرّة مهنّئًا ومتمنّيًا لهما الوصولَ بالسلامة وشُحِنَ المحمِلِ الموجودُ بقطارِ السكّة الحديدية إلى ميناءِ السويس، وبتنا به إلى الصباح"[١٨].

الذهابُ إلى جدّة عن طريق البحر

لقد ذكر "إبراهيم رفعت باشا" أن المحمِلِ الذي توجّه من السويس إلى جدّة عن طريقِ البحرِ قد قطعَ هذه المسافةَ في ستٍّ وستّين ساعةً، وبيّن أنّه قبلَ الوصولِ إلى جدّة بستّ ساعاتٍ تقريبًا مرّ على "رابغ" الواقعة على الساحلِ الشرقي للبحر الأحمر، وفيها اغتسلَ الحجّاج وحلقوا وقصّوا أظافرَهم ثم أَحْرَمُوا، ويوضّح الباشا المراسمَ التي تمّت في جدّة كما يلي:

"غداة وصولنا إلى جدّة بطريقةٍ رسميّة أُقيمت مراسمُ الاحتفالِ بالمحمِلِ، ووقفَ عساكرُ الدولةِ العثمانيّة في صفّين متقاربين وكان أميرُ الحجّ وأمينُ الصُّرّة في المقدّمة وحولهم الحرسُ، وأخذَ كلٌّ مكانَه، وتحرّك المحمِلِ بين الصفوف...

وقد شاهدنا ما يستحقّ المشاهدة فقد لبِسَ كلُّ الضبّاط والموظّفين ملابسَهم الرسميّة، كان الزحامُ حولهم يمنح المشاهدَ سعادةً مختلفةً...

وقد انتهى الحفلُ بعودةِ المحمِلِ إلى نقطةِ تحرُّكِهِ، وفي نهايةِ الحفلِ صدحت الموسيقى بالسلام السلطانيّ أوّلًا وبعده سلامُ الخديوي".

وذكر في "**مرآة الحرمين الشريفين**" أن أميرَ الحجّ وأمينَ الصُّرّة والحرسِ الموجودين في المحمِلِ قد استضافهم إداريّو "جدّة" وقدّموا لهم القهوة، وعقب ذلك تمّ ردُّ الزيارة، ولكنّ الزيارة كانت متاحةً للجميع وليس فقط للإداريين، لأنّ الناس في جدّة استقبلوا المحمل بفرحةٍ عارمةٍ وسعادةٍ وسرورٍ مطلقَين فكانوا يتوافدونَ لزيارةِ المحمِلِ يوميًّا بعد العصرِ.

وبعد أن ظلّت قافلةُ الصُّرّة في جدّة خمسةَ أيّامٍ تابعَتْ طريقها:

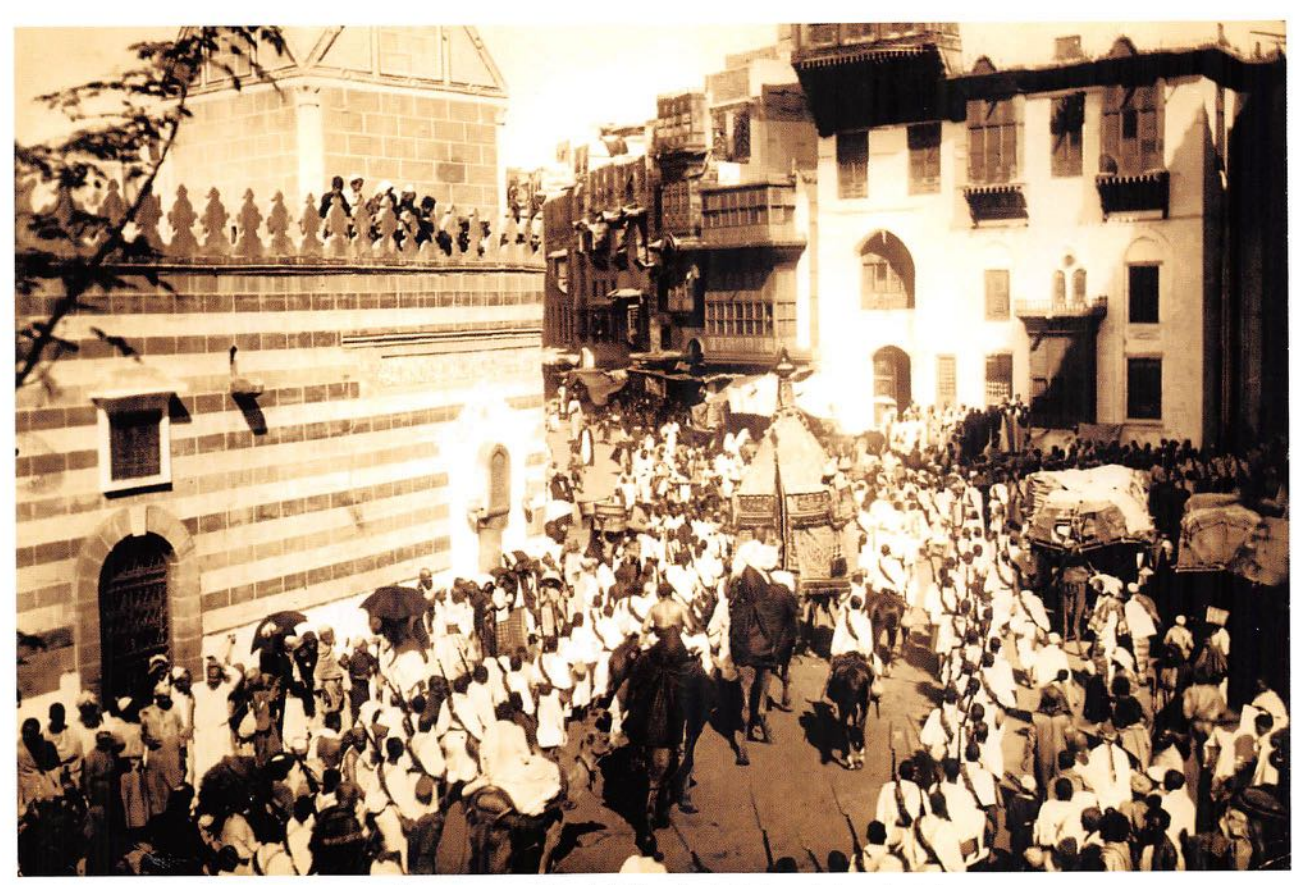


سفينة حجّاج تصل ميناء "جدّة"، عام (١٩١٠م) تقريبًا [أرشيف دار النشر "الكنز المفقود"]

"وقبل المغرب بساعةٍ من يوم الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة (١٣١٨هـ) الموافق للرابع عشر من آذار/مارس سنة (١٩٠١م) تحرك ركبُ المحمِل من جدّة ميمّمًا وجهَهُ نحوَ مكّة المكرمة وقدّمت له التحيةَ فرقةٌ من الجندِ العثمانيّ برئاسةِ القائم مقام "خالد بك"، وشيّعه أهلُ جدّة إلى أبعد من ميلٍ، وقد جدّ بنا السير ليلًا، فكانت العساكر تؤدي للمحملِ التحيّة العسكريّة عند مرورِه بها وتُنيرُ له الطريقَ بحرقِ كوماتٍ من الأخشاب -تباعًا- وُضِعَتْ فوق آكامٍ مرتفعةٍ، وجُمِعَتْ لهذا الغرض، فكنّا نسيرُ على ضوء كل واحدةٍ منها نحوَ ألفِ مترٍ"[١٩].

الوصولُ إلى مكّة

"بلغْنا "بحرةَ" تمامَ الساعةِ العاشرةِ العربيّة ليلًا، وبتْنا هناك بإصرارِ أهلِها، وكان بعضُ الجنود يحمون القلعة، وفي منتصف الساعة التاسعةِ من يوم الرابع والعشرين تابعَ المحمِل سيرَهُ إلى أن وصلنا إلى "قهوةِ البوغاز" أو "البستان" في الساعة السابعة ليلًا، فاسترحْنا بها إلى منتصَفِ الساعةِ الثانيةِ عشر، ثم ارتحلْنا فوصلْنا مكّة المكرمة في تمامِ الساعة الأولى من صباحِ يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة"[٢٠].



طواف المحمل المصريّ في شوارع مكّة المكرمة [مجموعة "يوسف جاغْلار"]

إن القافلةَ التي وصلت من القاهرةِ إلى مكّة المكرّمة في عشرةِ أيّامٍ قد قامت بالأعمال التالية:

"في اليوم الذي وصلْنا فيه إلى مكّة المكرمة وهو الخامس والعشرون من ذي القعدة سنة (١٣١٨هـ) بعد أن زرنا البيتَ الحرامَ وطُفْنا وسَعَينا وتحلّلْنا، زارَ أميرُ الحجّ وأمينُ الصُّرّة الشريف الأكبر بعد الاستئذانِ منه، وساعةَ اللقاء لثَمَا يدَهُ وسلّم لهُ الأميرُ مكتوبَين؛ أحدهما من فخامةِ السلطان والآخرُ من نظارةِ الداخليّة وكلاهُمَا يتضمّن التحيّة والتماسَ مساعدةِ أمير الحجّ على أداء عمله والقيام بأي عملٍ يمنحُ راحةً للحجيج..."[٢١].

بخلافِ هذا يفهم من تتبُّعنا لأحداث الرحلة ويومياتها أنه بالإضافة إلى زيارة الأمير والأمينِ لشريف مكّة المكرّمة فقد زارا أيضًا الواليَ وقائدَ الجيش العثماني ومديريّةَ تلغراف الحجاز ووكيلَ أميرِ مكّةَ المكرّمة وأمينَ مفتاحِ الكعبة وأميرِ مكّة المكرّمة السابق.





التقاءُ المحمل المصريّ مع المحمل الشاميّ في عرفات [من كتاب "مرآة الحرمين"]

ولقد كانت زيارةُ أميرِ مكّة المكرّمة للمحمِل في غايةِ الأُبّهة والعَظَمة:

"وقف أميرُ الحجّ والأمينُ وموظَّفو المحمِل في ميمنةِ العسكرِ وعند وصولِ الشريف تقدّمَ إليه الأميرُ والأمينُ وقبلا يَدَه وطرفَ السترةِ (الأَتَكْ) وتبعاه راكبا عربتَه يسيرا الهوينا بين الصفّين، وهو يتأمّل زيّ العساكرِ معجَبًا بشهامتِهم وثباتِهم مسلّمًا عليهم عن طريق الإشارة، وعند السرادق نزلَ الأميرُ -أمير مكة- من العرَبةِ وجلَس على أريكةٍ في صدرِ السرادقِ، وساعتئذ قدّم له الأميرُ موظفي المحمِل فلثموا يَدَه ثمّ أمرهم بالجلوسِ وبعدَ زمنٍ يسيرٍ قلتُ للعسكرِ: "صَفَا!" أي "استَرِحْ"، وتوجهت بالضباط إلى السرادق حيث قبلنا يَدَ الأمير وطرف سترته كمن سَبَقَنا"(٢٢).

ويوضّح في الجزء التالي من الكتابِ زيارةَ والي مكّة المكرّمة للمحمِل بمراسمَ تُشْبِهُ هذه المراسم.

غسلُ الكعبة

إن أغربَ ما وردَ في الرحلةِ هو غسلُ الكعبةِ، ولنتركِ الكلامَ لإبراهيم رفعت بك لِنَرَ ما يقول:

"في يوم الإثنين الخامس من ذي الحجّة دُعيتُ مع أميرِ الحجّ وأمينِ الصُّرّة وبعضِ الموظّفين لغسل الكعبةِ حسبَ المعتاد سنويًا، فلبّينا الدعوةَ، وذهبْنا إلى المسجدِ الحرامِ، وفي الساعة الواحدةِ -حسب التوقيت العربي- حضرَ سموّ الوالي وأمينُ الدفاترِ (الدفتردار) واللواء القائدُ للجند المكّي -الكومندان- وبعضُ العظماء من الحجّاج، ودخلْنا الكعبةَ وصلّينا في كلِّ من جهاتها الأربعِ ركعتين، ودعونا الله بما أحْبَبْنَا، ودعوتُ للخديوي كما دعا له الأميرُ والأمينُ، ثم شرعْنا جميعًا في غسلِ أرضِ الكعبةِ من الداخلِ بماءِ زمزم، وكان ذلك بمقشّاتٍ صغيرةٍ صُنِعَتْ من خوص النخيل، ثم وُزِّعَتْ علينا خرقٌ بيضاءُ مبلّلةٌ بماءِ الورد والروائحِ العطريّة، وأخذنا نمسحُ بها جدرانَ الكعبةِ، وقد اشتدّ الزحامُ أمامَ بابِها لأخذِ مياهِ الغسلِ للتبرُّكِ بها، والمطوّفون يأخذونها في دلاءٍ ويضعونها في قواريرَ يُهادونَ بها أتباعَهم من الحجّاج"[٢٣].

التقاءُ المحملين -المصري والشاميّ- في عرفات

وتستمرّ رحلةُ المحمِل، حيث قال رفعت باشا:

"ولما كانت ليلةُ الثامن من ذي الحجّة وبتمام الساعة الحادية عشرة -حسب التوقيت العربي- تحرّكَ موكبُ المحمِلِ من معسكرِه بمكّة المكرمة ميمّمًا أرضَ عرفة...

وقد مررْنا بالبيتِ الشريفِ الذي شيّده "محمّد علي باشا" جدّ الأسرة الخديويّة وهناك وقفَ الركبُ وصدحت الموسيقى بالسلامِ الملكيّ وهتفَ الجميعُ "بَادِشَاهِمِزْ جُوقْ يَشَا (Padişahımız çok yaşa!)" (أي: يحيا السلطان!)"[٢٤].

وقد تبيّنَ أنّ الركبَ قد ذهبَ أوّلًا إلى "المزدلفةِ" ثمّ إلى "عرفات"، وحين وصل إلى "عرفة" نزلَ الركبُ في محلّه المعدِّ له سنويًّا.

وقبل المغربِ بساعةٍ من يوم عرفةَ حدثَ لقاءٌ مهمٌّ على جبلِ عرفات، إذ اجتمعَ مَحْمِلَا الدولةِ العثمانيّة: "المحمِلُ المصري" الذي خرج من القاهرة وفيه "إبراهيم باشا" و"المحمِلُ الشاميّ" الذي خرج من "إسطنبول" ووقَفَا بجوارِ بعضِهما البعض، فالمكانُ الذي شهدَ لقاءَ سيّدنا آدم عليه السلام وأمّنا حوّاء، شهدَ أيضًا لقاءَ المحمِل

المصريّ والمحمِل الشاميّ كلّ سنةٍ، وعلى عرفات ترى المحمِل المصري على يسارِ المحمِل الشامي، يتقدّمهما أميراهما وأمين الصُّرّة والجندُ يحيطون بهما، يسمعان خطبةَ الخطيبِ، وكلما سكتَ الخطيب رفع الآلافُ عقائرَهم بالدعاءِ والتلبيةِ، وعقبَ انتهاءِ الخطبةِ أشعلَ أحدُ رجالِ المدفعيّة من المحمِلَين شُهُبًا أشبه ما تكون بالألعاب النارية في عصرنا إيذانًا بالانصراف من الموقفِ فأفاضَ الناسُ مهلّلين ومكبّرين.

ورحل المحمِلان، المصريّ في ميمنةِ الشاميّ إلى "المزدلفة"، وقضيا الليل في "المزدلفة" ومن هناك ارتحلَ المحمِلان إلى "منى" قُبَيلَ طلوع الشمس في منتصف الساعةِ الأولى من صباح يومِ عيد الأضحى المبارك من سنة (١٣١٨هـ)...

تلاوة الفرمان السلطاني

"في يوم الحادي عشر من ذي الحجّة ونحن بـ"منى" أُقيم احتفالٌ بتلاوةِ الفرمان السلطانيّ العثمانيّ، ودعا الشريفُ لذلك أميرَي المحمِلَين المصريّ والشاميّ وأمين الصُّرّة والضبّاط وكبارُ رجال الدولة والحجّاج، وكان الاحتفالُ بسرادق الشريف الذي اصطفّ أمامه حرسُ الشريفِ والوالي بموسيقاهم وكانت الفرقة الموسيقية في محملنا تُشاركهم، وانتشرت الجموع الكثيرة من الحجاج المختلفي الأجناس حول السرادق وكان يتقدّم الحرس على جوادٍ حاملُ الفرمان السلطانيّ وآخرون يحملون خلعًا قد اعتيدَ حضورها من الأسِتانة سنويًّا"[٢٥].

ويشرح "إبراهيم رفعت باشا" احتفالات المحمِل التي تمّت في السرادق والتي شارك فيها أمير مكّة المكرّمة كما يلي:

"...خرج عليهم الشريف في زينتِه من مكانٍ خاصٍ به وحوله بعضُ خواصّه من الأشراف، فقام الجميعُ وقبلوا يدَه... ثم تقدّم إلى الأمامِ وتسلّم الفرمان السلطانيّ من يد حامله وقبله -وكان داخلَ كيسٍ من الأطلسِ الجميلِ وقد غُلّف بالحرير الأطلس الأخضر الملفّح بالقصب المنسوج ذي الرسوم البديعة- ثم رجعَ إلى محلّه وجلسَ على أريكةٍ وسطَ السرادق، ووضع الفرمان عن يمينه، ثم لم يلبث أن وقفَ هو والحضور وأمرَ بتلاوةِ الفرمان، فتلاه كاتبه الخاصّ "محمد علي أفندي"، تلا أوّلًا صورتَه التركية، ثم تلا ثانيًا صورته العربية ولكنّه أسرعَ في تلاوته بالعربية بعد أن أمره الشريف بذلك، وبعد التلاوة صدحَت الموسيقى السلطانية بالسلام الملكي، وكذلك هتفَ العساكرُ والجموعُ بالدعاء للخليفة الأعظم، ثم تقدّم أمين الصُّرّة الشاميّ بخلعة للشريفِ وألبسهُ إيّاها فوق الخلعة التي يلبسها من قبلُ

وهي التي أُهدِيَت له العام الماضي -وهذه عادةٌ سنويّةٌ- ثم قدّم له خلعةً أخرى من قِبل جلالةِ السلطان فلبسها أيضًا وكانت صغيرةً خفيفةً من الجوخِ الأسود ومطوّقةً بالقصب، وكان سموُّ الشريف يقبلُ كلَّ خلعةٍ جديدةٍ، وكان على رأسه عمامةٌ عليها أشرطةٌ من القصب الجميل، ثم وُزِّعَت خِلَعٌ أخرى على بعضِ الموظّفين وقارئِ الفرمان وغيرهم، ولِثِقَلِ الخِلَعِ الثلاث كان يرفعُ الخلعتَين الجديدَتَين شخصان تخفيفًا عن الشريف، ثم أُديرَت كؤوسُ المشروبات الحلوة على الحاضرين والموسيقى المصريّة والسلطانية يتناوبان إمتاع الآذان بالألحان وكذلك أخذ جماعة من أهل مكّة المكرمة يسمّون "أهل النوبة" يضربون على الدفّ والمزاهر ومعهم آلاتٌ أشبه بالرباب يغنّون بالتزامن مع ألحانها الأناشيد العربيّةَ الجميلةَ، فكانت الوجوهُ فرِحَةً مستبشرةً، ثم قبّل الجميعُ يدَ الشريف، ومنهم مَنْ قبّلَ مع ذلك طرف السترةِ وانصرفوا، وإذ ذاك نزعَ الشريفُ الخلعتَين عن جسمِه وغُلِّفَت كل واحدة منهما بالغلاف الحريريّ المخصّص لها والمرسلِ معها من إسطنبول، وهكذا في كل عام تجدّد الخلعتان والفرمانان العربي والتركي"[٢٦].

عيد الأضحى

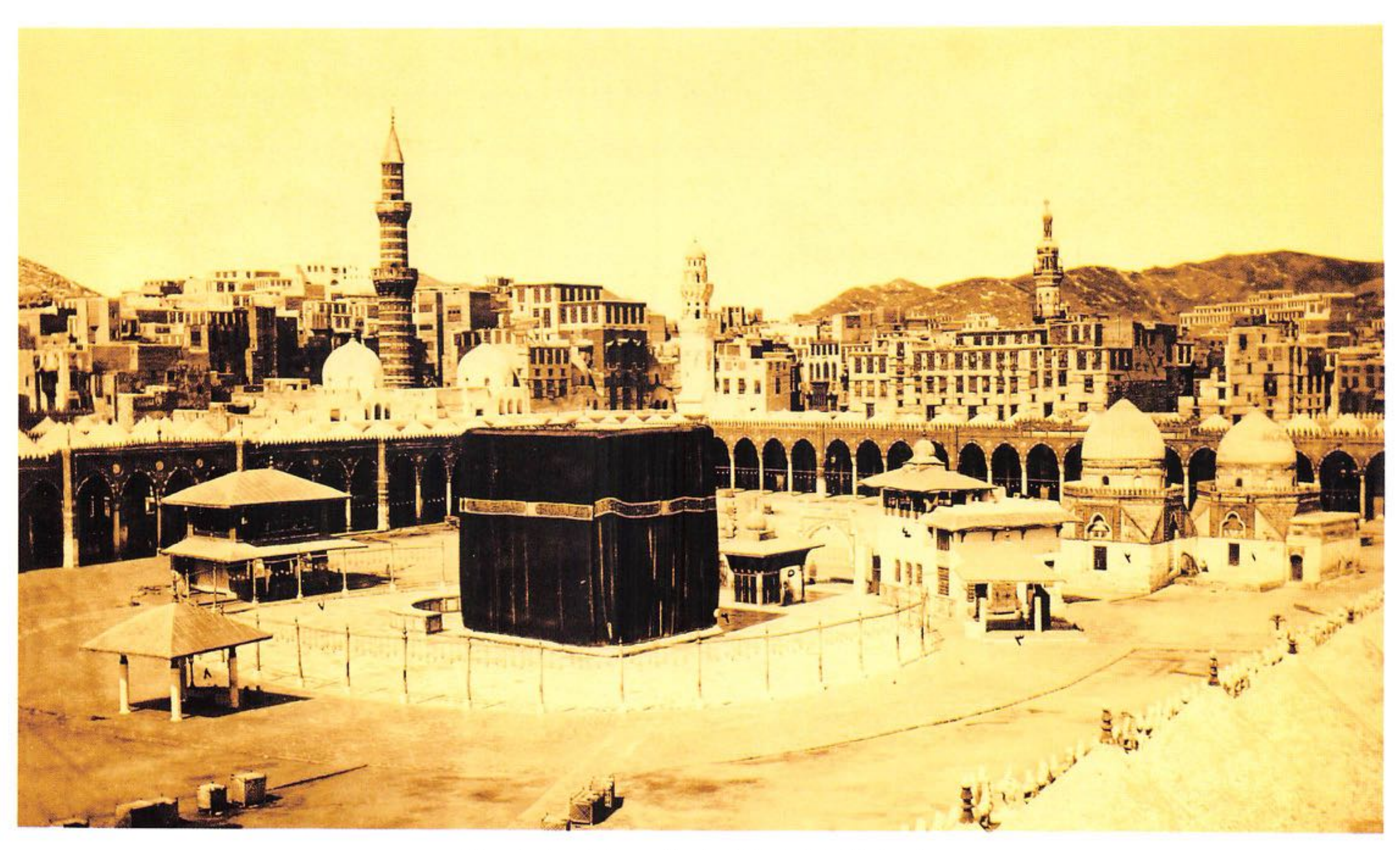
ولقد ورد في "**مرآة الحرمين الشريفين**" ذِكْرُ معايدة إداريّي المحمِلَين في "منى" على بعضهم البعض كما يلي:

"وكذلك فلقد زارنا في السرادق أميرُ المحمِل الشاميّ وأمينُه، فاحتفينا بهما وأطلقْنا لقدومهما أحد عشر طلقةً مدفعيةً وقد جاءا بملابسهما الرسمية وبالأوسمة العثمانية من الدرجة الأولى، وبعد تناولِ القهوة والشاي عادا بسلامٍ شاكرين حسنَ اللقاء ودماثةَ الأخلاق"[٢٧].

إلباسُ الكعبة الكسوةَ الجديدة

رجعت الصُّرّة المصريّة إلى مكّة المكرّمة في الثاني عشر من ذي الحجة عام (١٣١٨هـ)، وطبقًا للعادات فقد دخلوا إلى المسجد الحرام من باب النبي[٢٨] ووضعوا الصرة في داخل الحرم، ووفقًا لما ورد في الرحلة فإن كسوة الكعبة التي أحضرها المحمِل المصري إلى مكة المكرمة تُسلَّمُ في مراسمِ احتفالٍ رسميّ إلى "الشيبي" الذي يُعَدُّ حارسَ الكعبة، ويحضر هذه المراسمَ كبارُ العلماء، والمعلومات المذكورة في الرحلة عمّا حدثَ للكسوة بعد ذلك أمرٌ مثيرٌ للعجب:

"يتم الحفاظُ على كسوةِ الكعبة في منزلٍ بجانب "الصفا"، ويتم تغطيةُ الكعبةِ بها صباحَ يوم العيد عندما يكون الحجيجُ في منى...



منظر عام للكعبة المشرّفة [ألبومات يِلدِز ٩٠٧٤٤-٢ - جامعة إسطنبول]

وبعد ذلك يضعون حزامًا أسفلَ الثلث العلوي من الكعبة، أما بالنسبة للكسوة القديمة فيُرسَلُ القسم المقصّب (المزين بالفضة) إلى الشريف، ويأخُذُ القسمَ الآخرَ غيرَ المقصّب الشيخُ الشيبيّ ويبيعُهُ للحجّاج، وهناك حوانيتُ مختصةٌ في بيع كسوةِ الكعبةِ بجوارِ بابِ السلام، وكان سيّدنا عمر ﷺ يُخْرِجُ الكسوة القديمة ويوزّعها على الحجّاج، وتبعهُ في ذلك سيّدنا عثمان ﷺ، حتى إنهم رأوا جزءًا من الكسوةِ على امرأةٍ حائض، ما دفع الخليفةَ عثمان ﷺ إلى أن يأمر بعد ذلك بحَفْرِ حفرةٍ لدفنِ الكسوة القديمة مطلقًا حتى لا يلبسها جُنُبٌ أو حائض، ثم قالت له السيدة عائشة ﷺ: إن ارتداء الحائض ثوب الكعبة القديم لن يضيره في شيء فبِعْهُ وأخرِجْ ماله على المسافرين في سبيل الله تعالى"[٢٩].

ويُتْرَكُ بعضُ الجند للحفاظ على المحمِل، وبعد أن جاءتِ الأوامر التركيّة بوجوب ذهاب المحمِل الذي بقيَ في مكّة المكرّمة أحدَ عشر يومًا؛ بدأ المحمِل بالسفرِ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنورة في الثالث والعشرين من ذي الحجّة.

وداعُ مكة

يذكرُ المؤلّفُ أنّه عندَ خروجِ المحمِلان من مكّة المكرمة وجدا أمامهما الجندَ العثمانيّ قد تركوا ثكناتِهم واصطفّوا في صفّين مواجِهين لبعضهم البعض أمام "باب علي":

"وجدنا العساكر العثمانيّة وقد اصطفّت أمامَ بابِ عليّ ﷺ وجهًا لوجه، وبعدما ألْبَس الحراسُ محمِلَنا الكسوةَ المزيّنة بالفضّةِ اصطفُّوا أمامَه بجوار المسجد، كما اصطفَّ أيضًا الموظّفون الموجودون في مكّة المكرمة مرتدين الملابس الرسميّة والأوسمة، وبعد ذلك جاء سموّ الوالي مع حراسِه، ووقفَ بين الجمعِ وأمسك "عبد الرحمن باشا" أميرُ المحمِل الشاميّ عقالَ بعيرِه وسلّمه للوالي، ودار الوالي بالمحمِل خمسَ دوراتٍ ثمّ قبَلَ العقال وسلّمه لأميرِ المحمِل، ثم بعد ذلك سلّم أميرُ المحمِل المصريّ عقالَ محمِله للوالي أيضًا، فدار به الوالي خمسَ مرّات كما فعل سالفًا ثمّ سلّم العقال لأمير المحمِل، وصدحتِ الموسيقى بالسلام للملك، ثم ألقى الشيخُ الشنقيطيُّ خطبةً، وفي ختام خطبتِهِ دعا لحضرةِ السلطانِ صاحبِ العظَمةِ ولسموّ الشريفِ والوالي ولجناب الخديوي في النهاية، وبعد ذلك تبِعَ المحمِلان قائديهما وذهبا إلى مكانيهما في الثكنة"(٣٠).

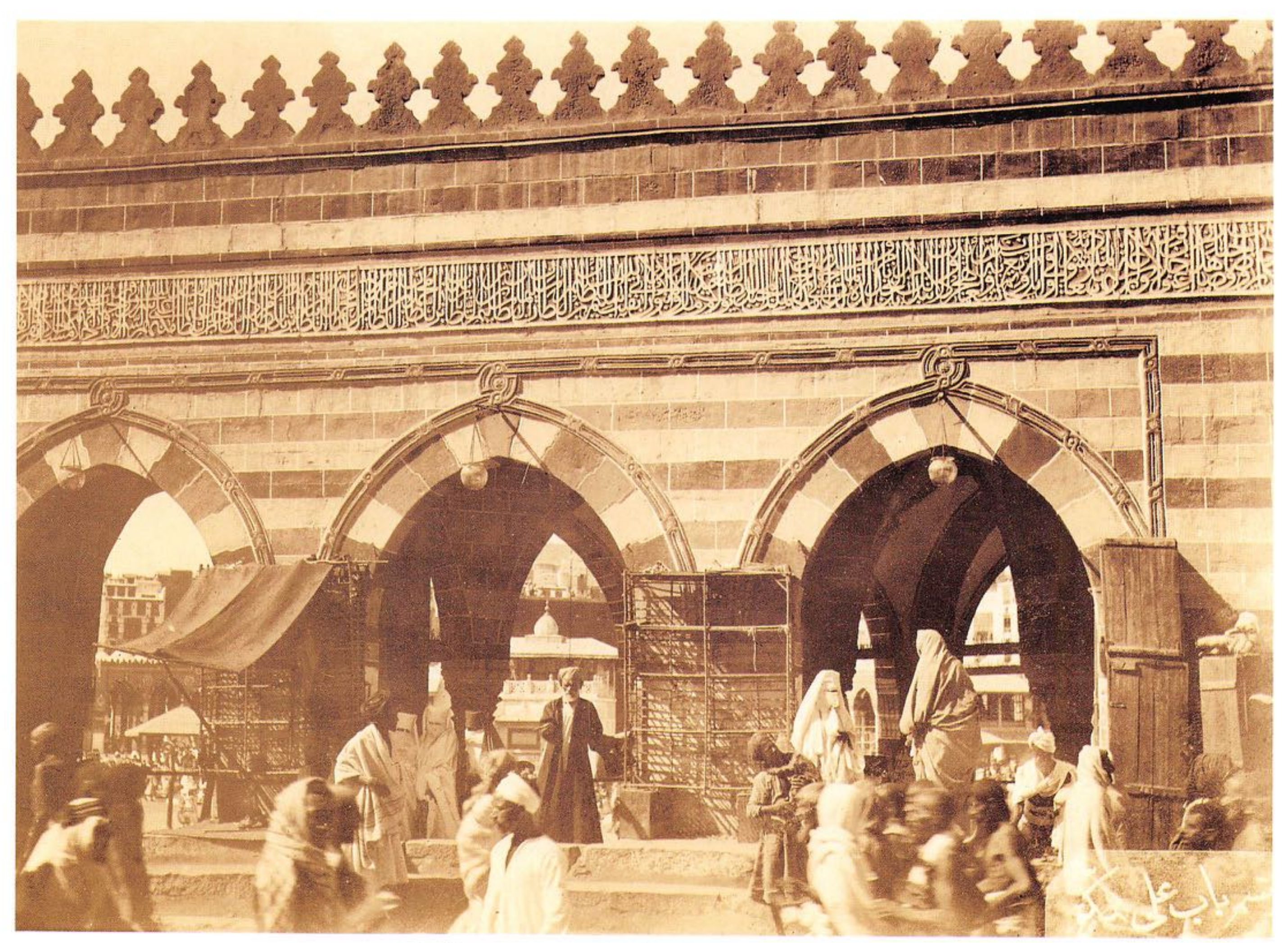
ويُفْهَمُ من المذكّرات أن المحمِل قد مرّ على غار "حراء" وغار "ثور".

وتحدث "إبراهيم رفعت باشا" في مذكّراته عن بعضِ الأمور السلبيّة الخاصّة بالصُّرّة كطلبِ بعضِ الوسطاءِ التزويرَ في الأوراقِ الخاصّة بتأجيرِ الدوابّ، وأخذِ بعضِ البدوِ الصُّرّةَ مكانَ آخرين خُصِّصَتْ لهم الصرّة، وإعطاءِ النقودِ للابنِ العاصي مكانَ أبيه الذي كانَ مكلّفًا بحماية الصرّة، ويُحتمَل أن تكون هناك استثناءاتٌ حدثت على مرّ السنين.

إن "إبراهيم رفعت باشا" -الذي أوضحَ الطريقَ الذي اتّبعه في الذهابِ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة- بيّنَ أنهُ وصلَ إلى أوّل منزلٍ على الطريق بعد ما سارَ ستَّ ساعاتٍ، وهو "بئرُ برود" وقال:

"عندما وصلْنا إلى بئرِ برود وجدْنا المحمِل الشاميّ قد وصلَ إليه قبلَنا".

مبيّنًا أنّ المحمِلَين قد التقيَا على الطريق أيضًا، ولقد وصل المحمِل المصريُّ إلى المدينة المنوّرة متّخذًا طريقًا مرّ فيه على "وادي فاطمة" و"وادي لَيْمُون" و"ضُريبه" و"بكره" و"حداب" و"سفيانه" و"غرابه" و"حجريه" و"غادر".



"باب علي" المؤدي إلى الكعبة المشرّفة [مجموعة "يوسف جاغلار"]

إلا أن القافلة صادفت الكثيرَ من الحجيج الذين صحِبوا المحمِل الشامي وتخلفوا عنه لأنه كان يتقدّم بسرعة، مما جعلهم يبقون في الطريق بلا طعام أو شراب، فحملوهم مع القافلة بموجب أخوّة الإسلام، ولكن لما تجاوزَ عددهم أربعين طُلِبَ لهم المساعدةُ من الأمير، وبدعمٍ من أميرِ مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة تمّ تأجيرُ دوابَّ جديدة لهم، وتمّ نقلُ الحجيج الذين تخلّفوا في الطريق إلى المدينة المنورة، وأوضحَ "الباشا" أنّ عددَ مَنْ تخلّفوا في هذه الرحلة قد وصلَ إلى خمسةٍ وثمانين، حتى إنّهم وجدوا ميتًا في الطريق فكفّنوه ودفنوه.

ويؤكِّدُ الباشا على سرعةِ سيرِ المحمِل الشاميّ، وقد أوضح أن مَوت أكثر من مائة ناقةٍ في المحمِل الشاميّ مرجعُه هو السيرُ بسرعة.

الوصولُ إلى المدينةِ المنوّرة

كان أوّلُ عملٍ للقافلةِ المصريّة التي وصَلَت المدينةَ المنوّرة هو الاغتسالُ وتغييرُ الثياب ثمَّ التوجُّهُ لزيارةِ قبرِ الرسول ﷺ وسيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ﵄، ثمّ ذهبوا من هناك إلى مقابر جبانةِ البقيع، وفي هذا المساء أعدّ لهم محافظُ المدينة المنوّرة مأدبةً خاصّةً، وبعد تلك الوليمةِ والمراسمِ صدحت الموسيقى بالسلام السلطانيّ، وصاحوا باسمِ السلطانِ ثلاثَ مرّاتٍ، ثمّ انتهت الوليمةُ واختُتِمَت الجلسةُ بأحاديث عربيّة وتركيّة.

دخول المحمِل إلى المسجدِ النبويّ

في اليوم التالي كان أهمُّ عملٍ للقافلةِ المصريّة هو دخولُ المحمِل المصريّ إلى المسجدِ النبويّ، فإبراهيم باشا -الذي بيّن أنّه قد وُضِعَ على المحمِل القماشُ المقصّب- شرح أنّه قد ذهبَ في مقدّمة القافلة أميرُ المحمِل وأمين الصُرّة وفرقةٌ من العساكر السلطانيّة والضبّاط في صحبةِ الموسيقى، وعند الوصول إلى باب مصرَ نزلَ الراكبون من على دوابّهم احترامًا للرسول ﷺ، وتقدّموا رويدًا رويدًا إلى أن وصلوا إلى بابِ السلام الكائن في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من المسجد النبويّ، ويقول:

> *"عندما وصلْنا إلى هذا البابِ رأينا "عثمان" -شيخَ المسجدِ النبويّ- في انتظارِنا، فأخذَ عقالَ الدابّة من يدِ الأميرِ وأناخَها، وأدخلْنا المحمِلَ إلى المسجد، وطبقًا للعادة السنويّة وضعْنا المحمِلَ بجوارِ منبرِ الرسول ﷺ، وفكَكْنا كسوةَ المحمِل وحوّلناها إلى قِطَعٍ متعدّدة، ووُضِعَت في الوسط بين الحضورِ في الحفل، وكان الهدفُ من هذا أن تزورَ الكسوةُ قبرَ النبي محمد ﷺ وأن يرى الجميعُ تقسيمها وأن يأخُذَ كلُّ موظّفٍ منها قطعةً، وفعلًا فقد أخذَ كلٌّ منّا قطعةً، وأخذَ المحافظُ وأميرُ الحجّ العلَم،-أقصدُ العلَم الكبير- وذهب الجميعُ إلى الحجرةِ النبويّة في مقدّمتهم المحافظُ وأميرُ الحجّ، ولَبِس الجميعُ لباسًا أبيض ووَضعوا على رؤوسهم العمائم، ولما رآنا الناس هناك أتوا وشاركونا في حملِ ما نحملُهُ، ودخلنا المقصورة ودعينا بها، وكان لي نصيبٌ أن أدخلَ هناك مرّتين مع "آغا الخصي" لإشعالِ المصابيح فيها".*

وأثناءَ وجودِ المحمِل في المسجد النبويّ يذهبُ "إبراهيم رفعت باشا" لزيارةِ مقبرةِ شهداءِ "أُحُد"، ثم يزورُ قبرَ ومسجدَ سيّدنا "حمزة"، ويزورُ الأماكنَ الأخرى:

> *"بعد دخولِ المسجدِ النبويّ -في صباحِ يوم السبت الخامس والعشرين من محرّم عام (١٣١٩هـ) الموافق للرابع من أيار/مايو عام (١٩٠١م)- أجرينا مراسم إخراج الكسوة، فاجتمعْنا في المسجد النبويّ وأخرجْنا الكسوةَ من القِسْمِ النحاسيّ كما أدخلناها، ووضعناها على المحمِل الذي تحملُه الدابّةُ،*



طواف المحمل المصري في شوارع القاهرة وسط بهجة عظيمة [أرشيف "يوسف جاغلاز"]

واصطفَّ جندُ السلطانِ وجندُ مصرَ في صفوفٍ خارجَ "باب السلام"، وصدحت فرقتا الموسيقى التابعة للمحمِلين بالألحان المختلفة، وخرجنا بصحبةِ الألحان الموسيقية من "باب عنبريّة"، ووضعنا المحمِل هناك في معسكرنا أمام السرادقِ الكبير الخاصّ بالأمير، ثم شَرَّفَنا بالزيارةِ في المعسكرِ سعادةُ "عثمان باشا" -الذي كان يشغل منصبَ شيخِ المسجد ووالي المدينة- فرحّبنا به أشدّ ترحيبٍ، واصطفَّ الجنودُ صفّين عن اليمين واليسار من "باب عنبرية" حتى السرادق الكبيرِ الخاصّ بالأمير، وعندما وصل قدّم له الجندُ التحيّة وأطلقوا إحدى وعشرين طلقةً مدفعيةً، وانتظرتُ بجوارِه أنا والأمين وضابطُ المحافظ وموظّفو المحمل، وظلّ جانبنا عشرين دقيقةً ثم انصرفَ مع قيامِ الجندِ بأداء التحيّةِ العسكرية أثناء ذهابه مجدّدًا"[٣١].

يشرح "إبراهيم رفعت باشا" في الأقسامِ التاليةِ من رحلته بعضَ التفاصيل الخاصّة بالمدينة أثناءَ حديثهِ عن رحلتِهِ مع القافلةِ سنة (١٩٠٧م) والتي لم يشرحْها في هذا القسم مِن قَبل، فيقول:

"زارنا قائم مقام المدينةِ الفريق "عثمان فريد باشا"، وسلّمتُ له خطاب الخديوي المكتوب بالتركية وأخبرت القائم مقام عن الهجوم الذي قام به العربانُ علينا ونحن في الطريق، وأعطيت له خطابات التوصيةِ المرسلةِ من شريفِ مكّة المكرمة وواليها بخصوص دعمنا في الرحلة والسيرِ من الطريقِ السلطانيّ، وأخبرته أنني مستعدٌّ لدفع مكافآت مناسبة حتى يُرضي العرب المحليين، فاعتذرَ سعادةُ القائم مقام موضّحًا أنه لن يتمكّن من إرسالِ الجندِ السلطانيّ مع المحمِل لانشغالهم بشؤون خطّ سكّةِ حديدِ الحجاز..."(٣٢).

ويفهم من هذا الكلام أنّ أعمالَ مدِّ خطِّ السكةِ الحديدِ قد اقتربت من المدينة إلى حدٍّ ما، وذكر "إبراهيم رفعت باشا" في هذا الجزءِ مصاريفَ الرحلةِ التي لم يذكرها في الرحلات الأخرى:

"في يوم الثلاثاء السادس عشر من محرّم تمّت مراسمُ دخولِ المحمِلِ إلى المسجدِ النبويّ والمقصورة، وبدأْنا في دفع المخصّصات لأصحابها، واستمرّ صرفُ المخصّصات حتى مراسمِ خروجِ المحمِلِ من المسجد النبوي في العشرين من شهر محرم"(٣٣).

من المدينة المنوّرة إلى القاهرة

يُفهَم أن عادةَ تنظيمِ حفلٍ قبل مغادرةِ المحمِل المصريّ المدينةَ قد بدأتْ عندما كان "إبراهيم رفعت باشا" قائدًا لحرس الصرّة، إذ يقول:

"لقد عمِلنا هذا العيدَ يومَ الأحدِ الموافق للثالث والعشرين من محرم (١٣١٩هـ) والموافق للثاني عشر من أيار/مايو عام (١٩٠١م)، وجاء الأهالي سعيًا لمشاهدة الجندِ والضبّاط العثمانيّين، وأحيينا هذه الليلة بتلاوةِ المولِدِ النبويّ، وقد تلاه واحدٌ من جندِ الحراسةِ، وكان يتلو المولدَ بطريقة جيّدة، وكان يجوّد القرآن تجويدًا جميلًا ويعرف القراءات، وقد كان الزحامُ شديدًا لدرجة أنّه تم إحضارُ كلِّ الكراسي الخاصّةِ بالأمير والأمين وفرَشْنا كلّ السجّاد والكلِيم الذي كان معنا، وحضرَ الحفلَ عددٌ كبيرٌ من الأكابر، قدّمنا المشروبَ الحلوَ والشايَ طبقًا لما هو معتاد في مثل هذه الاحتفالات، ووزّعْنا الطعامَ ملفوفًا في الأوراق طبقًا لعادةِ أهلِ المدينةِ والحجازِ، وقد استمرَّ الحفلُ حتى الساعةِ السادسةِ بعد المغرب"(٣٤).

لم يكن حفلُ مغادرةِ المدينةِ هو الحفلُ الوحيدُ الذي نظَّمَه المحمِل المصريّ، فقد نظّم المحمِل احتفالاتٍ مثله في الأماكن المختلفةِ التي مرّ عليها، ويُفْهَم أن هذه الاحتفالات قد تمّت بعد مراسلةِ نظارةِ الداخليّة

وموافقتها، وبعد أن تكفّلت نظارة الحربية بكل المصروفات اللازمة لذلك، ثمّ غادرت القافلة المدينة يوم الإثنين الرابع والعشرين من محرم (١٣١٩هـ) الموافق للثالث عشر من أيار/مايو (١٩٠١م)، بعدما ظلت فيها تسعة أيام.

إن القافلةَ التي خرجت من المدينة قد مرّت بالترتيب على "بئر رومه" و"بئر ذو عين" و"ملاليح"، و"قصر عبله" و"آبارِ حلوة" و"آبارِ حفائرَ" و"فقيره" و"عقله" و"مطر" و"خوتله" ووصلت إلى "وجه" الموجودة على الشاطئ، وبين ما بعد ذلك قائلًا:

"لما وصلنا إلى وجه جاءت باخرةُ "نُجَيلة" التي ستنقلنا إلى "السويس"، وركبت حيوانات المحمِل الباخرةَ في حفلٍ خاصّ"[٣٥].

ويُفهَم أن الرحلة بعد ذلك قد استمرت عن طريق البحر.

تصلُ قافلةُ المحمِل من "وجه" إلى "الطور"، وطبقًا للتدابير الصحّيّة المتّبعة هناك ضدّ الأمراض المعدية يدخُل الجميع الحجرَ الصحيَّ، ويتمّ تطهيرُ المتاعِ كلّه، ولقد سعِد "الباشا" من الاهتمامِ الذي وجده في هذا المكان، حيث قال:

"لقد قام مديرُ مكتب الحجر الصحي بعملِ احتفالٍ في آخر ليلة قضيناها في الحجر الصحي، وانضمّ إلى هذا الحفل كلّ موظفي المحمِل وابن سلطان "مكلة" بدلًا من أبيه والقساوسة والرهبانُ وطلابهم والمواطنون الموجودون هناك وكلُّ الموظفين الأجانب، وقد سَعِدَ القادمون بسماعهم الموسيقى التي صدحت بها فرقة المحمِل"[٣٦].

ويُفْهَمُ من هذا أن غيرَ المسلمين قد اهتمُّوا أيضًا بقافلةِ المحمِل.

عايَنَ دكتور الحجر الصحي السفينةَ القادمةَ من الطُّور إلى السويس قبل رسوِّها على الشاطئِ ولم يسمحْ لها بالاقتراب من الشاطئ حتى تمّ التأكُّد من خلوّها من الأمراض، ولقد تقرّرت الساعةُ التي ستجرى فيها مراسِمُ الاستقبال، وسوف تُعادُ هذه المراسم -بالشكل نفسه- بالضبط حين مغادرة "السويس".

والمحمِل المصريّ يستخدم خطَّ السكّة الحديدِ للذهابِ من "السويس" إلى "القاهرة":

"ركِبنا في القطارِ من "السويس" يوم الإثنين الموافق للسادس عشر من صفَر عام (١٣١٩هـ) والموافق للرابع من حزيران/يونيو (١٩٠١م) الساعة الثانيةَ عشرَة ونصف، ووصلنا إلى القاهرة في نفس اليوم



عودة المحمل المصري إلى القاهرة [مجموعة "يوسف جاغلار"]

في الساعة السابعة وخمسٍ وأربعين دقيقة وبعد نزولِ الحجيجِ من القِطارِ نُقِلَ المحمِلُ إلى "العبّاسيّة"، وحملَتْه العربات إلى المعسكر، وحُمِلَ المحمِلِ على الجملِ في تمام الساعة الحادية عشرة حسب التوقيت العربي، وكان حوله الحرسُ والموسيقى، ونُقِلَ من الخمس سريات بطريق العباسية إلى المعسكر، وتزاحمَ الناسُ لرؤيتِهِ، وفي التاسع عشر من شهر صفر تمّ عملُ المراسمِ المعتادةِ في ميدان "محمد علي" في القلعةِ، ثم تحرك المحمِلِ وحوله الحرسُ وفرقةٌ عسكريّةٌ إلى طريق "صليبه" ثم ذهب إلى "السيدة زينب" و"الناصرية" إلى أن ذهبَ إلى المالية، وفي النهاية وُضِعَ المحمِلِ في مكانه، وعاد الحرسُ إلى العبّاسيّة وظلُّوا هناك حتى تمّ تسليمُ المهمّات، وبعد ذلك تشتّتَ المعسكر، وأُعْطِيَ لكلّ الجنودِ -حتى لِمَنْ لا يستحقُّ منهم- إجازة حرّة حتى يسعدوا ويفرحوا، والحمد لله الذي وفّقَنا"[٣٧].

وكما قلنا قبل ذلك فإن "إبراهيم رفعت باشا" الذي ذهبَ مع المحمِل بصفته قائدَ حرسِ المحمِل سنة (١٩٠١م) قد ذهبَ بعد ذلك ثلاث رحلاتٍ بصفتِهِ أمير الحجّ، والقرارات المتعلّقة بالمحمل والحجّ التي أخذها في مجلس الوزراء المصريّ تستحِقُّ أن تُذكَر، وذلك في الثاني والعشرين من شعبان لعام (١٣١٩هـ) الموافق للأول من شباط/فبراير (١٩٠٢م):

"فبموجِبِ قرارِ رئاسةِ الوزراءِ أُجبِر كلّ من أراد الحجّ من المصريّين على الذهاب مع قافلة الحجّ المصريّة، فيكون تحتَ رعاية أميرِ الحجّ وحمايةِ حرسِهِ، وعندما يمرضُ أحدُهم سيجدُ الطبيبَ بجانبِهِ وفي يدِهِ العلاج، وهكذا تمّت الحمايةُ من تكرارِ نقلِ الوباءِ الذي حمَلَهُ الحجيج من الحجاز إلى مصر في العامِ الماضي، ولقد قرّرَ المجلسُ أن يكونَ طريقُ المحمِلِ والحجيج في الذهاب هو "السويس" و"مكّة المكرّمة" مستخدمين طريقَ "عرفات" ومن هناك يتمّ الرجوع إلى "جدّة"، والذهاب إلى "ينبع" عن طريق البحر وأن يذهبوا إلى المدينة بالطريق البرّي وفي العودة يكونُ الطريقُ من "المدينةِ" إلى "ينبع" ومن هناك إلى "الطور" و"السويس"، كما قرّر المجلسُ بأن يدفعَ كلُّ حاجّ في الدرجة الأولى سبعين جنيهًا من الذهب وأن يكون بجوارِهِ على الأكثر خمسةُ جِمَال، أما حاجُّ الدرجةِ الثانية يدفع خمسين جنيهًا ويكون معه جملين على الأكثر، وبناءً على المنشور الذي أُعلِن في السادس من ديسمبر عام (١٩٠٢م) والموافق للسادس من رمضان عام (١٣٢٠هـ) سيكون هذا القدر من النقود تأمينًا عند الحكومةِ وسيُسَدّدُ منه أجرُ الخدمةِ الصحّيّة والنقل البرّي والبحريّ ومن دفع زيادة سيُسَلَّم له ما تبقّى من ماله، ولأن مقدار هذا التأمين كان كبيرًا توقّفَ الناسُ عن الحجّ، ولم يستطِع سداد تكاليف الحجّ والسفر بهذا الشكل إلا القليل، وربما زادت الحكومةُ القيمةَ عالمةً بذلك، والسبب في هذه القرارات هو أن المحمِلَ يَستَخدِم طريق (ينبع - المدينة) منذ ثلاثٍ وأربعين سنة"[٣٨].

ويُفهَم من المراسلة التي تمّت مع نظارة الداخليّة في تلك الفترة أن قرارَ الحكومةِ المصريّة المتعلّقِ بعددِ مَنْ سيذهبُ للحج من مصر كان يصدرُ باعتمادِ "البابِ العالي"[٣٩].

يذكرُ "الباشا" تلك الملحوظةَ المتعلّقة بزيارة شريفِ مكّةَ وواليها للقافلة عند وصولِها إلى مكّة المكرّمة في عام (١٩٠٢م) ":

"قالوا عن المحمِلِ إنه قديمٌ رثٌّ، وأثناءَ إدخالِهِ الحجرةَ النبويّةَ رأى شيخُ الحرمِ المدنيّ نفسَ الرأيِ، وما قالوه صحيحٌ، لأنه لم يجدّدْ منذ اثنتي عشرة سنة، وعندما رجعت إلى مصر عرضتُ على سموّ الخديوي تجديدَ كسوةِ المحمِلِ، فأمرَ بتجديدِها وجُدِّدَتْ"[٤٠].

ولهذا يُفهَمُ أن كسوةَ المحمِلِ الشريفِ يتمُّ تغييرُها وتجديدُها بعد استخدامها مدّةً طويلةً.

مساعدات الصُّرّة المرسلةُ من مصر إلى الحجاز [٤١]

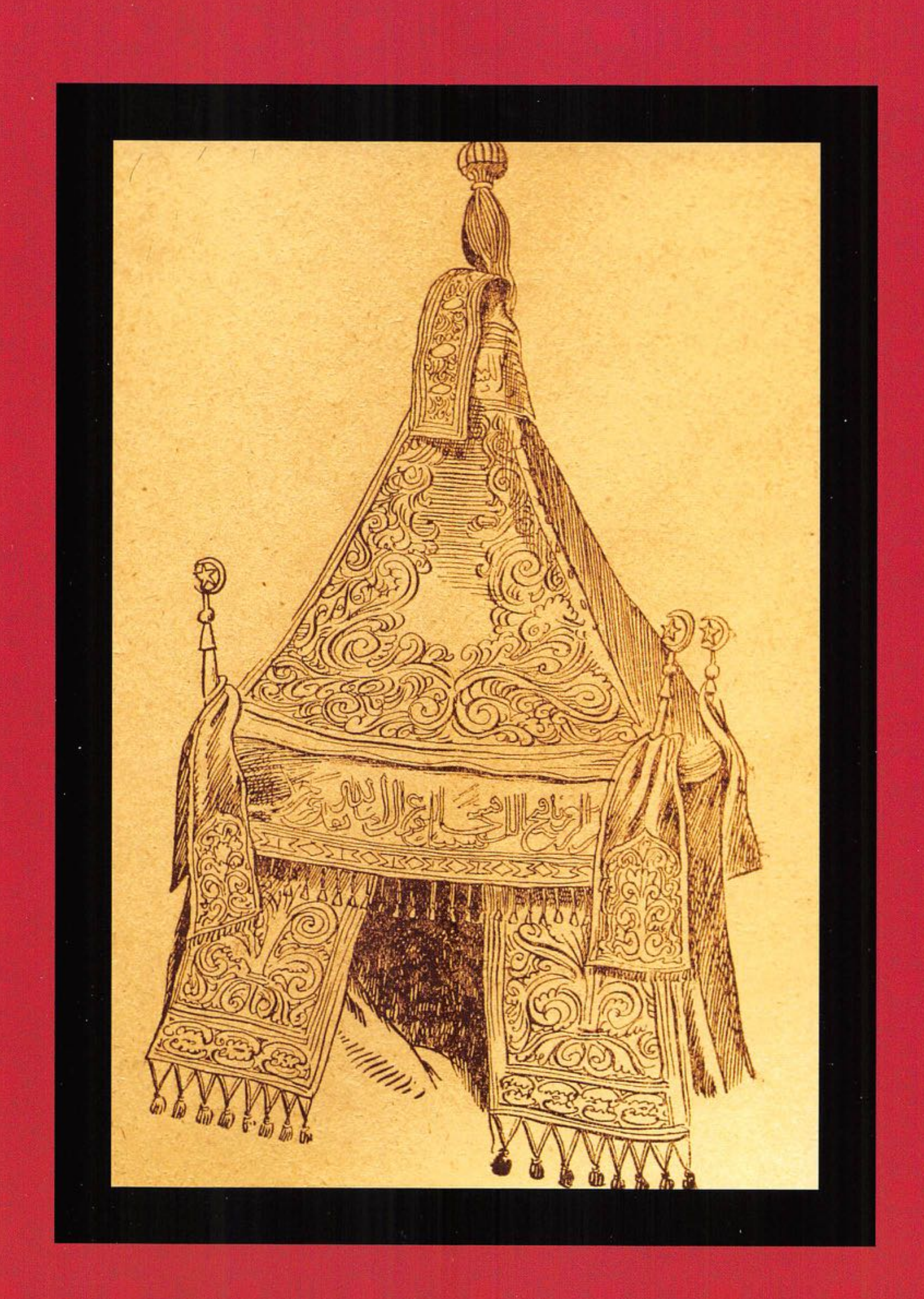
السنة الميلادية	المبلغ الإجمالي بالجنيه
١٨٨٠	٤١٩٩٣
١٨٨١	٤١٦٢٦
١٨٨٢	٤١٥٨٢
١٨٨٣	٤١٠٤٠
١٨٨٤	٤٦٩٠١
١٨٨٥	٤٤٤٥٧
١٨٨٦	٤٣٧٥١
١٨٨٧	٤٣٧٥٠
١٨٨٨	٤١٧٣٠
١٨٨٩	٤١٧٣٠
١٨٩٠	٤٧٣٧٠
١٨٩١	٤٩٤١٩
١٨٩٢	٤٩٤٧٣
١٨٩٣	٤٦٨٨٦
١٨٩٤	٤٦٨٢٦
١٨٩٥	٤٥٢٠٩
١٨٩٦	٤٥٢٦٩
١٨٩٧	٤٥٣٠٥
١٨٩٨	٤٥٢١٠
١٨٩٩	٤٥,٢٩٠
١٩٠٠	٤٥٢٩٠
١٩٠١	٤٤٧٥٩
١٩٠٢	٤٤٧٣٢

السنة الميلادية	المبلغ الإجمالي بالجنيه
١٩٠٣	٤٤٧٤٠
١٩٠٤	٤٦٠٦٦
١٩٠٥	٤٦٠٦٦
١٩٠٦	٦٠١٢٣
١٩٠٧	٥٩٥٧٥
١٩٠٨	٥٩١٩٠
١٩٠٩	٥٩١٨٤
١٩١٠	٥٩٤٩٢
١٩١١	٥٩٥٩٧
١٩١٢	٥٥٠٩٧
١٩١٣	٥٤٣٢٢
١٩١٤	٥٣٣٦٢
١٩١٥	٥٣٣٦٢
١٩١٦	٥٣٣١٠
١٩١٧	٥٣٦٢١
١٩١٨	٩٦٦٢١
١٩١٩	٩٢٩٤٦
١٩٢٠	٩٥٥٩٩
١٩٢١	٩٥٨٤٥
١٩٢٢	٧٦,١٣٢
١٩٢٣	٧٢٠٤٧
١٩٢٤	٦٩٨٥٧[٤١]



إن كتاب "**مرآةِ الحرمينِ الشريفين**" الذي يشرحُ رحلةَ الحجّ والمحمِل المصريّ التي قام بها إبراهيم رفعت باشا في سني (١٩٠١-١٩٠٢م، ١٩٠٣-١٩٠٤م، ١٩٠٧-١٩٠٨م) مؤلَّفٌ يحتوي على معلوماتٍ غزيرةٍ عن تجهيزِ قافلةِ المحمِل وتنظيمِ الحجِّ والأثر السياسي والاقتصادي لقوافل المحمِل في الحجاز والصعاب التي تمّت مواجهتُها أثناء الحج وخاصّة هجماتُ العربان على قوافلِ الحجيج، أضِف إلى ذلك اعتماده على بعض المصادر المهمّة، وذِكْرَه كثيرًا من المعلومات تاريخيّة عن المناطق التي مرّ بها.





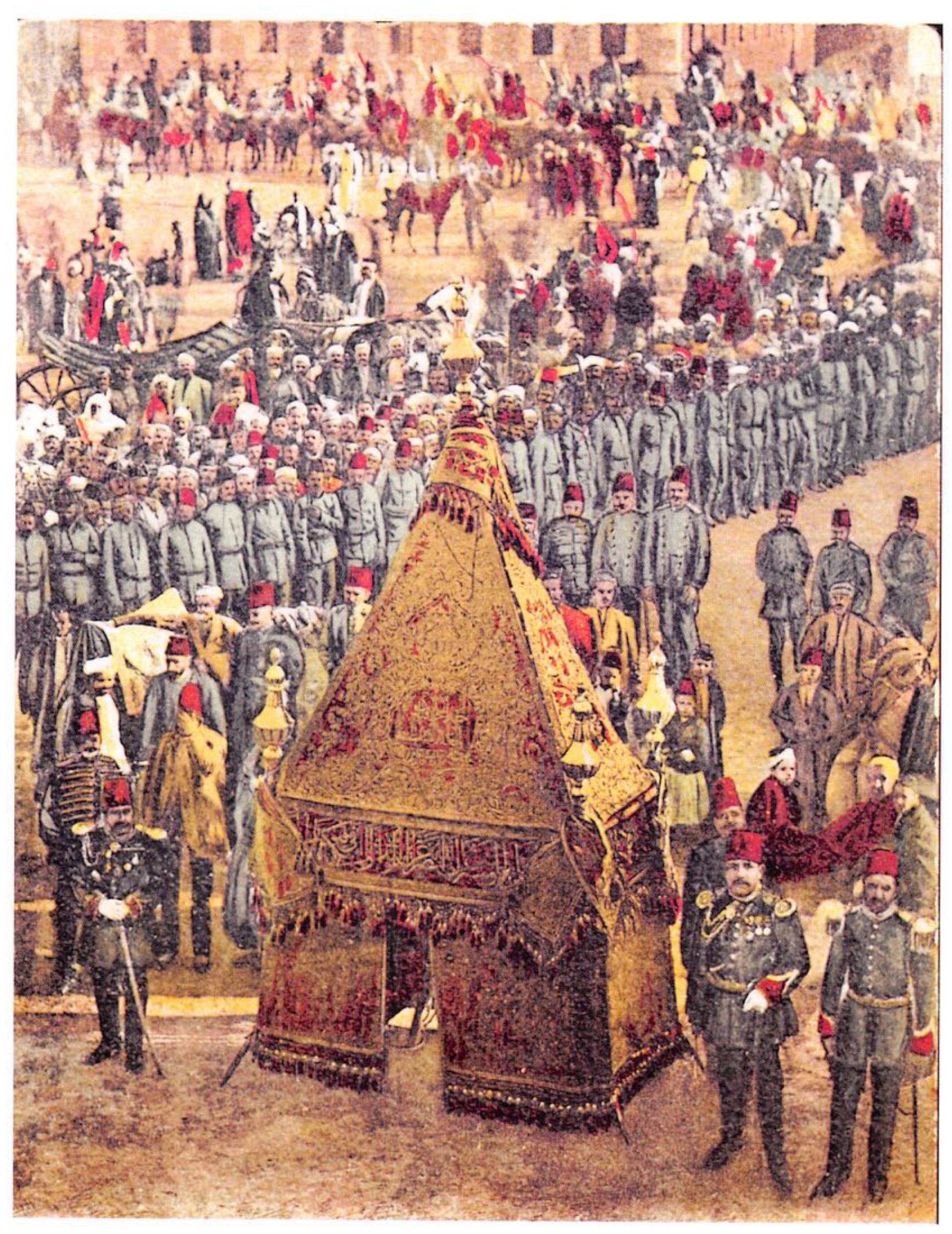
الفصل الثالث:

الكسوة المرسَلة مع المحمِل إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة



استقبال المحمل الشامي في المدينة المنوّرة عام (١٩٠٠م) [مجموعة "يوسف جاغلار"]





تحرك المحمل الشامي من دمشق الشام إلى المدينة المنورة [مجموعة "يوسف جاغلار"]

المحمِل الشريف المتّجه من القصر العثمانيّ إلى الكعبة المشرّفة

إعداد: خوليا تَزْجَان (Hülya Tezcan)[١]

ترجمة: أحمد كمال

إن من العادات القديمة جدًّا إرسالَ كسوةٍ مزركشةٍ فوقَ الجملِ الذي يسيرُ في مقدّمة موكبِ الصُّرّة وقافلة الحجّ المتّجهة إلى الكعبة المشرفة، وكان يُطلَق لقبُ "المحمِل الشريف" أو "المحفل الشريف" على الجمل الذي امتطاه النبيُّ ﷺ في أسفاره، ووفقًا لهذه العادة فقد حُمِل أهلُ بيت النبي ﷺ داخل هذا المحمِل الشريف من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، بحيثُ إن هناك منمنمات تصوّر ذلك[٢]، وقد انتشرت هذه العادة فيما بعد وتواصلت في صورةِ إرسالِ سلاطين الدول الإسلاميّة الصُّرّة والمحمِل الشريف بأبهى حلّة[٣].

كانت تُقامُ مراسم مهيبةٌ عند خروجِ الصُّرّةِ من القصرِ السلطانيّ في الدولةِ العثمانيّة، وكان لهذه المراسم المهمّة جدًّا تشريفاتٌ كبيرةٌ للغاية[٤].

واليوم فإن أكسيةَ المحمِل الشريف مسجّلةٌ في خزانة الأمانات بقصر "طُوبْ قَابِي" في إسطنبول وهي بحالةٍ جيّدة إلى حدٍّ ما، وكانت قبل ذلك محفوظةٌ في دائرة البردة النبويّة الشريفة في خزانة "سِلَاحْدَارْ" -وهي الغرفة المجاورة تمامًا للبُردة النبوية-[٥]، كما أن أكسيةَ المحمِل الشريفِ وأستارَ أبوابِ الكعبةِ وأغطيةَ الروضةِ المطهّرة مسجّلةٌ في أربعةِ دفاترَ[٦] خاصّة بخزينة الأمانات الموجودةِ في أرشيف القصرِ والمدوّن بها الأحداث التاريخيّة منذ بدايةِ القرن الثامن عشر وحتى نهايةِ القرنِ العشرين.

كان أغوات دارِ السعادة يُرسلون الصُّرّة من وقف الحرمين الشريفين التابع لدائرة النسّاخين اعتبارًا من عام (٩٩٥هـ/١٥٨٧م)[٧].

ومنذ عام (١٢٥٢هـ/١٨٣٦م) انتقلت وظيفة إرسال الصُرّة من أغوات دار السعادة إلى نظارةِ أوقاف الحرمين الشريفين[٨]، وفي الإطار ذاته توجد وثائق وأكسيةٌ خاصّةٌ بالصُرّة كذلك في أرشيف الإدارةِ العامّة للأوقاف وكذلك في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء وأرشيف قصر "طُوبْ قَابِي".

وقبل تولّي السلاطين العثمانيّين الخلافة الإسلاميّة كانت كسوةُ الكعبة تُرسَل أيضًا في عهود الأمويّين والعباسيّين والفاطميّين والأيّوبيّين والمماليك، وقد بدأ إرسالُ كسوةِ الكعبةِ برفقةِ المحمِل الشريف منذ عصر المماليك في مصر، ولقد تمّت المحافظةُ إلى الآن على كسوةٍ للمحمِل الشريف تعودُ إلى عصر السلطان المملوكي "قانصوه الغوري"، وبحسب ما يُفهَمُ من بعض الملصقات والوثائق والصور التي كانت تُعَلَّقُ على محتويات المحمِل أحيانًا؛ فإن الصُرّةَ لم تكنْ تُرسَل كلّ عامٍ من القصرِ ذاته ولم تكنْ تُسلَّم إلى المكان نفسِهِ.

وإذا ما أمعنّا النظر في كلّ الوثائق التي نمتلكها، واستقْرَأْنا رسومَها وملصقاتِها؛ نرى أن مراسم الصُرّة كانت تُجهّزُ أوّلًا في حديقة "آغا وَكِيلِي (Ağa Vekili)" في قصر "طوب قابي" -وهي اليوم حديقة متحف الآثار في إسطنبول-، وفي قصر السلطان "محمد الثالث"[٩] -وهو غير موجود الآن- الواقع شمال "القصر الخزفي"، ونُشاهِدُ في لوحةٍ تُجسّدُ مراسمَ الصرّة أن موكبَ الصُرّة كان ينطلق فيما بعد من الباحةِ الثانية -ميدان "آلاي (Alay)"- لقصر "طوب قابي" في إسطنبول،[١٠] ولدينا سجلّات تُشِيرُ إلى أنّه سُمِحَ للصرّة بالخروج من قصر ساحل "بَشِيكْتَاشْ" وقصر "جِيرَاغَانْ (Çırağan)" في القرن الثامن عشر، وأوّل هذه السجلّات مُلْصَقٌ يُخبِرُنا بعودةِ الرايةِ الخاصّة بالمحمِل الشريف عام (١١٥٩هـ/١٧٤٦م) إلى قصر "بَشِيكْتَاشْ".

ويوجد وثائق دالّة على السماح بخروج الصُرّة من قصر "جِيرَاغَانْ" عام (١٢٥٨هـ/١٨٤٢م)[١١] ومن قصر "طُوبْ قَابِي" عام (١٢٧٠هـ/١٨٥٣م)[١٢]، كما خرجت الصُرّة كذلك من قصر "يِلْدِزْ" في الأيّام الأخيرة من عمر الدولة العثمانية[١٣]، وتروي لنا "عائشة سلطان" ابنةُ السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني"، في مذكّراتها، كيف كانوا يُزَيّنُونَ المحمِل الشريف في دائرةِ الحريم بقصر "يِلْدِزْ"،[١٤] هذا إضافةً إلى أن الصُرّة خرجت كذلك من قصر "دُولْمَه بَاغْجَه"، حتى إن القصرَ كان يحتوي على غرفة للصرة، ويذكر "شَهْسُووَارْ أُوغْلُو (Şehsuvaroğlu)" أن الغرفةَ -المعروفةَ اليوم كذلك بالاسم ذاتِهِ- تقع أعلى الحديقةِ في الجناحِ الأيسرِ عند الدخول إلى قاعة الاستقبالات وأنه كان يجري تجهيزُ هدايا الصُرّة وأكياسها في هذه الصالة وأن السلاطين العثمانيين كانوا يُشاهدون المراسم المقامَة في الحديقة من هذه الصالة[١٥].

وكانت تُنصب خيمةٌ يوضَع بها أكياسُ الصُرّة وبعض الأشياء الأخرى المتعلّقة بها أمام "قُبَّه آلْتِي (Kubbealtı)" (الديوان) في قصر "طوب قابي" أثناء مراسم الاحتفال، وبعد فروغ العاملين من تناوُلِ الطعام، كان السلطانُ

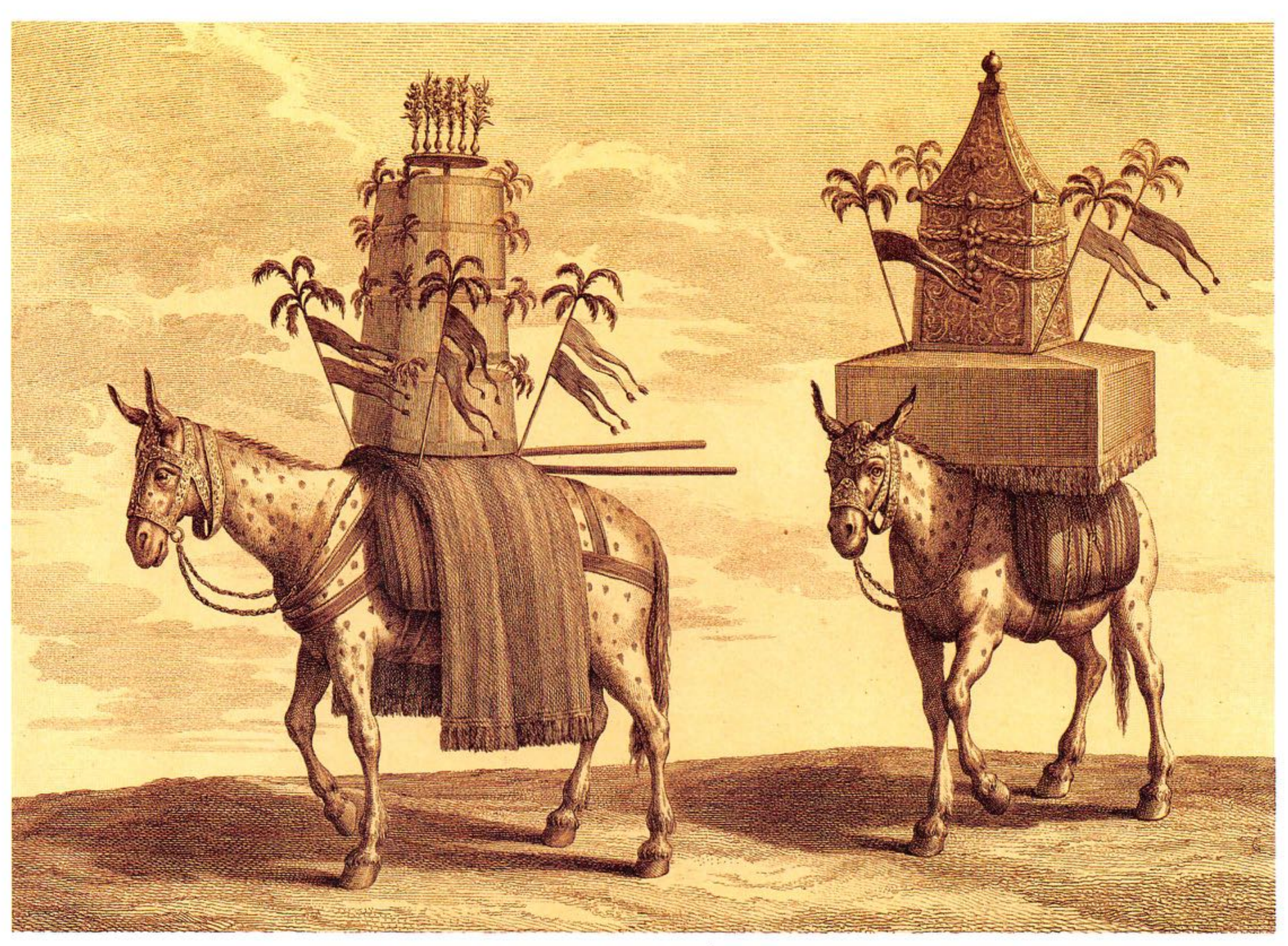


أوائل (١٩٠٠م) صورة لوحة "فاوست زونارو (Fausto Zonaro)" -رسام القصر في عهد السلطان "عبد الحميد"- وتُظْهِرُ الصورة موكبَ الصرّة الذي أُجرِيَ في قصر يِلْدِزْ، وقد التقطَتْها زوجتُه "إليسا زونارو (Elisa Zonaro)" [مجموعة أسرة زونارو]

يدخل ممتطيًا جوادَه من باحة "أَنْدَرُونْ" -الباحة الثالثة- إلى الباحة الثانية للقصرِ، وينزِل من على جواده أمام "قُبَّه آلْتِي" ويدخل إليها مع تصفيقِ الجموعِ الواقفةِ بانتظاره.

وفي تلك الأثناء، يخرج أغوات الحرم من الحرم حاملين أكياس الصُّرّة على أكتافهم ويضعونها في الخيمة، وهنا يجري عدّ أكياس الصُّرّة ولصقُ أظْرُفِ دفاترِها بالشموع وتُزيّنُ بأكواز الصنوبر(١٦).

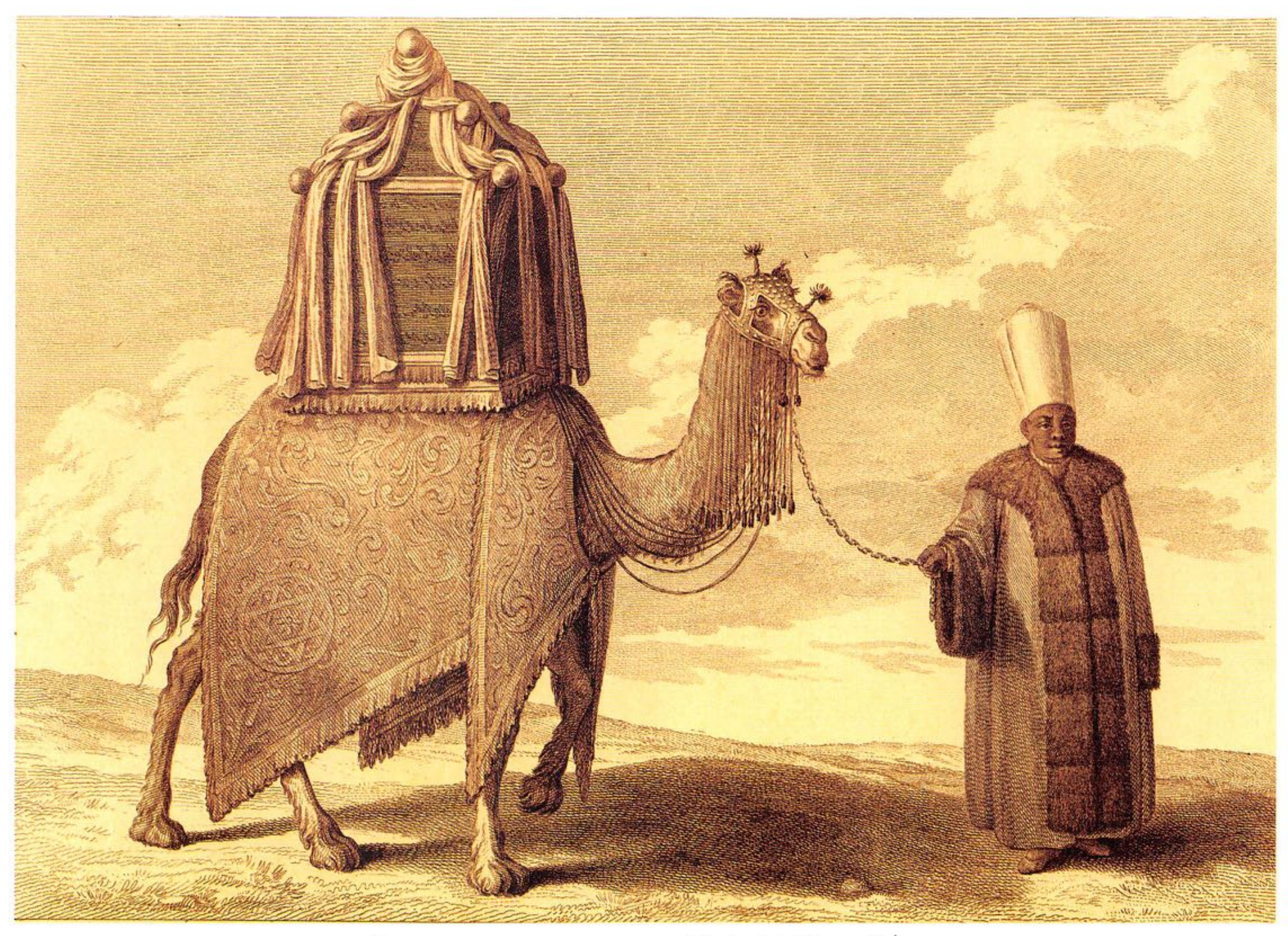
وكان يشارك في الموكب جَمَلان أحدهما أساسيّ والآخر احتياطيّ، ويكون لجامُ الجمل الأساسيّ المشارك في الموكب عبارةٌ عن سلسلةٍ من الفضّة،(١٧) وأما لجامُ الجمل الاحتياطي فيكون مصنوعًا من خيطِ الحرير، وكانت من بين النقاط المهمّة في أثناء المراسم تسليمُ اللجام الفضّيّ من جانب "إِمْرَاخُورْ آغا" إلى آغا دار السعادة، لأن هذا التقديم يعني مواصلةَ آغا دار السعادة القيام بمهامهِ، وكان الآغا يقوم بتسليمِ اللجام الفضّيّ



البغال التي تحمل ذهب الصرة الهومايونية وأشياءها النفيسة [مأخوذة من كتاب "نظرة عامة على الإمبراطورية العثمانية"]

إلى أمين الصُّرَّة بعد شهر، واللجام الحريريّ إلى رئيس السقّائين(١٨)، وتضمّ المجموعةُ اللجامين الوارد ذكرهما في المصادر، كما أن سَوطَ جَمَلِ الصُّرّة -ذا رأسِ التنّين والمقبض الفضّيّ- مسجّلٌ في قسم العربات بالقصر (١١٥٠/٣٦).

وكما تُخبِرُنا المذكرات المتعلقة بتجهيز المحمِل فإنّ الموكِب قبل أن يشُقَّ طريقه مغادرًا دار السعادة باتجاه الحجاز؛ يُساق إلى دائرة الحريم وتُساهمُ نساء القصر كذلك في تَزْيِينِهِ، وتشرح لنا "عائشة سلطان" ابنة السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" وقد عاشت هذه التجربة، فتقول:



جملُ الصرّة وأغا دار السعادة [مأخوذة من كتاب "نظرة عامة على الإمبراطورية العثمانية"]

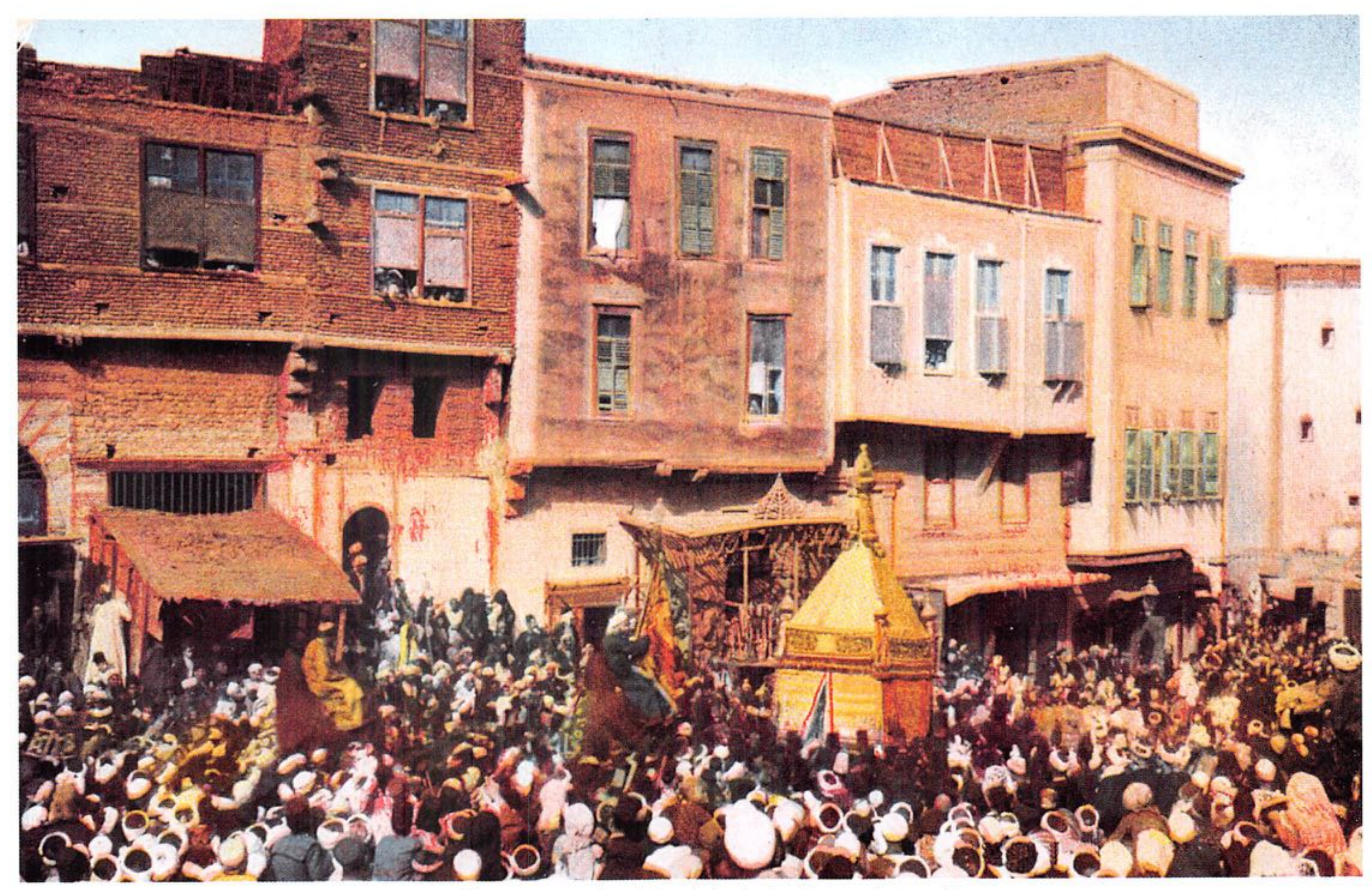
"يمسك آغا دار السعادة وحاشيته بالمحمِل الشريف ويأتون به وهم يكبرون ويرددون الأناشيد الدينية، ويضعونه في حديقة دائرة الحريم، فتزوره جميع الأميرات وزوجات السلطان والعاملات الماهرات، وتقوم زوجات السلطان وسائر الأميرات بتقديم هديّة وهي: عبارةٌ عن قِطَعٍ من القماش الحريريّ المزركش، بحيث تقوم عاملتان من عاملات القصر المَهَرَةِ القدامى بتزيين المحفل الشريف بهذه الأقمشة المزركشة، ولقد كانت هاتان العاملتان تقومان بهذا العمل من أوله إلى آخره بمهارة كبيرةٍ وهما متخصّصتان في ذلك، وقد نشأتا على ذلك وتعلّمتا ممّن سبقهما، وهما بدورِهما ستعلّمان مَن بعدهما هذا الفنّ أيضًا بهذه المهارة"[١٩].

وقد كتب الروائي الشهير "خالد ضياء أُوشَاقْلِيكِيلْ (Uşaklıgil)" ذكرياته أثناء عمله رئيسًا لكتّاب القسم الواقع ما بين "الحَرَمْلِكْ (Haremlik)" و"السَلَامْلِكْ (Selamlık)"[٢٠] في القصر في الفترة ما بين عامي (١٩٠٨-١٩١١م)، وشرح بأسلوب ساحر في تلك الأثناء كيفيّة تزيين جَمَل الصُرّة، فيُخبرنا الكاتبُ أنّ الأموالَ والقِطَعَ الذهبيّة والفضّيّة المرسَلة إلى الحجاز كانت توضَع في أكياسٍ محكمةِ الغلق وتُربط ثم تُختم بالختم السلطاني، ثم بعد ذلك يجري تحميلُها مع سائر الهدايا القيّمة الأخرى على الجَمَلِ، ويحكي لنا كيف كان يجري اختيارُ هذا الجملِ من أفضل الجِمَالِ وأكثرِها جَمَالًا وبهرجةً، وكان يتمُّ تزيينُه وتجهيزه بأقصى قدرٍ ممكنٍ، ذلك لأن هذا الجَمَل يُعتبر البطلَ الأساسيّ لهذه المراسمِ.

ويقصُّ لنا الكاتب "علي سَيْدِ بك" (١٨٦٧-١٩٣٣م)، الذي تولى الخدمة في القصر وألّف كتابًا يتعلّق بتشريفات القصر، أنه قد طرأت بعض التغييرات على مواكب الصُرّة السلطانية في أواسط القرن الثامن عشر، منها أنهم حاكوا خيمةً كبيرةً ومزركشةً للسلطان، وعددًا من الخيام الأخرى لوجهاء الدولة وأعيانها مخصّصةً لذلك اليوم فقط[٢١]، ويذكرُ لنا أن مشاهدةَ وجهاءِ الدولةِ موكبَ الصُرّة أثناء عبوره من هذا المكان يُعتَبَرُ -وإن كان بسيطًا- تغييرًا جديدًا طرأَ على احتفالاتِ مراسمِ الصرّة.

ويمتلك موكبُ الصُرّة راياتٍ خاصّةً ولها أغمادٌ خاصةٌ أيضًا، فقد وجدت هذه الرايات وأغمادها مكانًا لها في الاحتفال حتى أصبحت جزءًا من مواكب الصرّة.

وكانت أكثر مراحل موكب الصُرّة تألُّقًا وبهاءً هي رحلة التجوّل التي كان يقوم بها الموكبُ داخلَ إسطنبول، حيث تبدأ الرحلة بعد الخروجِ من "الباب العالي" وتُتابعُ حتى تمرّ من أمام "قصر آلَايْ"، وحتى يُودَّعَ الموكب في "سِيرْكَجِي (Sirkeci)" عبر طريق "خواجه باشا"، ويروي لنا "أبراهام دوسون (D'Ohsson)" هذه المراسم التي كان شاهدًا عليها، ووفقًا للمعلومات التي أوردها حول هذا الشأن نرى الموظّفين وقد ارتدوا جميعُهم ملابسَ الاحتفالات البهيجة ويأتي على رأسهم اثنا عشر رقيبًا يمتطون الجياد، ومن خلفِهم يأتي اثنا عشر زعيمًا وستّون حارسًا على قسمِ الحريم ورسولان اثنان وثمانية رؤساء للحرّاس وأمين الصُرّة وخادمه وقد أحاطوا بالجِمَال الأساسيّة والاحتياطيّة المشاركة في الموكب وثمانية بِغالٍ قادمةٍ من خلفهم، وكان خمسةٌ من البغال يحملون صناديقَ الهدايا المغلّفة بالقماش المخمليّ الأخضر، وأما الثلاثةُ الباقية فكانت تحمِل الأموالَ[٢٢]، وكان يأتي من خلفهم مجموعة مؤلّفةٌ من حوالي خمسين إلى ستين شخصًا من العرب، مهمّتهم التسلية وقرعُ الطبول، ويُطلق عليهم اسم "عَكّامين"، كما كان البهلواناتُ الراقصون على الحبال يُكسبون الموكبَ حركةً وحيويةً.



المحمل المصريّ الشريف في شوارع القاهرة [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

لقد أضاف "دوسون" إلى روايته وحديثه عن المحمِل أَنْ رسمَ لنا لوحةً فنيّةً فريدةً جسّدَ من خلالها صورة موكب المحمل، وصوّر في اللوحة التي رسمَها مشاهدَ الأعلام الصغيرةِ المصنوعةِ من الأوراق الملوّنة والتي ثُبِّتَتْ فوق بعض الجياد والبغال، وهي تتحرّكُ وتُرَفرف بفعل الرياح، وكذلك صوّر دوّارة الهواء، وعلى الرغم من رسم "دوسون" للوضع القائم للمحمِل الشريف فوق الجَمَل، فقد رسمَهُ في هيئةٍ تُشْبِهُ البرجَ ولا تُشبه النماذج الموجودة حاليًا بشكلٍ كبيرٍ، وقد كتبَ شخصٌ فرنسيٌّ آخر شهِدَ هذا الحدثَ يصف المحمِلَ بأنّه عبارةٌ عن برجٍ صغيرٍ يبلغُ ارتفاعُه مترين قد صنع من الجوخِ ونُصِب على ظهرِ جَمَلٍ يسيرُ في مقدّمة الموكب(٢٣).

كان المعيّنون في موكب الصُّرّة يقومون بتغليف الأشياء التي ينقلونها ويحملونها فيما بين الأماكن التي كانوا ينزلون بها؛ حِرصًا منهم على سلامتها، وباختصار: فإن جَمَلَ الصُّرّة وأطقُمَ المحمِل التي كان يحملها على ظهره لم تكنْ تبقى منصوبةً على ظهره طيلةَ الطريق من إسطنبول إلى مكة، بل كان يجري فكُّها وحلُّها إن استلزمَ الأمر.

وينقل لنا الرحالة الكبير "أوليا شلبي" بعضَ المعلومات المتعلّقة بمراسم استقبال المحمِل والصُرّة في دمشقَ ومكّةَ المكرّمة والمدينة المنوّرة، ويقول إن المحفل الشريف الذي يحمله جَمَلُ الصُرّة على ظهره لم يكن بإمكانه العبورُ من بوّابة المدينة المنورة في أثناء إقامة الاحتفالات في مكّة، ولهذا "كانوا يقومون بحلّ المحمِل وفكّ المحفل الشريف في هذا الحيّ حتى يسهُل إدخاله"[٢٤].

ويروي لنا الرحّالة البولندي "سيميون (Simeon)"[٢٥]، الذي كان شاهدًا على انطلاق المحمِل في مصر خلال الفترة ذاتِها وشاركَ هو أيضًا في هذه القافلة، فيقول في قسم الذكريات الخاصّ بهذا الموضوع:

> *"كانت خيمةُ أميرِ الحجّ الخاصّة تسيرُ في المقدمة، ويُجهّز المكان الذي ستنزل به القافلة، وعندما يقتربُ مسافةَ ربع ميلٍ من المكان الذي تقفُ به الخيمةُ الخاصّةُ بالخزينة تُزَيّن البغالُ وتُقرَع الطبول وتُعزف الأبواق، وتُنصَب خيمةٌ متميّزةٌ للآغا تليق بالمَلِكِ في المقدّمة، وتوضَع الخزينة داخلَ الخيمة يحرُسها مائةٌ من الحرّاس"*[٢٦].

وبعد التحرّك من إسطنبول عاصمة الدولة العثمانيّة، تأخذُ قافلةُ الحجيج طريقَها عبر "كَبْزَه (Gebze)" و"آق شهر (Akşehir)" و"قُونْيَه" و"أضَنَه" و"حماة" ثم تصل إلى "دمشق"، وفي اليوم التالي ينضمّ إلى هذه القافلة وَالي دمشقَ وحجّاجُ الشام تحت قيادة أمير الحجّ، ويواصلون طريقَهم من جديد نحوَ مكّة.

المحمِل الشريف المُرسَل قَبْلَ تأسيس الدولة العثمانية

كما هو معلومٌ، فقد أُرْسِلَت الصُرّة السلطانيّة إلى الكعبةِ المشرّفة في عهد الدولة العثمانيّة من ثلاثة أماكن مختلفة وهي "اليمنُ" و"دمشق" و"مصر"، بحيث أُرسلَ أوّلُ محمل من اليمن عام (٩٦٣هـ/١٥٦٦م) بطلبٍ من والي اليمن "وزير مصطفى باشا"[٢٧]، و قد أُطلق عليه اسم "محمل حَيْس" إذ إنه خرج من مدينة "حيس" اليمنية، إلا أنه لم يصادَف أن أُرسل هذا المحمِل خلال السنوات التالية لهذا التاريخ، ويُعتقَد أنّ عادةَ إرسالِ كسوةِ الكعبةِ المشرّفة مع الصُرّة السلطانيّة في عهدِ العثمانيّين تعودُ إلى عصر السلطان "سليمان القانونيّ"، ومما يؤكّد لنا هذا الاعتقاد أننا نجِدُ ستارةَ باب الكعبة ووشاحَها اللذَين يرجِعَان إلى عام (١٥٤٣م) بين أقدمِ الآثار الموجودة وقد حمل الستارُ والوشاحُ اسمَ السلطان "سليمان القانوني"، وكان السلطان "القانوني" قد خصَّص دخلَ سبع قرى في عام (٦٤٧هـ/١٥٤٠م) إضافةً إلى دخل قريتَين اثنتَين أوقفهما الحاكم المملوكيّ "المنصور قلاوون" في مصر من أجل كسوة الكعبة المشرفة[٢٨]، وقد برهن بهذا السلوك أنه لم يمتنع عن صرفِ أيّة تكاليف من أجل هذا الأمر.

توجدُ لوحاتٌ خزفيّة تُصوّر مشهدَ المحاملِ الثلاثة وقد نُصِبَت على جبل عرفات[٢٩]، وقد رُسِمَت في هذه اللوحات صورٌ للمحامِل الثلاثة من الشمال إلى اليمين، ودُوِّنَت أسماءُ المحامل في أسفلِها على هذا الترتيب: المحمِل اليمني، المحمِل المصري والمحمِل الشامي، ولم يتغيّر هذا الترتيب مطلقًا، وقد اهتم السيد "كاركاريدس (M. Carcaradec)" بالمحمِل الشريف المصوّر في تلك اللوحات، وقام بإعادة تركيبِ محمِلٍ مستفيدًا في ذلك من الصور المفصّلة التي حصل عليها، إلا أن هذا يُعتبرُ عملًا خاصًا بالنموذج الأوحد المتبقّي من الفترة الأخيرة من عُمر الدولة العثمانيّة من بين أغطيةِ المحمِل الشريف الغنيّة والكثيرةِ الموجودة في القصر السلطاني،[٣٠] ولم تصل إلينا معلومات تتعلّق بأغطية المحمِل اليمنيّ وكيف كان شكلُها.

يوجد نموذجٌ من المحمِل المصريّ في مجموعة التطريزِ بقصرِ "طوب قابي" في إسطنبول وتحديدًا في -متحف الفنّ التركيّ (٢٦٣/٣١)- ويبلغُ ارتفاعُ قمّة المحمِل مائةً وثمانين سنتيمترًا، وارتفاعُ ذيلِه مائةً وخمسين سنتيمترًا، وعرضُ حيّزِ نطاقِهِ ثمانيةً وعشرين سنتيمترًا، ويبلغ ارتفاع المحمِل ثلاثمائة وثلاثين سنتيمترًا، بحيث يتخذ هيكلُه شكلًا مربّعًا وسقفُه شكلًا هرميًّا في إطار المقاسات التي ذكرناها آنفًا، وكان المحمِل في العصر المملوكيّ مصنوعًا من قماش الأطلس الحريريّ الأصفرِ اللون اللامعِ الذي يُعتبر لونًا رمزيًّا لدى الإمبراطورية المملوكيّة، وأما الكتابات والتزيينات فكانت من قماش "التفتا" الأحمر اللون، ونجِدُ كلَّ الأشرطةِ التزيينيّةِ والخياطات الجانبيّةِ مُحاطةً بتزييناتٍ روميّةٍ متشابكةٍ، وتتكرّر كتابة "أبو النصر قانصوه عزَّ نصرُه، العزُّ لمولانا السلطان الملك الأشرف" داخل قطعةِ قماش "البافته" على شكل كمثرى في كلّ الجهات من أجزاءِ المحمِل العليا، ولم نستطِع قراءةَ التاريخ المدوّن على الشريط المحيط بهيكل المحمِل والذي كُتِبَتْ عليه جُمَلٌ تمدحُ السلطان في ذلك المكان الذي يتوسّط بين القمّة والذيل، حيثُ تتقاطع فيه قمة المحمِل بالذيل، والرايةُ الخاصّة بالمحمِل مُدْرَجَةٌ اليوم في قسم الأسلحة بالقصر (٦٣٠/١)[٣١]، وقد كُتِبَ اسم السلطان "قانصوه الغوري" والتاريخُ باللغة العربيّة في خمسةِ أسطرٍ مستويةٍ على لوحةٍ على شكلِ قلبٍ مزركشٍ وقد طُلِيَت أُطرُ هذه اللوحة الحديديّة بالذهب[٣٢]، وينبغي أن يكون تاريخ الكسوة هو ذلك التاريخ المشيرُ إلى عام (٩١٩هـ/١٥١٣م).

وعند النظر إلى المحمِل المصريّ نظرة تفحُّصٍ، نرَى أنّه لم يكن رائعًا، ابتداءً من المواد التي صُنِع منها وحتى تزيينه وزركشته؛ فزركشتُه خاليةٌ من التنميقات، أما الكتابة الموجودة عليه فكانت رديئةً تفتقِرُ إلى الجودة، فلم يجرِ استخدام الخيوطِ المخلوطةِ بالذهب والفضّة في عمليّة التطريزِ، بحيث نُسِجَت كلّ الكتابات والزركشات بواسطةِ إدخال قصاصاتٍ من الأقمشة الصغيرة والملوّنة على القماشةِ الأمّ الأساسية.

ولقد تمَّ تسجيل كسوةِ المحمِل هذه مرّتين وكأنّها كسوتان في تعدادِ خزينةِ القصر بتاريخ (١٦٨٠م)[٣٣]، وفيما يلي نذكر ما كُتب عند التسجيل:

"عدد اثنين كسوة للمحفل الشريف مكتوب عليها باللون الأحمر فوق قماشِ الأطلس الحريري الأصفر، إحداهما منقوشٌ بعضُ أماكنِها بالذهب".

والموجودُ اليوم هو المحمِلُ البسيط الخالي من الزركشة، وأما المحمِل المذكور في الدفترِ والمطرّز بخيوطٍ من الذهب والفضّة من أوّله لآخرِه فلا نراه موجودًا اليوم.

وأما أغطيةُ المحمِل العثمانيّ فهي على النمط المذكور عمومًا، تكمنُ أكبر الاختلافات التي يتميّز بها في توليفةِ نقوشِهِ وزخارفِهِ، فالمحامِلُ العثمانيّة تتمتّع بقدرٍ أكبر من الزخرفة، وهي في الوقت نفسِهِ مُلفِتَةٌ للأنظار، وكان اللون المفضّلُ في البداية هو اللون الأسود، ثم رُجّحَ اللون الأخضر، وقد جمعَ المؤرّخُ التركيّ "إسماعيل حقّي أُوزُونْ جَارْشِيلِي (Uzunçarşılı)" المصادرَ الخاصّة بالقرن التاسع عشر وقدّم لنا معلومات بخصوصِ محاملِ مصرَ والشام كالتالي:

"كان يوجدُ في كلّ جانبٍ من الجوانب الأربعةِ من هذه المحاملِ كرةٌ من الفضّة، كما كان يوجدُ هلالٌ من الذهب فوقَ الكرة الفضّية الموجودةِ على قِبابِ المحاملِ، وقد طُرزت كلمة التوحيد على أغطية القبة.

وعلى الرغمِ من أنّ كِلا المحملين كانا على هيئة وترتيب واحد، فإن أرضيّة المحمِل المصريّ كانت من الأطلسِ الحريريّ الأحمر، وأما أرضيّة المحمِل الشاميّ فكانت من الأطلسِ الحريريّ الأخضر الداكن، كما أنّ المحمِل المصريّ كان أوسعَ من المحمِل الشاميّ من ناحيةِ العرضِ"[٣٤].

وفي الحقيقةِ، تخضَعُ لهذه المواصِفات المحاملُ العثمانيّة التي ترجِعُ إلى المرحلةِ الأخيرةِ من تاريخِ الدولةِ العثمانيّةِ، ويمكنُنا مشاهدةُ هذهِ المحامِلِ الشريفةِ في بعضِ اللوحاتِ الزيتيّة[٣٥] والصور التي يحتوي عليها "ألبوم يِلْدِزْ"[٣٦] الذي يَعْرِضُ بشكلٍ عام مراسمَ الصُّرّة في مراحل متأخّرة من تاريخ الدولةِ العثمانيّة، وتظهر أرضيّة المحمِل المصري في النموذجِ الموجودِ حاليًّا وهي باللون الأصفر وليس الأحمر، إلا أن المحاملَ العثمانية الموجودةَ في مجموعة قصر "طوب قابي"، تظهر وتوضّح أنَّ بعضَ التعديلات والتغييرات قد أُدْخِلتَ على الشكل والألوانِ منذ البداية.



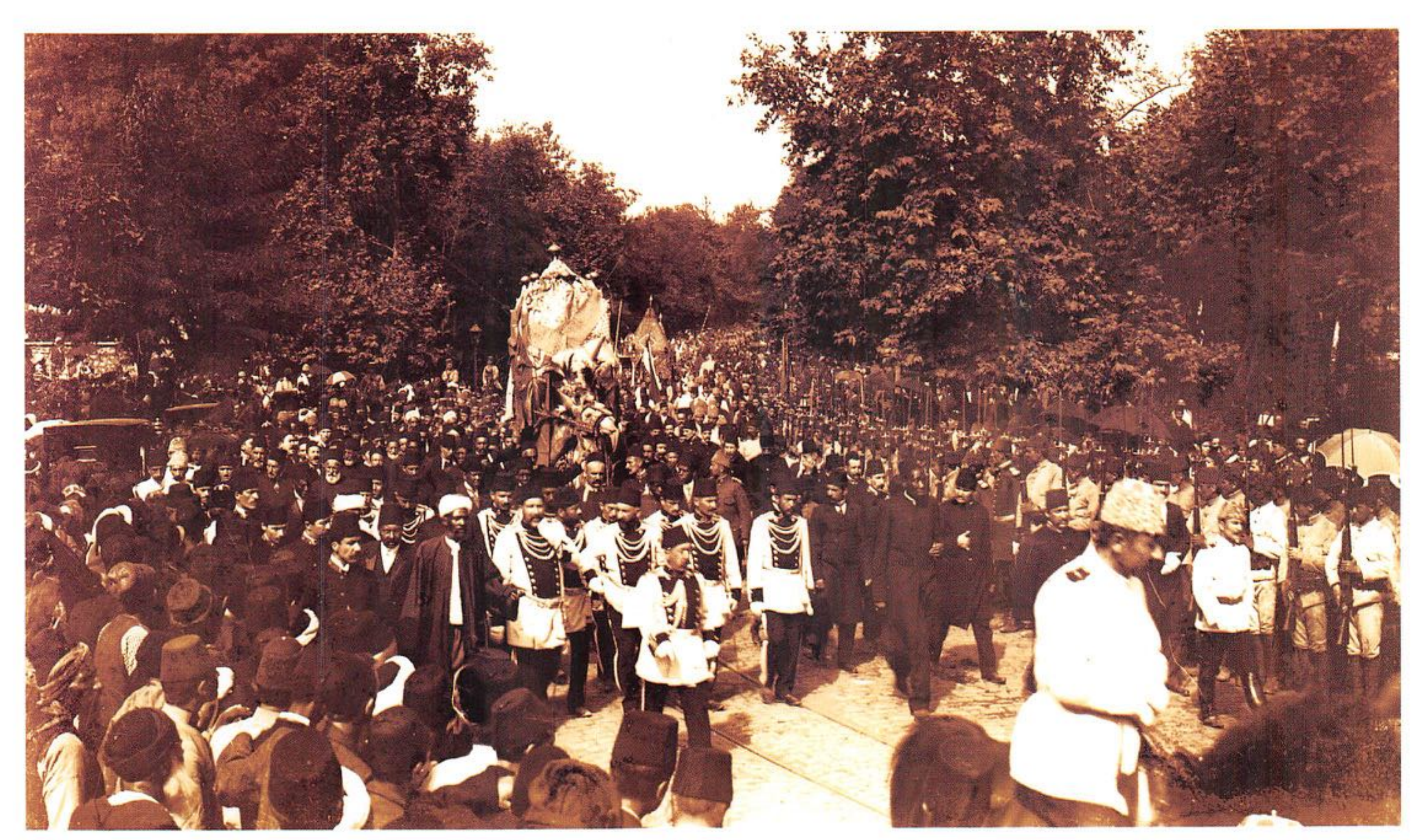
رسم تقريبي يُصَوِّرُ أقمشة المحمل الشريف [من كتاب "نمط الحياة في إسطنبول قديما" لـ/ مُحاسِبُ زَادَه جَلَال]

المحمِل الشريف المُرسَل في عهد العثمانيّين

يتميّز المحمِل الشريف الذي كان يُرسله العثمانيون بتعدد أجزائه وهرمية سقفِه، بحيث إن قِسْمَي القمّة والذيل منفصلَين عن بعضهما البعض، وكانت المحامل العثمانية تُعَدُّ وتُجهَّزُ على أيدي حِرَفِيّين مَهَرَة باستخدام مواد ثريّة وبرّاقةً ولافتةً للأنظار، وكان لونُ النماذجِ المبكّرة والقديمةِ من هذا المحمِل هو اللون الأسود، الذي تغيّر مـع مرورِ الزمن إلى اللون الأخضر، ويرجـع أقدم محمِل إلى عام (١١٤٤هـ/١٧٣١م) ولكن مـع الأسف لم يتبقَّ لنا من أجزائِهِ إلى يومنا هذا إلا أربطتهُ وحمالاته وهي موجودةٌ ومؤرّخةٌ، كما يوجد رباطٌ يحملُ اسمَ السلطان "مراد الرابع" (١٦٢٣-١٦٤٠م) وحمالتان للمحمل بتواريخ (١٦٦٣م) و(١٦٨٢م) تحملان اسم السلطان "محمد الرابع"، مكتوبٌ عليها أن المحمِل قد تمّ تجديدُه في هذه التواريخ، وبينما تمّت المحافظةُ على إحداهما التي تحمل تاريخ (١٦٦٣م) مع كسوةِ مقام سيدنا إبراهيم (١١٤٩/٣٦)، إلا أنّ الثانية التي تحمل تاريخ (١٦٨٢م) استُخدِمت للمرة الثانية في صناعةِ غمدِ رايةِ محمِلٍ جديدٍ (١٣٩١/٢٤).

وعلى الرغمِ من أنّ الحمّالات في الفترات اللاحقةِ قد اختلفتْ من ناحية الشكلِ واللون، إلا أنها تشير إلى خروج المحمِل الشريف إلى الأراضي المقدّسة كذلك في تلك التواريخ، ذلك لأنها تحمل كتابات عليها تثبت ذلك، وللمثالِ على ذلك نذكر الحمالةَ التي تحمل اسم السلطان "مصطفى الثاني" بتاريخ (١٦٩٤م/١٢٩/٢٤)، كما يوجد غمدان لرايات المحمِل الشريف مدوّنٌ عليهما اسم السلطان والتاريخ كذلك، ونستطيـع أن نفهمَ أن المحمِل الشريف انطلق إلى الأراضي المقدّسة في العام المكتوب على هذه الأغماد التي لا يوجدُ لها أغطية، وكان المحمِل يجري تجديدُه في بعض الفتراتِ ويُحفظ القديم منه، إلا أنه في بعض الحالات كان تجرى بعضُ التعديلات على أجزائه وقِطَعِه، ثم يُعاد استخدامُه مرّةً ثانيةً، فعلى سبيل المثال نرى شريطَ غطاءِ الصُرّة من الطراز الثاني (١٣٧٥/٢٤) والذي كان يحملُ التاريخ في مؤخّرَتِه، وقد تغيّرَ الجزءُ الأخيرُ منه بطول عشرين سنتيمترًا حيث كان قد دُوِّنَ عليه التاريخ، فالشريط الذي صُنِـعَ عام (١١٧٢هـ) كان أقدمَ من تاريخ صُنْـعِ المحمِل بعشر سنوات، فلا بد وأنّ هذا الشريط الموجود قد استخدم في أوّل موكبٍ للصرّة أرسل بعد عام (١١٧١هـ/١٧٥٧م) الذي جلس فيه السلطان "مصطفى الثالث" على العرش، وذلك بعد أنْ تمّ تغييرُ التاريخِ المدوّن عليه.

وتحتوي المجموعةُ الموجودةُ في قصر "طوب قابي" على سبعةِ أَطْقُمٍ للمحمِل الشريفِ، بيدَ أنّ أجزاءَ أوّل محملين تُعَدُّ ناقصةً، وأما أوّل هذين النموذجَين اللذين يحملان تاريخ (١١٤٤هـ/١٧٣١م) و(١١٨٢هـ/١٧٦٨م)، فلونُهُ أسود مطرّزٌ على قماش الأطلسِ الحريريّ السميك، وأما الثاني فلونُهُ أخضر، كما أن كليهما يرتبطان



المحمل بدون تطريز ولا نقش يبدو بين الموكب من أجل عرضه في إسطنبول فحسب دون السفر إلى الحج [تصوير: "سيبه (Sebah)" و"جويلر (Joaillier)" معهد المتحف الألماني للحفريات، إسطنبول، رقم الفيلم: ٧٦٨٥]

بالتقاليدِ المتَّبعة اعتبارًا من المواد المصنوعِ منها وحتى التصاميم، ومن طِرازِ وطريقةِ التطريز وحتى حروف الكتابة، وأما النموذجُ الثالث من ناحيةِ الترتيبِ التاريخيّ فيرجع إلى تاريخ (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، ويختلفُ هذا النموذجُ عن سابقَيه بأنه مصنوعٌ من القماش المخمليّ الأخضر ومزركشٌ بتقنيّة التطريزِ بالذهبِ والفضّة على القماش المخمليّ المبطّن بالورق المقوّى والمسمّاة بتقنيّة "Dival" التي تمتلكُ أسلوبَ تطريزٍ شبيهٍ بالأسلوبِ الغربيّ، ويتكوّن هذا المحمِل من تسع عشرة قطعة، وهو يُعتَبَرُ ذا أهمّيّة كبيرةٍ لأنه يُحافظُ -إلى الآن- على أجزائِهِ بالكامل، وعلى هذا النحو استطعنا أن نُكَوّنَ فكرةً حولَ ماهيّة الأجزاءِ الناقصةِ الخاصّة بهذهِ المحاملِ القديمة، وهناك ثلاثةُ محامل شريفة أخرى تتطابق في المواصفات مع هذا المحمِل وتختلف معه فقط في التاريخ واسم السلطان المدوّنَين عليها، والذي يُجسّدُ هذه المجموعة من المحامل أو أحدَ نماذجها بالضبطِ هو ذلك المحمِلُ الشريف الموجودُ بين مسؤولي موكبِ الصُّرّة والحجّاج المرسومُ في لوحةٍ زيتيّةٍ (٦١٠/١٧) بتاريخ (١٣٣١هـ/١٩١٣م) في قسمِ الصور واللوحات بمتحفِ الفنّ التركيّ.

ويبدو المحمِل الشريف الأخير على شكلِ غطاءٍ من المخمل الحريري العادي، غير مزركشٍ أو مطرّز أو مكتوبٍ عليه شيء، ولقد بدأ إرسالُ محملين مع قافلةِ الحجيج مع اقتراب نهايةِ القرنِ التاسع عشر؛ أوّلهما مزخرفٌ بشكلٍ مبالغٍ فيه، يجري استخدامه في الاحتفالات والمراسم، منقوشٌ عليه توقيعُ السلطان والتاريخ، والآخر عبارة عن محملٍ بسيطٍ لم يُنْقَشْ عليه اسمٌ ولا تاريخٌ، يجري استخدامه للطواف به على الجَمَلِ عقِبَ انتهاءِ المراسم، وأما النموذج الموجود في المتحف إلى الآن؛ فهو ذلك المحمِل البسيط الخالي من الزخارف والنقوش.

تتساوى أجزاء القمّة الأربعةُ مثلثة الشكل في المحامل بصورةٍ متبادَلَةٍ، وتحتوي هذه المحاملُ على ذيلَين، ويُعْتَبَرُ أكثرُ أجزائها لفْتًا للنظر هو ذلك الشريطُ الذي يطوّق مكانَ اتصالِ القمّة بالذيلِ بشكلٍ دائريّ -أي يلتفّ حولَها من الأعلى إلى الأسفل- وأما بقية الأجزاء الأخرى من المحمِل فهي قبّعةٌ وطوق الجمل الذي يحمل المحمل.

ينبغي أن يحتوي كلّ محمِلٍ على ستّ حمّالات، إحدى هذه الحمالات مثقوبةٌ من الوسطِ يمكن تعليقها في راية المحمل، وأربعة من هذه الحمّالات يجري ربطُها بأركانِ المحمِل الأربعة، والحمّالة الأخيرة تُربَط في قبّعة الجَمَلِ.

ولقد تمّ إعداد حمّالةٍ جديدةٍ خاصّةٍ بغمدِ رايةِ أوّلِ محمِلٍ يتميّزُ بأسلوب من الزينة على الطراز الغربي، بحيث أضيفت ثلاثةُ أجزاءٍ جديدةٌ إلى أجزاءِ المحمِل، أحدهما مربّع والآخرُ على شكلٍ شبهِ منحرِف، وأما الثالث فعلى شكلٍ نصفِ بيضوي، واعتبارًا من ظهور النموذج الثاني فقد أخذَ المحمِلُ في الاختلافِ في اللونِ والتركيبِ مع مرورِ الزمن، وبما أن النموذج الثاني كان عام (١١٨٢هـ/١٧٦٨م) والثالث كان عام (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، فنحن من جانِبنا لا ندري على وجه الدقّةِ متى بدأ التغييرُ يطرأُ على المحامل خلال هذه الفترة التي تُقارب المائةَ عام.

فأما المحمِل الشريفُ الأوّل فقد جرى صنعُه من قماشٍ من الحريرِ أسودِ اللونِ مطرّزٍ بالأطلسِ الحريريّ مع إضافات من الحرير الأحمر والأخضر، ولقد أُثْرِيَتْ وزُيِّنت تصميمات المحمِل -الذي ينقصه جزءٌ من أجزاءِ ذيله وكذلك حمّالتُه- بإضافةِ عددٍ من الأحجارِ الملوّنة في بعض أماكنها، ويتألّفُ المحمِل الشريف المنقوش عليه اسمُ السلطان "محمود الأول" وتاريخُ (١١٤٤هـ/١٧٣١م)، من سبعة أجزاء (٢٤/١٣٧٦- ١٣٨).

وتتكوّن ذروتُهُ من أربعةِ أجزاء وذيلُه من جزءَين، وتحملُ أجزاءُ ذروتِه الآيات:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سُورَةُ البَقَرة: ٢/١٢٥).

و﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣/٩٦-٩٧).

وقد استطاعوا كتابةَ آيات وبعض الأحاديث النبوية وكتاباتٍ أكثر على أجزاء ذروةِ المحمِل، ذلك لأنَّ أجزاءَها منفصلةٌ عن بعضها البعض وأكبر حجمًا من أقمشة المحامل السابقة، مثل الآيات:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (سُورَةُ الفَتْح: ٤٨/١-٢).

و﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ (سُورَةُ الفَتْح: ٤٨/٢٨).

فالكتابة تدورُ عند طرفِ ذيلِ أجزاءِ ذروةِ المحمِل على هيئة شريطٍ من الكتابة.

وينقسمُ جزءُ الذيل إلى ثلاثةِ أقسام بحيث تفصِلُ أقسامَه وتتوسّطُها أحزمةٌ ترتكزُ على ركيزتين (أي دعامتين) اثنتين، فأمّا الحزام الموجود على الجانبين فهو ذو لوحٍ خشبيّ، وأما الحزام الموجود في الوسطِ فهو ذو رقائقَ معدنيّة تتّخِذ شكل ثمرة الكمثرى، ويتدلّى من فوق كل واحدٍ من التوابيت ثلاثةُ قناديلَ، وأما الشموعُ التي كانت ترسم سابقًا فقد استُبدِلت بشجرتين صغيرتين من النخيل، كما استُخْدِم شريطا زينةٍ مختلفان لتزيينِ الحواشي والجوانب؛ فكان شريطُ الزينةِ الموجودُ عند ذيلِ ذروةِ المحمِل وطرفِهِ عبارةً عن زينةٍ من سعَفِ النخيل، وأما شريطُ زينةِ أجزاءِ الذروةِ والذيلِ فهو مزيّنٌ بالأوراق الملفوفةِ وزهرةِ البرتقالِ، وقد أُرسِلَ هذا النوع من الذيولِ من القصر إلى جامع "قُورْشُونْلُو (Kurşunlu)" في مدينة "نَوْشَهِرْ (Nevşehir)"[٣٧].

وأما **النموذجُ الثاني** من المحاملِ الشريفةِ متعدّدةِ الأجزاءِ، فهو مصنوعٌ من الأطلسِ الحريريّ أخضرِ اللون، تعلوه نقوش بالخيوطِ الصفراءِ والبيضاءِ، وأما الوجه الداخلي له فهو مبطّنٌ بالجلدِ المخمليّ، والمحمِل الشريف المصنوعُ باسم السلطان "مصطفى الثالث" منقوشٌ ومكوّنٌ من ثمانية أجزاء وقد صُنع بتاريخ (١١٨٢هـ/١٧٦٨م) (١٣٦٩/٢٤-١٣٧٥، ١٥٠٩)، وهو يُظْهِرُ مخطّطًا مختلفًا للغاية، حيث إن ذيلَه منقوشٌ عليه بالخيطِ الأصفرِ خمسة أسطرٍ فوقَ أرضيّة منسوجةٍ من الخيوط البيضاء، إلا أنّ شريطَ الكتابة الموجودِ

في أجزاءِ ذروةِ المحمِل يذكّرنا بالمحمِل الأوّل، وهو ذو شرائحَ وخطّ "كونتور" يملأُ الوسطَ ويلتفُّ حولَ الذيل برقائقَ معدنيّة بيضاويّة من البداية إلى النهاية، ويتمتّع المحمِل -ذو الكتابة على ذيله- بمظهرٍ جذّابٍ للغاية، كما أن الآيات المكتوبة عليه -والتي لم تُصادَف في أيّ محمِلٍ آخر- كلّها تتعلّق بتنزيل القرآن الكريم وعظمة الخالقِ سبحانه وتعالى وإرسال النبيّ ﷺ رحمةً للعالمين.

كما أن رباطَ طاقَمِ كِلا المحمِلين من الطرازِ القديم، وقد نُقِشَ على كليهما آية الكرسيّ ويحتلُّ نقشُ الآية نصفَ المساحةِ المتاحةِ للكتابة، وأما النصفُ الآخر فتوجدُ عليه كتابةٌ أخرى تشغلُه إلى نهايته، أما خلفيّاتهما فهي مغطّاةٌ بالجِلْد، وأمّا أطرافُ ذيلِهما فذاتُ أهداب.

وأما الطرازُ الثالثُ من المحاملِ متعدّدةِ الأجزاءِ فهو مصنوعٌ من القماش المخمليّ الأخضر وقد نُقِشَ عليه باستخدامِ الخيطِ الأصفرِ، وأما ظهرُهُ فهو مُبَطَّنٌ بالأطلسِ الحريريّ أحمرِ اللون، ويتكوّنُ هذا المحمِل (٢٤/ ١٣٥١-١٣٦٨، ٢٦٥) من تسعة عشر جزءًا، ومنقوش عليه اسم السلطان "عبد العزيز" وتاريخ (١٢٩١هـ/١٨٧٤م).

ونشعر بتأثيراتِ الغربِ القويّة في التطريزِ الذي يعجّ بالأوراقِ والزهور حتى امتلأ بها كامل السطح، كما أن الكتابات تمّ تقليلُها بشكلٍ كبير، وفي الوقت الذي نرى فيه الكتابات فقط تملأُ الفراغات وسطَ أجزاءِ ذروةِ المحمِل، فإننا لا نصادفُ أيّةَ كتابةٍ في أجزاءِ الذيلِ، ونجدُ أنّه ظهَرَ للمرّةِ الأولى في هذا الطرازِ استخدامُ توقيعِ الملِكِ والأحاديث النبويّة في أجزاءِ ذروةِ المحمِل، وقد تمّ تجديدُ أجزاءِ المحمِل كما هي مع تغيير اسم السلطان وتوقيعِهِ في المحامل الثلاثة التي تحدثنا عنها.

وأما المحمِل الرابع، فهو منقوشٌ بالأسلاك الصفراء على القماش المخمليّ الأخضر، ومبطَّنٌ بقماشِ الأطلس الحريريّ باللون العنّابي، وطاقم هذا المحمِل الشريف (٢٤/١٣٣٢-١٣٥٠) مكوّن من تسعة عشر جزءًا ومنقوشٌ عليه اسم السلطان "عبد الحميد الثاني" وتاريخ (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م).



الحامل الأمامي للمحمل الشريف

[أرشيف "يوسف جاغْلاز"]



الجزء الأمامي من المحمل الشريف

وطاقمُ المحمِل الخامس منقوشٌ عليه بالخيوط الصفراء على القماش المخمليّ الأخضر، وقد بُطِّنَ من الداخل بقماشٍ أطلسٍ حريريٍّ أحمرِ اللون وأجزاؤهُ مسجّلةٌ تحت أرقام (١٣٠٨/٢٤، ١٣١٣، ١٣٢٦، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣١)، ومطرّزٌ عليه اسم السلطان "عبد الحميد الثاني" وتاريخ (١٣١٠هـ/١٨٩٢م).

وأمّا المحمِل السادسُ فمنقوشٌ عليه بالخيوطِ الصفراء على القماش المخمليّ الأخضر، ومُبَطّنٌ داخلهُ بقماشٍ أطلسٍ حريريٍّ أحمرِ اللون، وأجزاؤُه التسعة عشر جميعها مسجّلٌ تحت رقم (٣٠٢/٣١) بقسم الزخارف، ومطرّزٌ عليه اسم السلطان "عبد الحميد الثاني" وتاريخ (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م).

وتتناولُ الآياتُ المنقوشةُ على المحامل موضوعات تتعلّق بطاعة الله ورسوله ورغبةِ الله تبارك وتعالى في تطهيرِ المؤمنين من العيوبِ والرجسِ مثل قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب:

﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٣٣).

وقوله تعالى في ذات السورة:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

وأما المحمِل السابع فهو يختلفُ تمامَ الاختلاف عن المحامل الستّة سالفةِ الذكر، فهو خالٍ من الكتابات والنقوش والتطريزات، وهو مصنوعٌ من القماش المخمليّ الحريريّ الرقيق أخضرِ اللون، ومزيّنٌ بالأشرطةِ الحمراءِ والبيضاءِ، ومؤرّخٌ بتواريخَ ترجعُ إلى بداياتِ القرن العشرين (٢٤/ ١٤٤٣-١٤٤٦، ٢٠٥٥).

وأربطةُ هذا المحمِل تختلف عن أربطةِ المحمِلين الأوّلين من ناحية تطريز الآيات المنقوشةِ عليها، فهذه الأربطة منقوشٌ عليها مطلعُ سورةِ الفتح وهو قول الله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۞ وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۞ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١-٦).

فتختلف هذه الآيات المنقوشة على هذا المحمل عن تلك الآيات المنقوشة على المحامل السابقة، وأما شريط التزيينِ فهو عبارةٌ عن زينةٍ تَلُفُّ أطرافَ الأجزاء كافّةً وتُحيطُ بها كأنها عنصرٌ زخرفيٌّ مسلسلٌ ذو زوايا.

وقد ظهرتِ الأجزاء التي تتّخِذُ أشكالًا مربّعة ونصف بيضاويّة للمرّة الأولى كأجزاءٍ في هذه المجموعة من المحامل، هذا إضافةً إلى أنّ الحمّالة الأماميّة للمحمِل عبارةٌ عن قطعةٍ شبهِ منحرفةٍ تتّسِع أكثر فأكثر كلّما اتّجهنا من الأعلى إلى الأسفل وذروتها مبتورةٌ، ومنقوشٌ عليها التاريخ واسمُ ضاربِ العملة[٣٨].

وأما حمّالات المحمِل فهي ستّ، وقد تغيّرت الحمالاتُ المستخدَمة مع المحامِل القديمة، حيث كانت مصنوعةً من الأقمشةِ الحريريّة الملوّنةِ وكانت طويلةً مثل الرباطِ ومكتوبٌ على أطرافها كلمة التوحيد، والحمالات الجديدةُ مصنوعةٌ من القماش المخمليّ الأخضر ومنقوشٌ عليها أشكالُ أوراقِ الزهورِ فقط وخاليةٌ من الكتابات، وهناك قطعةٌ أخرى ظهرت للمرّة الأولى في هذا المحمل، قد أُعِدَّت من أجل ربطِها بذروةِ غمدِ رايةِ المحمِل، وهي مصنوعةٌ من القماش المخمليّ أحمرِ اللون ومثقوبةٌ من المنتصف، ومكتوبٌ داخلَ الرقائق المعدنيّةِ البيضاويّة الأربعةِ الموجودةِ على كِلا جانبَي الثقبِ على إحدى الجهتين قول الله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (سورَةُ الفَتْحِ: ١/٤٨).

وعلى الجهة الأخرى قوله تعالى:

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورَةُ الصَّفِ: ١٣/٦١).

وهناك هيكلٌ خاصٌ منصوبٌ على هذه المحاملِ الأخيرة، بحيث يجري تثبيتُه فوق سَرْجِ الجمَلِ، وهو ذو قَفَصٍ مصنوع من الأسلاك وظهرُه خشبيّ، ويُشْبِهُ مقعدًا مؤلّفًا من قطعتين، (٢١٩٧/٢٤) وكان يُوضع داخلَ هذه القطعةِ قاعدةُ محمِل مربعة الشكل بمقاس (٤٧×٤٧) سنتيمترًا وتُغطّى كافّة أطرافِها بقماشِ الجوخ الأخضر بحيث إن كلّ الأجزاء (١٣٦٨/٣١) ترجع إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

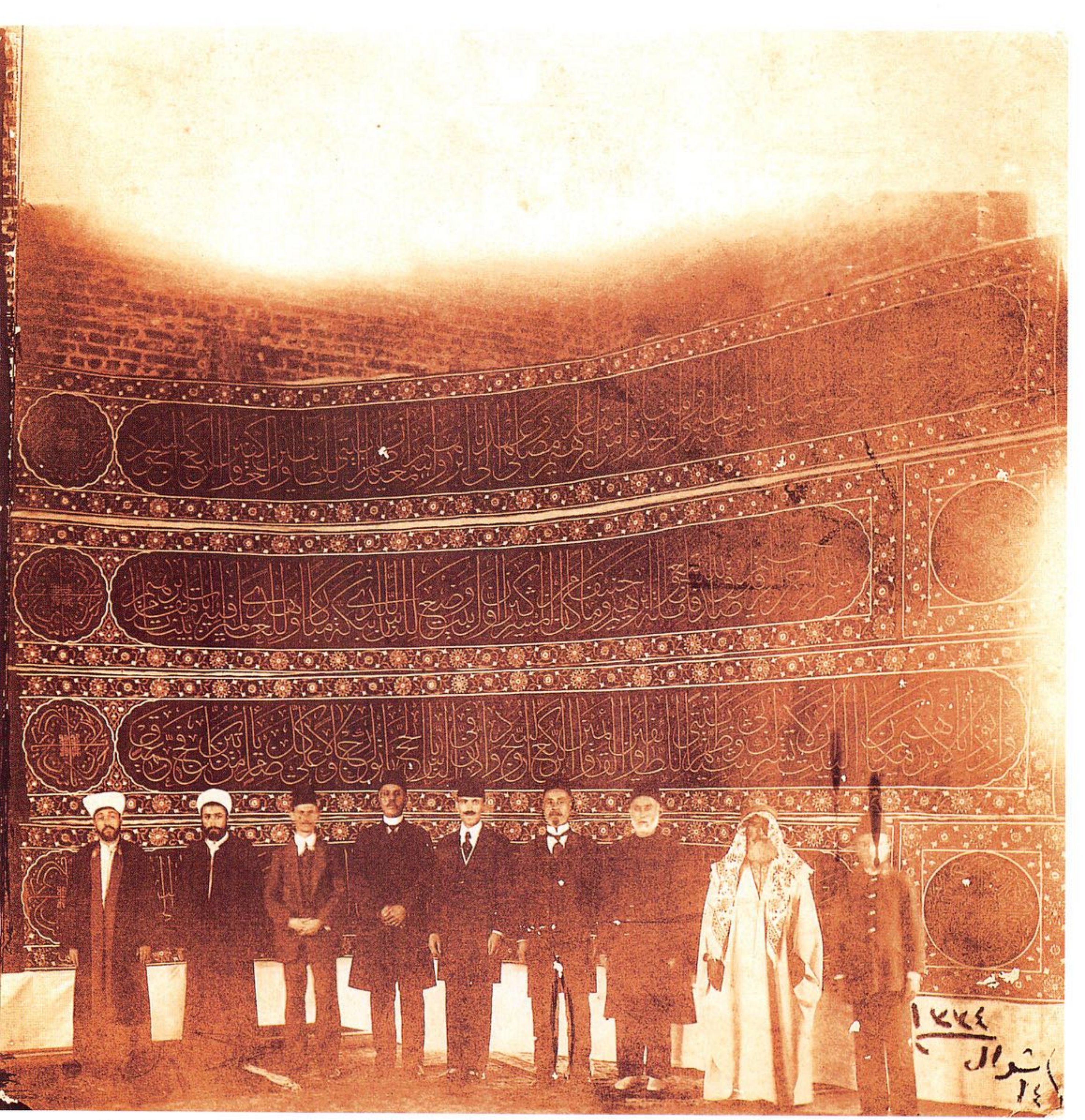
ولقد تمتّع الجملُ الذي يحمل المحمِل الشريف على ظهره بمكانةٍ كبيرةٍ في هذه المراسمِ، بحيث جرى تزيينُه وزركشتُه باهتمامٍ كبير، وراعى القائمون على تزيينه تحقيقَ التوافقِ والانسجامِ بين كافّة إكسسواراتِ الجمل من القُبَّعةِ التي يرتديها وحتى الغطاء المزركش الذي يُغَطِّي ظهرَه مرورًا بالمحمِل الشريف الذي يحمِلُه على ظهره، حتى إنّهم طرّزوا التاريخَ الموجودَ على المحمِل على قبّعة الجمل أيضًا، ومن هذا المنطلقِ، فقد اعتُبرت أغطيةُ الجملِ أيضًا جزءًا متمّمًا لطاقم المحمِل الشريف.

تتمتّع مواكبُ الصُرّة في الوقت ذاته بوجود راياتٍ خاصّة بها وأغمادٍ لحفظِ هذه الرايات، وكانت التركيبةُ التخطيطيّةُ والزركشيّةُ لهذه الرايات مختلفةً تمامَ الاختلاف عن تلك الخاصّة بالرايات العسكريّة.

المحفّاتُ والأدوات الخاصّة بالمحمل الشريف

هناك الكثيرُ من الأجزاء المنفردةِ -يعني ليست جزءًا من طاقم المحمل، لكنها تابعة له- الخاصّة بأطقُم المحمِلِ الشريف، نجدها وقد فُقِدَ جزءٌ كبيرٌ منها، ومنها بعضُ الأجزاء تحمِلُ تواريخَ منقوشةً عليها، وهي تحمل أهمّيّة كبيرةً للغاية لأنها تزوّدنا بمعلوماتٍ حولَ أجزاءِ أطقُم المحمل الأولى، وبهذه الطريقةِ يُتاحُ لنا مقارنةُ التغيرات التي طرأَتْ على هذه الأجزاء -كلّ على حِدَةٍ- اعتبارًا من القَرْنِ السادس عشر وحتى أوائلِ القرن العشرين، وتُشكّل حمّالات المحمِلِ الأغلبيّةَ العظمى من هذه الأجزاء، ولقد تمّت مطابقةُ قسمٍ منها بسبب تشابهها مع قبّعات الجِمَالِ أو الرايات أو أغمادِ الرايات التي لا تخصّ طاقمًا بعينه.

وهناك اثنتان من قبّعات المحمِل تختصُ بالمحاملِ الشريفةِ من الطراز الأوّل والثاني، وتعودان إلى النصف الأوّل والثاني من القرن الثامن عشر، هاتان القبّعتان تتمتّعانِ بستّ واجهات وبطْنٍ منتفِخٍ وتتّخذان شكلًا

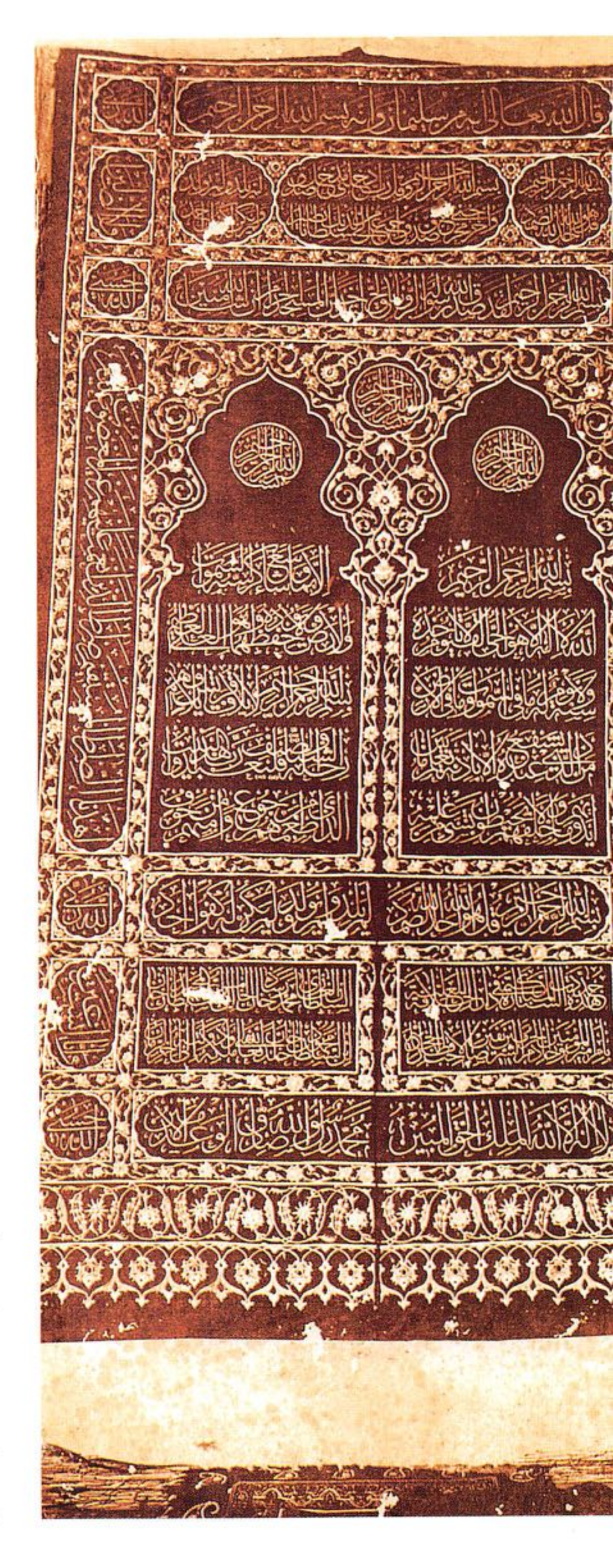


استعراض ثوب الكعبة المشرفة -المجهّز في إسطنبول- بجامع السلطان أحمد (١٣٣٤هـ/١٩١٦م) [مجموعة "مراد قازكيلي"]

أسطوانيًا، كما أنّ ذروةَ هاتين القبّعتين مثقوبةٌ ويبلغُ ارتفاعُها من ثلاثين إلى أربعين سنتيمترًا، بحيث يجري تثبيتُها عند ذروةِ المحمِل، وعلى الرغم من تشابُه القبعتين من حيث الشكل إلا أنّ كلّ واحدةٍ منهما تختلفُ عن الأخرى في الآيات القرآنية المنقوشة عليها.

هذا إضافة إلى وجود قبّعةٍ واحدةٍ وقد انفصلت أجزاؤُها عن بعضِها وحُلّت خيوطُها، وهي ليست خاصّةً بطاقمٍ بعينه، وتتشابَهُ هذه القبّعة من حيث الآيات القرآنية المنقوشة عليها مع قبّعةِ الطاقم الثاني، إلّا أنّها تختلفُ عن القبّعتين الأُخْرَيَين في بعض الخصائصِ مثل أنها تتكوّن من ثماني واجهات بدَل الستّة، وذروتها غير مثقوبة وأنها أكثرُ ارتفاعًا، كما أن جانبها قد تُرِك مفتوحًا وليس متّصلًا ببعضه البعض مباشرةً، لكنّها تمتلك زرًّا ذا عروةٍ مشتركةٍ، وهذا ما يُظْهِرُ لنا أن القبّعة قد تمّ تثبيتُها بواسطةِ طريقةِ تلبيسٍ أكثرَ تطوّرًا من ذي قبل، وليس من خلال تمريرِها من ذروةِ المحمل إلى الأسفل، وإذا ما أمعنّا النظر في القبّعتين السابقتَين يظهرُ لنا أنّهما خاصّتان بمحمِلٍ يعود إلى نهاية القرن الثامن عشر، ولا تحتوي المحاملُ من الطراز الثالث التي تعودُ إلى نهايات القرن التاسع عشر على قطعةٍ جرى إعدادُها لتكونَ قبّعةً للراية، وتدلُّنا الحمّالات الأماميّة للمحمِل -الطويلةُ والمهدّبةُ على ذروة المحمِل كما تُظهرُها الصورةُ في اللوحة الزيتيّة- على أنه قد جرى استخدامُ محمِلٍ هندسيّ الشكل يُعرف في علم الهندسةِ بـ"شبه المنحرف"، وتتميّز هذه القطعة بأنها مستقيمةٌ من القمّة وتتّسِعُ كلّما اتّجهنا إلى الأسفل، وقد عُرضتْ في قصر "طوب قابي" في عامي (١٩٤٤- ١٩٤٥م).

يبلغُ عرضُ أقدمِ نموذجٍ من نماذجِ أربطَةِ المحمِل خمسين سنتيمترًا ويتألّفُ من قسمين؛ قِسم علويّ ذي أرضيّة من الحرير الأطلسيّ الأحمر، وقسم سفلي ذي أرضيّة من الحرير الأطلسيّ



الأزرق، بحيث تمّ تثبيتُ قسمَيهِ على قماشٍ مهدّبٍ في الجزءِ السفليّ من شريطِ الزينةِ الفاخرِ الذي هو عبارة عن سلسلةٍ من اللؤلؤ، وقد نُقِشَت آيةُ الكرسيّ التالية في الأعلى:

﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٥٥).

ونُقِشَ اسمُ السلطان "مراد الرابع" (١٦٢٣-١٦٤٠م) في الأسفل.

وأما أربطة المحمِلين الشريفين الأوّلين الموجودَين بعد ذلك، فهي عبارةٌ عن جزءٍ واحدٍ منقوشٌ عليه آية الكرسيّ، وقد أخذَتْ هذه الآيةُ نصفَ الحيّز والمكانِ المُعَدّ للكتابة، وهناك كتاباتٌ أخرى متنوّعةٌ وُزِّعت على النصف الآخر، وأما ذيولها فهي ذاتُ أهداب حرّة ومطلقة.

ونشاهد تغييرًا في رباط المحمِل الثالث الذي يحمِل تاريخ (١٢٩٢هـ/١٨٧٤م)، وقد أحاط بأطرافه من جميع الجهات شريطُ الكسوة المتلألئ، بعدَ أن تغيّرتِ الآية المنقوشةُ عليه، وهكذا أُزيلتِ الأهداب والكتابة المنقوشة على رباط المحمل.

يحتوى طاقمُ المحمِل على ستّ حمّالاتٍ، وهي عبارة عن نوعٍ من أنواع الأربطةِ ذات رقائق معدنيّة طرفاها على شكل مربع، وهو رفيعٌ وطويلٌ نُسج في الغالب من القماش المموّج المخلوطِ بالحرير والقطنِ أو الأطلس ونادرًا ما نُسج بقماشٍ حريريّ رفيع يُسمّى "البَافْتَه (pafta)"[٣٩]، وقد نُقشت في النماذج المبكّرة كلمةُ التوحيد بخيوطٍ من الذهب والفضّة على أرضيّةٍ من قماش الأطلس الأزرق، وعلى أرضيّةٍ من الحرير الأطلسِ الأحمر في النماذج اللاحقة، وهناك واحدةٌ من الحاملات مثقوبةٌ من الوسط لتمريرِها من سارية وعمود الراية، وبسبب أن هذه الحمّالات لم يُنْقَشْ عليها التاريخ؛ فقد تمّ التوصُّلُ إلى تسلسُلِها الزمنيّ من خلال تدقيقِ النظر في أساليبها واستقراءِ حرفيّة صناعتها والمستلزمات المستخدَمَةِ بها، بحيث ينبغي أن تشابه هذه الحمّالات حمالاتِ الطاقمين الأولين -غير الموجودين في الوقت الحالي- ذلك لأنه تمّ التأكُّد بشكلٍ يقطعُ الشكَّ باليقين أنّ هذا النوع من الحمّالات كان مستخدَمًا حتى أوائل القرن التاسع عشر.

وكانت قبّعةُ وأطقمُ الجملِ الذي يحمِلُ المحمِل الشريف تُعَدّ بشكلٍ يتناسبُ مع تطريزات أغطية المحمِل، وكانت قبّعة الجمل -على وجهِ الخصوص- تتّخِذُ هيئةَ القفص الذي يتشكّل من أشرطة تصِلُ من الأمامِ إلى



المحمل الشريف يمرّ من دمشق الشام أثناء عودته (١٩٠٣م) [أرشيف "صالح كُولَنْ"]

الخلفِ بعرض سبعةِ سنتيمترات، وأما في نماذج القرنين السادس عشر والسابع عشر فلقد كان يُنْقَشُ بالخيوط الذهبيّة على أقمشةِ الأطلسِ الزرقاء المثبّتةِ على الأشرطةِ الجلديّة، وكانت تُنْقَشُ في بعض الأماكن عناصرُ زخرفيّة روميّة وتركيّة شرقيّة ملوّنة بحشواتِ الخيوطِ الحريريّة المغزليّة الحمراءِ والسوداءِ (متحف الفن التركي ١٤٠٣/٢٤).

وعلى الرغم من بقاءِ الشكل ذاتِهِ بعد القرن الثامن عشرَ، إلا أنّ التطريزَ المنقوشَ مباشرةً على الأشرطة قد تحوّل إلى عنصرٍ زخرفيّ متسلسلٍ ذي خطوطٍ مستقيمةٍ تحت تأثيرِ الفنّ الغربيّ، ولقد تغيّرت القبّعة المستخدمة اعتبارًا من بدايات القرنِ العشرين من حيث الشكل والمواد المستخدَمَة في صناعتِها وأسلوب تطريزِها، وذلك إضافةً إلى تطوّرها من الناحية الفنيّة، فقد اتّسعَ الجزءُ الأماميُّ منها، وغُلِّفت بقماشٍ مخمليّ أسود فوق الجلد العنّابي اللون، كما نُقِشَ عليها بخيوطٍ بيضاءَ فضيّة وأُثرِيَ بعضُ أماكنِها بالكرات والصفائح الفضيّةِ، وأضيفَ إلى طرفِها لجام، وهذه هي القبّعةُ ذاتُ اللّجام الفضّيّ التي تحدّث عنها الكُتّابُ في الفترة الأخيرة (١٤٠٢/٢٤).



عودة المحمِل الشريف

يحكي لنا "تاريخ السلَانيكِي (Selaniki)" عودةَ المحمِل القديم برفقةِ المحمِل الجديد في خضمّ أحداث عام (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م)،[٤٠] فقد كان شريف مكّة المكرّمة قد أرسل كسوةَ الكعبة والمدينة المنوّرة إلى إسطنبول عاصمةِ الخِلافةِ برفقةِ المحمِل الشريف في هذا العام للاحتفال باعتلاء السلطان "محمد الثالث" العرشَ وتمنّي استمرارِ السلطنة، وعندما وصل المحمِل إلى منطقة "أُسْكُودَارْ" في إسطنبول، استقبله خدّامُ القصر العثماني الآخرون كالعادة ووضعوه في سفينةٍ عظيمةٍ وأرسلوه إلى قبر الصحابي الجليل "خالد بن زيد (أبي أيّوب الأنصاري)" ﷺ في إسطنبول، وفي اليوم التالي قام جمعٌ غفيرٌ من موظّفي القصر والعلماءِ والمنحدرين من نسلِ الشيوخ ببناءِ المحمِل الشريف وساروا أمامه، وقرعوا الطبولَ -مثل رجال النوبة الصوفيّين- ونفخوا في الأبواقِ وضربوا الدفوف على الطريقة العربيّة أمام المحمِل وهم يحملون أربعَ رايات للموكب ودخلوا من منطقة "أَدِرْنَه قَابِي (Edirnekapı)" وقد سيطرت على بعضهم حالةٌ من البكاء والخشوع إلى أن وصلوا إلى الباب العالي مردّدين اسمَ الله، واستقبلَ الصدرُ الأعظمُ والعلماءُ هذا المحمِل عند الباب الأوسط، وجلبوه إلى حضرة السلطان، فبكى كذلك مَنْ كان في الديوانِ ودعوا ربهم بدعواتٍ كثيرة، وكانت العادة أنه بمجرّدِ عودة المحمِل الشريف من الديار المقدّسة ومعه الكسوة القديمةُ للكعبة الشروع مباشرةً في إعداد الكسوة والأغطيةِ الجديدة اللازمة للعام القادم.





الأقمشة المرسلة إلى المدينة المنورة

إعداد: سَلِينْ إِيبَكْ (Selin İpek)[١]

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

إنّ أهمّ الأقمشة المرسلةِ في العصر العثمانيّ سنويًّا مع الصُّرّة الهمايونيّة من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين هي كسوةُ الكعبةِ وستارةُ بابِ الكعبةِ المشغولُ عليها اسم السلطان وحزامُ الكعبة، وفي كل سنةٍ تُرْسَلُ الكسوةُ الجديدةُ مع الصُّرّة الهمايونيّة إلى مكّة المكرّمة من أجل الكعبة وإلى المدينة المنوّرة من أجل الروضة المطهّرة وقبورِ الصحابة الكرام ﷺ، وتُرْسَلُ الأستار القديمة إلى إسطنبول، لقد أخذت هذه الستائرُ شكلًا فريدًا بالآيات القرآنيّة والأدعية المكتوبة بين خيوط التطريز الملتفّةِ والمُكسّرة والمتعرّجة من الأعلى إلى الأسفل ثمّ من الأسفلِ إلى الأعلى والمزيّنة بأغصان الورد، ولقد قدّسها الحجيجُ واقتسموها فيما بينهم ومن ذلك قول السيّدة عائشة ﷺ: "...**بِعْهَا، وَاجْعَلْ ثَمَنَهَا فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**"[٢].

لقد أصبح الاحتفاظ بثوب الكعبة المشرفة عادةً متبعةً بعد اشتهار هذا القول عن السيدة عائشة ﷺ، ونتيجةً لهذه العادة فإنك ترى في متحف قصر "طوب قابي" ما يزيد عن ستمائة قطعةٍ من أثواب الكعبة والأقمشة والستائر ذات الشعائر الدينية التي تحمل تطريزًا معوجًا وملتويًا زجزاجيًّا[٣] باتجاه الأعلى والأسفل أو اليمين واليسار، وبعضها نُقِشَ عليها تاريخُها، وترجع تواريخ هذه الستائر إلى ما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين، فقبلَ انتقالِ الخلافة إلى سلاطين آل عثمان كانت تُرسل الكسوة -بدءًا من عهد النبوّة ومرورًا بالخلفاء الأربعة والأمويّين والعباسيّين والفاطميّين والأيّوبيّين والمماليك- في محفلٍ خاصٍ ومهيب ولم يصل إلى هذا العهد قطعة من الكسوة التي ترجع إلى تلك العصور، وأقدمُ الأستار الموجودةِ الآن هي الأستار المستخدمة في العصر العثماني والتي يرجع تاريخُها إلى أربعمائة سنة.

*مجموعة من أستار المدينة المنورة وقد كتب عليها: "**الله ربّي ولا سواه، محمد حبيب الله**" و"**اللهمّ صلّ وسلم على سيدنا محمّد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين**" [من مجلة "الحياة والتاريخ"]*

ويمكن تقسيمُ تلك الأقمشةِ إلى ثلاثة أقسام:

١- أقمشة مكّة المكرّمة.

٢- أقمشة المدينة المنوّرة.

٣- الاستخدامات الأخرى للأستار الدينية.

وفي هذه المقالة سنتناول أستارَ المدينة المنورة[٤].

إن تلك الأقمشة -التي سُمِّيَت باسم "أستار أو أقمشة المدينة المنورة" لأنها نُسجت لقبر سيدنا محمد ﷺ الكائنِ في المدينة المنوّرة- قد نُسِجَت من قماشٍ أخضر عليها خيوط زجزاجية كُتب فيما بين كلّ اثنتين منها آياتٌ من القرآن الكريم وبعض الأدعية النبويّة، وتنقسمُ تلك الأقمشةُ من جهةِ تصميمِ الرسوم إلى ثمانيةِ أقسامٍ هي:

١- المزينة بسعفِ النخيل.

٢- المزينة بالميداليّات الكمّثريّة الشكل.

٣- المزينة بالخيط القطنيّ المرصّع بالأسلاك الذهبية والفضّيّة.

٤- الأقمشة المؤرخة.

٥- طراز القنديل على الأرضية الخضراء.

٦- المزينة بالأخضر الغامق الخالي من الورود.

٧- ذات الأرضية الخضراء الغامقة على شكل الخيوط الذهبية.

٨- ذو "الجاكار (Jakar)"[٥].

كما يوجد بعض من أستار المدينة المنوّرة قد نُسجت على أرضيّة حمراء، أما أشكال الرسومات التي صُمّمت على الأرضيّة الحمراء اللون فهي كما يلي:

١- ذو ميداليّة على شكل طبق.

٢- ما أضيف إليه زجزاج نحيف.

٣- ما هو على طراز الخيوط الذهبية.

٤- ذو الأرضية الوردية اللون.

٥- الرسوم البرتقاليّة على الأرضية الورديّة اللون.

٦- ذو "الجاكار".

المجموعة الأولى: المزيّنة بسعف النخيل

هي أقمشةٌ ذات أرضية زيتية اللون على طرازِ وشكل "سعف النخيل" تناثرت قطعُها المكوّنة لستارةٍ قديمةٍ لمحرابِ النبيّ ﷺ، ولقد اهترأ الجزءُ الخاصّ بالأرضيّة من القطعةِ التي كانت توضَعُ في المحراب ولذلك يبدو أنه قد تمّ الحفاظُ عليها بفصلِ الجزئَين عن بعضِهما[٦]، وقد صُمّمَت هذه القطعة كما يلي: على بعد ثمانية سنتيمترات من أعلى تلك القطعة يوجدُ الصفُّ الأوّل من سعفِ النخيلِ والصفُّ الثاني فيها عبارةٌ عن زجزاجٍ ضيّقٍ تمّ رسمُ داخلِه بالخطِّ الكوفيّ، والصف الثالثُ منه زجزاجٌ عريضٌ والشريطُ الرابع أيضًا زجزاجٌ ضيّقٌ[٧] والفراغات التي في تلك الخيوط الزَجْزَاجية مملوءةٌ بخطوطٍ عريضةٍ حمراءَ على أرضيّةٍ سكّريّةِ اللون، وقد كُتبت في الشريطِ العريضِ كلمةُ التوحيد وكُتِبَ في الشريط الضيّق الموجود تحتَه "**رضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقية الصحابة أجمعين**"، وفي الشريط العلوي كُتبت هذه الآية:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٣٣)؛ (سُورَةُ الصَّفِّ: ٦١/٩).

وكانت حروفُ كلمة "**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**" الموجودة في الشريطِ العريضِ مشغولة باللون الأحمر على أرضيّةٍ سكّريّة اللون، ونهايات الزوايا الجانبيّة مشغولةٌ بالأطلس السكّريّ اللون ويبلغُ عرضُها سبعةَ مليمترات.

ويمكن تأريخُ أقمشةِ تلك المجموعة التي تحمِلُ خصائصَ القرنِ السادس عشر بقماشِ الكسوةِ المستخدمة في محرابِ قبرِ سيّدنا محمد ﷺ[٨]، وأما المربّعُ الموجود على الكسوة ذات الخيوط الزَّجْزَاجية على أرضيّةٍ خضراء فقد زُيّنَ ورُسِمَ على شكلِ محرابٍ فوق أرضيّة حمراء، والكتابة الموجودةُ على المحراب من أعلى إلى أسفل تكونُ مرتبة كما يلي:



الحرمُ النبويّ الشريفُ والقبّةُ الخضراءُ حيث يوجد قبر سيد الكونين سيدنا محمد ﷺ [ألبومات يلدز٩٠٧٤٤-٤ - جامعة إسطنبول]

في السطر العلويّ من القنطرة توجد هذه الآيةُ من سورة الأحزاب: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٦-٤٧).

ويتدلّى من وسطها قنديلٌ، وفي أسفلها شكل كمثرى منسوج من خيوط "البَافْتَه"، وعلى كلا الجانبين منها شمعة تزيد المنظر جمالًا، وقد كُتبَ في داخل الشكل الكمثريّ "**يا رسول الله مولانا السلطان محمّد يطلُب الشفاعةَ، هذا باب الشامي**"، بخلاف هذا ففي أسطوانتَي الكتابةِ الموجودَتَين في فتحةِ الحزام كُتب "**رضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقية الصحابة أجمعين**"، ولقد وردَ اسمُ السلطانِ محمد في الكتابة التي لا يوجَدُ بها تاريخ، ورغم أنه لم يوضِّحُ في الكتابة أيّ محمّد هُوَ إلا أنّ "خُولْيا تَزجان (Tezcan)" زعَمَت أنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م)، ولقد اعتُبِرت هذه المجموعةُ من الأقمشة أقدمَ أقمشةِ الروضة المطهّرة وتحملُ سماتِ العصر المملوكيّ بأحرُفِ الكتابة الكوفيّة والحروفِ ذاتِ الإِبَرِ وطرازِ سعفِ النخيل.

المجموعة الثانية: المزينة بالميداليات الكمّثرية

أما طُرز الميداليات الكمّثريّة فيوجد بينها فروقٌ عدّةٌ، فمنها الميداليّات الكمّثريّة ذاتُ الأرضيّة الزيتيّة والحروفِ الروميّة وإطارُها الغنيّ المكوّن من الميداليّات ذاتِ القماشِ "الرومي"، وهي تعكِسُ الذوق العثمانيّ.

إن الميداليّة الكمّثريّة على الأرضيّة الزيتونيّة اللون قد صُمِّمَت بالخطِّ الكوفيّ من زجزاجٍ (متعرّج) ضيّق ثمّ زجْزاجٍ متوسّطٍ ثمّ زجزاجٍ ضيّقٍ مرّةً أخرى، وفراغات الميداليّة الكمّثريّة مُلئت باللون الأحمرِ والسكّريّ وكُتب فيها: ﴿**وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۞ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**﴾ (سُورَةُ الفَتْح: ٤٨/٢٨-٢٩).

وفي الزجزاجِ العريض كُتبت كلمةُ التوحيد وكُتِبَ تحتَها في زجزاج ضيّق "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقية الصحابة أجمعين**"، وقد كُتِبَ في الزجزاج الضيّقِ الموجودِ أعلى القطعةِ قول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّفِّ: ٦١/٩).

وكُتِبَت حروفُ كلمة "**لَا إِلَهَ إلا الله**" الموجودة في الزجزاج الواسِعِ بخطٍّ أحمر على أرضيّة سكّريّة اللون، أما الإطار الموجودُ في الجوانب فهو أصفر وعريض[٩]، وفي تلك المجموعة يوجدُ قميصٌ مصنوعٌ من هذا القماش (١٣/١٦٥٨)، ويوجدُ فيها أيضًا نموذجٌ مختلفٌ، فتوجد ميداليّات كمّثريّة نُسِجَت على الأخضرِ الزيتيّ الغامقِ والأخضرِ الفاتحِ، ولقد ساعد التاريخُ الموجودُ على أستارِ محرابِ النبيّ ﷺ في وضعِ تاريخٍ لهذه المجموعةِ؛ فقد ذكر اسم السلطان مراد على واحدة منها (٢٤/٣٩٧)[١٠] وقد زُيّنت لوحةُ تلك القطعة بالمحراب والكتابة، وزعمت "خُولْيا تَزجان" أن المقصود به هو السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م)، فاللوحة المرصّعةُ ذات محرابٍ ذي كمرٍ محمول على عمودين، وفي الأسطوانة الموجودة أعلى المحراب ذي الأرضية الخضراء يوجد حديثٌ شريف يبدأُ بكلمةِ "**قال عليه السلام**" وفي فتحة الكمرِ يتدلّى ثلاثةُ قناديل و"البَافْتَه" المربّعة الموجودةُ في الأسفلِ تملأُ هذا الجزء، وقد كُتِبَ في هذه "البَافْتَه": "**السلطان مراد يطلبُ الشفاعةَ يا رسول الله، هذا باب الشامي**" وكُتِبَت في بِطانتها كلمة "**الباب الشامي**"، واللوحة المشغولةُ ذات ميداليّة كمّثريّة الشكل وأرضيّةٍ زيتونيّة اللون قد نُسِجَتْ على قماشٍ دينيّ.

أما الستارةُ الأخرى (٢٤/٢٠٠١) فلها نفسُ التصميمِ والشكل وقد كُتب في أسطوانةِ الكتابة العليا منها قولُ الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/١٢٨)[١١].

أما قطعة "البَافْتَه" الموجودة في وسطها فقد كُتب فيها "**الله**"، و"**السلطان مراد يطلب الشفاعة يا رسول الله، هذا باب الحنفي**"، والفراغات الموجودة في القماشِ حول اللوحات ذاتِ الكتابة في هاتين الستارتين يوجد فيها ميداليّة كمّثريّة صُمِّمت باللون الأحمر والسكّريّ، وقد شُغِلَت في وسطها عبارة "**الله الباقي**"، ويوجد في الزجزاج الواسعِ كلمةُ التوحيد ويوجد في الزجزاج الضيق الذي تحته كلمة "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن الصحابة أجمعين**" وكُتب في الزجزاج الضيق الموجود أعلاها قول الله تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٩/٣٣)؛ (سُورَةُ الصَّفِّ: ٦١/٩).

ولقد كُتِبت حروف "**لا إله إلا الله**" الموجودة في الزجزاج الواسع باللون الأحمر على أرضية سكّريّة اللون، ويوجد من نفس التصميم على قماشٍ أرضيّته خضراء فاتحة (٢٤/٦٤٧-١٥٥) ويوجد من الميداليّات الكمّثريّة الموجودة على هذه الأقمشة نماذجُ نُسجت على أرضيّة حمراء اللون (٢٤/٣٤٨)، لكنّ تغيُّرَ شكلِ سعفِ النخيل وتحوُّلَه إلى الميداليات وتَرْكَ الخطِّ الكوفيّ في الكتابات الموجودةِ على الأشرطةِ يُظهر أن تلك المجموعةَ قد ابتعدت عن اللون المملوكيّ واقتربت من اللون العثمانيّ.

المجموعة الثالثة: المزينة بالخيط القطنيّ المرصّع بالأسلاك الذهبية والفضّيّة

يوجد بين مجموعة الخيوط المذهّبة ما هو ذو أرضيّة خضراء وبنّيّة، بخلافِ هذا توجد قطعُ قماش ذات أربعة ألوان تُظهر خصائصَ هذه المجموعة ولكن بدون تذهيب، وأما أستار محرابِ النبيّ ﷺ فهي تُساعدُ في الوصول إلى تاريخ هذه المجموعة، فقد كُتِبَ على إحدى هذه الستائر "سلطان إبراهيم" (١٦٤٨-١٦٨٧م[١٢]) أما الأخرى فترجع لعصر "السلطان أحمد الثالث"[١٣] حيثُ ذُكر في أخرها تاريخ (١١٣١هـ/١٧١٨م)، وأسفلُ اللوحة المشغولةِ على الستارة المرسَلة إلى المدينة في عصر "السلطان إبراهيم" يوجد كمرٌ محمولٌ على عمودين في الجانبين ويتدلّى من فتحته قنديلٌ من الأسفل وقد مُلِئَ الباقي بـ"البَافْتَه" على شكلِ الكمّثرى، وفي أسطوانة الكتابة العليا من الستارة نُقِشَ قوله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٥).

ويوجد داخل "البَافْتَه" التي تُضيءُ بجوارها شمعتَان هذه الكتابة غير المؤرخة: "**يا رسول الله مولانا السلطان إبراهيم يطلب الشفاعةَ**"، وعند فتحةِ الكمَرِ توجد أسطوانتي كتابةٍ كُتِبَ فيهما "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقيّة الصحابة أجمعين**"، ولقد حِيكت ستارةُ محراب النبيّ على قماشِ ستائر من

نوع "الكَمْخَا"[14] مكوّن من أربعةِ ألوان، وكان بعض أطراف إطارات القماش سكريُّ اللون والبعض الآخر أحمر، وهذه الخاصّيّة تُظهر أنّ هذا القماش قد نُسج في ورشٍ مختلفةٍ، ولقد نُسجت الأقمشةُ بطريقةٍ غليظةٍ مما جعلها قليلة الجودة.

أمّا القطعةُ الأخرى التي ترجع إلى عصر "السلطان أحمد الثالث" فيوجدُ في أسطوانة الكتابةِ العليا منها قول الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٥).

وأسفلُها الكمرُ المحمولُ على عمودَين جانبيّين وقد تدلّى منه قنديلٌ مُلِئَ أسفلُهُ بقطعةِ "البَافْتَه"على شكل الكمّثرى، وفي داخل "البَافْتَه" التي تضيءُ بجوارها شمعتان كُتبت عبارة "**يا رسول الله مولانا السلطان أحمد يطلب الشفاعة، هذا للمحراب النبوي سنة** (١١٣١هـ)"، وقد كُتب في الأسطوانتين الموجودتين في جانبي القنديل "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وعن بقيّة الصحابة أجمعين**".

في أغلب الأحيان يوجَدُ على الأقمشةِ -التي تُعَدُّ من مجموعة الخيوط المذهّبة ذات الأرضيّة الخضراء التي تخصّ واحدةً من هذه الستائر[15] المذكورة- نفسُ التصميم الذي تكرّر ثمانِي مرّات، ويُبْدأ في الفراغ بكلمة "**الله، محمد**" ويُكتَبُ في الزجزاجِ الضيّق الآية القرآنية:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبةِ: ٩/٣٣)؛ (سُورَةُ الصَّفِّ: ٦١/٩).

وفي الزجزاج الواسعِ كلمةُ التوحيدِ، وفي الزجزاجِ الضيّق الذي يليه من الأسفل قول الله تعالى:

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٤٠).

ولقد كررت كلمة "**الله، محمد**" في الفراغ، وكُتب في الزجزاج الضيق، "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقيّة الصحابة أجمعين**"، ثم كُتبت كلمة التوحيد في الزجزاج الواسع وكُتب على الزجزاج الضيّق الذي يعلوها قول الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٣٣/٥٦).

وقد نُسجتْ كلمة "**لا إله إلا الله**" وكلمة "**الله، محمد**" والخطوطُ الموجودةُ داخل الخيوط الزَّجْزَاجية باللون الأحمر، وقد حيكَ في عرض القماش أربعةُ خيوط زَجْزَاجية، وكلّ الآيات الموجودة على هذا القماش متعلّقة بسيدنا رسول الله ﷺ، وهذا يُشيرُ إلى أنه قد نُسج من أجل الروضة المطهرة.

الخيط المذهّب ذو الأرضيّة البنّيّة به تصميمٌ معتمدٌ على نظامِ الخيوط الزَّجْزَاجية تكرّر ثمانيةَ مرّات(١٦)، وبعد الفراغ الذي كُتبت فيه كلمة "**الله، محمد**" كُتب في الزجزاج الضيّق "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقيّة الصحابة أجمعين**" وفي الزجزاج الواسـع نُسجت كلمةُ التوحيد، وفي الزجزاج الضيّق الموجود فوقَه نسجت الآية القرآنية:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

وتكررت في هذا الطراز كلمة "**الله، محمد**"، وكُتب في الزجزاج الضيق الآية القرآنية:

﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٢٨/٤٨).

وكتبت في الزجزاج الواسـع كلمةُ التوحيد، وفي الزجزاج الضيّق قول الله تعالى:

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٤٠/٣٣).

ويوجد في عرضِ القماش أربعةُ خيوط زجْزَاجية، ولقد كان انتهاءُ الأطراف الجانبيّة باللون الأزرق، وانتهاءُ كلمة "**محمّد**" بالخطّ الرومي، وارتباطُ الكتابة بالزهورِ يعطي خاصّية فنّ الخطّ العثمانيّ في القرن السابـع عشر.

المجموعة الرابعة: الأقمشة المؤرّخة

توجد كتابةٌ منسوجةٌ على قطعتين من الأقمشة المؤرّخة (٢٨٦/٢٤، ٢٨٨/٢٤)، وكِلا القماشتين مهمٌّ للغاية لأنه لا يوجدُ نموذجٌ آخر مثلهما، وقد كُتِبَ على أحدِهما "**الراجون شفاعةَ النبيّ**" "**محمد رشيد بن مصطفى**" و"**أبو بكر بن حسين**" و"**حسين بن سلميان**" (١٢٠٦هـ/١٧٩١م)"(١٧)، وقد تكررتْ هذه الكتابة التي خُطّت في إطارٍ باروكيٍّ -تكررت- مرّتين في بداية القماش، وفي عرض القماش سُجّلت أسماء ناسجيها، وكانُ وجودُ الأزهارِ والأغصانِ بين الخطِّ في الكتابة يُكسِبُ القطعةَ سمةَ الزينة، وفي ظهر القماش يوجدُ ختمٌ بيضاويّ رصاصيّ

اللون لم يُتمكَّن من قراءته لأنه ممسوحٌ (٢٨٨/٢٤)، وفي موضـع آخر من القماش يوجد ثلاثةُ أسماء قد رُسمت في سطرين بالقلم الرفيـع، ولم نتمكّن من قراءة هذه الأسماء أيضًا، بخلاف هذا توجد ثلاثُ حلقاتٍ فارغةٌ من الوسط لم نفهم ماهيّتها، ونجدُ هذه الأشكال على القماش الآخر أيضًا، ولقد كُرِّرت الكتابة على القماش بهذا الشكل: ففي الزجزاج الواسـعِ العلويّ الموجودِ أعلى القطعة حيكت سورةُ الإخلاص كاملةً، وإلى جانبها عبارة "**اللهم صلِّ وسلّم على شفيع الأنبياء والمرسلين**" وكُتب في الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه قولُ الله سبحانه وتعالى:

﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٨٨/٢٨).

وفي الزجزاج الواسـع "**الله ولا سوى الله**" وفي الزجزاج الضيّق الموجود فوقَه نجد قولَ الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

وفي الزجزاج الواسـع كلمةُ التوحيد، وهناك قطعةُ قماشٍ تدخل ضمنَ هذه المجموعة (١٨٣/٢٤) كُتب على ظهرِها بالقلم "**هدية أحمد، إبراهيم، مصطفى**" ويُحتمل أنها أسماءٌ من حياكةِ ناسجِ القماش.

وهناك قطعةُ قماشٍ أُخرى ضُمّت إلى هذه المجموعة لأنّها تُشبهها من حيثُ نموذجُ الكتابة الذي عليها ومن حيث الورود التي تُزيّنها، (١٦٤٣/١٣) ولقد صُمّمت على الطرازِ الزجزاجِ على أرضيّةٍ خضراء عليها ستّة خيوط زجْزاجية؛ ثلاثةٌ واسعةٌ وثلاثةٌ ضيّقةٌ، وكُتب في الزجزاج الواسـع "**اللهم صلِّ على أشرف الأنبياء والمرسلين**" وفي الزجزاج الضيّق الموجودِ تحتَه "**من قال لا إله إلا الله دَخَلَ الجَنّة**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجودِ أسفلَه قول الله تعالى:

﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ (سُورَةُ الرَّحْمَنِ: ٥٥/٢٦-٢٧).

وفي الزجزاج الواسـع الثاني كُتِبَ "**محمد رسول الله، صادق الوعد الأمين**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود فوقه "**من صلّى عليّ مرّةً صلى الله عليه عَشرَة**" وفي الزجزاج الواسـع كُتب "**لا إله إلا الله الملك الحق المبين**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه كُتب "**من قال لا إله إلا الله دَخَلَ الْجَنّة**"، ويوجد في عرضِ القماش زجزاجان، وأما نهاية أطراف الجانبين فقد تم تثبيتها بالخيط المذهّب بخياطةٍ متعاكسة[١٨].

المجموعة الخامسة: طراز القنديل على الأرضية الخضراء

هي رسمُ القنديل على أرضيّةٍ خضراء اللون، وهذا الطرْزُ يوجدُ منه ثلاثةُ نماذج على شكل الغِطاء الكبير[١٩]، وتكرّر الرسمُ والكتابة الموجودان عليه أربع مرّات؛ ففي الزجزاج الواسع الأول كُتب "**يا كريم، يا غفور، يا رحيم، يا غفار**"، وفي الزجزاج الواسع الثاني كُتب "**اللهم لا خير إلّا خير الآخرة**"، وكُتب في الشريط الضيّق الذي فوقه "**لا إله إلا الله الملك الحقُّ المبين، محمّدٌ رسول الله صادق الوعد الأمين**"، وهذه الأغطيةُ تختلفُ بسبب توزيع الكتابة عليها، ويلفِتُ الانتباه أن هذا الغطاء لا يوجد عليه أيّة آية قرآنية، وأنه نُسج من أجل سيدنا العباس ﷺ.

المجموعة السادسة: المزينة بالأخضر الغامق الخالي من الورود

هي الأرضيّة الخضراء الغامقةُ التي لا يوجد عليها وردٌ، ويظهَر على قِسْمٍ منها كلمة "**ولا سوى**"، ويوجدُ على القسم الآخر منها كتابة مختلفةٌ، والقماشُ المكتوبُ عليه "**ولا سوى**"[٢٠] (٣٨٦/٢٤) يبدأ بمسافة بيضاء تبلغ (٢سم)، وتصميمُها يتكوّن من أربعةِ خيوط زجْزَاجية متكرّرة، وفي هذا التصميم يرى في الزجزاج الواسع كتابة "**الله أكبر، لا سوى محمد حبيب الله**" منقوشة، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه كتابة "**ورضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقية الصحابة أجمعين**" وفي الزجزاج الواسعِ الموجود أعلاه كتابة "**السلام عليك يا رسول الله**"، وفي الزجزاج الضيق الموجود أعلاه كتابة "**اللهم صلّ وسلّم على أشرف جميع الأنبياء والمرسلين**"، ويوجد بين مجموعةِ أقمشة القصر الكثيرُ من هذا النوع.

ويوجد قماشٌ من الطَّرْزِ نفسه عليه كتابة مختلفة (٣٨٢/٢٤)؛[٢١] حيثُ يوجد في عرض القماش زجزاجَان ويتكوّن تصميمه من أربعة خيوط زجْزَاجية، ويوجد في الزجزاج الواسع قول الله تعالى:

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٤٠/٣٣).

وقد كُتِبَت كلمة التوحيد في الزجزاج الضيّق الموجودِ أعلاه، وفي الزجزاج الواسع الثاني:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

وفي الزجزاج الضيق الموجود أعلاها "**اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم**".

نموذج للأستار المطرزة بأشكال القناديل على خلفيّةٍ خضراء [متحف قصر "دولْمَه باغْجَه"]



المجموعة السابعة: ذات الأرضية الخضراء الغامقة على شكل الخيوط الذهبية

هي مجموعة الأقمشة ذات الأرضيّة الخضراءِ الغامقة، وهي أنسجةٌ غليظةٌ من طرازِ مجموعة الخيوط المذهّبة. وهناك نموذجٌ من هذه المجموعة (٢٩٨/٢٤) يتكوّن تصميمُه من فراغٍ وزجزاجٍ واسعٍ وزجزاجٍ ضيّقٍ في أعلى القماشِ وفي أسفلِهِ، وفي الجزءِ الفارغ كتب "**الله، أحمد الله ربي**"، وكتبَ في الزجزاج الضيّق الموجودِ أعلاه "**رضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقيّة الصالحين أجمعين**"، وكُتِبَ في الزجزاج الواسع الموجود أعلاه كلمة التوحيد، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه الآية القرآنية:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٤٤).

ولا يُعتبر هذا القماش النادر استخدامُهُ نموذجًا متقدِّمًا، بل متأخِّرًا وعاديًّا لأنّ نسيجَه غليظٌ وخطَّه غيرُ مضبوطٍ.

المجموعة الثامنة: ذات "الجاكار"

المجموعةُ الأخيرة هي الأقمشةُ المنسوجةُ في مصنعِ الخِرْقَةِ الهمايوني في "إزميت (İzmit)" المستخدم فيها أسلوب "الجاكار"، وقد كان نموذجُ هذه المجموعة ملفوفًا ومحتفظًا به في مكانه (٦٣١/٢٤)[٢٢]، ولقد نُسِجَ هذا القماش -الذي يمثل نهاية القرن التاسع عشر- في الوُرَشِ ذات "الجاكار" التي كانت تُنْتِجُه في شكل سِلْسِلَةٍ، وقد كُتِبَ في الزجزاج الواسع "**الله ربي ولا سوى محمد حبيب الله**" وفي الزجزاج الضيّق الموجودِ أعلاه "**ورضي الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة أجمعين**".

وكتب في الزجزاج الواسع الثاني "**السلام عليك يا رسول الله**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه "**اللهم صلِّ وسلِّم على أشرف جميع الأنبياء والمرسلين**"، وهناك نوعٌ من هذا القماش تمّ وضعُه في إطارٍ وصارَ لوحةً[٢٣].

ويوجد -أيضًا- أقمشةٌ ذاتُ أرضيّةٍ حمراءَ نُسجت من أجلِ الروضةِ المطهّرة، وأشكالُ الأستارِ ذات الأرضيّة الحمراء طبقًا لتصميماتِها هي:

- ذات ميداليّة على شكل طبق.
- ما أُضيفَ إليه زجزاجٌ رفيع.
- من طراز الخيوط المذهّبة.
- ذات الأرضية الوردية.
- المصممة باللون البرتقالي على الأرضية الوردية اللون.
- و"الجاكار".

إن طرازَ ذات الميداليّة على شكلِ طبقٍ -المذكورَ ضمن مجموعة ذات الأرضيّة الحمراء من هذا القماش- قد أُضيفَ له زجزاجٌ رفيع.

ولقد تكرّرَ شكلُ هذا التصميم كما يلي:

كُتِبَت في الزجزاج الواسع عبارةُ "**لا إله إلا الله**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود تحتَه "**سورةُ الإخلاص**" كاملةً، وفي الزجزاج الضيّق الموجودِ أعلاه "**سورة الكوثر**" كاملةً أيضًا، وفي الزجزاج الواسع الآخر رُسِمَت ميدالية روملي -إحدى الميداليات والأوسمة الفخرية العثمانية- وأعلاها كُتب "**الله، محمد**"، ومن نماذج هذا القماش (٤٥٣/٢٤، ٤٥٢/٢٤) توجد قطعتان مشقوقَتان من الوسط تكمّل كلٌّ منهما الأخرى[٢٤]، وهناك أثرٌ آخر من هذهِ المجموعة (٦٤٧/٢٤-٩٠)[٢٥] وُزِّعَت عليه الكتابة بالطريقةِ السابقة نفسها، ويلاحَظُ عليه أن خطوطَ التصميمِ فيه أبسطُ، وأنّ جودةَ النسيج فيه أقلّ.

وفي هذه المجموعةِ يوجَدُ قماشٌ عليه نفسُ شكلِ الكتابةِ السالفةِ وقد لوحِظَ عليه أنّ جودةَ نسيجِهِ أقلّ، وأنّ خطوطَ تصميمِهِ أكثرُ حِدَّةً (٤٨١/٢٤)[٢٦]، وأمّا رؤوسُ الورودِ الموجودةُ بين الكتابةِ فهي تُشْبِهُ النجمَ ذا الفروعِ الكثيرةِ، ويُشيرُ وجودُ شريطين أحمرين مُخاطين فيه إلى أن هذا القماشَ كان يستخدم كسِتارة.

وهناك نموذجٌ آخرُ يَظهرُ توزيعُ الكتابةِ فيه مُطابِقًا لِما هو على الأقمشة الأخرى بالضبط (٦٤٧/١٣)[٢٧] وفي عرض القماش يوجدُ ستّةُ خيوط زجْزَاجية، لكنّ حروفَ الكتابة وفسادَ الخطّ وفسادَ جودةِ حريرِ النسجِ تساعِدنا في تحديدِ تأريخهِ بأنّه يرجِع إلى بداية القرن الثامن عشر.

يوجدُ منه نموذجٌ واحدٌ على طراز الخيوط المذهّبة (٥٢٨/٢٤) وعلى طراز الزجزاج فوق أرضيّة حمراء ونسيج بالخيوط المذهّبة والفضّيّة، وقد كُرِّرَ هذا التصميمُ ستَّ مرّات[٢٨]، وهناك زجزاجان مكرّران في العَرْضِ، وكتبت في الزجزاج الضيّق سورةُ الإخلاصِ كاملةً، وفي الزجزاجِ الواسعِ الموجود أعلاه "**اللهم صلّ وسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين**"، وفي الزجزاج الضيق كُتِبَ قول الله تعالى:

﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٨٨/٢٨).

وفي الزجزاج الواسع الموجودِ فوقَه "**الله ولا سوى الله**"، وفي الزجزاج الضيّق قول الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

أما في الزجزاج الواسع فقد كُتبت كلمة التوحيد، ولم يعثُرْ أحدٌ على نموذجٍ آخر من هذا القماش المكوّن من ستّ قِطعٍ، وأما نسجُه بالحرير والكثير من الخيوط الفضّيّة وكونُه مرّ بعمليّة شدٍّ واسعةٍ بعد الانتهاء منه وعدمُ وجود نموذجٍ آخر منه، كلُّ هذا يجعلنا نعتقِدُ أن هذا القماش قد نُسِجَ لهدفٍ مخصوصٍ.

أما النموذجُ ذو الأرضيّة الورديّة فهو قطعةُ قماشٍ يبلغُ طولُها أربعةَ أمتارٍ (٤٨٢/٢٤)[٢٩]، وفي عرضِ القماشِ يوجدُ زجزاجان، وكُتب في الزجزاج الواسع "**اللهم صلّ وسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين**" وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه: ﴿**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٨٨/٢٨).

وفي الزجزاج الواسع "**الله ولا سوى الله**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه نجِدُ الآية الكريمة:

﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ: ٥٦/٣٣).

وفي الزجزاج الواسع كلمة التوحيد وفي الزجزاج الضيق الموجود أعلاه سورة الإخلاص كاملة، وتوزيع الكتابة على هذا القماش يشبه توزيع الكتابة على القماش ذي الأرضية الخضراء (٢٨٦/٢٤ و٢٨٨/٢٤).

لقد أُدخل -في نهاية القرن التاسع عشر- الكثيرُ من الشرائط في الأقمشة التي يُراد الكتابة عليها، وبدأ الناسُ يُجدّدون ألوان الأرضيّات المعتادة، وعلى سبيل المثال فقد نُسِجَت أقمشةٌ وصمّمت باللونِ البرتقاليّ على أرضيّةٍ ورديّةِ اللون (٥١٦/٢٤)[٣٠]، ولا يوجد في المجموعةِ من هذا القماشِ سوى قطعتين قد أُحيطَ ظهرهما وجوانبهما بالأطلسِ اللامعِ، وتصميم الكتابة الموجود عليهما يأتي بالترتيب كما يلي: "**رضيَ الله عن**



القبة الخضراء ومآذن المسجد النبوي [ألبومات يلدز٩٠٧٤٧-٢ - جامعة إسطنبول]

أبي بكرٍ وعمرَ وعثمان وعليّ وعن بقيّة الصحابة أجمعين" و"**الصلاةُ والسلامُ عليكَ يا رسول الله**" و"**اللهمَّ صلّ وسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين**" و"**ربي الله ولا سوى محمد حبيب الله**".

ونموذجُ القماشِ ذي الأرضيّة الحمراءِ المنسوجِ طبقًا لتقنيّة "الجاكار" يكون قريبًا من شكلِ الكُرَةِ (٦٣٠/٢٤)[٣١]، وقد كان يُكتَبُ على الأرضيّةِ الحمراء بالحريرِ الأصفرِ، وهناك الكثير من الأدعيةِ المكتوبةِ بخطّ الثُلُثِ، وهي تحتلُّ مكانها على نحوٍ مرتّب في الخيوط الزَّجْزَاجية، فقد كُتِبَ في الزجزاجِ الواسع "**الله ربي ولا سوى محمد حبيب الله**"، وفي الزجزاج الضيّقِ الموجودِ أعلاه "**ورضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن بقية الصحابة أجمعين**"، وفي الزجزاج الواسع الثاني "**الصلاة والسلام عليك يا رسول الله**"، وفي الزجزاج الضيّق الموجود أعلاه "**اللهم صلّ وسلّم على أشرف الأنبياءِ والمرسلين**".

إن الخاصّيّةَ التي تبين إن كانت الأقمشةُ التي نُسِجَتْ من أجل الحرمَين الشريفَين مرسلةً إلى مكّة المكرّمة أم إلى المدينة المنوّرة؛ هي الآياتُ والأحاديثُ الموجودةُ في تصميمِ الكتابةِ وتوزيعِها، وبصفةٍ عامّةٍ يرسل

القماشُ ذو الأرضيّة الخضراءِ إلى المدينة، والقماش ذو الأرضيّة الحمراء إلى مكّة، ونجد الآيات المتعلّقة بالمدينة وقد نُسجت على أقمشةٍ ذات أرضيّة حمراء، ومن هنا نحكم بعدمِ صحّة مقولةِ "إنّ القماشَ ذا الأرضيّة الحمراءِ كان للكعبة أما القماش ذو الأرضيّة الخضراء فكان للروضة المطهّرة"، وإن ممّا يشكّلُ أهمّيّةً في كيفيّةِ الفصلِ بين الأقمشةِ هو الآياتُ المكتوبةُ عليها؛ هل هيَ متعلّقةٌ بالكعبة أم بسيّدنا محمد ﷺ.

الاستخدامُ الثاني للأستار الدينية

كانت الأستارُ الدينيّة المرسلة إلى الحرمين الشريفين مع موكبِ الصُّرّة تُجَدّد كلّ عام، وطبقًا للعادات المتبعة في ذلك فقد كان يتمّ إرجاعُ القديمة، وعادةُ تقسيمِ الأستارِ القديمةِ إلى قِطَعٍ وتوزيعِها ساريةٌ منذُ عهدِ أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أما المؤرخ "أُوزُون جَارْشِيلِي (Uzunçarşılı)" فيقول:

> *"كان يتم تجديد كسوة الكعبة في مكّة المكرمة والروضة المطهّرة في المدينة في فترةِ الإقامة والجلوس في كلٍّ منهما، وكان من القانونِ أن يُرسِلَ أميرُ مكّة المكرمة الكسوة القديمة إلى إسطنبول، وكانت تأتي هذه الكسوة إلى "أُسْكُودَارْ" عن طريق البرّ، ويتم نقلُها إلى مسجد أبي أيّوب الأنصاري باحتفالٍ خاصٍ بها وتوضَع على قبرِ أبي أيّوب الأنصاري، ثم تُنقَلُ إلى القصر عن طريق "أَدِرْنَه قَابِي" وسطَ تكبيرِ وتهليلِ العلماء والمشايخ والساداتِ ورجالِ الدولة، وبما أن "سَلَانيكي" قد كتب هذا في وقائع سنة (١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) فيفهم أن هذه العادةَ أقدمُ من هذا التاريخ"*[٣٢].

عندما تُكسى الكعبةُ والأماكنُ المقدّسة الأخرى بالكسوةِ الجديدةِ تُوزّع الكسوةُ القديمة على الحجيج، ولهذا السببِ يوجَدُ إلى يومنا هذا قِطَعٌ من الكسوة السوداءِ للكعبة وتتوفّر القِطَعُ المشغولةُ بالكتابة داخلَ الخيوط الزَّجْزَاجية، وترى الأستارَ الداخليّة ذات الحرير الأحمر والأستارَ ذات الحرير الأخضر الخاصّة بالروضة المطهّرة في المجموعات الخاصّة وفي المتاحف، لكنّ الأقسام المشغولةَ والمرصّعةَ بالذهب أو النفائس مثلَ ستارةِ باب الكعبةِ وحزام الكعبة -مع الأسف- كانت تُقطَّع وتُجزّأ للاستفادة من الذهب الموجودِ فيها، أمّا الباقي فكان يُجلب إلى "إسطنبول" ويُحفَظُ في القصر، وكان الأودانجي[٣٣] يقوم بالعناية بالأستارِ المرسَلة إلى القصر تحت إشراف "كَتْخُدا الخزينة"، حتى إنه في مرّة من المرّات أُشيع أن كتخدا الخزينة "محمد بك" قد سرَقَ الجواهرَ الموجودة على الأمانات المقدّسة الموجودة في القصر ولكي يُخْفِي هذا ألقى جزءًا منها في بئرٍ والجزءَ الآخَرَ في البحر في "سَرَايْ بُورْنُو (Sarayburnu)"، وبعد ذلك حُبِسَ "محمّد بك" في القصر، ودُعي كلّ الوزراء إلى قصر "طُوبْ قَابي" وعُرِضَتْ الأماناتُ المقدّسة، وتَبَيّن أنه لم يسرقْ منها أيّ شيء، والحقيقة

أن "محمد بكْ" كان مهمومًا بتنظيفِ الخزينةِ الخاصّة وقد تراكمت الكسوةُ واللفائف البيضاء القادمة مع الصُّرّة كلّ سنة، وسأل أَحدَ المُفْتِين المُعيَّنين في القصرِ عما يجبُ فعلُه بها، وبناءً على الجواب الذي تلقاه منه أمرَ بإلقاءِ بعضها في بئرٍ وبعضها في البحر، ولكنّ "محمّد بك" لم ينجُ من العِقاب حيثُ عوقِب بالنفيِ إلى "قبرص"[٣٤]، والأستارُ التي تُعَدُّ سليمةً والتي وصلَت حتى هذا العصرِ سُجِّلَت في خزينةِ أمانات متحف قصر "طُوبْ قَابي"، وحُفظ ما كان من الستائر قبل ذلك في خزينة "السِلَاحْدَارْ" في دائرة خرقةِ السعادة[٣٥]، وفيما بين عام (١٩٥٩-١٩٦٠م) تمّ ترميمُ دائرة "يَاغْ خَانَة (Yağhane)" التي كانت تشكّل قسم مطابخِ القصر من قبل، وأضحى هذا المكان مخزنًا للقماش ونُقلت إليه الأستار[٣٦].

فالصُّرّة المرسَلةُ من "أوقاف الحرمين الشريفين" من قبل "أغوات دار السعادة" في "الأَنْدَرُونْ" اعتبارًا من سنة (١٥٨٧م) أُخذت من أغوات دار السعادة بعد سنة (١٨٣٦م) وسُلِّمت إلى نظارة أوقافِ الحرمين الشريفين[٣٧]، ولذلك فهناك وثائقُ وأستارٌ في الأرشيف العثمانيّ التابع لرئاسةِ الوزراءِ، وأرشيفِ قصر "طُوبْ قَابي" وأيضًا في أرشيفِ مديريّة الأوقاف العموميّة، وهذا يظهرُ أنه مثلما وُزِّعت وتناثرت الوثائقُ فقد وزِّعت وتشتتت أستارُ الكعبة إلى حدٍّ ما، لا سيّما أنه يوجد في متحف آثارِ الوقف الموجودِ في "بايزيد" كسوةُ الكعبة وجزءٌ من نطاقها، وفي رئاسةِ مديريّة الأوقاف في "أَنْقَرَه" توجد كسوةُ الكعبة وأستارُ الكسوةِ الشريفة ولفائفُ الشرائط الخاصّة بفصل الستارة،[٣٨] ولا جرمَ أنه يصعب إحصاء الأستار الموجودة في المنازل والمتاحِف خارج تركيا والموزّعة على الجوامع والمقابر؛ وما ذلك إلا لكثرتها وكثرةِ تقسيمها وتوزيعها[٣٩].

ولقد اعتُبرت هذه الأقمشة مقدّسة لذهابها إلى الأماكن المقدّسة وعودتها منها، وقد أعيد استخدامها لأغراض عديدة، كان أكثر استخدامها كغِطاء صندوق[٤٠]، بخلاف هذا فقد أُعيد استخدامُ هذه الأستار كلوحات وكيس مفاتيح وصدرية وجاكت وطاقيّة وقفطان قصير وكيسٍ للمصحف[٤١].

ولا يمكنُ التفريق بين هذه الأستار وبين أقمشةِ القصر من ناحيةِ الجودة، لأنّها معدّة للأماكنِ المقدّسة ومرسلة من قبل الإمبراطوريّة العثمانيّة، ولكنّ استخدامَها كان مختلِفًا عن الأقمشةِ الأخرى الموجودة بالقصرِ، ويُعرَفُ المكان الذي استُخدمت فيه هذه الأقمشةُ مما كتب عليها من الآيات والأحاديث النبوية؛ فالكتابة المنسوجةُ على كسوة الكعبة وستارةِ الروضةِ المطهّرة تكون عبارةً عن آيات من القرآن الكريم متعلقة بهذه الأماكن، كما تمّ اختيارُ الأدعيةِ والأحاديث للهدف نفسه.

ويُرى في الكتابة المستخدَمة في تصميمِ رسمِ الأقمشة الدينية المرسَلة إلى الحرمين الشريفين من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين خطوط مثل الكوفيّ والنسخِ والثُلُثِ والجَلِي، ويُحتمل أنّ تجهيزَ قوالبِ



موكبُ الصرّة متقدّمًا من "دُولْمه بَاغْجَه" إلى ميناء "قَباطَاش" [تصوير: "سيبه (Sebah) و"جويلر (Joaillier)" معهد المتحف الألماني للحفريات، إسطنبول، (رقم الفيلم: ٧٦٨٥)]

الخطوطِ كان يتم من قِبل الخطّاطين المشهورين في تلك العصور، وقد وُضعت الكتابات داخِلَ خيوط الزجْزَاج وأَخذت شكلًا هندسيًا، بينما الأماكنُ الخاليةُ في تصميم الزجزاج مُلِئت بالأشكالِ الصغيرة ورُوْعِيَتْ فيها قاعدةُ فنِّ الزينةِ الخاصّةِ بمَلءِ الفراغات الموجودة، بالإضافةِ إلى هذا فإنّ انخفاض جَودةِ النسيج الظاهر في الأقمشةِ والمنسوجات العثمانيّةِ اعتبارًا من القَرن الثامن عشر يَظهَر في هذهِ الأقمِشةِ في انحلالِ بعضِ عُقَدها، وفساد رسْمِها وذهابِ ألوانها وقلّةِ جَودةِ الموادِّ المستعمَلَة فيها، أمّا نماذجُ القرنِ التاسِع عشرَ فقد نُسجت في الورَش ذات "الجاكار"، وقد زادَ وسَرُعَ إنتاجُها.

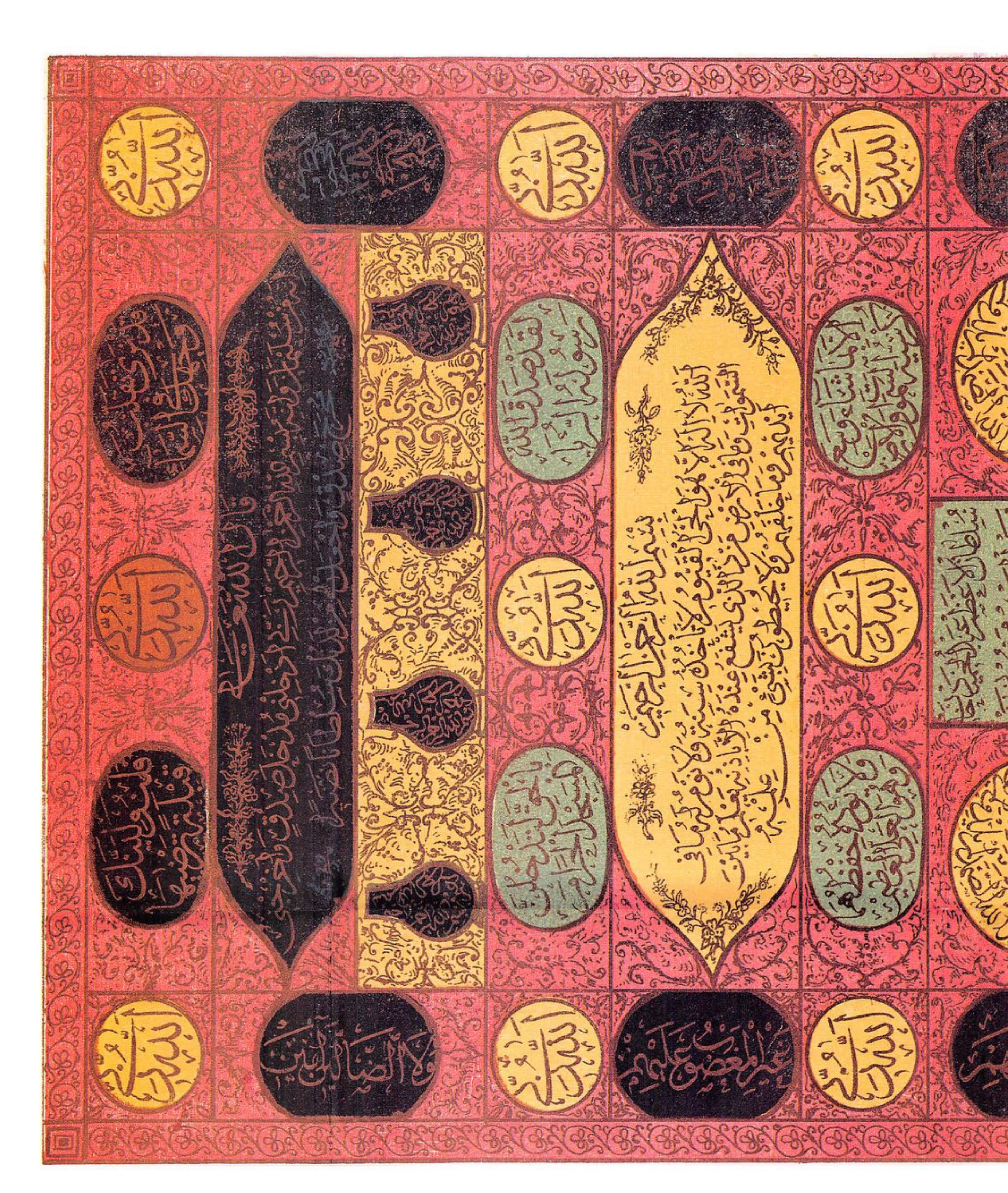
وتُظهِرُ أشكالُ سَعَفِ النخيلِ وحروفُ الخطّ الكوفيّ التي احتلّت مكانًا في أعلى الخيوط الزَّجْزَاجية في النماذجِ القديمةِ تأثيرَ المماليك، أما نماذجُ الفترة الأخيرة -التي تميّزت بتزيين فراغات الكتابة وحروفِ الكتابة بالوردِ وزيادةِ تكرار الرسم وزيادة الرسم- فهي تعكِسُ السِّمَةَ العثمانيّة، ومن خلال هذه الأقمشةِ يمكن متابعةُ تغيُّرات الكتابة وأشكالِ التزيين عبرَ فترةٍ زمنيّة تبلغُ أربعمائة سنة.

الخاتمة:

إننا نرى أنّ أوضحَ ميّزةٍ في الحريرِ العثمانيّ المستخدَم في الأقمشةِ الدينيّة هو تكرارُ الرسمِ في عرضِ القماش وطولِه وتنظيمه على شكلِ قالب، وإنّ نظام تثبيتِ الرسْمِ يكون بتثبيته فوقَ بعضِهِ وتكراره بشكلٍ منتظِمٍ، ورغمَ أنّ الأقمِشةَ كانت تُنسَجُ في مصرَ بصفة دائمة إلا أنها بعد القرن السادس عشر كانت تعكِسُ ذوقَ القصر العثماني وتُجسّده في منسوجاتها، وهذا يُظهر أن نماذج الرسم الموجودةَ قد أُرسلت من قِبَلِ نقّاشي القصر الذين كانوا في القصور العثمانية، ولقد كان النظام المستخدم في القماشِ المحدّد بتصميماتِه وأشكالِ رسومه وتوزيعِ الكتابةِ عليه مُهمًّا؛ إذ يضعُ أمامَ أعيُننا تطوّرَ التصميمِ الحاصِلِ في الأقمشةِ الدينيّة فيما بين القرنين السادس عشر والعشرين.



رسم دقيق لستار باب الكعبة المشرفة [من كتاب "مرآة الحرمين"]



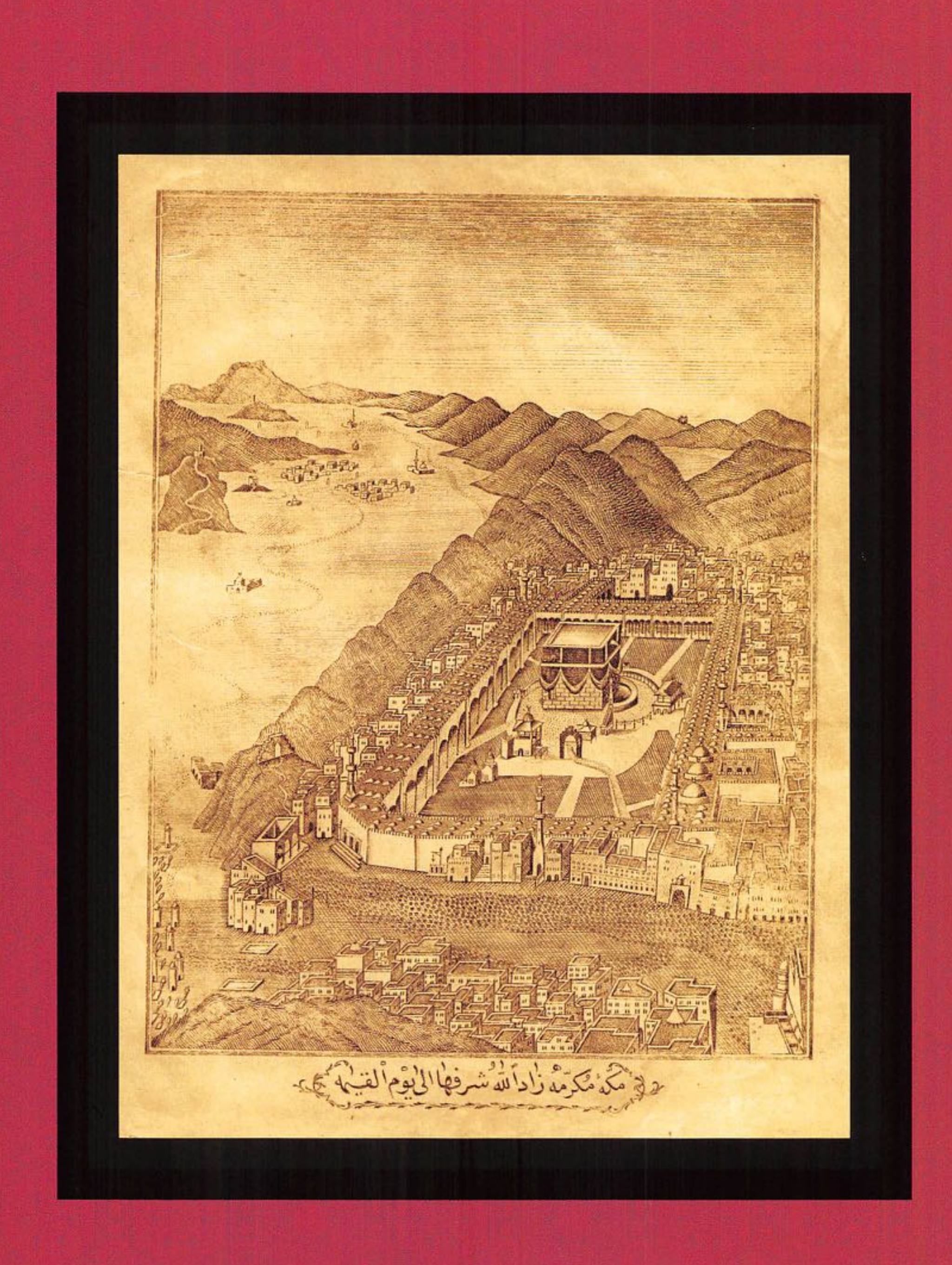
تفصيلُ نفقاتِ كسوةِ الكعبة (١٣٠٧هـ/١٨٩٩م)[١]

ملّيم	جنيه	توضيح
-	١١٢٢	ثمن (٦٦٠) أُقّة حرير، سعر الأقه الواحدة (١٧٠) قرشًا.
٧٥٠	١١٩٦	ثمن (١٦٠٠٠) مثقال من المخيش البلدي الأصفر، سعر المثقال (٥,٢٥) قرشًا و(٦٥٠٠) مثقال من المخيش البلدي الأبيض سعر المثقال (٣,٢٨) قروش.
-	١٣١٠	أجرة تزيين المخيش.
١٩٠	٥١	أجرةُ فتلِ الحرير.
١٠٠	١٣٧	أجرة صباغة الحرير.
٢٢٠	١١	ثمن أطلس ساس أخضر وأحمر.
٢٠٠	٤	ثمن غزل كتان.
٨٥٠	٢٤	ثمن قطن مفتول.
٧٥٠	٣	ثمن أمشاط قماش بوص جديدة وأجرة تصليح القديمة.
٨٥٠	-	أجرة الجدل والفتل.
٥٧٠	٤	أجرة فتل الحرير.
٧٢٠	٦	ثمن أصناف من الحرير المصبوغ.
٨٣٠	١	أجرة نسيج أصناف القطن.
٣٣٠	٢	أجرة صباغة حرير وغزل ملون.
٧٢٠	١	ثمن أباريق نحاسية يوضع بها ماء الورد.
٥٥٠	٦	أجرة حياكة الورود والتزيينات الخارجية.
٧٤٠	-	ثمن "أحبال دوبارة" من التيل الشامي.
٣٦٠	١	ثمن لباد صوف.
٨٨٠	١٧	ثمن بافته عريضة محددة سمراء خام.
٩٣٠	١١	ثمن أصناف فضية، كنتير وترتر وغيرهما.
٧٤٠	٢	ثمن أزرار فضّية.
٢٦٠	١	ثمن ماء ورد.
٩٠٠	٧	أجرةُ تفصيلِ وخياطةِ الكسوة.

مليم	جنيه	توضيـح
٢٠٠	-	ثمن دمغتين.
٨٠	٢	أجرة ركوب الكسوة وتوابعها بالسكة الحديد.
٢٢٠	٨	نفقات جزئية عند تزيين الكسوة.
٢٧٠	٦	ثمن مياه.
٤٨٠	٤	أجرة نسج الحرير.
٨٠٠	٢١٧	أجرة العمال الذين ينسجون الكسوة.
-	٣٠	مرتب "محصل الضرائب"، وزيد مرتبه إلى (٤٢) جنيهًا من أول (١٨٩٤م).
٣٧٠	٢٢	أجرة وضع سديات الكسوة على النول.
٥٥٠	٧	أجرة لف سديات الكسوة على ثقوب "المطاوي" التي بالأنوال.
٩٥٠	٥	أجرة تنظيف حرير الكسوة ممّا فيه من العُقد والخيوط الرفيعة، ويعرف ذلك "بالتزييك".
٥٥٠	٣	نفقات جزئية في نسيج الكسوة وعوائد الرؤساء ومكافآت تصرّف يوم الموكب.
٢٥٠	١	لكبير رؤساء الصناع يوم شدّ أمتعة الصرّة.
٢٥٠	-	لرئيس الحمّالين يوم الشدّ.
٤٢٠	٣	أجرة ركوب للموظّف يوم الاحتفال بالكسوة.
٤٨٠	٣١	أجرة رئيس الصناع.
٤٣٠	١٥	للرسم.
٦٣٠	٢	لكبير الرؤساء، جنيهان وأربعمائة وثمانون مليمًا (٢٤٨٠) يوم الموكب، (٠,١٥٠) ومائة وخمسون ملّيمًا يوم الحزم، وازداد بعد ذلك من سنة (١٨٩٦م) إلى ثلاثة جنيهات، وأما الآن فهو خمسة جنيهات وستمائة مليم.
٥٨٠	٢	لرئيس الحمالين (٢,٣٣٠) جنيهان وثلاثمائة وثلاثون مليمًا يوم الموكب، (٠,٢٥٠) ومائتان وخمسون ملّيمًا يوم الحزم، وصار ثلاثة جنيهات من سنة (١٨٩٦م) ومن ضمنِ ذلك جنيه ونصف للشيخ الشيبيّ.
٤٥٠	١	للفقيه الذي يقرأ القرآن أثناء العمل، وصار (٢,٥) اثنين ونصف من سنة (١٨٩٣م)، وازداد إلى ثلاثة جنيهات من سنة (١٨٦٩م).
-	٣	أجرة حفظ أدوات الوزن في المخزن.
٥٠٠	١	الرجل المكلّف بحماية مقام أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام، وصار جنيهين من سنة (١٨٩٦م).
٤٥٠	-	لمن يقوم بالأدعية وإلباس الأقبية القفاطين، وصار (٥٠٠) مليم من سنة (١٨٩٦م).
٣٥٠	-	لنقيب الإشارات السعدية، صار (٥٠٠) ملّيم من سنة (١٨٩٦م)، والآن (٧٠٠) مليم.

مِلّيم	جنيه	توضيح
٤٠٠	-	لحاملي الأحزمة، صارت (٥٠٠) مليم من سنة (١٨٩٦م).
٥٠٠	-	لشيخ الحزّامين.
٣٠٠	-	لحمّالي المنسوجات اليدويّة على الشكل اللولبيّ، صارت (٥٠٠) مليم من سنة (١٨٩٦م).
٧٠٠	-	لضوئي المؤسّسة، صارت جنيهًا من سنة (١٨٩٦م).
٢٥٠	-	لحمّال الضوء والمشاعل.
٨٠٠	-	للمزركِش
٢٠٠	-	لصنّاعي الفرش في مبنى حراسة مصر، صارت (٥٠٠) مليم من سنة (١٨٩٦م)، وهي الآن (٧٠٠) مليم.
٩٠٠	-	لحمّالي أحمال الكسوة، صارت جنيهًا بعد سنة (١٨٩٦م).
١٠٠	-	للخادم، صارت (٢٥٠) مليمًا من سنة (١٨٩٦م).
٢٠٠	-	لحمالي مقام الخليل ابراهيم يوم الموكب، صارت (٥٠٠) مليم من سنة (١٨٩٦م).
٣٥٠	-	لنقيب الرفاعية وأرباب الإشارات الباطنية يوم الموكب، صارت (٥٠٠) مليم بعد عام (١٨٩٦م)
٣٠٠	-	للخيّامين والقفطانيّين في يوم الموكب (١٥٠) وفي يوم الحزم (١٥٠) ملّيمًا مناصفةً بينهما، وهي الآن (٥٦٠) ملّيمًا.
٤٥٠	-	لكاتب المؤسسة، صارت ثلاثة جنيهات من سنة (١٨٩٦م).
١٥٠	-	لفرّاش المؤسسة، وظلت هكذا أيضًا بعد عام (١٨٩٦م).
٧٦٠	-	لنجار أخشاب مواكب الكسوة ـ صارت جنيهًا من سنة (١٨٩٦م).
٩٠	-	مكافأة بمسجد الحسين تُصرف يوم الحزم باسم محمد حمودة، وهي الآن (٩٠٠) مليم.
٥٥٠	-	مكافأة بمسجد الحسين تُصرف يوم الحزم باسم السيّد الحنّاوي.
٣٥٠	-	تصرف للمزركش يوم الموكب لخياطة الكسوة ـ صارت (٥٠٠) ملّيم من سنة (١٨٩٦م).
١٥٠	-	للفران، ثمن الوقود الذي يسخن به المخيش.
٨٠٠	-	للشرطة الذين يحضرون إلى المؤسسة يوم الموكب، صارت جنيهًا من سنة (١٨٩٦م).
-	٤	للمزركشين نظير تسخين المخيش.
-	٥٥	نفقات صنع ستارة المنبر في المسجد الحرام.
٥٥٠	١٢٨	احتياطي لما قد يطرأ من الزيادات أو يُحتاج إلى شرائه.
-	٨٠	ما ينفق ليلة الاحتفال بالكسوة زيد ٢٠ جنيهًا من سنة ١٨٩٣م، وهي الآن ١٥٠ جنيهًا.
-	٢٠	نفقات محل الاستقبال -النُزُل- ليلة الاحتفال
٨١٠	٤٦٠٠	جملة مربوط الكسوة.




مکه مکرمه زاد الله شرفها الی یوم القیمه



الفصل الرابع:

قوافلُ الحجّ العثمانيّة وطريقُها وموكبُ المولدِ النبويّ



لوحة فنّية تُصَوّر موكب الصرة والمحمل الشريف والراية الشريفة [مجموعة دار النشر "الكنز المفقود"]





قوافل الحجّ العثمانيّة في كتب رحلات العصر القاجاري

إعداد: أسراء دُوغَانْ (Esra Doğan)[1]

ترجمة: أحمد كمال

في أعقاب سيطرة الدولةِ العثمانيّة على العراق ومصر والشام والحجاز مع بداية القرن السادس عشر؛ اضطرّ الإيرانيّون إلى العبور من الأراضي العثمانية والإقامة بها كي يتسنى لهم الذهابُ إلى الحجّ وأداء فرائضه في الأراضي المقدسة، وفي مقابل ذلك فكان ينبغي لسلاطين آل عثمان توفير الإمكانيات اللازمة من أجل تأمينِ الطرق للحجيج الإيرانيين وتمكينِهم من أداء فرائض الحجّ في أمانٍ وسلام، مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ سائرِ الحجّاج المسلمين الوافدين من كل حدب وصوب، وذلك حسبما يقتضيه لقبُ "**خادم الحرمين الشريفين**" و"**خليفة المسلمين**" الذي حازه العثمانيّون.

وبما أن عبادةَ الحجّ تعني في جوهرها اجتماعَ كافّة المسلمين في مكان واحدٍ مع نسيان جميع الخلافات والتناقضات فيما بينهم -أي هي نوعٌ من أنواع التوحيد- فقد كان يتحتم على المنتسبين إلى دولتين متعارضَتَين ومتنافِسَتَين سياسيًّا -أي الدولة العثمانية والقاجاريّة- تنحيةُ الخلافات جانبًا أثناءَ أداء هذه الفريضة على أقلّ تقدير.

وبشكلٍ عام فإنّ فريضةَ الحجّ، والسفر لأجل أداء هذه الفريضة خاصةً كان من المجالات والفعاليات التي سمحت للدولتين وشعبيهما بالتواصل مع بعضهما البعض، ولا سيّما فقد صارت الاتصالاتُ التي كان يقوم بها التجّارُ والمسؤولون الإيرانيّون رفيعو المستوى الذين فضّلوا طريق إسطنبول للذهاب إلى الأراضي المقدّسة، وكذلك تواصُلُهم مع رجال الدولة العثمانيّة الذين استضافوهم في عاصمة الخلافة، صار كلُّ ذلك سببًا في تحويل هذه الرحلة الدينية إلى جوٍّ سياسيّ في بعض الأحيان، وأما سائر الحجّاج الإيرانيّين الآخرين الذين كانوا يُفَضّلون طرقًا متباينةً للذهاب إلى الحجاز بخلافِ طريق إسطنبول فقد كانوا يتعاملون مع جنود الحراسة ورجال السياسة والإدارة العثمانيين بشكل أو بآخر.

ثوب باب الكعبة المشرّفة من الكسوة الشريفة المرسلة مع موكب الصرة [أرشيف "يوسف قَازكيلي"]



الرحالة الإيرانيون يوردون معلومات مهمة في كتب رحلاتهم بشأن الصرة الهمايونية والحجاج، ومنهم (من اليمين إلى اليسار): "إعتماد السلطنة" و"معتمد الدولة" و"حِسام السلطنة"

وقد تناولَ بعضُ الكتّاب الإيرانيّين أحيانًا هذه الرحلات والأحداث التي وقعت خلالها، حيث إن أغلبهم على دراية باللغة التركية، وعليه فقد تشكل إثر ذلك أدب رحلات ومذكرات رحلات تتناول هذه الأحداث والوقائع،[٢] وتشير بعض المصادر إلى أن عبورَ الإيرانيّين، وعلى وجه الخصوصِ في عهد الدولة "الصفويّة"، من المناطق الحسّاسة التي تُعاني من اضطرابات مذهبيّة، مثل منطقة شرق الأناضول والشام، كان يتمُّ في ظلّ رقابةٍ صارمة من جانب العثمانيّين.

وقد طُولِبَ هؤلاء الأشخاص بالذهاب إلى الحجّ فقط عن طريق الشام وهو طريق العبور الرسميّ وعدم استخدام الطرق الأخرى بحجّة عدم توفُّر الأمن بشكل كافٍ، وأما في عهد "القاجاريّين"، فقد هدأت الأمور بعضَ الشيءِ ولم يصادِفِ الحجّاج الإيرانيّون الكثيرَ من المشاكل في طريقهم إلى الأراضي المقدّسة اللهمَّ إلا بعض المشاكل في طريق الجبل (طريق الجبل ما بين النجف والمدينة).

كان الحجيجُ الإيرانيّون يختارون طُرُقَ عبورِهم لتوافِقَ المرور عبر مدينتي "النجف" و"كربلاء" قبل الحجّ وبعده لرغبتهم في التشرّف والتبرّك بزيارة أضرحة أئمّتهم المدفونين في هاتين المدينتين، وفي حالة رغبة الحجيج في الذهاب إلى الحج برًّا عبر العراق؛ فكان عليهم المفاضلة بين طريق الجبل -الذي هو أقصر نسبيًّا مقارنة بالطرق الأخرى إلا أنه أكثر خطورةً- وطريق الشام الذي يعتبر أكثر أمنًا مقارنة بالطرق الأخرى، وأما الحجّاج الإيرانيّون الذين كانوا يرجّحون طريق الشام والمشاركة في القافلة العثمانية الرسميّة التي تمرّ عبرَ الشام الشريف، فكان لديهم طريقان اثنان، فكان المشاركون في هذه القافلة يصِلون مدينةَ حلب المحميّة عبر الطريق السفليّ عبورًا من النجف وكربلاء بعد زيارة أضرحةِ الأئمة في (الكاظميّة - الرمادي - المدائن - دير الزور - تدمر - الشام)، أو عبر الطريق العلوي والسير بمحاذاة نهر الفرات، أي العبور عبر (الكاظمية - سامرّاء - الموصل - أورفا) ويزورون ضريحَ سيدنا إبراهيم عليه السلام،[٣] ومن هناك يصلون إلى حلب.

وأما التجّار والشخصيّات الرسميّة والسياسيّة ورجال الدولة، فكانوا يتّخذون طريقًا أطول من الطرق السابقة وذلك من خلال الذهاب إلى البحر الأسود عبر (باكو - تفليس - باطوم)، ثم الانتقال إلى إسطنبول بحرًا ومن هناك إلى مصر ثم الوصول في النهاية إلى جدّة، وكان يُطلق على ذلك الطريق "طريق إسطنبول".

وأما الطريقُ البحري الذي كان يفضّله الناس العاديّون فيختلف كثيرًا عن ذلك الطريق، فهؤلاء الأشخاص كانوا ينزلون في البداية إلى "خليج البصرة"، ومن هناك يتوجهون إلى مدينةِ "جدة" -ميناء مكة المكرمة- أو مدينة "يَنْبُع" -ميناء المدينة المنوّرة- عبرَ الدوران حولَ شبه الجزيرة العربيّة، وكان من يَصِلُ إلى "ميناء" جدة ينتقلُ برًّا إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة برفقة الحجاج الآخرين تحت حماية الحرّاس العثمانيّين، وأمّا حجيجُ إسطنبول القادمون إلى "الشام" عبر "العراق" وكذلك الحجيج القادمون من "خليج البصرة" كانوا يصلون إلى "مكّة المكرّمة" و"المدينة المنورة" برفقة قافلة الشام الرسميّة العثمانيّة التي أَشَرْنا إليها آنفًا.

ويذكرُ عددٌ من كُتُبِ الرحلاتِ المدوّنة قبل عهد "القاجاريّين" بشكلٍ تفصيليٍّ للغاية الطُرُقَ والمعابرَ التي كان يمرُّ منها الحجيجُ الإيرانيّون والتي سعينا لشرحِها أعلاه، وقد دوّن هذه الكتب عددٌ من الأدباءِ الفُرْسِ الكبار أمثال "ناصر خسرو" (ت: ٤٣٧هـ) و"خاقاني" (ت: ٥٥١هـ) و"الأبيوردي" (ت: ٨٩٨هـ) و"مراد آبادي" (ت: ١٠٢١هـ) و"كشميري" (ت: ١١٥٤هـ) و"بانوي أصفهاني" (توفي في نهاية القَرن الثاني عشر هجري) و"الشيخ جبل العاملي" (ت: ١٠٣٣هـ) و"المجلسي" (ت: ١٠٤١هـ) و"مشيزي" (ت: ١٠٨٩هـ)، وكذلك فهناك أربعةٌ وأربعون كتابَ رحلاتٍ قمنا بإحصائهما وهي ما تزال في طور الكتابةِ بحيث أُلِّفتْ في الفترة ما بين

(١٢٦٠ - ١٣٣٨هـ)، وعندما ننظرُ إلى الطُّرُقِ التي تحدّثت عنها كتبُ الرحلات في المجموعة الثانيةِ على وجهِ الخصوصِ، نجدُ أنّ طريق إسطنبول هو أكثرُ الطُّرُقِ المستخدَمَةِ في طريق الذهاب والإياب.

وهناك شأنٌ نودُّ أن نسردَه -وإن كان خارجَ موضوعِنا الآن- وهو أنه يمكننا القول أن سببَ تفضيل الحجّاج الإيرانيّين لطريق إسطنبول، على الرغم من وجودِ طريق الجبلِ وطريقِ الشامِ اللذين يُعتبران أقصرَ منه بكثير من حيث المسافة؛ هو أنهم كانوا يريدون دومًا رؤيةَ بلدانٍ خرجت عن القبضةِ الإيرانية بعد أن كانت تقعُ تحت سيطرتها منذ فترةٍ وجيزة مثل "أذربيجان" و"جورجيا"، ورغبتهم في مشاهدة مصر والأراضي العثمانية وإسطنبول[٤] -على وجه الخصوص- التي كان يُنظر إليها على أنها بوّابة أوروبّا.

وكما ذكرنا سابقًا، فقد شكّل رجالُ الدولة والتجارُ والأثرياءُ أغلبيّة الأشخاصِ الذين كانوا يفضّلون هذا الطريق على الرغمِ من طولِ مسافتِه وارتفاعِ تكاليفِه.

وعلى العموم فإننا نلاحِظُ الإيرانيّين وقد سردوا في مذكّراتهم وكتبِ الرحلات التي ألّفوها شكواهُم من تغيّر معابرِ الطُّرُقِ إلى الحجّ باستمرارٍ وعدمِ توفُّرِ الأمنِ الكافي في الطُّرُقِ والصعابِ التي كانوا يواجهونها عند الذهاب إلى الحجّ عبرَ الطرق غير الرسميّة، وممّا يجعلُ كتبَ الرحلات هذه مثيرةً للاهتمام هو ما ورد فيها من معلوماتٍ تتناولُ بشكلٍ تفصيليّ الطرقَ التي عبروا منها في رحلتهم والمعاملات التي لاقوها أثناء الرحلة، وذلك رغبة في إعلامِ وإطلاعِ الحجيجِ اللاحقين على هذه المعلومات، وتُعتَبَرُ كتبُ الرحلات الفارسيّة بهذا الجانب مصدرًا أكثر مرجعيّة في تصويرِ رحلات الحجّ المليئةِ بالمغامرات مقارنةً بمثيلاتِها لدى العثمانيّين، وتُصوِّر كتبُ الرحلات هذه وتنقُلُ وتُجسّد بوضوحٍ موقفَ الدولة العثمانية -بصفتها الدولة المستضيفة- من وجهة نظرٍ خارجيّة، وتُقدّم لنا بعض الإرشادات المهمّة حولَ الكيفيّة التي كان يُدرِكُ بها الأشخاصُ المخاطبون كلّ التفاصيل الصغيرة التي لا يُلتفَتُ إليها أحيانًا.

أعدادُ الحجّاجِ الإيرانيّين في قوافلِ الحجّ العثمانيّة

على الرغم من عدم إمكانية تسجيلِ عددٍ محدّد للحجيج الإيرانيّين الذين ذهبوا إلى الحجّ تحت الحراسة العثمانيّة من خلال كتب الرحلات الفارسيّة من دون الاعتماد على الوثائق الأرشيفيّة العثمانية، إلا أننا نجدُ بعضَ المعلومات في كُتُبِ الرحلات يُمكن أن ترشدنا بعضَ الشيء في هذا الخصوص، وهناك معلومةٌ مهمّة في هذا الشأنِ مفادُها:

"لقد قدِم إلى الأراضي المقدّسة ثلاثمائة شخص من مدينة "أرضروم" عام (١٢٦٠هـ) وثلاثمائة شخص من دمشق عام (١٣٠٦هـ) برفقة قافلة الحجّ العثمانية"[٥].

يُعتبرُ كتاب الرحلات الذي كتبه "فراهاني" من أهمّ كتبِ الرحلات في العهد القاجاري لما به من معلوماتٍ وتفاصيلَ كثيرة[٦]، فهو يقدّم معلومات إحصائية بخصوص كافة الحجيج المتواجدين في مكة المكرمة، ويشرح لنا فيما يلي أعداد الحجاج وخصائصهم وأحوالهم وحال الحجّاج الإيرانييّن على وجه الخصوص:

"إن أعداد الحجّاج الإيرانيّين في تغيّر من عامٍ إلى عام، ولقد فاق عددهم في الآونةِ الأخيرةِ الثلاثة آلاف حاجّ كما هو الحال في عام (١٣٠٣هـ)، وقد تُوفّي خمسون حاجًّا من بين حجّاج العام المذكور جرّاء الظمإ والطاعون، وقَدِم ثمانمائة حاجّ منهم عن طريق الشام، ومائة حاجٍّ عن طريق الجبلِ، وألفٌ ومائتا حاجّ عن طريق "بوشَهْر" و"بغداد" وأكثر من ألف حاجّ عن طريق إسطنبول".

ويسردُ "فراهاني" ما يأتي بخصوصِ حجّاج "إسطنبول" و"الأناضول" و"روملي" و"طرابزون":

"أعدادهم تتغيّر كلّ عام ما بين خمسةِ آلافٍ إلى اثني عشر ألفًا، وعلى الرغمِ من اختلافِ مذاهب هؤلاء الحجّاج، فإن أغلبهم سنّيون صوفيّون دراويش، ونادرًا ما كان يخرج من بينهم أحد من الشيعة. وهم ليسوا بمتعصّبين لمذاهبهم إطلاقًا، فجميعهم أناسٌ مُسالِمون ويخضعون للدولةِ العثمانيّة.

وتتغيّر أعداد الحجيج المصريّين كلّ عامٍ ما بين ألفين إلى سبعةِ آلاف حاجّ، وهم خاضعون للخديوي في مصر، وكان أغلبهم ينتسبُ إلى المذهبين الشافعي أو الحنفي، ويوجد من بينهم من ينتسِبُ إلى المذاهب الزيديّة والإسماعيليّة والإثني عشريّة، ويجلبون معهم نساءهم وأطفالَهم، وهذا العام كان الحجّ الأكبر كما يسمونه -وذلك إذا وافق يومُ الوقوفِ بعرفات يوم الجمعة فيُسمّى بالحج الأكبر- ولهذا السبب فقد وفَدَ إلى الحجِ من مصر هذا العام ستّةُ آلاف حاجّ، وكان برفقتِهم محملُ عائشة -المحمِل المرسل من مصر- وقد رافق الحجيجَ جنودُ أمين الصُّرّة باحترامٍ وانتظام كبيرٍ من كلّ مكانٍ في الحجاز.

وتُخَصِّصُ خزينةُ الخديوي مبلغًا صغيرًا لا يستدعي الذكر من أجل هذا المحمِل والكسوة، حيث يأتي المحمِل والكسوة إلى مكّة المكرّمة عبر الطرق البرّيّة"[٧].

ويورد "فراهاني" أعداد حجّاج الشام كالتالي:

"يتراوح عدد حجّاج الشام ما بين خمسمائة إلى ألفٍ وخمسمائة حاجّ فيذهبون تحت رعاية الدولة العثمانية، وأغلبهم ينتَسبُ إلى المذهب الشافعي، ويوجد بينهم مَن ينتسبون إلى مذهب الخوارج والمذهب اليزيدي، وهم يأتون برفقةِ المحمِل النبويّ عن طريق البرّ، ويأتي "سعيد باشا" -بصفته أمين الصُرّة- منذُ سنوات في قافلةٍ منظّمةٍ وكبيرةٍ وبرفقةِ الجنود وحاملات المدافع، ولا يدفع الشاميّون أيّة أجرةٍ للطريقِ، ذلك لأنهم يحملون المحمِل إلى مكّةَ المكرمة، ولقد انطلق إلى رحلة الحجّ هذا العام ألفٌ وستمائة شخص لأن هذا العام هو موسمُ الحجِّ الأكبر"[٨].

أمينُ الصرّة

تحوّلَ مصطلحُ "أميرِ الحجّ" إلى "أمين الصرّة" عقِب خضوعِ منطقة الحرمين الشريفين والحجاز لسيطرة الدولة العثمانيّة، وأما كتب الرحلات المكتوبة في "العهد القاجاري" فتستخدِم اسم "والي الشام" الوارد ذكره بصفتِه "أمير الحجّ"، بدلًا من لقب "أمين الصُرّة" الذي يتمّ اختيارُه من إسطنبول، وأحيانًا يجري اختيارُ شخصٍ مختلِفٍ كلّ عام، إلا أنّنا نرى أن كُتُبَ الرحلات هذه قد استخدمَت هذين اللّقبين بحيث يقومُ كلُّ واحدٍ منهما بوظيفةٍ تختلفُ عن الآخر، وفيما يلي نوردُ ما شرحَهُ "سلطان مراد حسام السلطنة"[٩] بشأن هاتين الوظيفَتين بالمقارنة بالدولةِ التي يتبعها كلٌّ منهما، ويزوّدنا بمعلوماتٍ حول أمين الصُرّة على وجه الخصوص:

"فيما يلي نوضح خروج "أمير الحج" و"أمين الصُرّة" و"أمين المؤنة" (أي انطلاق الصرّة) ومهامّهم في أثناءِ الرحلة، وكان ترتيبهم كذلك: قبلَ كلِّ شيء يُطلَق لقبُ أميرِ الحجّ على الشخصِ العاقلِ الذكي العالم الذي يُعيّن كلّ عامٍ وقتَ الذهاب إلى مكّة، ويجبُ أن تساوي رتبةُ الشخص المكلّفِ بمنصبِ أميرِ الحجّ رتبةَ والي فارس وخراسان، وإن الشخصَ الذي يُعيّنُ لمنصبِ "أميرِ الحج" على رأس الحجيج القادمين من إسطنبول وسائر البلدان الأخرى؛ يدخلُ مدينةَ "دمشق" قبل سائر الحجيج، وهو يتمتّع بصلاحيّات الحكمِ كافّة على جميع الحجّاج العثمانيّين والإيرانيّين والهنود والعرب، وبإمكانه الحكم في أيّ مكانٍ على طول الطريق المؤدّية إلى الحجاز، حتى إنه لديه الحقّ كذلك في التدخّل في عزلِ أو تعيين حكّام الولايات الواقعة في طريق قافلة الحجّ".

يجبُ أن تتساوى الصلاحيّات العامة الممنوحةُ لأمين الصرّة مع رتبةِ وصلاحيّات أمين الصندوق -خزينة دار- لدى الإيرانيين، وكان يجري تعيينُ شخصٍ مؤتمَنٍ وموثوقٍ به في منصبِ أميرِ الصرّة، وكان يُمنح أمير



أمين الصرة يتقدّم نحو مرفإ "قباطاش" برفقة الموكب [مجموعة "يوسف جاغلاز"]

الصُّرّة مبلغًا من المال في حدود عشرين ألف تومان[١٠] لتلبية مصروفاته خلال الرحلة، حيث كانت تُقدَّم هذه الأموال لتحلّ محلّ النفقات.

كان يُعيّن أمير الصُّرّة من مدينة إسطنبول، أما أمين التموين فكان يجري تعيينُه من دمشق، ويُعيّن هذان الشخصان من بين عليّة القوم في البلاد التي ينتميان إليها، وكان يُشتَرَطُ فيهما أن يكونا على دراية باللغة العربية وتردّدا على طريقِ مكّة المكرّمة ذهابًا وإيابًا في العديد من المناسبات، وتُعتبَرُ مهمّةُ أمين التموينِ هي تولّي الإدارة العسكريّة للقافلة والقيام بإرشادها خلال الرحلة، فهؤلاء الثلاثة هم رؤساء قافلة الحجّ وكان ينبغي لهم الخروجُ من دمشق يوم الخامس عشر من شهر شوّال كما سيأتي شرحُه لاحقًا.

ويذكر "سلطان مراد سيف الدولة"[١١] وظيفةً أخرى من وظائف أمين الصُّرّة، فيقول إنّ مِن أهمّ مهامّ أميرِ الحجّ مهمّةَ توصيلِ الحجيج في الموعد المحدّد إلى دمشق، بحيث يجب أن يتواجَدَ الحجّاجُ في دمشق في نهار اليوم الأربعين أو في الليلِ مساءً على أقصى تقدير، وفي حالة حدوثِ أيّ تأخيرٍ في قدومِ الحجّاج إلى دمشق؛ يجري استجوابُ أميرِ الحجّ وأمين الصُّرّة بشكل جدّيّ من جانب الدولة.

ويشرح هذا الأمرَ "حسامُ السلطنة" الذي توجّه إلى المدينة المنوّرة برفقةِ قافلة الشام، فيقول:

"تتحمّل الدولة العثمانيّة تكاليفَ هذه القافلة كافّة، فهذه القافلة تنطلقُ إلى الأراضي المقدّسة في صورة جيشٍ كبير وكأنّ سلطانًا رفيعَ المستوى قد خرجَ في رحلةٍ إلى ولايةٍ أخرى، ويدير هذا الجيشَ المهيبَ أمين الصرّة، حيث يرافق الموكب مئتان من الجنود واثنا عشر ضابطًا جميعُهم يمتطون الجمال، هذا إضافة إلى أنّ هذا الشخصَ مكلّف بتحمّل جميع مصاريف الجيش، بحيثُ يجري صرفُ الأموالِ بعد الحصولِ على إذنٍ شخصيّ منه كما أنّه مكلّف بحماية هذا الجيش، وقد تمّ تعيينُ "سعيد باشا" في منصِبِ أمين الصُرّة بهذا الجيش منذُ عدّة سنوات، وهو ذو شخصيّة شجاعةٍ وذكية يتمتّع بمنطِقٍ وثراءٍ وهيبة، فهو يتحرّكُ وكأنّه قائدٌ لجيشٍ كبيرٍ إن جاز التعبير، وعندما أُسنِدت إليه هذه المهمّة استطاع أن يُحافِظ على أفراد القافلة كافّة من شتى المشاكل والعقبات والأخطار، وكان يتمتّع بقوّةٍ تذوبُ أمامَها المعضلات"[١٢].

إن رجالَ الدولةِ من بينِ الحجّاج الإيرانيّين كانوا يخضعون لحمايةٍ واهتمامٍ كبيرين في هذه القوافل لما لهم من منصِبٍ رفيع؛ إذ كان يُوظّف أفرادٌ مخصوصون من أجل ضيافتهم، وبهذه الطريقة كانوا على اتصال قريب مع أمين الصرة، وكانوا يُكرَمون بشكل خاص ويحترمون احترامًا شديدًا، وكان لهؤلاء الأشخاص في الوقت ذاته الحقُّ في الاطّلاع على بعض المعلومات الخصوصيّة بشأن أمين الصرّة، ذلك لأنه يوجد اتّصال متبادَل بينهم على طول الطريق، ومن بين هذه الشخصيات المهمّة نجد "حسام السلطنة" يصفُ لنا أميرَ الحجّ المصريّ فيقول:

"زارني ذات يوم "صادق أفندي" المُعيّن من جانب خديوي مصر لمرافقةِ قافلة الحجّ المصريّة حتى مكّة المكرمة، وجلس معي في خيمتي لبعض الوقت وتجاذبنا أطراف الحديث، كان يبلغ من العمر خمسين عامًا وكان شخصًا ذكيًا، فطلبتُ منه أن يمنحني التقرير الذي كتبه بخصوص المشاكل الكثيرةِ التي عانى منها الحجّاج المصريّون بينما كانوا يذهبون إلى الحجّ ويعودون بحرًا هذا العام (١٢٩٧هـ/١٨٨٠م)، فأخذته منه وقرأته، وفي الحقيقة، فقد كتب هذا التقرير بطريقة جيّدة للغاية وبشكل مفصّل"[١٣].

لقد ذهبَ "حسام السلطنة" إلى الحجّ برفقةِ "محمِلِ الشام"، وعاد أيضًا من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرةِ برِفقة المحمِل ذاته، ويروي ما يلي:

"بينما كنّا نسيرُ في الطريق إذ نامَ سيّد موكِب محمِل الشام وهو على ظهرِ جوادِهِ، فخرجَت طلقةٌ من مسدّسه بالخطأ فأصابت ساقَه، فدخلت عدّةُ شظايا في ساقه، وعلى جناحِ السرعةِ قمتُ بإرسال "سيد مهدي" -طبيبي الخاصّ خرّيج دار الفنون- من أجلِ إخراجِ الشظايا من ساقِه ومعالجةِ الجرح، وقد شُفي خلال وقتٍ قصيرٍ ولم يبقَ أيّ أثرٍ للجرح، ولذلك قدّم لنا سيّد الموكب هذا بعض المجاملات بعد ذلك طيلة الطريق"[١٤].

وفيما يلي يتحدث الصدرُ الأعظم "حاجي ميرزا علي خان أمين الدولة"[١٥] عن مدى الاحترامِ الذي لقيه في طريق الرحلة:

"عندما كنتُ في الطريق من الشام إلى المدينةِ المنوّرة أرسل إليّ عبد الله باشا أربعةً من رجال الدرك التابعين له، وكان المطر قد هطل بكثرةٍ إلى أن أصبحَ سطح الأرضِ موحلًا، مما أدى إلى تعب الجمال وصعوبةِ تحرّكها، وكان عكّامو الشام الشريف يرعى الجمال بدقّةٍ عاليةٍ وهمهمةٍ خاصّةٍ، وفي الطريق لحقتُ بـ"خالد بك" أمين الصُرّة وكان قويّ البنية، رأيته راكِبًا على بغلٍ ومعه ابناه اللذان يبلُغ أحدهما من العمر ثمانية عشر عامًا والآخر عشرين عامًا، ولقد أرسلَ إليّ ابنه الأكبرِ للسؤال عن حالي، وبهذا أظهرَ احترامَهُ تجاهي، وأنا من جانبي أجبتُه وأرسلتُ إليه الردّ بكلّ ودٍ وكرمٍ".

وخلال الرحلة ذاتها، قدِم "عبد الله باشا" وأمين الصُرّة إلى زيارة أمين الدولة، وقد روى "أمين الدولة" ما يأتي بشأن هذه الزيارة فقال:

"جلسنا سويًا لمدّة ساعةٍ واحتسينا الشاي والشربات، وتحدّثنا عن كلّ شيءٍ، ثمّ انصرفنا"[١٦].

المحمِل

نحن نعلم أنه كان يُرسل محمِل يخرج من مدينة "شيراز" إلى مكّة المكرّمة برفقةِ كسوةِ الكعبة مع محمِلٍ آخر كان يجلبه حجيج "خراسان" من مدينتهم قبل عهد الدولة "الإيلخانية" وبعدها على وجهِ الخصوص، إلا أنّ الإيرانيين لم يرسلوا بعد هذه الفترة أيّ محمِل سواء في عهد "الصفويّين أو "القاجاريّين" باستثناء الأموال وسلع الأوقاف التي كان يرسلها السلاطين (مثل المساعدات الماليّة المرسَلة إلى شرفاء مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة والهدايا المرسَلة إلى الأئمّة والقرّاء في جبانة البقيع)، ونحن نعتقد أن غيابَ الهيمنةِ السياسيّة والدينيّة في هذه المناطِق كان له كبيرُ الأثر في ذلك إضافةً إلى البُعْد الجغرافيّ عن الأراضي المقدّسة، وعلى الرغم من ذلك، فيمكننا مصادفة الكثير من المعلومات بخصوص المحمِل في كتب الرحلات التي أُلِّفَت خلال العصر "القاجاري".

فعلى سبيل المثال، نجدُ "أمين الدولة" وقد شرح تاريخَ المحمِل في كتابه الرحلات (سفرنامه) على النحو التالي:

"يصادِفُ إرسالُ أوّل محمِل مذكور في النصوص التاريخية "العصرَ الأيوبيّ"، وتقرّر الملكة "شجرةُ الدرّ" زوجةُ السلطان "الصالح نجم الدين أيوب" السفرَ لأداء مناسك الحجّ، ولقد جُهّزَ لها هودجٌ مرصّعٌ بالمجوهرات، وتمّ تزيينُ محملِ "شجرة الدرّ" على أكملِ وجهٍ حتى اكتسبَ هذا المحمِلُ شهرة واسعةً، منذ ذلك التاريخ صارت عادةً سنويّةً أن يُرسَل هذا الهودج كلّ عام إلى بيت الله الحرام وتُوزّع الهدايا المرسَلة معه على فقراء الحرمَين الشريفَين في موسمِ الحجّ، وحتى يومِنا هذا يُرسل إلى مكّة المكرّمة هذا المحمِل المصريّ وكذلك المحمِل النبويّ المرسَل من الشام الشريف"[١٧].

ولم تغفلْ أعينُ الحجّاج الإيرانيّين الذين كانوا يرافقون هذه المحامل عن المنافسةِ التاريخيّة بين المحمِلين "المصري" و"الشاميّ" من حيث التميّز والتفوّق، وفي الوقتِ الذي يشرح فيه "نائب الصدر الشيرازي" الخلافَ بين المحمِلين في أثناءِ نصبِهما على جبلِ "عرفات" والإجلالَ الذي أظهره جنودُ الشام تجاه الصُّرّة السلطانية طيلةَ الطريق وعلى جَبَل عرفات على وجه الخصوص، فقد لفت "ملك الكلام مجيدي" إلى أنّ جَمَلَ محمِل الشام قد عُلّق في رقبته ثلاثةُ صفوفٍ من اللؤلؤ بينما عُلّق في رقبة جملِ المحمِل المصريّ صفّان من اللؤلؤ، وقد أشار إلى سِباق التفوّق والتميّز الذي تنافسَ عليه المحمِلان المصريّ والشاميّ[١٨].

إن المحمِل يوجد لدى الإيرانيّين كذلك مع بعض التغييرات إذ كان يُجلب إلى المسجد النبويّ بالمدينة المنوّرة محمِلان مصنوعان باسمِ النبيّ ﷺ وأمّ المؤمنين عائشة ﵂ وينتظر المحملان في المدينة المنورة حتى ينصرِف الحجّاج عنها، وكان هذان المحمِلان يشبهان الشيء الذي يحمله السقّاؤون في إيران في أيّام عاشوراء ويوزّعون منه الماء على الناس في الشوارع، وكان يوجد على رأس كليهما قبّةٌ من الذهب أو الفضّة، ويغطى أعلاهما بقطعة من القماش المزركش، وعندما كان المحمِلان يدخلان ويخرجان من الحرمين الشريفين، كانا يُستقبلان بمراسمَ استثنائيّة، ويُولَيان احترامًا وإجلالًا كبيرَين من خدمِ الحرمِ وسائرِ الموظّفين الآخرين[١٩].

الاستقبال

كان الحجّاج الإيرانيّون يُعتبرون ضيوفًا لدى الدولة العثمانيّة اعتبارًا من اللحظة التي يدخلون فيها أراضيها، حيث كانت من بين مهامّ وُلاةِ المناطق التابعة للدولة العثمانيّة حماية الحجّاج الإيرانيّين من اعتداءاتِ القبائلِ أو أيّ أناسٍ آخرين حتى يصِلوا بسلامٍ إلى قافلةِ الشام[٢٠]، ونرى في العديد من كتب الرحلات أنّ الحجيجَ

الإيرانيّين كانوا يطلبون من الإداريين العثمانيّين جنودًا لحراستهم حتى الوصول إلى الشام، وأن العثمانيّين سعوا بقدرِ المستطاع لتلبية طلباتهم هذه، فيروي "ميرزا داود حسيني"[٢١] في كتابه أن الجنود المكلّفين بحماية الحجيج الإيرانيّين ومساعدتهم في المرور بسلامٍ عبرَ الأراضي العثمانيّة، كان ينبغي لهم تقديم "مستند السلامة" إلى قسم شرطة المنطقة الأخرى والذي يخصّ إيصال القافلة بسلامة وأمان،[٢٢] وبينما كان الحجاج الإيرانيّون يعبرون عبر قُرى الأناضول في عام (١٣٢٢هـ)، تعرّضوا إلى هجومٍ في مدينةِ "بيرَجِكْ (Birecik)" فهرعَ على الفور الجنودُ العثمانيّون لمساندة القافلة واندلعت مناوشاتٌ عنيفةٌ بين الجنود العثمانيّين والسكّان المحلّيّين، وفي النهاية تمّ إنقاذُ الحجّاج وتقدّموا إلى والي "دمشق" بطلب إرسال جنودٍ إليهم، وفعلًا تم إرسال الجنود وتأمين الطريق إلى أن قدّم الجنودُ "مستندَ السلامة" الذي ينصُّ على وصولِ الحجّاج الإيرانيّين بسلام إلى الشام[٢٣].

وفي موسم حجّ عام (١٢٦٣هـ) كان من بين الحجّاج الإيرانيّين أشخاصٌ مهمّون ينتسبون إلى الأسرة الحاكمة، ولقد عزمت "مهدي عليا" زوجة "محمد شاه" وأم "ناصر الدين شاه" الذي يُعتبَر من أبرز سلاطين "الأسرة القاجارية"، -عزمَت- على زيارةِ "العَتَبات المقدّسة (النجف وكربلاء)" والذهابِ من هناك إلى الحجاز لأداء مناسك فريضة الحج[٢٤].

وعندما وصلت إلى مدينة دمشقَ القافلةُ التي شاركت بها "مهدي عُليا" وبعض من أركان الدولة، خرجَ واليها لاستقبالهم بشكلٍ يليق بمكانتهم ودخل برفقتهم إلى مدينة دمشق، وفيما يلي يحكي لنا "إعتماد السلطنة" استقبالَ هذه القافلة ودخولها إلى دمشق وإقامتها هناك ومغادرتَها متّجهةً إلى الأراضي المقدّسة، وقد نُفي "إعتماد السلطنة" من قِبَل "محمد شاه" إلى العتبات المقدّسة، وشارك في القافلة سالفة الذكر عندما وصلت إلى دمشق، وعُيّن في منصب الوزارة وإدارةِ بعض المناطق المختلفة في عهد "ناصر الدين شاه" لدى عودته من الحجّ، فيقول:

"دخل إلى مدينةِ دمشقَ الحجيجُ الإيرانيّون في شهر شوال من عام (١٢٦٣هـ) برفقةِ الجنودِ الذين كان يرأسهم "نامق باشا"، وعندما وصلت القوافل سالمةً إلى تخوم دمشق خرج شعبها خارجَ المدينة مسافةَ فرسخين لاستقبالها، وقد ارتدت هذه الجموع أفضلَ ما لديها من ثياب وتزيّنت وكان أغلبهم من النساء[٢٥]، ونزل الحجّاجُ الإيرانيّون ضيوفًا على المنازل في دمشق، وقد قامت السيدة "نصيف الدولة نور محمد خان" (أم الشاهًا شاه) برفقةِ قائد الجيش وكبار الضباط بنصبِ خيمةِ الحريم في ساحةٍ خضراءَ على ضفاف النهر بالمدينة، والتي كان الأتراكُ يسمونها "ميدان السماء".



الجامع الأموي في دمشق وتبدو حوله الأحياء الدمشقيّة [أرشيف دار النشر "الكنز المفقود"]

ومكثَ الحجّاجُ خمسةَ عشرَ يومًا كاملًا في دمشق وأعدّوا العدّةَ اللازمة لاستكمال رحلتهم صوبَ مكّة، كما قاموا بسدادِ إيجاراتهم وفقَ قرارٍ صادرٍ بهذا الشأن، وكان كلّ عرشٍ لديه ثلاثةُ رجالٍ يحملونه وحاملٌ متخصّص بحمل المشعل للإنارة، وكان يُخصَّص جملٌ فارغ من أجل حمل الأحمال، وكان يُشترى كذلك نوعٌ من أنواع الخيام يُسمى "قلندري"، بحيث كان مرشد الحجّ مكلّفٌ بنقل كافّة هذه الأشياء، وتبلغ تكاليفُ جميع هذه الأشياء حتى الوصول إلى مكّة مائةَ تومان.

كان يجب على الحجّاج مغادرة مدينة دمشق يوم الحادي عشر من شهر شوّال تطبيقًا للقانون الذي ينصّ على ذلك، فتتحرّكُ القافلة من دمشق في يوم محدّد وتدخل إلى الحرمَين الشريفَين في يومٍ معيّن

بعد النزول في أماكنَ محدّدة بعينِها، ولم يكن يُسمح بتأخّر القافلة بأي وجهٍ من الوجوه، ويجب كذلك على أميرِ الحجّ وأمين الصُرّة ورئيسِ التموين العثمانيين أن يُغادروا دمشق بعد يوم الخامس عشر من شهر شوال بشكلٍ قاطعٍ، وإن كانت هناك ضرورة قصوى للتأخّر فلا تزيد عن يومٍ أو يومين، فلم يكن يُسمح ببقاءِ مسؤولي الحجّ في دمشقَ لدقيقةٍ واحدةٍ بعد يوم السابع عشر من شهرِ شوّال، فإن أبوا عن الخروج وأصروا على البقاءِ كان والي دمشق يطردهم خارجها مستخدمًا القوة، ويُسمح فقط بإقامةِ العبيد والأيتام وحرّاس البضائع.

وكان العلماء والفضلاء يستعدّون قبل ذلك يوم العشرين من شهر شوّال كما هو محدّد لهم، وبينما يتقدّم عليّة القوم وعامّة الشعب في مدينة دمشق في هيئةِ حشدٍ كبيرٍ، وتمشي أمامهم مجموعةٌ تحمِل في أيديها مشاعلَ موقدةً من المصابيح وآلات الساز[٢٦] مردّدين الأغاني، وهناك مجموعةٌ أخرى تسير مردّدة الأدعيةَ والأذكار ويحملون في أيديهم الشموعَ، ويدخل كلّ أولئك إلى "قصر الباشا" في دمشق.

وكان هناك موكبٌ آخر، يمكن أن يكون أكبر من ذلك الموكب الذي ذكرناه آنفًا، يتجمّع يوم الثالث عشر من شهر شوال، حيث تُغلق المحالُّ التجاريّة والدكاكينُ في دمشق ويتجمّع الجميع في القلعة -مقرّ الحكم في دمشق-، وهذه القلعةُ كانت في الوقت نفسه تُعتَبر نوعًا من أنواع مخازن السلاح للدولة، ولقد أُنشِئَت هذه القلعة في عهد الخلفية الأموي "معاوية بن أبي سفيان" في وسط المدينة لتكون مقرًا للحكم، وهي مبنيّةٌ بالكامل من الحجارة المنحوتة بشكل متينٍ للغاية، وعند النظر من الخارج كان يوجدُ المحمِل الشريف الذي هو عبارةٌ عن محفلٍ يشبهُ رأس مئذنةٍ، أي كأنّ محمِل سيّدنا محمّد ﷺ يوجد هنا، وكانت الرايةُ الشريفة (أي: راية سيدنا محمد ﷺ) توجد أيضًا في هذه القلعة، ولقد تمّ تزيين كلٍّ من المحمِل والراية بشكل رائعٍ ومتميّز.

وعندما يأتي يوم الثالث عشر من شهر شوال، يُخرِجون المحمِل الشريف خارج القلعة ويطوفون به يوم الرابع عشر من الشهر ذاته في كافّة القصور واحدًا تلوَ الآخر بالموكب المهيبِ ذاته، وفي هذه الأثناء كانت المدافعُ تُطلق طلقةً مدفعيّةً واحدةً من كل قصر يمرّ به المحمِل الشريف كدليلٍ على الاحترام والتبجيل، ثم بعد ذلك يدخل المحمِل إلى قصر الوالي.

وأما يوم الخامس عشر من شوال فقد كان الناس يتجمّعون في محفلٍ كبير مختلفٍ تمامًا عما سبق، وكان جميع رجال دمشق ونسائِها يحضرون هذه المراسم من أجل كسب الثواب ومشاهدة الفعاليّات، وكانت كلُّ الوحدات العسكريّة بما في ذلك جيش "تُوبْخَانَه[٢٧]" تنتظر في صفوفٍ منتَظِمةٍ على طول


وكاد يزعزع الجمال الشمّر وانشد
ما الحجّ سيرك تأويبا وإدلاجا ولا اعتيامك أجمالا وأحداجا

كيلومترات أمام بوّابة القصر الذي يُعتبر مكانَ سكنِ باشا دمشق، وفي ذلك اليوم يحضُرُ إلى القصرِ الباشاوات وقد ارتدوا أحذيةَ الفروسيّة من أجلِ حفلِ استقبالِ الحجيج وأمين الصُّرّة وأمير المؤنة، وبعد اكتمالِ حضورِ كل الوجهاء والأشخاصِ المُنتَظرين تبدأُ المراسم؛ فكان يقوم باشا دمشق بتسليم المحمِلِ الشريف ورايتِه إلى أمير الحجّ أمام هذا الجمعِ مع أصواتِ دعاءٍ وأذكار العلماء والفضلاء والقضاة، ثم يقومُ المنتسبون إلى الجيش وجنودِ "تُوبْخَانَه" بضرب المدافع وإطلاقِ الأعيرة النارية، ويمتطي الباشا وسائر عليّة القوم والوجهاءُ جيادَهم بعد أن يسيروا في فخرٍ وانتظام أمام المحمِلِ الشريف ورايته، وتتقدّمُ المحمِلَ الشريفَ مجموعةٌ من الضبّاط الاحتياطيّين، وكانت وحدةُ جنود "تُوبْخَانَه" وأهالي المدينة وسائر كبراء الولاية يرافقون والي دمشق حتى يصل إلى موقع "مُزَيْرِبْ"، وكان من المستحيل أن تُقام مراسمُ الخروج والتحرُّك من دمشق قبل مرورِ يوم الخامس عشر من شهرِ شوّال"[٢٨].

كان يتمتع نُزُل "الهَدِيَّة" بمكانةٍ خاصّةٍ في استقبالِ الحجيجِ، وإن لم تكن بقدر مكانة دمشق، بحيث يقع النُّزُلُ في مكان على الطريق الواقع بعد الخروج من دمشق وقبل الوصول إلى المدينة المنوّرة، ويشرح "سيف الدولة" سبب تسميةِ هذا النزل بذلك الاسم على النحو التالي:

"وأما سببُ تسميةِ هذا النزُل بذلك الاسم، فهو استقبالُ أهلِ المدينةِ لحجيجِ الشام وحجيجِ طريق الجبلِ لدى وصولهم إلى تلك المنطقة بالهدايا والكرم وحسن الضيافة، وتوديعهم عند عودتهم في المكان ذاته بالاحتفالات وتقديم نفقات السفر والهدايا إليهم أيضًا، فلذلك سُمّيَ بـ"الهدية""[٢٩].

القافلة

ويقصّ علينا "أمين الدولة" الاستعدادَ لتحرُّك القافلة كالتالي:

"في حقيقةِ الأمر كان هناك العديدُ من المشاهد الجديرةِ بالمشاهَدةِ في هذا الموكب من بينها رغاءُ الجِمال وانصياعُها وانضباطُها بأوامر قوّادها وهي تحمل الأثقال على ظهورها، وازدهاءُ الهوادجِ وألوانُها الجذّابة التي لم أستطعْ صرفَ بصري عنها ساعات عديدة، وكسوة مقاعدِ أَسْنِمَة الجِمال وزخارفُها الكثيرةُ والمتنوّعة وانطلاقُ الحجّاج السودانيّين والمغاربة من الرجال والنساء على أرجلهم في هذا الحرّ الشديد وهم يصطحبون أطفالهم، وكان مع تحرك موكب المحمِلِ تُطلق ضربة مدفع واحدة يُفهَمُ منها الإذنُ بمسير القافلة، ولقد قاموا بكلّ شيءٍ حتى بربط مقاعد أسنمة الجمال حينما كنتُ راكبًا فوق المحمِلِ الذي أعدّوه لي -وهو عبارة عن غرفة متنقّلة مربوطة أذرعتها الأربعة من الأمام

▶ منمنمة تصوّر موكبَ الحجّ [Arabische Malerei, Skira, 1962]

والخلف ببغلين- ونحنُ نعبُرُ من "وادي الليمون" المشهور، ويقومُ العربُ طيلةَ الطريق بإطعام الجمالِ بالعشبِ أحيانًا، ويسرّحونها أحيانًا أخرى عندما نتوقّفُ في الطريق، وكان ضيقُ الطريقِ ووعورتُه يمنعان تحرُّكَ المحاملِ وفقَ أسلوبِ انتظامِ القافلة، ولقد كان حداة الجمال وحاملو المحامِل يتسابقون في كلّ ثانيةٍ كما يفعل سائقو عربات الأحصنة، وكانت البغالُ والجِمال تجرّ المحامل وتسير بها بإصرار وعنادٍ كبيرين وهي تلهثُ، ثم كانوا يستريحون بعد ذلك لمدّة ساعة، ويقوم جيشُ الحجّ بإنزال الأحمال التي يحملونها بشكلٍ منظّم ثم ينصبون مجموعةً من الخيام في مكانٍ صحراويّ خالٍ من السكّان.

وكان "محمد شامل باشا" قد عُين ليرافقنا في هذه الرحلة وكان طويلَ القامة، قويّ البنيان تخطّى عمره الستين عامًا، ذا ملامح تركية ليست غريبة بالنسبة لي، وكان ذا شعر أحمر اللون، كثّ اللحية وقصيرها، وهو نجل "الشيخ شامل" الذي اعتقله الروس بعد الحرب ضدهم واقتيد إلى مدينة "سانت بطرسبرغ (Saint Petersburg)"، ثم سُلّم إلى إسطنبول ومن هناك بعث به المسؤولون العثمانيون إلى المدينة المنوّرة التي طلبَ الإقامة بها حتى وافته المنية ودُفِنَ في جبانة البقيع".

الأوضاع الأمنية

كان المتقدّمون للذهاب إلى أداءِ مناسِكِ الحجّ من الإيرانيّين يعلمون أن المسؤولين العثمانيّين يسعونَ لرفع درجة الأمن والأمان لقوافل الحجّ قدرَ المستطاعِ، وذلك من خلال كتبِ الرحلاتِ التي ينشرونها أو الملاحظات التي كان يرويها عليهم من شارَكَ بنفسه سابقًا في مثل هذه القوافلِ وجرّب هذه الرحلة، ولهذا السبب كان يرجّح أغلبُهم الذهابَ إلى أداء مناسكِ الحجِ من خلال الانضمام إلى القوافلِ المتوجّهة إلى الأراضي المقدسة.

ويشرح لنا "الحاج سيف الدولة" الأمن الذي وفّرتْه الدولة العثمانيّة لقوافل الحجيج فيقول:

"كانت قوّات المشاةِ والفرسان ووحداتُ الترسانة المكلّفةُ بحماية الحجّ والمحمِل وخدمتِهم، كلّ أولئك كان يجري اختيارهم من جنودِ دمشق الشام، ويتحرك هذا الجيش بعظمةٍ وأبهةٍ كبيرتين، بحيث يتّخذُ فيه ألفا جنديّ مهامَه في هذا الجيش، وكان الجنود يربطون على مقاعدِ أسنمة الجِمال قماشًا أبيض وهم يحملون أسلحتَهم، ويمشون بشكل منتظم أمام الحجيج وخلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فكان ذلك المشهدُ جديرًا بالرؤية والمشاهدة الممتِعةِ حقًّا"[٣٠].

ووفقًا لما رواه "حسام السلطنة" فقد كان المسؤولون العثمانيّون يحاولون جاهدين رفعَ درجةِ الأمن والأمانِ في قوافل الحجّ تلك إلى أقصى درجة، حيث كانت تمتدّ القافلةُ الواحدةُ منها على مسافةِ ساعةٍ ونصف ما بين أوّلها إلى آخرها، وكان ضربُ المدافعِ أثناءَ رحلات الحجّاج يحملُ مفهومًا خاصًّا، ألا وهو:

"ينصبُ الحجّاج خيامَهم بالترتيب بطريقة منظّمةٍ ومرتّبةٍ، ولا يطرأُ أيّ تغييرٍ أو تعديل على هذا النظام أبدًا في أيّ مكانٍ تنزلُ به القافلة، فكلّ شخصٍ لديه مكانٌ محدّدٌ للإقامة به، وفي الصباح تُطلق قذيفتان مدفعيّتان، إحداهما من أجل الاستيقاظِ من النوم، أي الأمر بالاستعداد للتحرّك، والأخرى من أجل إعلام الحجيجِ بوقت ركوبهم دوابّهم في ساعةِ التحرُّك، وعندما يحلّ وقتُ الظهيرة تُنصبُ مظلاتٌ لوقايةِ الوجهاءِ والأعيانِ من قيظِ الشمس وحرّها، ثم بعدَ ذلك يقومون بإطلاقِ قذيفةٍ مدفعيّة واحدة قبل الدخول إلى مكانِ الإقامة حتى ينزلَ الحجّاج عن راحلاتهم وتقذف قذيفةٌ أخرى من أجل صلاة العشاء، وتعتبر هذه الأخيرة تحذيرًا للجميع ألا يغادرَ أحدٌ القافلةَ بعد صلاة العشاء وألا يدخلها أحدٌ من الخارج، ويبدأ الحرّاس في التناوُبِ على حراسةِ القافلةِ حتى الصباح، فالنظام والهدوءُ يسيطران على قافلة الشام من كافّة الأوجهِ، وكلّ فردٍ من أفرادِ القافلة يتحرّك خلالها بأمانٍ تامٍ وراحةٍ واحترام جمّ، ويوجَدُ في القافلة ألفٌ وأربعمائة جمل سريعٍ تم استئجارُها من العرب، ولقد عيّن والي دمشق "سعيد باشا" خمسة عشر شخصًا لمرافقتنا في أثناء الرحلة"[٣١].

ويُفهم مما رواه "أمين الدولة" أنه قد تمّ توفيرُ حماية خاصّةٍ لبعض المسافرين الهامّين في قافلة الحجّ، فيقول:

"أمرَ "عبد الرحمن باشا"، وهو في طريقِهِ من مكّة المكرمة إلى المدينة المنوّرة، بتولّي حارسين، يُعتقَد أنهما من شرطةِ دمشق، نوبات الحراسة أمام خيمتِنا ليل نهار، وبين الفينةِ والأخرى يقومُ هذانِ الحارسانِ بغناء بعض الأغاني أو الأشعار بصوتٍ عالٍ، ليدفعوا النومَ عن أعينِهم وفي الوقتِ نفسِهِ يحافظون على أمنِ القافلة"[٣٢].

وأما "ميرزا جلاير" فيشرح مغزى هذه الأصوات بشكلٍ أكثر وضوحًا وتفصيلًا، فيقول

"كانت قوّاتُ الدركِ تحولُ دون دخولِ أو خروجِ أيّ شخصٍ غريبٍ إلى داخل القافلة، وذلك عن طريق تمشيطِ القافلة من كافّةِ أطرافها يمنةً ويسرةً، وإذا ما رغب شخصٌ لا يعرفونه في الدخول إلى القافلة؛ يُنبهونه بأصواتهم العالية ثلاث مرات، فإن لم يستجبْ لتنبيهاتهم يُطلِقون النار عليه فورًا،

ولقد حدثت تلك الواقعة لعددٍ من الحجّاج الذين لم يكونوا على دراية باللغة العربيّة، فقد كان أحد الجنود يسأل عن كلمة السرّ المتّفق عليها آنذاك قائلًا: "كَرْكُوكْ"، فيردّ الآخر بقوله "حَاضِرُون"، وكان الجنود يقضون ليلتهم من دون نوم"(٣٣).

ويحكي "ميرزا جلاير" موقفًا بخصوصِ رحلةٍ قام بها في عام (١٢٦٢هـ) فيقول:

"كان "علي باشا" وأميرُ الحجّ يحمون هؤلاء الحجّاج القادمين من كلّ حدبٍ وصوبٍ طيلةَ الليلِ بواسطةِ الفوانيس وأضواءِ الشموعِ المثبّتة بداخلِ الآنية المصنوعة من النحاس، وكان ذلك الموكبُ يتحرّكُ ويواصلُ طريقَه بالانتقال من مكانٍ إلى آخر بالنظام ذاتِه"(٣٤).

ويتّضِحُ لنا عدمُ تمكُّنِ الحجّاج من أداء الصلوات في أوقاتها حين يشاركون في قافلة الجبلِ المتّجهة إلى الحجّ، وهو ما كان سببًا آخرَ من أسباب عدمِ تفضيل الحجّاج الإيرانيين هذه القافلة، ومحاولةِ الاستعاضةِ عنها بالمشاركة في قافلة الشام التي كانت أكثرَ أمنًا(٣٥).

تدهور الأوضاع الأمنيّة

تعود كتبُ الرحلات التي بين أيدينا إلى الفترة ما بين عامي (١٢٦٣-١٣٣٨هـ)، ونلاحِظُ على هذه الحقبةِ أمرين:

الأول: تعود هذه المرحلةُ إلى العصر القاجاريّ.

الثاني: تصادِفُ هذه الحقبةُ مرحلةَ ضعف السطوة والسيطرة العثمانية على بلاد الحجاز إلى حدٍّ ما.

وانطلاقًا من هذين السببين فإننا نُشاهد العديد من الشكاوَى في كتب الرحلات حول تعرُّضِ القوافل للسطوِ وانعدامِ الأمن والأمانِ طيلة الطريقِ المؤدّية إلى الأراضي المقدّسة، فعلى سبيل المثال، وبينما نجد مؤلفين كـ"إعتماد السلطنة" و"سيف الدولة" و"فراهاني" و"نائب الصدر الشيرازي" وغيرهم يتحدّثون بشكلٍ جيّدٍ للغاية عن استقرار أوضاعِ قوافلِ الحجّ في تلك الحقبة، يمكننا أن ندرك أن حوادث السطوِ والمهاجمة التي تعرّضت لها قوافلُ الحجيج قد أخذت في الازدياد -بحسب ما يورِدُه بعضُ المؤلّفين في كتبِ رحلاتهم- اعتبارًا من "أمين الدولة" أمثال "الأصفهاني" و"كازروني"، وليس من الواجب علينا الآن في هذا الكتاب سردُ أسبابِ ذلك الانفلات الأمني، لكنّنا نستطيع أن نختصِر ذلك بما أشار إليه "أمين الدولة" حيث اعتبر السبب في ذلك الوقت هو: أن الأوامر المركزية الصادرة عن الباب العالي لم تعُدْ تُنَفَّذ وتُطبَّقُ بدقّةٍ ونظام كما كان في السابق

وأن الشريف والوالي بدأ كل واحد منهما يفعلُ ما يريد ويتحرّك كما يحلو له ووفق رغباته دون مراعاة إرادة القيادة المركزية.

ووفق ما ورد في "**سفرنامه عَتَبات**"، فإن الوضعَ الأمنيّ لقافلةِ حجيجِ الشام لم يكن أحسنَ حالًا من الوضع الأمني الخاصّ بقافلة الجبل التي تمرّ من جبال خطرةٍ ومعابرَ وعرةٍ، بل تردّى إلى درجةٍ أقل مما عليه الوضع الأمني الخاص بقافلة الجبل، وصار استخدام مصطلح "أيام كَرْبلاء" -المستخدم في الأساس للتعبير عن مصاعب طريق الجبل- كذلك يُستَخدَمُ أيضًا بالنسبة لطريق الشام، وكان الحجيجُ الوافدون إلى الأراضي المقدّسةِ عبرَ طريقِ الجبلِ يشعرون بِنعمةِ الأمنِ والراحةِ -وهم في طريقهم إلى الحجاز- بدرجةٍ أكبر مما عليه حجّاج طريق الشام، ذلك لأن ما يقربُ من ثلاثين شخصًا من المشاركين في قافلة الشام قضَوا نحبَهم جرّاء العطش، كما تُوفّي مائةُ شخص آخرون لأسباب أخرى، هذا إضافةً إلى أنّ هؤلاء الحجّاج تعرّضوا لهجماتِ سرقةٍ ومحاولات سلبٍ ونهبٍ من جانب اللصوص والسارقين وعانوا معاناة كثيرة، وكان أهالي دمشق المتوجهون إلى الأراضي المقدّسة يصرخون ويتأوّهون جرّاء المصائب التي حلّت بهم على طول ذلك الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانوا يسعَون إلى إيصالِ شكواهُم والإفصاحِ عن أوضاعِهِم للمسؤولين والإداريّين[٣٦].

وبخلاف الوقائع التي سعينا للإشارة إليها هنا، فيمكننا عند مطالعتنا لكتاب رحلات "عبد الله خان قَارَاكُوزْلُو (Karagözlü)"[٣٧] -الذي كان يشغل منصبًا رفيعًا في الجيش العثماني- قراءة مجهودِ ومساعي الجنود العثمانيين في صدّ عدوان عرب الصحراء الذين نظّموا هجومًا ليليًّا على قافلة حجّاجٍ كانت تسير في الطريق ما بين جدّة ومكة المكرّمة، ونرى أيضًا في كتاب من كتب الرحلات ألّفتْه ابنة "فرهاد ميرزا" أن قافلة حجيج الشام -التي كان من بين مسافريها "حسام السلطنة"- تعرضت للدمار شبه الكامل بالقرب من منزل "الشيخ علي"، كما تعرضت القافلة ذاتُها إلى هجومٍ آخر بينما كانت في طريقِها إلى المدينة المنوّرة[٣٨].

وإلى جانبِ هجَمات قطّاع الطرق والعصابات، فقد تعرّضَ الحجيجُ على طول الطريق المؤدّية إلى الأراضي المقدّسة إلى الإصابةِ بمرضِ الطاعون الذي كان يتفشّى بينهم بين الفَينة والأخرى، ويسردُ "قَارَاكُوزْلُو" بعضَ الإشارات الخاصّة بهذا الشأن فيقول:

> *"اليوم هو السادسُ من شهر ذي الحجّة، وقد دخل محمِل حجيجِ طريقِ الجبل إلى مكّة، وكان محملُ الشام قد دخلَ إليها قبلها بيوم، وقد جاء برفقتِهِ كلٌّ من معين المُلك ويمين المُلك، وكان في تلك الأثناء وباءُ الطاعون قد تفشّى في مكّةَ والمدينة، ولقد قضى ثلثُ أعدادِ حجّاج قافلةِ الشام نحبهم جرّاء*

هذا الوباء، وانتشر الوباءُ فيما بين "ينبع" و"المدينة"حتى إن كثيرًا من الحجاج مات بسببه وشوهدت علامات الحمّى وتفشّي الطاعون بين حجّاج قافلة الشام"[٣٩].

الدخولُ إلى المدينة المنورة

يروي "نائب الصدر الشيرازي"[٤٠] الأحداث التي وقعت في يومِ دخولِ المحمِل الشاميّ إلى المدينة المنوّرة فيقول:

"قُذفت قذيفةٌ مدفعيّةٌ داخل المدينةِ وأخرى خارجَها مع اقتراب شروق الشمسِ بساعةٍ واحدة، وأذاعوا أن المحمِل الشامي قد وصلَ إلى المدينة، وكان "سعيد باشا" قد عُيّن أميرًا للحجّ من جانبِ الدولة، ووصل إلى المدينة بصحبة هذه القافلة وبرفقته عربات المدافع ومائةٌ من الفرسان ومائتان من الجنود المشاة، واستقبل المحمِلَ شريفُ مكّة المكرمة "عون الرفيق" والحاكمُ ومجموعةٌ من الوجهاء والأعيان، وفي تلك الأثناء كانت أصواتُ القذائفِ المدفعيّةِ تُدوّي في شتّى أرجاء المدينة".

وأما في كتاب "**رحلات مكّة**"[٤١] فقد وُصِفَ هذا اليوم بما يلي:

"كانت قافلةُ الشامِ قادمةً إلى المدينةِ في موكِبٍ بهيّ للغاية، وكانت تتقدّمُ برفقةِ مائةٍ من الجنود لحراستها واثنين من قارعي الطبول حيثُ كانا يقرعان الطبولَ لثلاثِ دقائقَ ويستريحان لدقيقتين ومعهم أيضًا عازفٌ آخر للبوق، وكان المسؤولون والوجهاءُ ورجال الدولةِ قد دخلوا مكّة المكرمة بثياب الإحرام، إلا أنهم توشّحوا أسلحتَهم وسيوفَهم فوق ملابسِ الإحرام وامتطوا البغال، فترى خمسةً وأربعين ألفَ حاجٍ أغلبُهم مُحْرِمُون وهم يسيرون بعضهم وراء بعضٍ، ونشاهد النظام ذاتَه كذلك عند قدوم قافلة المحمِل المصري، وكانوا يقيمون استعراضًا عسكريًا لكِلا المحملين المتقابلين اللذين يسيران بنظامٍ تامٍ، وذلك من خلال النفخ في الأبواق، من جهة أخرى كانت مصابيح الغاز المتلألئة تُضيءُ المقاعدَ المنصوبةَ على ظهور الجمال ليلًا، حيث كانت هذه المصابيح معلّقةً أمام المقاعدِ المتحرّكة المنصوبة على ظهور الجمال".

ويقول وزيرُ الوظائف "ميرزا داود" في هذا الموضوع ما يلي:

"كانت مقاعدُ أسنمة الجِمال في المحمِل الشاميّ مصنوعةً من الخشب ذاتَ طرفين، وكانت هذه المقاعدُ تتحرّكُ برفقةِ عددٍ غير محدودٍ من المشاعل التي رُتّبت بشكل منتظِمٍ على هيئة صفّين متساوِيَين،

وبعد أن يمرّ هذا الركب كان يمرّ قسمٌ من الناس فقراء نسبيًّا مقارنةً بالموكب الأول، وتسير النساء في هذا الركب مرددةً التكبير والتسبيح، ويقرأْنَ الأشعارَ، فلم أتمالك نفسي أمام هذا المشهد واستسلمت لدموع عيني"[٤٢].

لم يَعْتَدِ الإيرانيّون على ابتهاجِ الناس المفرِط نسبيًّا،[٤٣] وكان غريبًا بالنسبةِ إليهم عزفُ أنغامِ الموسيقى خلال احتفالات الاستقبال التي تُنَظّمُ عند دخولِ المدنِ وخلالَ الاحتفالِ بعيد الأضحى في مكّة المكرّمة على وجه الخصوص، ولهذا السبب فقد تناولَ بعضُ المؤلّفين هذه العادة بالنقد حيث كانوا يضطرُّون إلى تحمُّلها عن عدم رغبةٍ منهم، وقد تحوَّلت هذه الاحتفالاتُ الممتِعة إلى ظاهرةٍ تجرحُ قلوب الحجّاج الإيرانيّين عندما كانت تُصادف يوم عاشوراء الذي يحمِل أهمّيّة خاصّة بالنسبة لهم.

وتشرح ابنة "فرهاد ميرزا"[٤٤] هذه الحساسيّة التي عانت منها وتقول:

"عندما دخلنا إلى المسجدِ الواقعِ بالقرب من المدينة المنوّرة، استقبلَتنا مجموعةٌ من الفرسانِ والجنود وقد اصطفُّوا في انتظامٍ برفقة عزفٍ موسيقيّ كان غايةً في العظمة، وأما النساء فكانت تتعالى أصوات الزغاريد من أفواهِهِنَّ، ولأن تلك الليلة هي ليلةُ عاشوراء، فإن عزف الموسيقى لم يكن وقتُه مناسبًا، ليتَ "حسام السلطنة" كان أمَرَ بعدمِ عزفِ هذه الموسيقى".

ومرّةً أخرى نجد "أمين الدولة" وقد رفض بلُطفٍ وهدوءٍ القذائفَ المدفعيّة التي كانت ستُطلَق ابتهاجًا بقدومه، ورجّح السير على قدميه حافيًا من خارج المدينة المنوّرة حتى المسجد النبويّ حاسرَ الرأسِ في غايةِ التواضع -وكأنه عبدٌ فقيرٌ- كما اعتاد الإيرانيّون عليه[٤٥].

وبعد أن بدأت الصُرّة تُرسَلُ عن طريق البحر، أصبحت مراسمُ الاستقبال تُقام في جدّة، فيقول "ظاهر الملك"[٤٦] ما يلي:

"وصل "محمل عائشة" يوم الأربعاء الموافق الخامس والعشرين من الشهر، وقد وصل المحمِل إلى مدينة "السويس" المصريّة عن طريق السكك الحديديّة، ومن هناك نُقل بحرًا على متنِ سفينة إلى ميناء جدّة، وكانت القذائف المدفعية تُطلَق للاحتفال بقدومِ المحمِل من على متنِ السفن في البحر ومن ساحل مدينةِ جدّة".

ويضيف "كازروني" أن هذه المراسم كانت تُقام مصحوبة بالعزف على الآلات الموسيقيّة[٤٧].

الدخول إلى مكة

لقد وُصفتِ المراسمُ الرائعة التي كانت تجرى عند الدخول إلى مكّة المكرّمة واستقبال المحمِل في عيد الأضحى بشكلٍ مفصّل سواء في الملاحظات التي دوّنها مسؤولو الدولة في الأسفار التي شاركوا بها بأنفسهم أو في مذكّرات أشخاصٍ مهمّين أُخَر، ويروي "الأصفهاني" في واحدةٍ من مذكّراته التي دوّنها بخصوصِ هذا الشأن ما يلي:

"عندما حان وقت الركوب صدحت طلقات المدافع مدوّيةً في الفضاء في مكان المراسم والاحتفالات، فهذه القذائفُ المدفعيّة يُعلن بها الجنود الحكوميّون القادمون مع المحامل عن وقت الوقوف في عرفات وقد قضى وفدُ قافلةِ الحجّ أوّلَ ليلةٍ لهم في خيامٍ فخمةٍ وتحت أضواء المشاعل، وترى الكادر الإداريّ لشريفِ مكّة المكرمة -وهو على دراية كاملةٍ بأمور الحجّ وشؤونهِ- وإلى جانبه ترى الجنودَ الذين يحملون المحملين والعربات المدفعيّة وعازفي الآلات الموسيقيّة والمحمِل المزيّن بالحلي والقِطع النفيسة، وإذا تحوّلتَ بنظرك إلى ناحيةٍ أخرى فإنك تستمتعُ بعظمة مشاعل النار، وكان كل ذلك يبعثُ بإحساسٍ غريبٍ للغاية، ويظهَرُ هذا الموكب الكبير بحيث تصل أعدادهم -ما بين مشاةٍ وركّاب- إلى مائة ألف شخص"[٤٨].

ويشرح "فرهاد ميرزا" هو الآخر طريقَ سيرِ المحمِل الشاميّ من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة كالتالي:

"في يوم السادس من ذي الحجّة عام (١٢٩٢هـ) ذهب "الشريف عبد الله" لاستقبال أمين الصُرّة وهو يركبُ عربةً ذاتَ عجلتين يجرُّها حصان، وفي ذلك المكان الذي قدم إليه "تقيّ الدين باشا" لاستقبال قافلة الشام، كان من العادات أن ينتظره جنودُ الشام وأميرُ الحجّ لفترة من الوقت، ويلزم أن يدخل الشريف إلى مكّة المكرمة مرتديًا القفطان المرسل إليه من جانب الدولة".

ويصوِّر لنا "ظاهر الملك" هذا المشهد بقوله:

"لقد أُطلق اليوم أربعةٌ وثلاثون قذيفةً مدفعيّةً مع اقتراب قافلةِ الحجّ الشاميّة والمصريّة من الوصول إلى "منى"، وكانوا يُطلقون الأعيرةَ الناريّة في الهواء من دون توقُّفٍ، وأقيم عرضٌ كبيرٌ بالألعاب الناريّة حضرَه وُجهاءُ وأعيانُ أهل مصر والشام، وكانت مجموعةٌ من الجنود ينتظرون في وضعيّة الاستعداد، ومن جهةٍ أخرى تقوم مجموعةٌ ثانيةٌ بتقديمِ العروض الاحتفاليّة على أنغامِ الموسيقى، وترتفع إلى عنان السماء الأدعيةُ للسلطان بالصحّةِ وطولِ العمر، ولقد قمْنا بأداءِ مناسكِ عبادتِنا بين الصفا والمروة بين



رسم تقريبي يصور مكة المكرمة [مجموعة "يوسف جاغلار"]

جمعٍ كبيرٍ من الناس، ومن ثم عدنا إلى "منى"، وبينما كنّا قادمين كان وُجهاء مكّة المكرمة في طريقهم للعودة، ورأيتُ شريفَ مكّة المكرمة ونحن نسير في الطريق، حيث كان داخلَ عربةٍ تجرّها الأحصنة وهي مزيّنة برفقة ثلاثة أشخاصٍ آخرين بجواره، وكان هناك ستّة أحصنةٍ احتياطيّةٍ، وقد صُنعت أطقُم زينةِ الأحصنةِ من الذهب والفضّة، وقد ارتدى شريفُ مكة المكرمة سترةً مطرّزةً كلباسٍ رسميّ، وكان فوق السترة وسام الدولة وقفطان، والقفطانُ مزركّش بضفائرِ الذهبِ والفضّة، وبجوار العَرَبَةِ التي تجرّها الأحصنة نشاهدُ حرّاسًا يمتطون الجمالَ على هيئةِ صفّين متوازيين، ويسيرُ في الأمام اثنتان من حاملات المدفعية الصغار، وتصدُرُ أصواتُ النيران دون توقُّف فكان عرضًا بهيًا، وقد دخلوا إلى مكّة المكرمة في موكبٍ جديرٍ بالمشاهدة والمتابعة"[٤٩].

وأما "أمين الدولة" فيشرحُ موكبَ عبورِ شريف مكة كالتالي:

"في أثناء عودتِنا من الحرم رأينا الشقادفَ[٥٠] وهي إمّا واقفة في الطريق أو في حالة حركة ومسيرٍ، يحرسها كتيبةٌ من الجنود ومجموعةٌ من الفرسان الاحتياطيّين وقد زيّنوها بشكلٍ رائع، وقالوا لنا إن هذه الشقادفَ خاصّةٌ بنساءِ شريفِ مكّة، وكانوا في طريقهم إلى "مِنى"[٥١] وقد استطعنا الدخول إلى "مِنى" في موكبٍ باهرٍ ولكن بعد أن تأخرنا لمدّة طويلةٍ، ولم نكن نعلمُ أينَ نصبَ الجنودُ خيمتَنا، فلم يعد هناك مكان فارغٌ للجلوسِ به بعد أن انتشرت جِمالُ المصريّين والشاميّين في كلّ مكان، وتفرّق كلُّ واحدٍ من خدمِنا إلى مكان مختلف، وكان معنا ستةُ جنود مسؤولون عنّا يبحثون عن خيمتنا وهم يهرولون يمنة ويسرة"[٥٢].

ويكتب "هدايتي"، الذي ذهبَ لأداء مناسك الحج عام (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) أن المحمِل الشامي لم يأتِ إلى الأراضي المقدّسة ذلك العام، فيقول في هذا الصدد:

"أُطلِقَ اليوم عددٌ من القذائف المدفعيّة في وقت الظهيرة ومع اقتراب غروبِ الشمس، وقد قدِمَ إلى "منى" "الشريف حسين" ووفدٌ مُحرِمٌ مؤلّفٌ من عشيرته وأقربائه، وقامت مجموعةٌ من الجنود بنقلِ "محمِل عائشة" ومن يرافقه في موكبٍ كبيرٍ برفقةِ الحراس وعازفي الآلاتِ الموسيقيّة، إلا أنّهم لم يستطيعوا جلبَ "المحمِل النبوي"، ذلك لأن المحمِل النبوي الذي يتحرّك من "دمشق" في العادة لم يستطع المجيءَ هذا العام بسببِ إغلاقِ جميعِ حدودِ دمشقَ وإرسال الفرنسيّين جنودَهم واندلاع الحرب في المنطقة، ولم يتمكّن أيّ حاجّ دمشقيّ من المجيء هذا العام إلى الأراضي المقدّسةِ، فضلًا عن أن يأتي المحمِل الشامي"[٥٣].

احتفالات عيد الأضحى

يصوّر لنا "كازروني" مشهد دخول قافلة الحجّ إلى "منى" بشكلٍ مفصّلٍ وشيّق للغاية، فيقول:

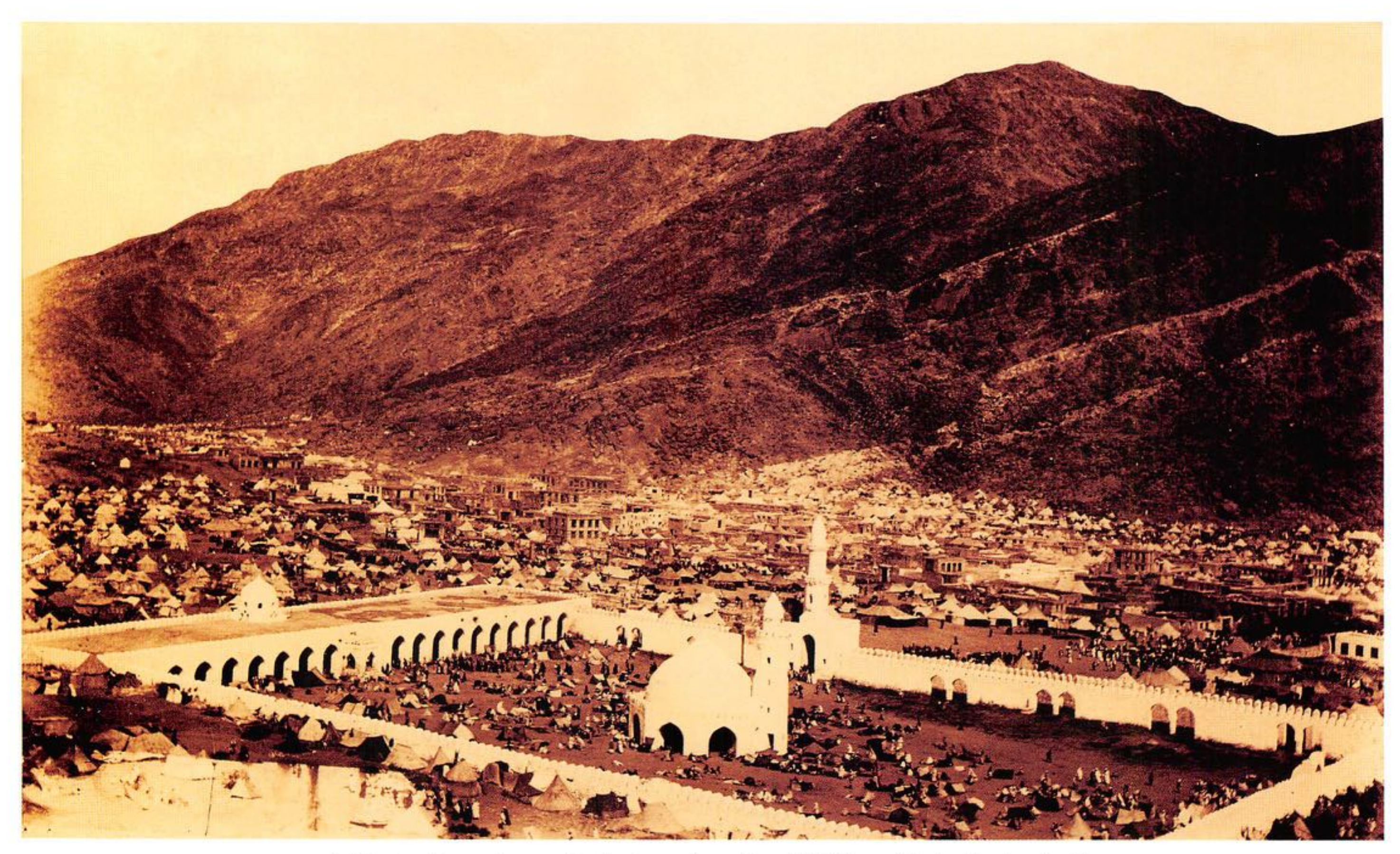
"جئنا إلى مكّة المكرمة برفقة القادمين مع المحملينِ المصريّ والشاميّ وبصحبة "عون الرفيق" -شريف مكة المكرمة وحراس والي الحجاز- وكان الجميع يلبسون الإحرام، وكانت هناك أربعُ قوافل تسيرُ وراءَ بعضِها البعض بطريقةٍ منتظِمةٍ بصحبة الأنغام الموسيقيّة، ولم تكن أصوات القذائفِ المدفعية تتوقّف على الإطلاق، وفي هذه الأثناء أحَسْستُ بالرغبةِ في البكاء مع الاستماع إلى أنغام الموسيقى وتلبياتِ الحجيجِ وأغاني العرب عند رعي الجمال، ولم يقدرْ أيُّ شخص شاهَدَ هذا المشهد إلا أن يجهَش بالبكاء، ولم يستطعْ أحدٌ أن يتمالك نفسه أمام كلّ هذه العظمة، وعندما ولَجْنا "منى" أُطلقت اثنتان وعشرون طلقةً مدفعيّة لهذه القوافل الأربعِ بكاملِها، وأما أصواتُ الأسلحةِ فلم تصمُت على الإطلاق حتى أتم الحجّاجُ أداءَ مناسكِ فريضةِ الحجّ، وكان الجنود الحكوميّون أيضًا مُحْرِمين بينما نحن نتقدّمُ في "مزدلفة"، وكانوا يسيرون وكأنهم ملائكة، وكان الركب يعزف الموسيقى ويُطلق القذائف المدفعيّة والألعاب الناريّة دون توقّف"[٥٤].

ويضيفُ "أمين الدولة" -من جانبهِ- هذه الإضافة على التصويرِ السابقِ فيقول:

"لقد زينوا "منى" بأضواء تبهرُ الأعينَ، وكان سُقاةُ الشربات يملؤون الأماكن أمام المتاجر والمقاهي، ورأيتُ -لأول مرّةٍ في حياتي- خيامَ المصريّين المزركشةَ بتصميماتِ الورود، ولقد جلبوا معهم من المدينة عددًا كبيرًا من الكراسي"[٥٥].

ويسرد "فرهاد ميرزا" ما شاهده بالطريقة ذاتِها فيقول:

"أثناءَ وقوفِنا بعرفات كانت ترتفع أصوات القذائف المدفعية المطلَقة من المحمِل الشامي حينًا ومن المحمِل المصري حينًا آخر، وفي الوقت الذي كان محملًا "فاطمة" و"عائشة" ﷺ يُنقل بالقرب من جبل عرفات، كان العرب يقومون بأداء مناسك ركنِ السعي بين الصفا والمروة، وقد ثبتوا كِلا المحمِلين عند منحدَرِ قمّة جبل عرفات بحيثُ يقابلُ ظهرُ كلّ واحدٍ منهما ظهرَ الآخر، وكانت تختلط أصوات الألعاب النارية مع أصوات مدافعِ المحملينِ المصريّ والشاميّ وأصواتِ طلقاتِ أسلحةِ الجنود، ولقد أُشعل أمام كلّ محمِلٍ أربعون شعلة ناريّة وهما متّجهان نحو الحرم، وكان هذا المشهدُ المهيبُ جديرًا بالنظر والمشاهدة"[٥٦].



"مِنى" حيث يلتقي فيها المحمِلان الشاميّ والمصريّ ويتجمّع فيها الحجيج [مجموعة "يوسف جاغْلاز"]

ويصوّر "الأصفهاني" -من جانبهِ هو أيضًا- المراسمَ المُقامة على جبل عرفات في هذه الأثناء على الوجه التالي:

"لقد أتَوا بـ"محمل عائشةَ" ﷺ والمحمِل النبوي ظهيرةَ يوم التاسع من ذي الحجة، وثُبتوا كِلا المحمِلينِ عند منحدرِ جبلِ الرحمةِ -عرفات- وتجمّعَ الحجيجُ حولهما ممّا تسبّبَ بحدوث ازدحامٍ على الجبل، ولقد انتصب الخطيبُ واقفًا وألقى خطبتين من على جبلٍ كبيرٍ، ولكن لم يدرِ أحد ما قيلَ بهما بسبب الازدحام الشديدِ وارتفاعِ أصوات الحجاج"(٥٧).

ويمكننا أن نجدَ تفاصيلَ المراسِمِ الرسميّة التي تُجْرَى في هذا المقام لدى "أمين الدولة" الذي يقولُ :

"رأيت اليوم المحملينِ المصريّ والشاميّ وقد وُضعا بشكل متقابل وقد كُسِيَ المحملان بقطعٍ من القماشِ المزركش والمطرّز الذي يُشبهُ كسوةَ الكعبةِ المشرّفة المزيّنة بالخيوط الذهبيّة، ووفقًا للشائعة

المنتشِرةِ بين الناس، فإن اليومَ هو أوّلُ أيّام عيد الأضحى،(٥٨) أي إنهم اليوم سيبدؤون في إجراءِ مراسمِ الاحتفالِ بالعيد، وكان سيُعلنُ الفرمان السلطاني، وسيُحدّد الرجل الذي سيتشرَّفُ بلباس السلطان، فاقترب منّي "سيف الممالك" وأخبرني أنه يتوجّب علينا حضورُ مراسِمِ الاحتفال، وبعد ساعتين نهضتُ وذهبتُ إلى خيمة شريفِ مكّة، وكان قد حضر هناك مجموعةٌ مكوّنةٌ من الوالي وأعضاءِ الولاية والجنود وأرباب القلَمِ برفقةِ مجموعةٍ مؤلّفة من أعيان ووجهاءِ مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة وقد ارتدوا الملابس الرسميّة وكذلك موظّفو مرافقةِ المحملين الشامي والمصريّ، وعندما دخلْنا الخيمةَ وقفَ شريف مكة المكرمة واستقبلنا، فأمسكتُ بيدِهِ وقبّلْتُها كما هي العادة، فأجلسني على يمينه، وقد جلَس كلٌّ من "مجدّد الملك" و"معاين الملك" كذلك على الكراسي، وقد حضر في هذا الجَمْع كلٌّ من "باشا الشام" و"الشريف عبد الرحمن" وأمين الصُّرّة "تشالمه بك" والجنرال المصري والأعضاء العسكريّين القادمين مع المحمِلين الشاميّ والمصريّ والشريفِ الأسبق أي ابن أخيه "عبد الله باشا"، وقام شريفُ مكّةَ المكرمة بتعريفنا بكل الأشخاص الموجودين، وكان هؤلاء الموظّفون القادمون برفقةِ المحملين يرتدي جميعُهم جبًبا ملوّنةً مصنوعةً من الحرير، وكانت لديهم ملابِسُ تُشبِهُ القفاطين مطرّزة ومصنوعة من القماش المخمليّ والحرير الملوّن بألوانٍ مختلفةٍ، وقد ارتدوا ملابس فوقَ ملابسِهِمْ الأساسيّة للمشاركة في مراسم الاحتفال، وقد وفد أيضًا أصحابُ الأوسِمَةِ من أغواتِ الحرم، وبعدَ تقديمِ الشاي والنرجيلة صارَ المجلسُ أكثر أُلفةً وأريحيّةً، ثم جلب أمين الصُّرّة الحزمةَ المصنوعةَ من القماش المخمليّ المنقوشِ عليه بالذهب وفتحها، وأخرج فرمان السلطان وأعطاه للشريف، وقاموا بوضع القفطانِ على كتفَي شريفِ مكّة، وهو عبارة عن قفطانٍ أسود اللون مفصّل من قماش وفيرٍ ومزركشٍ بخيوطِ الذهب والفضّة، ثم أعطى شريفُ مكةَ الفرمانَ إلى سكرتيره الخاص الذي استضافنا "محمد علي أفندي" فقام "محمد علي أفندي" وقرأ الفرمان أمام شريف مكة المكرمة وأمام الذين ألبسوه القفطان وجميع الجالسين في المكان بصوتٍ جهورٍ بارعٍ، لقد قرأ الفرمانَ المكتوبَ باللغةِ العربيّة والذي يُعتَبر علامةً على رحمةِ السلطان ورضاه، وكان الفرمانُ يحتوي على اسم الباشا الوالي، وكانت في الفرمان عبارةٌ تشيرُ إلى أن السلطان راضٍ عنه، وعلى الرغم من طولِ الفرمان واحتوائه على تفاصيل كثيرة إلا أنّ "محمد علي أفندي" قرأه حتى آخره بسرعةٍ ثم قُرِئَ بعده فرمانٌ آخر مكتوب باللغة التركيّة، وقُدِّمَ إلى شريف مكّة المكرمة قفطانٌ آخر وطوقٌ شبهُ رسميّين، فهنأْتُه بهذه المراسم والإحسانِ الذي أظهره السلطان تجاهه، وبدأَ إطلاقُ القذائفِ المدفعيّة من المكان الذي يتواجد به المحمِلان، كما شرع عازفو الموسيقى العسكريّة والعازفون العرب التابعون لشريف مكّة المكرمة في العزف على آلاتِهم الموسيقيّة بالتناوب..."(٥٩).

كسوة الكعبة

يصفُ لنا "إعتماد السلطنة" كسوةَ الكعبة على النحو التالي:

"يجلب أميرُ الحجّ المصريّ كسوةً حريريّةً سوداء مصنوعةً من القماش المخمليّ ومرسلةً من جانب الدولة، وهذه الكسوة تُغطّي جوانب الكعبة المشرفة كافّة".

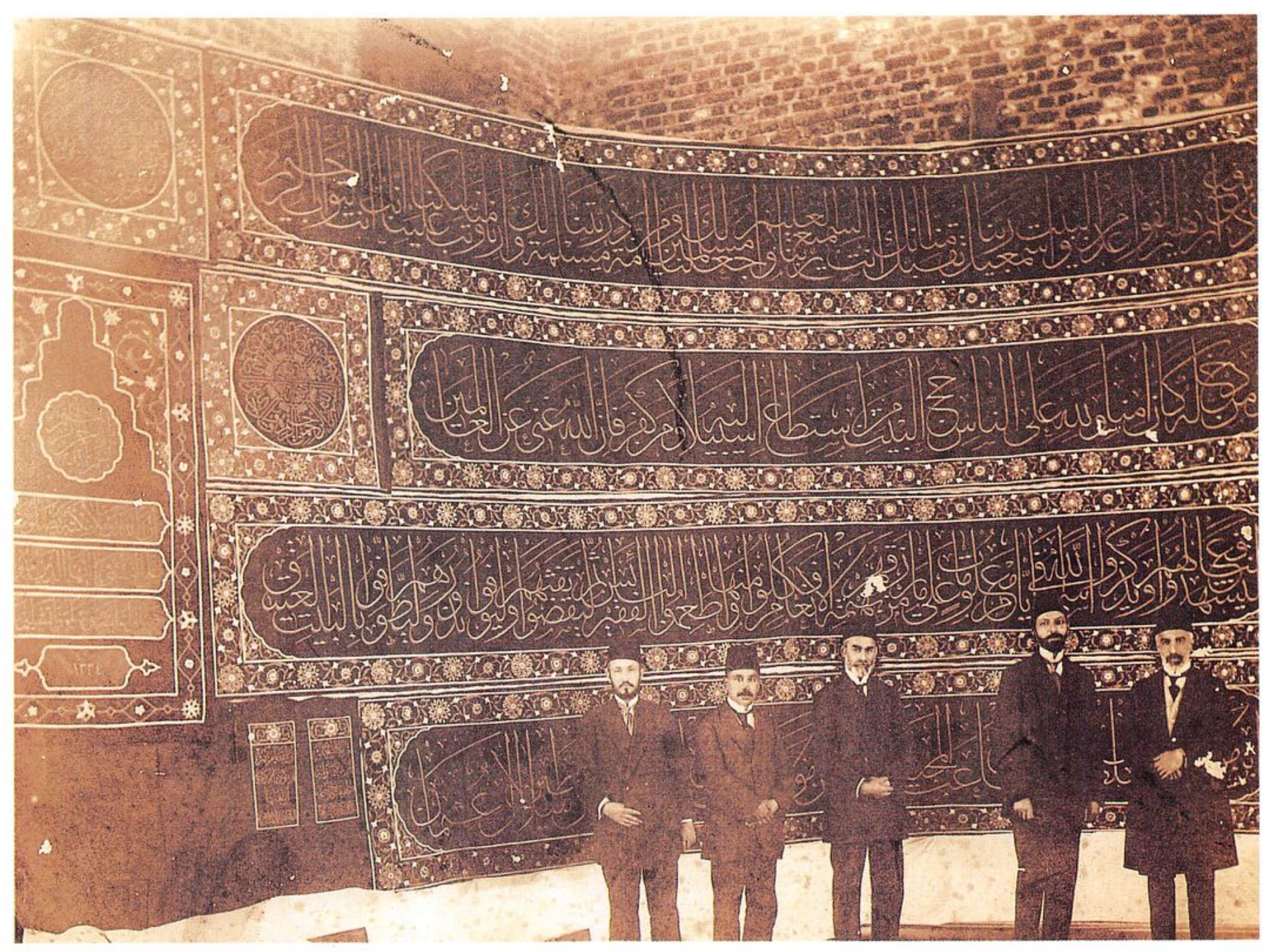
"وباختصارٍ فإنّ أميرَ الحجّ المصريّ يقومُ بجلبِ كسوةِ الكعبةِ الجديدة ومعها الرسالة السلطانية في أوّل أيام العيد إلى المسجد الحرام بالتزامنِ مع إقامةِ احتفال مهيبٍ واحترامٍ وإجلالٍ كبيرين، وبوجه عامّ فإنّ الأحصِنَةَ الموجودةَ في قافلةِ أمير الحجّ المصري تكون مهندمةً وأنيقةً أكثر من تلك الموجودة في قافلة أميرِ الحجّ الشاميّ، ويجلبُ أمير الحجّ المصريّ كسوة بيتِ الله المؤلّفةَ من أربعِ قِطَعٍ من القماشِ المنسوجِ من الحريرِ الصافي بحيث تُغطّي هذه الأثواب والستائر جدرانَ الكعبة الأربعة، وقد كُتِبَ على شريطِ الكسوةِ عبارةُ الشهادتين، ويقوم خدمُ بيت الله الحرام بوضـع الكسوةِ الجديدة باستدارة -نوعًا ما- حول الكعبة، ثم يقومون بالصعود إلى أعلى الكعبة باستخدام السلّم ورفـعِ الكسوة القديمةِ عن الكعبةِ وإلباسها كسوتها الجديدة، وتُمنح الرواتبُ لعشرين خادمٍ من الزنوج الذين يعملون هناك بشكل دائم كما هو الحال للعاملين في المدينة المنورة، ويقوم أمين الصُّرّة بإلباسِ كلّ واحد منهم قفطانًا بحسب مقامِهِ ودرجتِهِ..."[٦٠].

ويروي علينا "سيف الدولة" بعض التفاصيل الخاصّة بالكسوة الداخليّة للكعبة فيقول:

"إن كسوةَ الكعبةِ المشرّفة منسوجةٌ من الحريرِ الأسودِ ومنقوشٌ عليها بخيوطِ الذهب، وهي تأتي من مصر كلّ عام، وأما كسوةُ العامِ الماضي فهي تُوزَّع بعد استبدالها بالكسوة الجديدة بين الأشراف وخادمي الكعبة وبالنسبة للكسوة الداخليّة للكعبة المصنوعة أيضًا من الحرير الأسود ومنقوشٌ عليها بخيوطِ الذهب فهي تأتي من "إسطنبول" عاصمة الخلافة، وأما الكسوةُ الداخليّة للكعبةِ للعام الماضي فتُرسَلُ إلى إسطنبول مرّةً أخرى لتدخلَ الخزينةَ الداخليّة للسلطان وذلك لشرفِها وقدسيّتها، وليس من حقِ أحدٍ الحصولُ عليها مطلقًا"[٦١].

ويقول "أمين الدولة" ما يلي:

"تُترك الكسوة السوداء القديمة لحريّة تصرُّف خازنِ المفاتيح وبعض العاملين بالكعبة المشرّفة، وأما الشريط المطرّزُ والمكتوبُ عليه بخيوطِ الذهبِ والمحيطُ بأطرافِ كِسوةِ الكعبة ومعها الستارة المزركشةُ



ستار الكعبة المشرّفة المجهّز في إسطنبول معروضًا في فناء جامع "السلطان أحمد" [أرشيف "مراد قازكيلي"]

بخيوطِ الذهبِ والمعلّقةُ على باب الكعبة وكذلك ستارةُ مقامِ إبراهيمَ كلُّ ذلك من نصيبِ شريفِ مكّة، وعندما سألتُ شريفَ مكّةَ المكرّمة عمّا يفعله بهذه الستائر والأقمشة المزركشة؛ قال لي: "أُهديها أحيانًا لأحد الوزراء أو وجهاء الدولة، إلا أننا عادةً ما نقوم بإذابة الذهب والفضّة من عليها ونستخدمها في تزيين دائرة الشريف".

ويروي "أمين الدولة" أن شريفَ مكّةَ المكرّمة أهدى إليه قطعةً من كسوة الكعبة المشرّفة خلالَ حفل غداءٍ أقامَه على شرفه قبل ذلك، وهو من جانبه قدّم له الاعتذار في البداية لأن إهداءه قطعةً من كسوة الكعبة كان بمثابةِ المفاجأةِ بالنسبة له، ثم بعد ذلك أهدى إلى شريفِ مكّةَ المكرّمة خاتمًا به فصّ من الفيروزِ القيّم وسجادةً



ذُكِر السلاطين العثمانيّون دائمًا بما قدّموه من خدمات لمكّة المكرمة والمدينة المنورة وفي الصورة
يظهر أحدُ أواخر سلاطين الدولة العثمانية السلطان "محمد رشاد" [أرشيف "يوسف جاغلاز"]

حريريّةً من نوع يعتَبَرُ فخرَ بلاده وقطعةً من القماش عليها تصاميم الورود وهي من منسوجات مدينة "جيلان" الإيرانية،(٦٢) كما أرسل خازنُ مفاتيحِ الكعبة المشرّفةِ إليه قطعةً من كسوة الكعبة سوداء مزركشةً ومطرّزةً وزجاجةً من عطرِ الورود الخاصّ، وقد قبِلَ "أمين الدولة" هذه الهدايا بكلّ سرور وأرسلَ له بعضَ الهدايا، وقام شخصٌ آخر -لم يذكر اسمه- بمنحه قطعةً من القماش المنسوج، فقام "أمين الدولة" بشرائها، وقد سُرَّ "أمين الدولة" كثيرًا بهذه الهدايا وقال:

"سأذهب بها إلى "طهران"، وسأكتفي بها دون غيرها لأنها أقيم وأفضل الهدايا"(٦٣).

خدماتُ السلاطين العثمانيّين

لقد أفرد مؤلِّفو كتبِ الرحلات من الحجّاج الإيرانيّين صفحاتٍ في مؤلفاتهم للحديث عن المؤسّسات الخيريّة التي أنشأها السلاطين العثمانيّون في منطقة "الحِجاز".

فمنذ تبنِّي الخليفة العبّاسيّ "هارون الرشيد" وظيفةَ خدمة منطقة الحجاز بصفة إداريّة، اعتبرَ الخلفاء والسلاطين خدمةَ الحرمين الشريفين شرفًا يسعون إليه ويتسابقون في تحقيقه، وقد اقتفى سلاطينُ آلِ عثمان هذا الأثر وقاموا بإنشاء العديد من المؤسّسات الخيريّة في الحرمين الشريفين وفي المناطق التي تمرّ بها قوافل الحجاج.

ويتحدّث "إعتماد السلطنة" عن القِلاع والخاناتِ التي أسّسها سلاطينُ الدولة العثمانيّة خارجَ مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة من أجل توفيرِ الأمن لقوافل الحجيج وتقديمِ الخدمات لهم، فيقول:

"عندما يخرج الحجاج من دمشق ويصلون إلى "خان ذي النون" يُقدَّم إليهم الحساء هناك، وقد أمر السلطانُ سليم الأوّل بإنشاءِ قلعةٍ في منطقةِ "الصنمين" وأسكن أبناء "قوّاصٍ" في هذه المنطقة للمحافظة على بئر المياه من أجل سقاية الحجّاج، وتضمن عائلة أبناء قواص رزقَها من العُشرِ المأخوذِ من محصول القرى الواقعة بين خان ذي النون والصنمين، والحجّاج المتوجّهون إلى "مزيرب" بعد عبور نهرِ "دجلة" بين "مزيرب" و"الصنمين" يتجمّعون على هيئةِ مجموعاتٍ ويمشون خلف أمير الحجّ، وكان يوجد في مزيرب سبيل عامّ للمياه، وكان السلطان "سليمان القانونيّ" قد أمرَ بإنشاء قلعةٍ في هذه المنطقة، وما زال أبناءُ وأحفادُ الحرّاس الذين عيّنهم في هذه القلعة يزاوِلون مهامَهم ووظائفَهم بها، وكان الحجيجُ يصِلون إلى منطقة "حضْرَني" بعد أن يقطعوا سبعةَ معابرٍ من "بالكا"، وكان السلطان "سليمان القانوني" قد أمرَ بصيانةِ الخزّان الموجودِ هنا بتكلفة ثلاثين ألف تومان بالعملة الإيرانية الحالية، كما أصدرَ أوامره بإنشاء

قلعةٍ هناك، وعندما لم تكنْ مياهُ هذا الخزان تكفي الناس في بعض الأحيان كان يتقدّم الحجّاج مسافةَ فرسخٍ تجاهَ الشرق... ويصِلون إلى "معان" وهو مكان صغير ينزلون به، وقد أمرَ السلطان "سليمان القانوني" بإنشاء قلعةٍ في هذا المكان من أجل راحةِ الحجّاج، كما حُفرت آبار المياه وازدادت كميّاته بالمنطقة، كما أنه جلبَ بعضَ العائلات من المناطق المحيطةِ والقريبةِ وأسكنَهم في هذه المنطقة... ويصل الحجاج من هنا إلى "ذات الحاج"، وقد قام السلطان سليمان القانوني بالتكليف ببناء قلعةٍ أيضًا في هذه المنطقة وتسهيلِ تدفُّقِ المياه بها، وقد قام أهالي القلعة باستخدام هذه المياه في الزراعة، كما بُنيت قلعةٌ كبيرةٌ من الحجارة في منطقة "أحد" في المدينة المنوّرة، وقد استخدم في بناء هذه القلعة مِلاطٌ جُلِبَ من خارج المدينة وهو يتفوّق على أفضل أنواع المِلاط المستخدمةِ في إسطنبول".

ويروي "كازروني" أن السلطان "عبد الحميد الثاني" أمر بإنشاء قلعةٍ ثانيةٍ بجوار القلعةِ سابقةِ الذكر فيقول:

"وبخلاف القلعة القديمة، بنيت أبواب قلعةٍ جديدةٍ وبُنِيَ مخفرُها معها بطريقةٍ هائلةٍ على نحوٍ قويّ ومتينٍ، إلا أنه لم يكتمل بناؤُها حتى الآن"[٦٤].

وقد أشار "سيف الدولة" كثيرًا إلى هذه القلاع وأوردَ معظمَها في كتاب الرحلات الذي ألّفَه، فيقول:

"لقد تمّ تعيينُ عددٍ من العائلات في منطقة "جديدة" من أجل تولّي مهامِ الحراسةِ وفي الوقتِ نفسِهِ القيام بملءِ أحواضِ المياهِ بالمنطقةِ، وكان يوجد في هذه المنطقةِ العديد من المساحات المزروعةِ بالنخيل، وكانت الدولةُ العثمانيّةُ تُرسِلُ كلَّ عامٍ تكاليفَ السفرِ والمعاشات الخاصّة بسكّان هذه المنطقة والأشخاص المعينين بحراسةِ وملءِ أحواضِ آبارِ المياهِ الواقعةِ على الطريقِ الموصِلةِ ما بين دمشقَ إلى مكّة المكرمة،[٦٥] *كما أنشأت الدولة العثمانية أيضًا مخزن الأسلحة والثكنات العسكرية الموجودة خارج المدينةِ المنوّرة، وكان الجنود المبعوثون من قِبَلِ الدولةِ يزاولون مهامَهم دائمًا هناك،*[٦٦] *وهناك مخزن للأسلحةِ وجنودٌ للحراسةِ كذلك في "بئر عباس"*[٦٧].

ويتحدّثُ "فراهاني" كذلك عن هذهِ القلعةِ وقد قدِمَ إلى هذه المنطقةِ عقِبَ سنوات بعد "سيف الدولة"، إلا أنّه يقولُ إنّ هذه القلعة دُمّرت وصارت خرابًا في الوقت الحالي[٦٨].

وينقل لنا "سيف الدولة" مجدّدًا أنّ جنودَ الدولةِ العثمانيّة أنشؤوا قلعةً في "بدرٍ" و"حنين" وأقاموا ثكنةً عسكريّةً ومخزنًا للأسلحةِ هناك[٦٩].

وبخلاف هذا يرد ذكر السلاطين العثمانيين في كثيرٍ من كتبِ الرحلات عند الحديث عن المسجد النبويّ، فيروي "سيفُ الدولة" ما يلي:

"لقد كلّف السلطان "عبد الحميد الثاني" بإعادةِ بناءِ المبنى القديم للمسجِدِ النبويّ بالمدينة المنوّرة، وفي الحقيقةِ فإنّ صيانةَ المسجِدِ صارت بالنسبة لسلاطينِ آلِ عثمانَ وكأنها مسابقةٌ يتنافسون عليها، أو شرفٌ يسارعون إلى نَيلِه[٧٠] وقد جلب أمين الصُرّة من عاصمة الخلافة في إسطنبول الشمعدانات الذهبيّة والفضّية والشموعَ البيضاءَ الموجودةَ داخل الحرَم"[٧١].

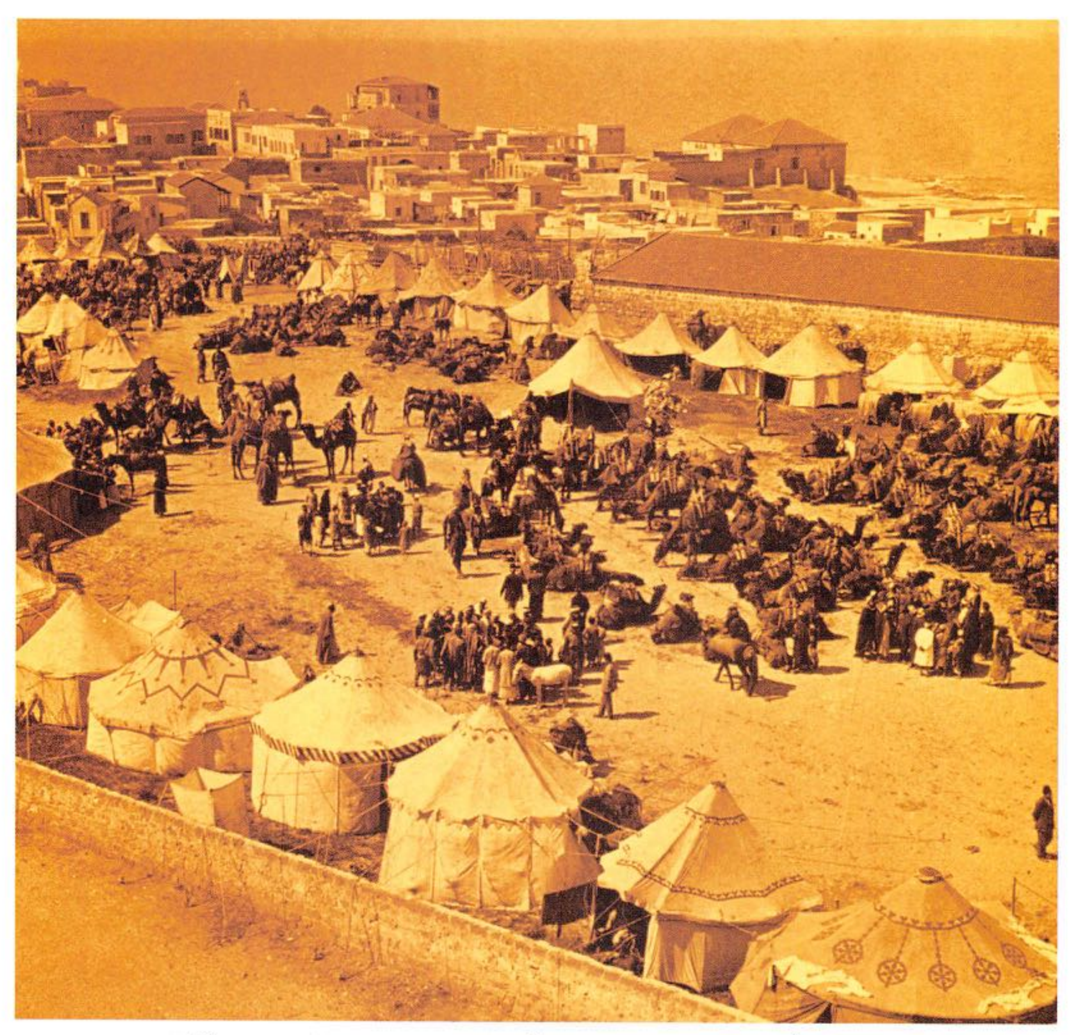
ويقول "إعتماد السلطنة" ما يلي:

"يضعون شموعَ الكافورِ التي تزِنُ خمسين باطمان[٧٢] في صناديقَ تُشبِهُ نعوشَ الموتى، ثم يَنقلون اثنين من هذه الصناديق بعد تحمليها على جملٍ قويّ، ثم تُرسل أربعة من هذه الشموع إلى المدينة المنورة، وتُرسل الأربَعة الأخرى إلى مكّة، ويتم إنتاج ثمانمائة باطمان من زيت الزيتون خارج دمشق، ثم تُجهَّز في دمشق وتُملأ الزجاجات بها، ثم بعد ذلك تُرسَل إلى الأراضي المقدّسة بعد تحميلها وربطِها في صدر البعير، ذلك لأن ذلك الزيت نُذِرَ لاستخدامهِ في إضاءةِ أحياءِ مكّة المكرمة والمدينة المنورة، ولقد دأَبَ سلاطينُ آل عثمان على إرسال الشموعِ وزيتِ الزيتون برفقة الحُجّاج إلى الأراضي المقدسة".

يقول "سيف الدولة" إن أعدادَ هذه الشموع كانت تصِلُ إلى عشرة آلاف شمعة، بحيث كانت تُستهلك على مدار العام وتُرسَلُ كمّيّة أخرى جديدةٌ لاستخدامِها في العام التالي، وقد سنحت الفرصةُ لـ"نائب الصدرِ الشيرازيّ" للمشاركة في المراسِمِ التي يقيمُها الصوفيّة لإشعالِ الشموعِ في المسجد النبويّ برفقةِ الصوفيّين والأغوات الآخرين، فيشرح لنا تفاصيلَ هذه المراسم بقوله:

"لقد استبدلتُ ملابسي بعدَ أن سُمِح لي أن أجلِبَ الشموع إلى الروضة النبوية مع غروب الشمس، وسمحت لي الفرصةُ أن أمسح وجهي بقبر ملك الملوك".

وعندما شاهد "نائب الصدر" أسماء الأئمّة الاثنَي عشرَ مكتوبةً بخطّ الثلث الجليّ في المسجد النبوي، لم يستطعْ أن يُخفي دهشتَه كما هو الحال بالنسبة لـ"فراهاني" الذي تعجّبَ كثيرًا لما رأى أسماء الإمام علي وابنيه الحسن والحسين ﷺ منقوشةً على جدران المساجد في إسطنبول[٧٣].



المخيم الذي أقام به الحجّاج الإيرانيّون في مكّة المكرمة عام (١٩٠٠م) [أرشيف "صالح كُولَنْ"]

وأما "معتمد الدولة" فقد حضر مراسم إشعالِ الشموعِ في المسجد النبويّ بصفةٍ أكثرَ رسميّة، وذلك بدعوةٍ من شيخِ الحرمينِ الشريفين بالمسجد، وحتى إنه ذهبَ إلى بابِ السلامِ بالمسجدِ النبويّ برفقةِ الرايةِ الشريفة، ذلك لأن الأغوات هناك رضوا عنه وأُعْجِبوا به كثيرًا.

ويقول مؤلِّف "سفرنامه عتبات" ما يلي:

"لقد علّقوا ثلاثمائةَ قنديلٍ إضافيٍّ مخصّصةٍ لأيّام الحجّ في المسجدِ النبويّ بخلاف نظامِ الإضاءةِ الأساسيّ به، وفي ليلة اليومِ العشرين خاصّةً كان يتدلّى ما بين ثلاثين إلى أربعين كيس زيتٍ من كلّ

نجفَةٍ، ولقد جلَس مائة آغا على سجاجيدَ منسوجةٍ خصّيصًا لهذا الغرض ويرتدي جميعُهم ثيابًا نظيفةً للغاية، ووظيفتهم هي مراقبة النظام داخل الروضة المطهّرة"(٧٤).

وأما "نجم الملك" فيروي أن بعضَ السلاطين العثمانيّين قد أمروا بترميمِ المنازل التي وُلد بها النبي محمد ﷺ والإمام علي كرّم الله وجهه في مكّة، وأنهم عيّنوا خادمَين يتولّيان أمور هذه المنازل(٧٥).

وأما "أمين الدولة" فيكتب ما يلي:

"في الحقيقةِ فإنّ أعمالَ الصيانة والترميمِ التي أمَرَ بها السلطان "عبد المجيد" تُعتبر عطيّةً كبيرةً وُهِبت للمسلمين، وإن الروحَ السائدة في هذا المسجد المقدّس الذي يُراعَى به تعظيمُ شعائر الله سبحانه وتعالى تحمل معانٍ كثيرةً لا تُضاهيها أيّ روحٍ في أيّ مسجدٍ آخر"(٧٦).

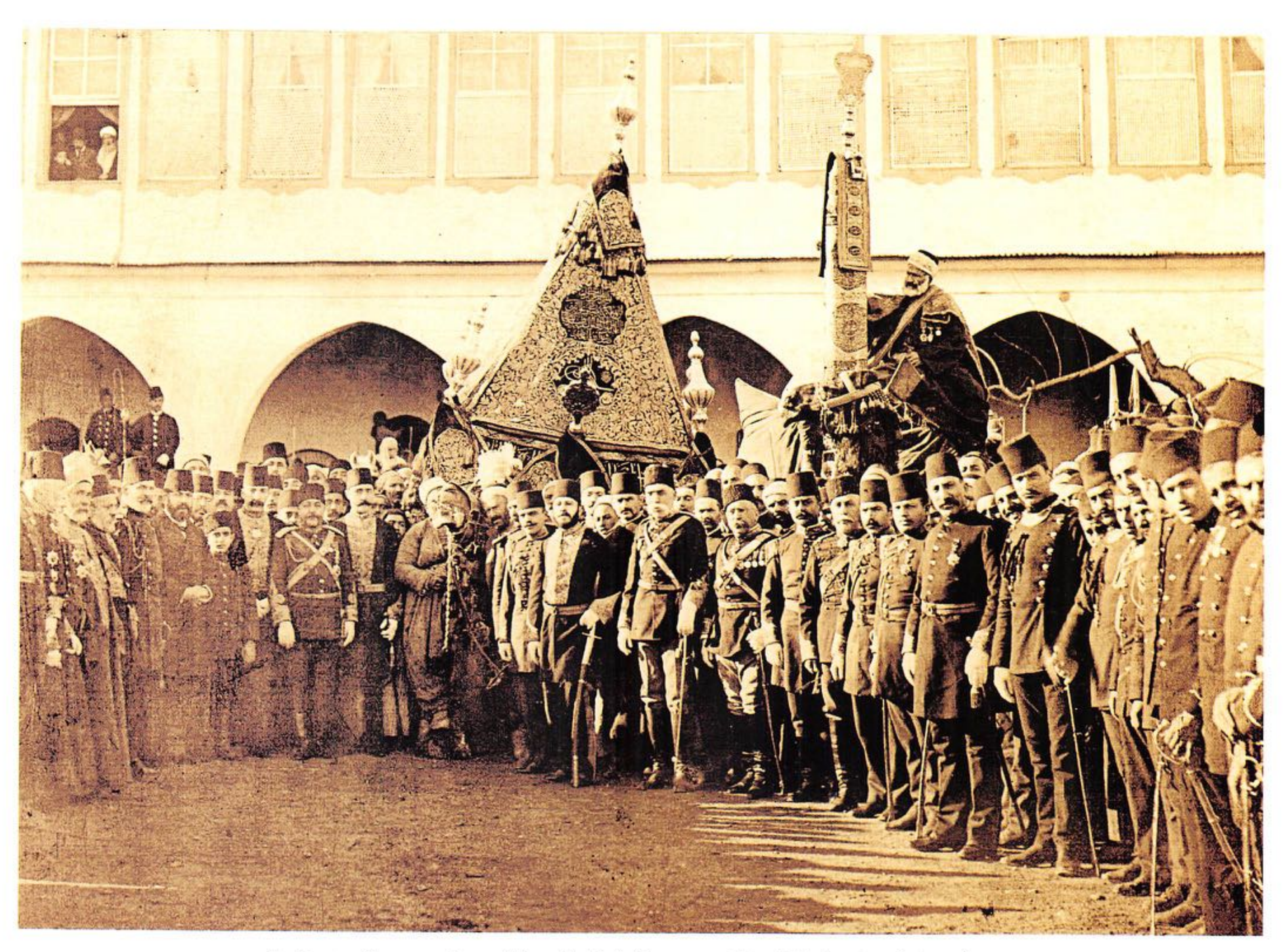
وأخيرًا فإن الحجّاج الإيرانيّين عند زيارتِهم لِـ"جبّانةِ البقيـع"، كانوا يشتكون من عدم الاهتمامِ الكافي بقبور الأئمّة الأربعةِ المدفونين في المدينة والمعاملة السيّئة التي يلقونها من العاملين هناك، حتى إنهم عمِلوا على نشر هذه القضيّة حتى أوصلوها إلى "إسطنبول" حاضرة الخلافة، فعلى سبيل المثال: عرض "حسام السلطنة" هذه القضيّةَ على السلطان بنفسه وترجّاه أن يختار العاملين بالبقيـعِ من الشيعة الذين يُطلق عليهم لقبُ "النُخاولة" اشتقاقًا من كلمة "نخل"، حيث يعيشون في المدينة المنورة ويشتغلون بزراعة النخيل(٧٧).


A DAUDENARDE



رسم تقريبي يظهر مرور موكبِ الصرة من "طوب خانه" إلى "أسكودار" وقد نشر عام (١٨٧٢م) من قبل مجلة فرنسية "لوموند إلاستر (Le Monde illustré)"

[مجموعة "يوسف جَاغْلَاز"]



حركة المحمل الشريف والراية الشريفة من دمشق الشام إلى المدينة المنورة [من مجموعة "يوسف جاغْلاز"]

طريق الحجّ ونفقاته

[الطريق البرّيّ (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)]

إعداد: مُنِيرْ آطَالَارْ (Münir Atalar)[١]

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

سنحاول في هذا المقال توضيحَ نفقات رحلة موكب الصُّرّة سنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م) الخاصّة بالذهاب إلى مكّة المكرّمة والعودةِ منها معتمدين على الدفتر[٢] الموجودِ في الأرشيفِ العثمانيِّ التابعِ لرئاسةِ الوزراءِ والذي خطّه أمين الصُّرّة أثناء رحلتِه مسجّلًا نفقاتِ الطريقِ في الذهابِ والإيابِ.

إنّ دفترَ النفقات المذكور قد تمّ إيداعُه ضمنَ تصنيفِ "خطّ همايوني" في أرشيف رئاسةِ الوزراء برقم (B/306 .48)، ويعود تاريخه لسنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)، ومقاس الدفتر (٢٧×٧٥ سم)، ويتكوّن الدفتر من ثمان ورقاتٍ، وقد كُتبَ بخطّ الرقعةِ الذي تسْهُلُ قراءته، والدفتر كامل موجودٌ أوّله وآخره، ويبدأ كما يلي:

"دفتر يحوي كلّ النفقات الواقعة منذ تم توجيه عُهدة أمانة الصُّرّة إلى هذا العبد وصدورِ القرار بهذا والوصول إلى مكّة المكرمة حتى العودة منها والدخولِ إلى دارِ السعادة، وذُكِرت النفقات على الوجه التالي، سنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)".

ويُفهَم من هذه العبارات أنّ أمين الصُّرّة قد أخفى اسمه مستخدمًا كلماتٍ تَنُمّ عن التواضع، وقد استخدم أسلوبًا مشابهًا لهذا في نهاية الدفتر ولم يذكرِ اسمَه، واستخدم تعبيراتٍ مثل "عُهْدةِ العاجز"، ولكنّنا عندما بحثنا بدقّةٍ في محاضر المضابط المؤرّخة في سنة (١٢٥٤هـ/١٨٣٨م) التي نُظّمت من قِبَلِ دار شورى الباب العالي تمكنّا من معرفة اسمِ أمين الصُّرّة المجهول هذا، ولقد وردَ اسمُ أمين الصُّرّة في المضْبَطَةِ المذكورة كما يلي:

"طبقًا للفرمان العالي وصلتْ نفقاتُ الطريق المعطاة قديمًا إلى أمين المابين الهمايوني لتعيينه في أمانة الصُرّة الهمايونية في الماضي (يقصد سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م) قد بلغت ألفَ كيس أقجه، وطبقًا لإفادة عبدكم "خليل كامل آغا" فإنّ هذا المبلغَ لا يكفي نفقةَ الطريق، ولقد زادت نفقاتُه ولكي نعلم فحوى هذا الأمر طلبنا إليه تنظيم دفترٍ لنعرفَ مقدارَ المبلغِ اللازمِ لهذا الشأن..."[٣].

ولقد ورد اسم "خليل كامل" مرّةً أخرى في موضعٍ آخر في المضبطةِ نفسِها، وهكذا نكون قد عرفْنا أنّ أمينَ الصُرّة الذي خطَّ هذا الدفتر هو "خليل كامل آغا".

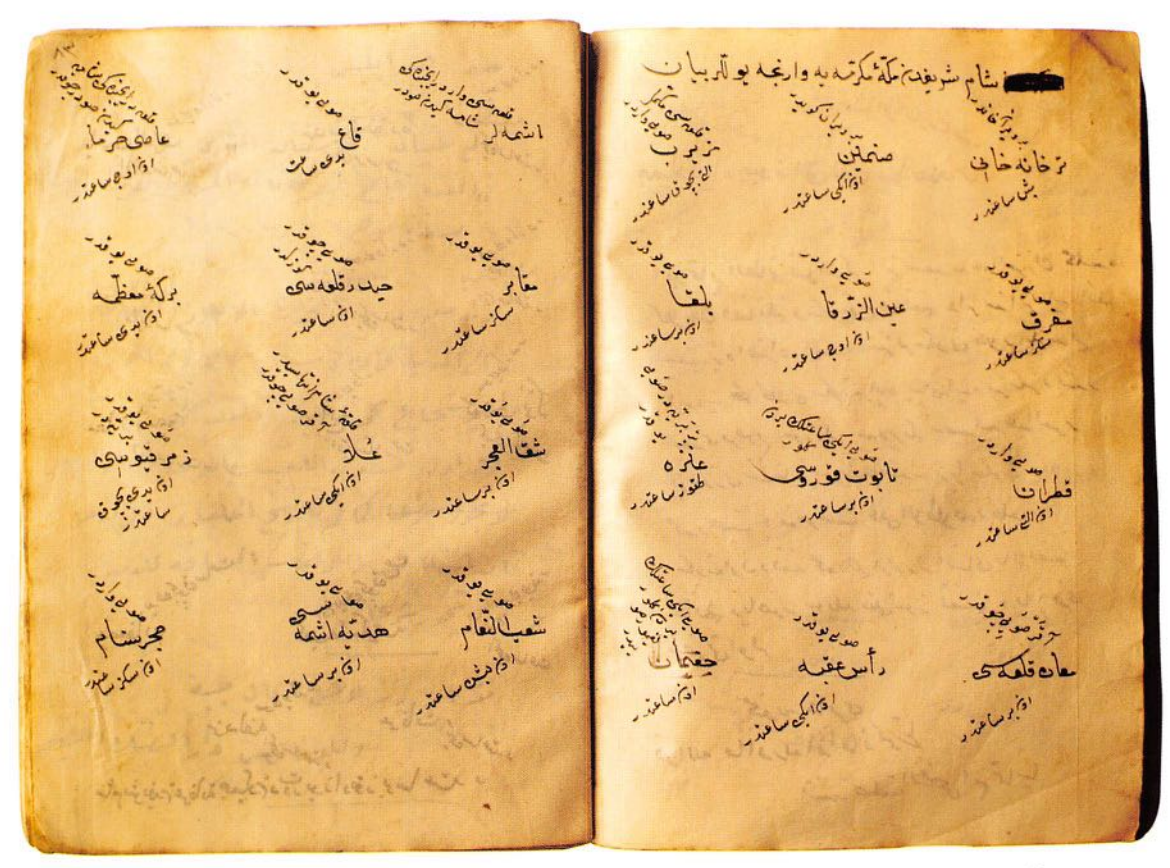
لقد بلغت نفقات الطريق حتى الحركة من "قَرْتَالْ (Kartal)"، يعني النفقات التي تمت من "سِيرْكَجِي" إلى "أُسْكُودَارْ" ومنها إلى "قَرْتَالْ" -قد بلغ مجموعها- مائتين وواحد وثمانين ألفًا ومائتين وسبعةً وتسعين قرشًا ونصف، ويمكن أن نورد أسماءَ بعضِ الجهات التي أُنفِق عليها هذا المجموع كما يلي:

أجرةٌ لعددٍ مختلف من الموظّفين، وسقاءٌ زجاجي مغلّفٌ بالعيدان وشمع وشمع عسل وقنديل وسكّين هديّة وبغل وعلبة مناديل ومروحةٌ لحضرةِ الشريف وخاتم تقليدٍ ومطرّزات يمانيّة وسكاكر ومطهرة لتُهدَى لأبناء العربان والأرزُّ المعتاد طبخُه يومَ التحرّك من الدارِ العليّة، وصندوقا أدوية وصابون وملابس وقماش أمريكي -ليوزّعَ في طريق الحجّ كملابس الإحرام- وتنباك، وقهوة ودخان ونعل وقبقاب وخيمة وبغل وجبن رومي وسجق وبسطرمة وساعات للهدايا وخلعة وفرْوٌ وأجرُ الدابّة المستأجرة من رئيس العَكّامين وأجرةُ حيوانات الطريق وأجرةُ القوارب حتى الخروج من دار السعادة وخمائل وغيرها.

"إن موكب الصُرّة المتحرّك من "قَرْتَالْ" يذهبُ حتى الشام بالخيل والبغال والبعير، أما في الشام فيُحمل على العير، وما زال الطريق بين إسطنبول ومكّة المكرّمة دربًا تسلكُهُ المُشاة والدوابّ"[٤].

إن "موكبَ الصرّة" أو بتعبيرٍ آخر "قافلة الحج" التي تحرّكت من "قَرْتَالْ" قد اتّبعت هذا الطريق في الذهاب إلى مكّة:

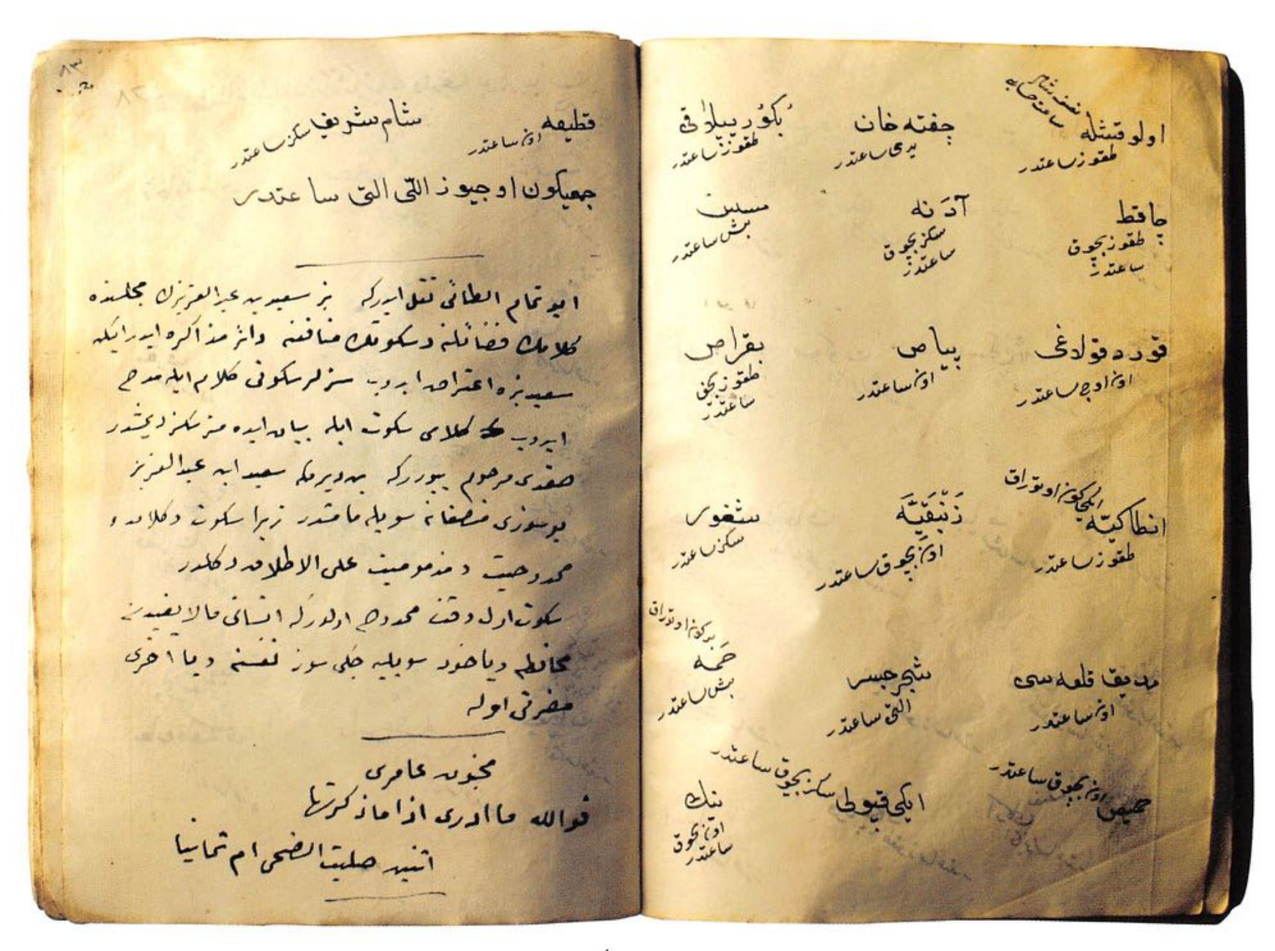
"قَرْتَالْ (Kartal)" و"كَبْزَه (Gebze)" و"إِزْنِيكْ (İznik)" و"سَابَنْجَه (Sabanca)" و"آق حِصَارْ (Akhisar)" و"لَفْكَه (Lefke)" و"عثمان أَلِي (Osmaneli)" و"وَزِيرْ خَانْ (Vezirhan)" و"سُغُودْ (Söğüd)" و"أَسْكِي شَهِرْ (Eskişehir)" و"سيّد غازي (Seyyidgâzi)" و"خُسْرَوْ بَاشَا خَانِي (Hüsrev Paşa Hanı)" و"بَيَاتْ (Bayat)" و"بُولْوَدين (Bolvadin)" و"إسحاق لي (İshakli)" و"آق شهر (Akşehir)" و"إِيلْكُونْ (Ilgun)" و"لَادِيكْ (Lâdik)" و"قُونْيَه (Konya)" و"شَوْمَرَه (Şevmere)" و"إسماعيل" و"قَرَه بِينَارْ (Karapınar)" و"أَرَغْلِي (Ereğli)" و"أُولُو قِشْلَه (Ulukışla)" و"نِيكْ خَانْ



الأماكن التي مرّ بها موكبُ الصرة الهمايونية المتَّجه بَرًّا من الشام الشريف إلى مكة المكرمة [من مجموعة "صبري قُوز"]

(Nîkhan)" و"مضيق كُولَاكْ (Gülek)" و"قُوزُولُو خان (Kuzulu Han)" و"كُوتُوكْلُو (Kütüklü)" و"أَضَنَه (Adana)" و"مِيسِيسْ (Misis)" و"قُورْتْ قُولَاغِي (Kurt Kulağı)" و"بَيَاصْ (Payas)" و"بَالَانْ (Balan)" و"أَنْطَاكْيَا (Antakya)" و"مزرعة حاجي باشا" و"شُوغُورْ (Şuğur)" و"قلعة مضيق" و"حماه" و"حمص" و"إِيكِي قَبُولُو خَانْ (İki Kapulu Han)" و"بَنِيكْ (Benik)" و"قُدَيْفَه (Kudeyfe)" و"الشام الشريف" و"مزيريب" و"معان" و"نخل العاصي" و"بلقاء معظمة" و"بِئْر والدة" و"فحلاتين" و"هدية" والمدينة المنورة" و"غديرة"، و"بدر" و"حنين" و"رابغ" و"مكة المكرمة"(٥).

وهكذا فإن قافلة الحجّ كانت تمرُّ على أربعةٍ وخمسين نُزُلًا ومرحلةً حتى تصِل إلى مكّة، وتمّ البقاءُ في ستٍّ منها لأسبابٍ مختلفة، فقد تمّت الإقامة في كلٍّ من "إزنيك"، و"قُونْيَه" و"أَضَنَه" و"أَنْطَاكْيَا" يومين، كما تمت الإقامة في الشام واحدًا وثلاثين يومًا وفي مكّة المكرّمة تسعةَ عشرَ يومًا، ومرجعُ البقاءِ كلَّ تلك الفترة في الشامِ قضاءُ شهر رمضان فيها كاملًا، أما البقاءُ في مكّة المكرّمة فكان لازمًا من أجل الحجّ.



الأماكن التي مر بها موكب الصرة الهمايونية المتجه بَرًّا من "أُسكُودَار" إلى الشام الشريف [من مجموعة "صبري قُوز"]

ونرى أن هذا الطريقَ نفسَه قد اتُّخذَ في العودةِ، ولكن تمّت الإشارةُ إلى خمسةِ منازلَ أخرى وهي: "خان قُصَيْري (Kusayri)" و"خان قَرَه مُوتْ (Karamut)" و"إسكندرون (Iskenderun)" و"مصيف رمضان أُوغْلُو (Oğlu)" و"تَخْتَه كُوبْرُو (Tahta Köprü)"، كما حدث تغييرآخر في المبيتِ والإقامة أثناء العودةِ:

فقد تمَّ البقاءُ في المدينة المنوّرة ثلاثةَ أيّامٍ، وفي الشام سبعةَ عشر يومًا وفي كلٍّ من حماه و"أَنْطَاكْيَا" و"أَضَنَه" و"أَرَغْلِي" و"أَسْكِي شَهِر" و"إِزْنِيكْ" يومين، وهكذا فإنّ عددَ أيّام الذهاب والعودة والإقامة في الرحلة قد بلـغ تسعين يومًا؛ ثمانيةٌ وخمسون يومًا منها استُهلِكت في الذهاب واثنانِ وثلاثون في العودة.

وفي هذا الدفتر لم تُذكَرِ المسافةُ بالساعةِ بين المنزلين، ومع الأسف لم تُذكَر أيضًا ساعة أو يوم التحرّك أو ساعة الوصول أو مغادرة المنازل، ولهذا فقد حُرِمْنا من إمكانيّة إعطاءِ معلوماتٍ دقيقة عن مسافاتِ وأوقاتِ الذهاب والإياب بين المنازل(٦).

لقد احتوى الدفتر على كلِّ ما اشترته قافلةُ الحجّ في كلّ مرحلة من الموادِ الضروريّة مثل أنواع الأطعمةِ وعلَفِ الحيوانات والهدايا ومقدارِها وفئتِها وأسعارها، أي إنه يحتوي على مجموع النفقات الجزئيّة، ومن هذه الموادِ الضرورية ما يلي:

بقسماط وبغل وصرة هدايا وبرغل وحذاء طويل وأرز وعباءة (عباءة نسائية خارجية) وحطب وقنديل وقطران وسكاكر وفحم ولحم ولوازم المحفّة وعدس وخفّ للمسح عليه وخبز وحمّص وزيت سادة وزيت زيتون وسمْسم وخضروات وبصل وقرْبة مياه ولوازم قربة شعير وخِلَع وفرْو بأسعار مختلفة.

وقد أُوضح في الدفتر مجموع نفقات الذهاب والإيابِ كلّ على حِدَةٍ، وهناك مجموعٌ جزئيٌّ يبيّن ما أُنفق يوميًّا في كلّ مرحلة، وذكر في نهاية الدفترِ مجموعُ نفقات رحلة الذهابِ والإيابِ بشكلٍ عام، وطبقًا لحساباتنا فإنّ هذه القافلة أنفقت في الذهاب من "قَرْتَالْ" إلى مكة المكرمة ثلاثمائة وتسعين ألفًا وثمانمائة وخمسةً وأربعين قرشًا، لا يشتملْ هذا المجموع على الأرباع(٧) التي وُزِّعت في مكّة المكرمة والمدينة المنورة كما هو معتادٌ، وكان عدد هذه الأرباع ألفًا ومائةً وثمانيةً وعشرين وُزِّعَ منها في المدينة المنورة مائتان وأربعةٌ وخمسون وفي مكّة المكرّمة ثمانمائة وأربعة وسبعون.

وطبقًا لحساباتنا فقد بلغ مجموع نفقاتِ رحلةِ العودةِ مائتين وثمانية آلاف وثمانمائة وسبعين قرشًا ونصف، إلا أنّ أمرًا لا ينبغي لنا أن نغفلَ عنه هنا وهو أنّه لم تُسجَّلْ أيّةُ مصروفات في خانةِ النفقات في مرحلة "قُونْيَه"، كما أنّ المنازِل الستّةَ الكائنةَ بين "قُونْيَه" و"خَانْ خُسْرَوْ بَاشَا" -وهي بالترتيب كما يلي: "لَادِيكْ (Lâdik)" و"إِيلْجِنْ (Ilgın)" و"آق شهر" و"إِسْحَاقْلِي" و"بُولْوَادِينْ (Bolvadin)" و"بَيَاتْ (Bayat)"- لم تُذكرْ نفقاتُها، وقد ورد وبُيّنَ هذا الأمر في الدفتر كما يلي:

> *"عند الوصولِ إلى الخان المذكور (خَانْ خُسْرَوْ بَاشَا) في "قُونْيَه" سدّد والي قُونْيَه صاحبُ الدولة "حاجي علي باشا" ومتسلّم "قَرَه حِصَارْ" كلّ النفقات اللازمة"* (ورقة: 8a).

وبناءً عليه فإن نفقات الطعام وعلفَ الحيوان التي تمّ توفيرُها مجّانًا في سبع مراحل بما فيها "قُونْيَه" تكلّفَ مبلغًا كبيرًا، ويُمكِن أن نعرف مقدارَ هذه النفقات إذا جمعنا مقدار نفقةِ السبعِ مراحل نفسها التي في الذهاب،



الأماكن التي مر بها موكب الصرة الهمايونية من الشام الشريف إلى مكة المكرمة [من مجموعة "صبري قُوزْ"]

وعند الإحصاءِ نجدُ أن المبلغ تقريبًا يصل إلى سبعةِ آلاف وتسعمائة وثلاثة عشر، وسيكون من الملائم ضمّ هذا المبلغ إلى نفقاتِ الذهابِ والعودةِ، وبهذا سيزيدُ مقدارُ نفقاتِ العودةِ بهذه النسبة وعلى هذا التقدير ستبلغ مائتين وستّة عشر ألفًا وسبعمائة وثلاثةً وثمانين قرشًا ونصف، وهذا يُظهرُ ويكشِفُ الوجهَ الحقيقيّ لمجموعِ النفقات المرتبطةِ بالعودةِ بصفةٍ عامّة.

مجموع نفقات الذهاب والإياب: خمسمائة وتسعة وتسعون ألفًا وسبعمائة وخمسة عشر قرشًا ونصف، عندما نضيف إليها النفقات التي أنفقت قبل التحرك من "قَرْتَالْ" فإن المبلغَ سيزيد على المجموع العام الوارد في نهاية الدفتر بمبلغ قدره مائتان وأربعة وتسعون قرشًا ونصف[٨] كما يلي:

(٢٠٨٨٧٠,٥ + ٢٨١٢٩٧,٥ = ٨٨١٠١٣ وبالتالي فإنّ: ٨٨١,٠١٣ - ٧١٨,٥ = ٢٨٤,٥ قرش)

ويوضح أمين الصُرّة "خليل كامل آغا" المجموعَ العامّ في الورقةِ الأخيرةِ من دفتره كما يلي:

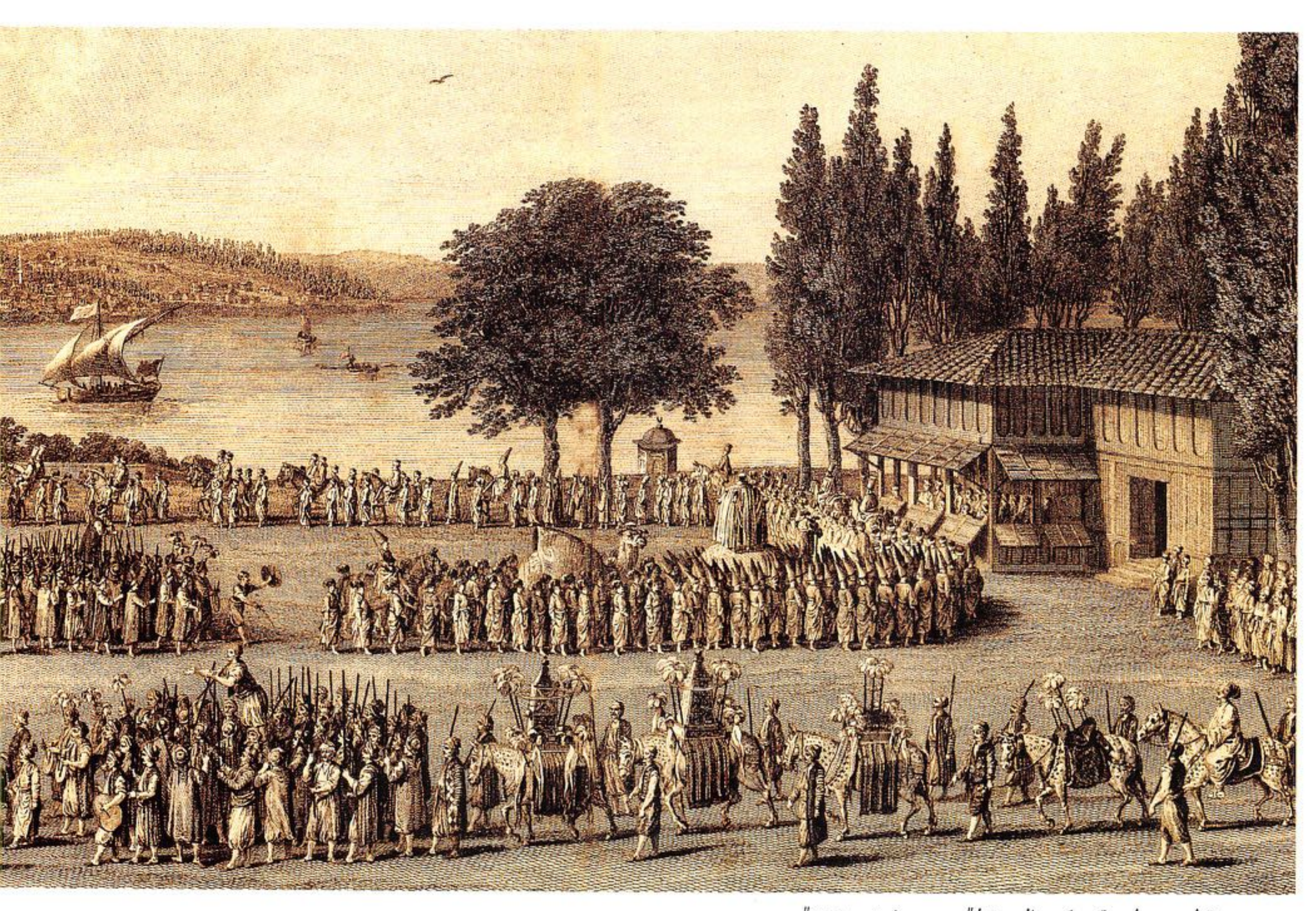
"طبقًا لما تمّ ترقيمه داخل الدفتر فإن مجموع نفقاتِ عبدِكم -باستثناء قِرَبِ الماء المعلومة العدد المعطاة من مُؤَنِ الشام ونفقاتِ البقسماط والشعير وغيرها- قد بلغت ثمانية أحمال وثمانين ألف قرشٍ وسبعمائة وثمانية عشر قرشًا ونصف، منها مبلغ خمسة وسبعين ألف قرش هو ثمن الأشياء الموضّحة في الدفتر وما لم يهلك من الحيوانات... ويخمّن أن ثمن الموجود الآن من الخيل والبغال والأشياء التي تم شراؤها وبقية الحيوانات وما أهدي منها يبلغ خمسةً وثمانين ألف قرشٍ، وعند طرح المبلغ المذكور من مجموع النفقات يكون مجموع النفقات الباقية سبعة أحمال وخمسة وتسعين ألفًا وسبعمائة وثمانية عشر قرشًا ونصف وهو نفقات هذه السنة، ويجب ألا تقارن هذه النفقات بنفقات السنة الماضية، فقد حدثَ غلاءٌ في أسعار المؤَنِ، فأدّى هذا إلى زيادةٍ ضروريّةٍ في العطايا المعتادةِ وغير والمعتادة، هذا بالإضافةِ إلى أن صُرَرَ الهدايا والخِلَعَ قد عُملت على أحسن ما يكون فقد كان هذا سببًا في حدوث زيادةٍ ملحوظةٍ في النفقات".

*دفتر النفقات الحاصلة منذُ تَم توجيهُ عهدةِ أمانةِ الصُرّة إلى هذا العبدِ وصدورِ القرار بهذا وبما فيها نفقات السفرِ إلى مكة المكرمة حتى العودة منها والدخول إلى دار السعادة، وذكرتُ النفقات على الوجه التالي، نفقات سنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)":**

---

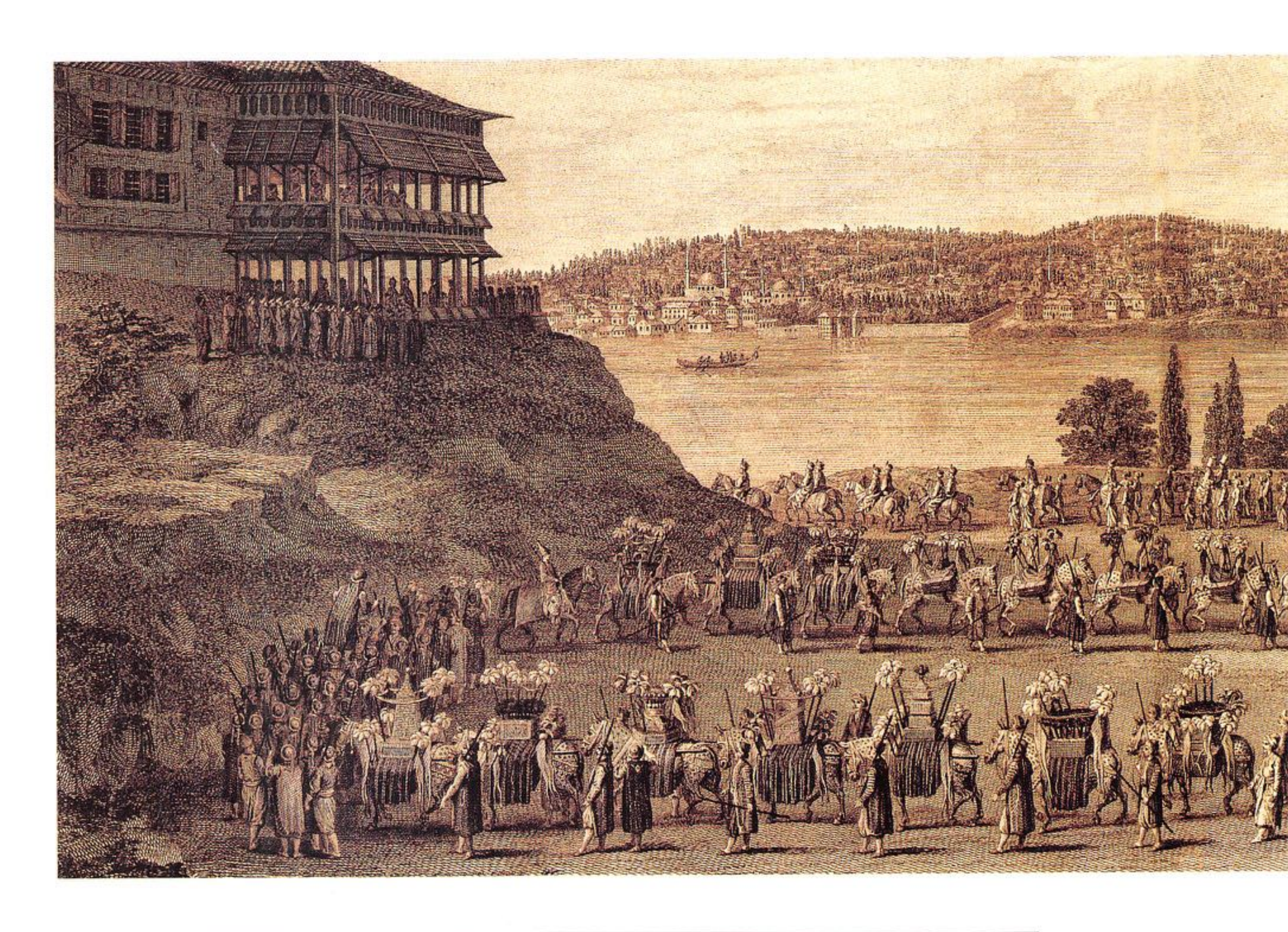
* **ملحوظة من دار النشر:**

نظرًا لأن الدفتر المذكور قد قُيد فيه كلّ نفقات السفر من شتى المصاريف والخدمات على طريق الحج ذهابًا وإيابًا دون استثناء صغيرة أو كبيرة، وفي كل محطة ومنزل، فقد حذفنا ذلك اختصارًا وأخذنا عيّنةً توضيحيةً من أول الدفتر وآخره ليطّلع عليها القارئ الكريم وهي كالتالي:



مقطع من لوحة موكب الصرة لـ" دوهسون (d'Ohsson)"

التلخيص المعتاد لهذا الطرف	٨٠٠ قرش[٩]
للداعي القادم من الباب العالي	١٦٠٠ قرش[١٠]
لكاتب الصُرّة الهمايونية	١٥٠٠ قرش[١١]
لمعاوني كاتب الداخلية	٢٠٠٠ قرش[١٢]
ثمن وزن الأقجه المأخوذة من الخزينة العامرة	٣١٧,٥ قرش
المعتاد دفعه لموظفي الدفتر	٢٥٠ قرشًا[١٣]
للسيد مترجم الحرمين الشريفين	١٥٠٠ قرش[١٤]
ولأتباعه	١٠٠ قرش[١٥]



لطرف السيد المضيف	٢٣١٠ قروش[١٦]
عوائد طرة رئيس العَكَّامين	٦٦٦,٥ قرش
عدد: (٤) زجاجات (مغلفة بالحصير) لوضع ماء زمزم	٨٠ قرشًا
نحاس شُري من أجل الطريق في دفتر المفردات	٥٣٣٧,٥ قرش
شمع عسل	٩٧ قرشًا
شمعة	٢٤١,٥ قرش
(٣٠٠- ٦٥٠) قناديل من أجل الطريق	٣٥٠ قرشًا[١٧]
(٨٠- ١٣٠) مقصّ شمع	٥٠ قرشًا[١٨]
كوب وحنفيّة من أجل السبيل	٥٧,٥ قرش



صورة يظهر فيها أمين الصرة أثناء الموكب [أرشيف "يوسف جاغَلاَر"]

***

في مرحلة "قِرْتَالْ"	
(٤٠) أوقية خبز	٣٠ قرشًا
(١٩,٥) أوقية لحم	٤٩ قرشًا
(١٧) كيلة شعير	١١٠,٥ قرش
(٢٠٠) أوقية تبن	٤٥ قرشًا
حمل	٢٤ قرش
مصروفات متفرقة بيد المشار إليه في الدفتر	١٣٨ قرشًا
المجموع	٣٩٦ قرشًا

كتبت بعض العطايا والنفقات الطارئة أثناء الطريق ولأنها كتبت في دفتر مختلف سيلزم إسقاطها من هنا:	
مبلغ صُرِف بموجب دفتر المفردات هو نفقةُ أجرةِ البريد والطريق البرّي لأصحابِ النُّزُلِ في كلّ مرحلةٍ من مراحل الرحلة منذ الخروج من "أُسْكُودَارْ" بعناية الله تعالى حتى الوصول إلى مكّة المكرّمة ومن هناك حتى العودة إلى دار السعادة، ويدخل فيه أيضًا أجرةُ الطريق البرّيّ الخاصّ بالعساكرِ وأولادِهم وخدّامهم من الشام حتى دار السعادة ونفقات ترميمِ الخيام أثناء الطريق وترميم البرادع، وثمن ما ابتيعَ جديدًا من الهوادجِ وترميمُ قديمِها وترميمُ السروج والأحزمة التي ابتيعت جديدةً، وكل المصروفات الفرعيّة والثانويّة التي صُرِفَتْ.	١٥٢٢٩ قرشًا
عطايا مُنِحَتْ منذُ أن تولّيتُ أمانةَ الصُّرّة وفي الذهابِ من دارِ السعادة إلى مكّة المكرّمة وفي العودةِ من هناك إلى دار السعادة أثناءَ الطريق للمتسلّمين والولاة وللأغوات ولعُمَدِ بعض المراحل التي بِتنا فيها، ولرجال وحرس الممرّات الضيقة وأصحاب النزل، وبعض المصروفات المعتادة وغير المعتادة المعطاة إلى مشايخ العرب والعربان وبعض المشايخ وأهالي الحرمين المحترمين ونفقات الطريق المعطاة للأتباع المسافرين وعطايا العَكّامين التي أعطيت بِيَدِ هذا العبدِ في ظلّ حضرةِ السلطان	١٢٥٠٠٠ قرش
المجموع	٨٨٧١٨,٥
خصم منها قيمة الحيوانات والأشياء الموجود	٨٥٠٠٠ -
المجموع	**٧٩٥٧١٨,٥**

"طبقًا لما ذكر في هذا الدفتر فإن مجموعَ مصروفات هذا العبد بخلاف قِرب الماء والبقسماط والشعير المعتادِ دفعُه من مخزن الشام قد بلغت ثمانية "يُوكْ"[١٩] وثمانين ألفًا وسبعمائة وثمانية عشر قرشًا ونصف، وبخلاف الحيوانات والأشياء الموجودة التي حدثت فيها خسائرُ بسيطةٌ والموضّحةُ في الدفتر والبالغ ثمنُها خمسةً وسبعين ألف قرش يوجد أيضًا الهدايا المعطاة في ظلّ حضرة السلطان وهي كما يلي:

- ثلاثة بغال مهداة من فخامة "حاجي علي باشا" قائد الجيش في "قُونْيه".

- وحصانان في العَودة، وثلاثةُ أحصنةٍ وبغلٌ مهداة إلى العاجز من متسلّم[٢٠] "قره حصار" أثناء المرور والعبور.

- حصان واحد معطى من متسلّم مدينة "نيده".

- بغلٌ واحد أُهْدِيَ من "حاجي حسن آغا" من أعيان "قَرَه حصار".

- بندقيّة واحدةٌ ذات عقيق مهداة من رئيس عمال المعدن (المناجم).

• مُهْر واحدةٌ أعطانا إياها مفتي "إِيلْكُونْ".

• حصان واحدٌ أهديَ من متسلّم "أَسْكِي شَهِر".

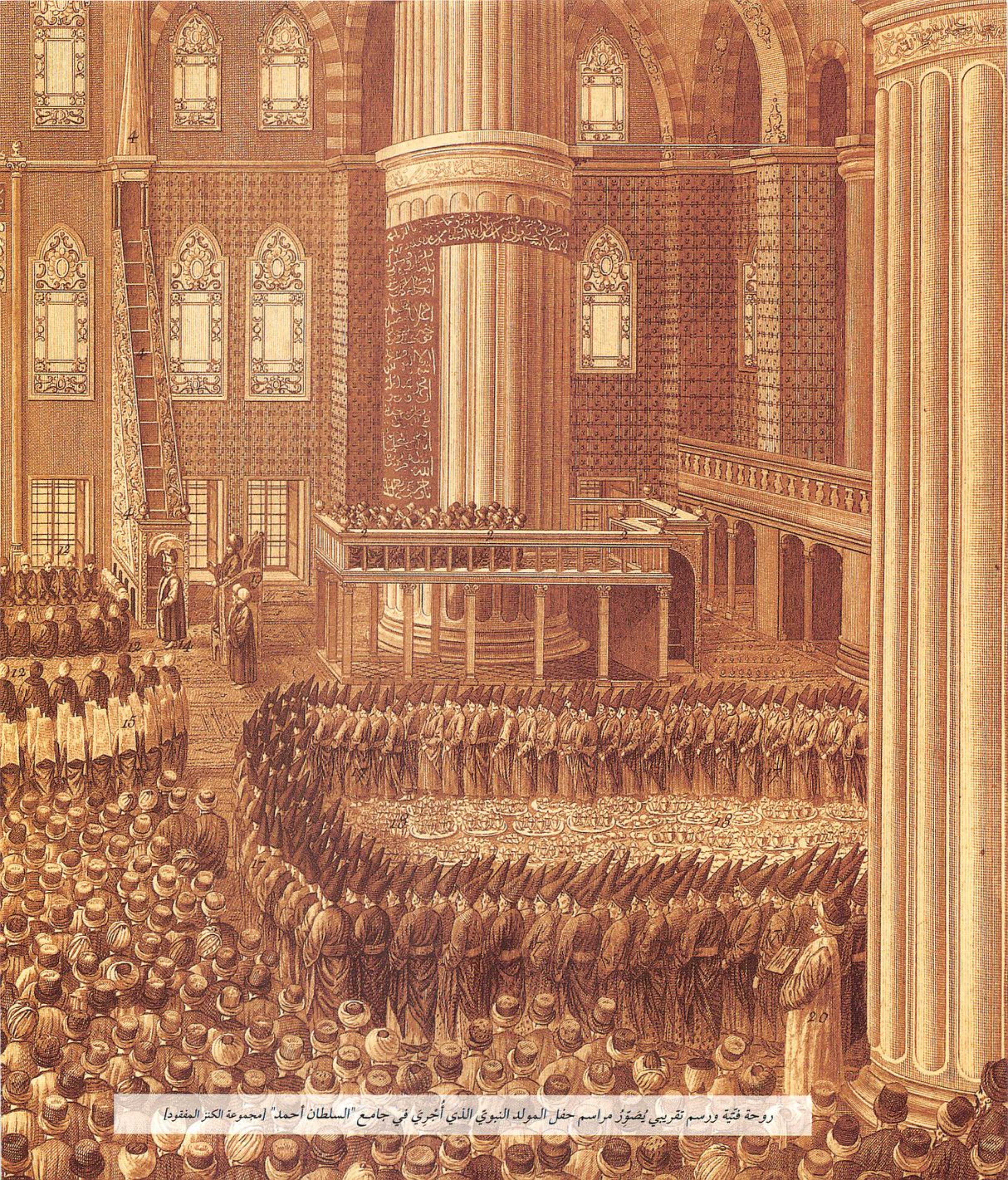
إن ثمن الخيول والبغال الموجودة والأشياء المشتراة وكذلك ثمن الحيوانات الموجودة يبلـغ تقريبًا خمسةً وثمانين ألف قرش، عند طرحِها من المجموعِ المذكور يكون باقي المصروفات هو سبعة "يُوكْ" وخمسةٌ وتسعون ألفًا وسبعمائة وثمانية عشر قرشًا ونصف، ونوضـح في النهاية أنه يجب ألا تقارَنَ مصروفاتُ هذا العام بمصروفاتِ السنةِ الماضيةِ، فقد وجدْنا أسعارَ المؤنِ في الخارج زادت وأَضْحَت أغلى ممّا كانت عليه، وبناءً عليه زادت العطايا المعتادة وغير المعتادة، أَضِف إلى ذلك أن إعداد صُرَرِ الهدايا والخِلَع من أجود الأنواع قد زاد بوضوحٍ من المصروفات المذكورة.

وطبقًا لما يعلَمُه معاليكم فقد وردَ في فقرةٍ من المذكّرة السامية الخاصّة بالاستعداد لتعيين أمين الصُرّة العام الماضي بناءً على الأمر السلطانيّ والمكتوبةِ إلى المابين الهمايوني "أن نفقات الطريق المعطاة منذ زمنٍ إلى أمناءِ الصُرّة قد زيدت إلى ألفِ كيسِ أقجه"، إلا أنّه طبقًا لما قاله "خليل كامل آغا" فإنّ هذا المبلـغَ المخصَّص لنفقات الطريق لم يكف، لأن المصاريف ازدادت عنده، وبسبب ذلك قد طُلِبَ منه تقديمُ دفترٍ بالنفقات، ولما عمِل المطلوبَ وقدّم الدفترَ تمّ استئذانُ جنابِ صاحِبِ المُلك في زيادةِ نفقات الطريقِ، ووردَ في الردِّ العالي المحرّر على نفسِ المذكّرة في هذا الشأن أنه قد أمرَ بالإشعارِ بأنه قد تمَّ العطفُ والإحسانُ لطفًا وكرمًا من حضرةِ السلطان بالهدايا التي قُدِّمت في كلِّ هذه الأماكن بعد أن قدم أمناءُ الصُرّة له ما يشرحُ ويُوضح تفصيلَ هذه النفقات، وقد تمّ العفوُ عن عبدكم "خليل كامل آغا" ومن كان معه لأنّه قدَّمَ دفترَ المصروفات المذكورة.

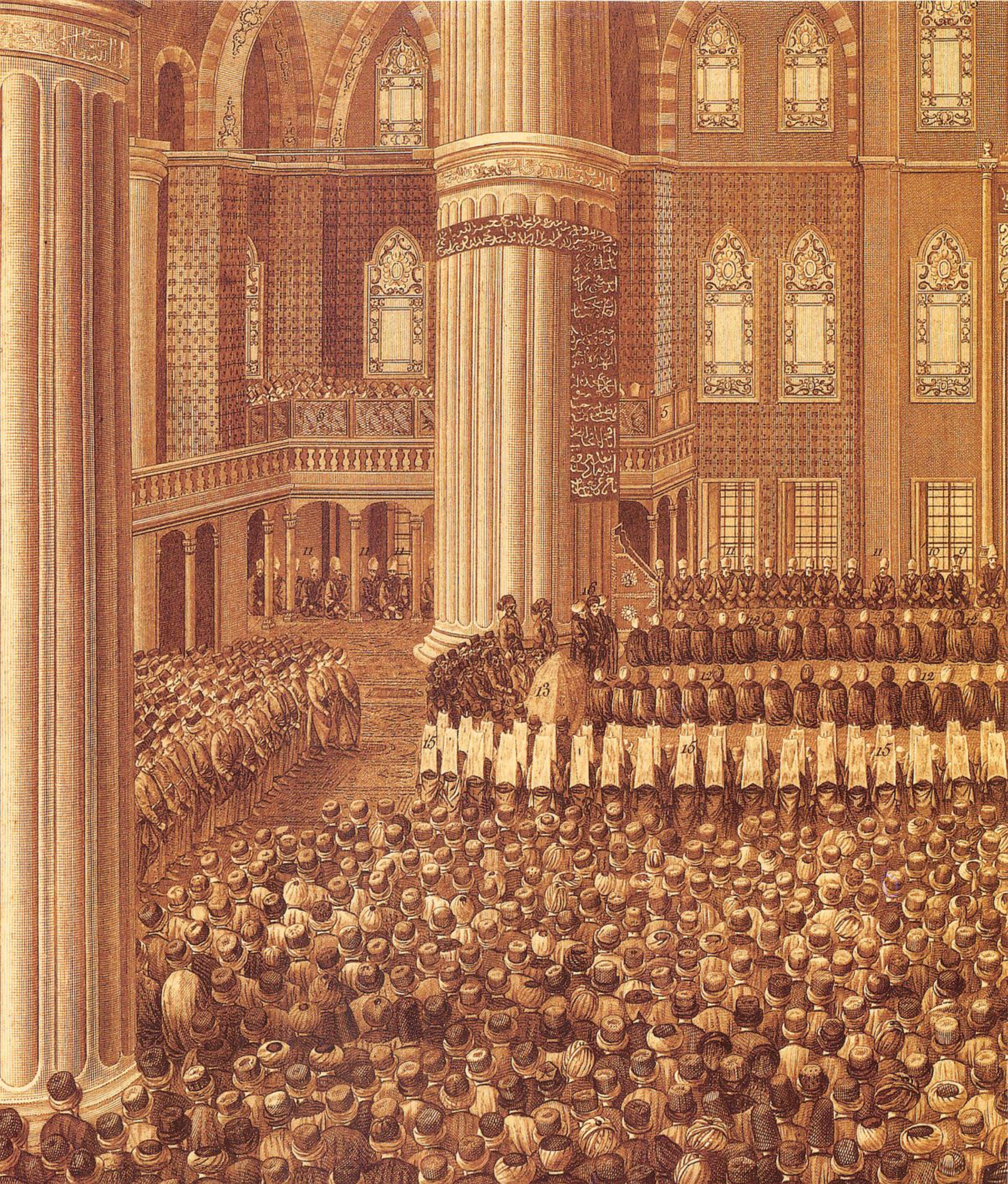
وبعد إرسال الدفتر المذكورِ إلى دار شورى الباب العالي واطّلاع كلّ المسؤولين عليه فُهم أن مجموعَ مصروفات الآغا المذكور قد بلغت سبعةَ أحمالٍ وخمسةً وتسعين ألف قرش، وعند طرح مقدار خمسة أحمالٍ التي أحسنَ بها السلطان العامَ الماضي نجد أنَّ المبلـغَ المتبقِّي حوالي ثلاثة أحمال، وطبقًا لما ذكرَهُ الخُبراء والمراقبون للدفتر يُفهم أن هناكَ زيادةً في ثمنِ الخِلـع والأشياء الأخرى المحرّرة في هذا الدفتر، وتبيّن أنه لزم فيما بعد إلغاءُ بعض المِنَحِ المعتاد إعطاؤها في دار السعادة عند تعيينِ أمناءِ الصُرّة الهمايونيّة عند صدور الأوامر السلطانيّة بسدادِ الرواتب لجميـع الموظّفين في الدولة العليّة، كما أنّ الأشياء المسمّاة العائدات القديمة المذكورة في مثل هذا الدفتر والتي لم يتمّ إلغاؤها في هذا العام المبارك، قد تمّ إلغاؤها وهذا لأنه قد تمّ تخصيص رواتب لأصحابها، كما تُركت الهدايا التي تحتوي على الجواهرِ وعُلَبِ الجواهر وغيرِها المذكورة في هذا الدفتر، ومثل هذه الأشياءِ الواجب إسقاطها والمناسب تقليلها بموجب البحث والمشاورة قد أُشير إليها

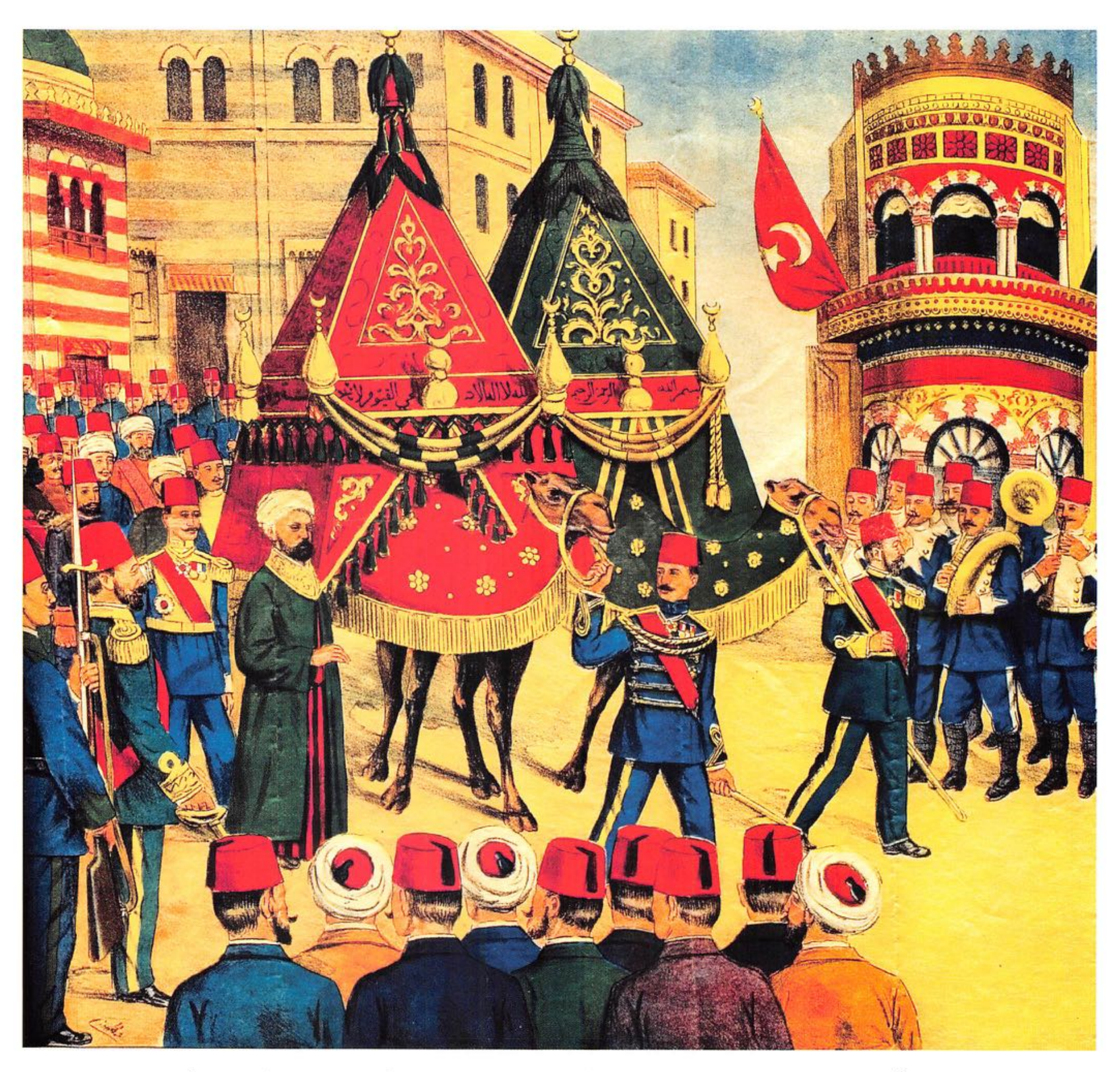
باللون الأحمر، وثمن هذه الأشياء يبلغ خمسةً وسبعين ألفًا وتسعمائة واثنين وثلاثين قرشًا، بالإضافة إلى اثني عشر ألفًا وخمسمائة قرش التي ذكرت في الدفتر المذكور تحت بند عطايا، وبذلك يكون المجموعُ: حِملين وتسعمائة قرش، وهو ما تمّ التوصُّل لتخفيضِه وتنزيلِه، ولقد تمّ العفوُ السلطانيّ فيما بعدُ عن الهدايا الحجازيّة، وتمّ صرفُ الزيادةِ الموجودةِ في الدفترِ المذكورِ المقدّم من الأمين المشارِ إليه بعد الإعلام والإشعارِ بالأمر السلطانيّ الصادرِ في هذا الصددِ، وتبيّن أن مبلغَ ألفِ كيسِ أقجه سيكون مبلغًا كافيًا لنفقات الطريق، ومن الواضحِ أنه سيُكتفى بهذا القدرِ ولن يُضاف إليه شيء، وتمّ صرفُ النظر عن زيادة هذا العام، أو يأمر جنابُ حضرةِ صاحبِ الشوكة -أطالَ الله عمرَه- بزيادةٍ تبلغُ مثلًا اثنين وأربعين ألف قرش من قبيلِ العناية الشاهانية، ويجب أن نوضّحَ أن خدمةَ أمانة الصُرّة الهمايونيّة خدمةٌ تشرُف وتفتخرُ بها الدولة العليّة وهي من الوظائف الجليلة، ويلزم تنظيمُها على أحسنِ ما يكون في ظلّ حضرةِ صاحبِ الشوكة، أي أن يُعطى لصاحب هذه الوظيفةِ نفقاتُ الطريقِ الكافيةِ ويعيّن ما يلزمُ من الموظّفين، ويجب وضع نظامٍ لمخصّصات الموظّفين من رجال الدولةِ والذين نالوا الاعتبار وكسِبوا الشهرة والذين فسدَ نظامُ مخصّصاتهم بمرورِ الوقت مثلَ كلٍّ من رئيسِ السقائيين ورئيسِ المبشّرين وغيرهم، ولأن الوقت قد فاتَ هذا العام المبارك فسيتمّ تنفيذُ النظامِ طبقًا لما أمرَ به السلطانُ في السنة القادمةِ إن شاء الله تعالى، ولتنفيذِ هذا الأمر سيتمّ مناقشةُ الأمرِ مع مَن شَغل منصِبَ أمين الصُرّة الهمايونيّة من رجال الدولةِ ومع السادة الخبراء بشؤون الاقتصاد حتى يتمّ وضعُ نظامٍ مؤسّسٍ ومستقرٍ لهذا الأمر إن شاء الله تعالى، ولقد أمرنا بإرسال مذكّرةٍ تُقَيِّدُ فيها هذه الخواطرُ والأفكار ليحاط بها علمُ صاحبِ المقام العالي، والأمر في هذا الشأن وفي كلّ أمرٍ لحضرة من له الأمرُ والفرمان":

خادمكم: *السيد أحمد الله عاكف*	خادمكم: *رئيس أمور الوقف محمد ناصر*
خادمكم: *محمد عبد الله*	خادمكم: *رائف*
خادمكم: *عارف محمد صالح*	خادمكم: *عارف*
خادمكم: *محمد رافع*	خادمكم: *المتقي وفقه الله*



روحة فنّيّة ورسم تقريبي يُصَوِّرُ مراسم حفل المولد النبويّ الذي أُجْرِيَ في جامع "السلطان أحمد" [مجموعة الكنز المفقود]





مقطع مأخوذ من الرسم التصويري الذي نشرته مجلة "القاهرة بانش (The Cairo Punch)" عام (١٩١١م)، يتّضح فيه التقاء المحامل المرسلة من القاهرة والشام الشريف في مكة المكرمة

الخاتمة: عودة المحمِل الشريف وموكبُ المولِد

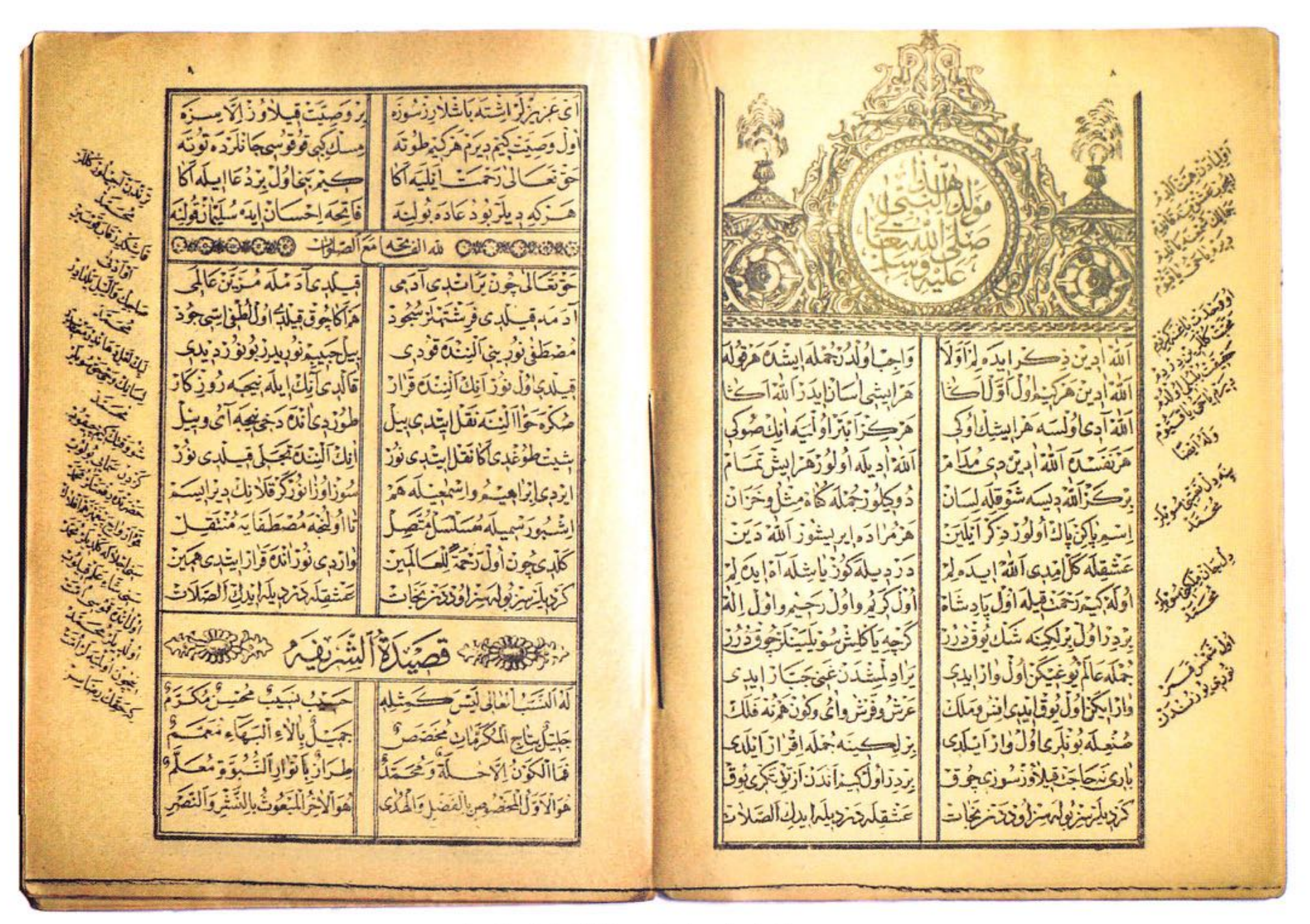
إعداد: يوسف جَاغْلَارْ

ترجمة: د. حازم سعيد منتصر

حازت عودة الصُّرّة الهمايونيّة من الحجازِ إلى إسطنبول من الانتباه والاهتمام ما لا يقلّ عن ذهابِها؛ فقد رسَمت الصُّرّة عند عودتها لوحاتٍ مليئة بالبشرِ والفرح والسرور؛ فالأمهاتُ والآباء والأصدقاء والجيران والأقران والأقارب الذين أدُّوا أمانة الصُّرّة وفريضةَ الحجّ رجعوا لأوطانهم وقد مُلِئَت قلوبُهم بالحبّ وعقولُهم بذكرياتٍ جميلةٍ عن مكّة المكرّمة والمدينةِ المنوّرة، وعندما يصِلون -بجَمالٍ لا يوصَف وسعادةٍ لا تنتهي- إلى مَن ينتظرونهم بشوقٍ وولعٍ ومحبّةٍ تعمُّ لحظات الوصلِ واللقاء الممزوجةُ بالبركة والرحمةِ على كلّ المُدُنِ الممتدّة من الشام إلى إسطنبول.

وفي هذه الحظات الجميلةِ -لحظات اللقاءِ بعد طولِ اشتياق- يُبَشِّرُ رئيسُ المبشّرين السلطانَ بعودةِ الرعايا الذاهبين مع موكب الصُّرّة بالسلامة، وبعد هذه البشارةِ بوقتٍ وجيزٍ يخرجون جميعًا للدعاء والصلاة على الرسول ﷺ في ليلةِ مولدِه في الثاني عشر من ربيع الأول، ويقفون في جامع "السلطان أحمد" داعينَ متضرّعين إلى المولى عز وجل كي يقبلَ منهم حجّهم في حضور الصدرِ الأعظَمِ والضيوفِ المهمّين القادمين من مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة وبرفقةِ المشايخ والعلماء والمؤذّنين وعددٍ من الرعيّة، ثم يُكمّل موكبُ المولد النبويّ بشكلٍ فخمٍ وترتفعُ أصواتُ الذكر في القِباب كما ترتفع الأذكار في مجالسِ الذكر التي يُشرب فيها من ماء الجنّة ماءِ زمزم، ويؤكلُ فيها التمر الذي اقتبس حلاوته من سكون الصحراء وزُرْقَةِ السماء.

إن رجوع الصُّرّة إلى إسطنبول يُشكّلُ جوًّا من أجواءِ العيدِ بالنسبة لأهلِ القصرِ وللأهالي الذين طالما راقبوا الطريق منتظرين عودةَ ذويهم وأحبابهم، فيكون رجوع الصرةِ سببًا لانطلاق العديد من المعانقات الحارة والمقابلات الشيّقةِ.



صيغة المولد الشريف التي خطّها "سليمان شلبي"

وطبقًا للأصول المرعيّة والمتّبعة يُكرِّم آغا دار السعادة القادمين بهدايا شريف مكّة المكرّمة وبالجواب على الخطابِ السلطانيّ، فيُلْبِسهم الخِلَعَ ويعطيهم الهدايا.

كما أنّ الهدايا المجلوبةَ من مكّة المكرمة والمدينةِ المنورة برفقةِ الضيوف القادمين من تلك البلادِ المباركةِ يُضْفُونَ على المدينة جمالًا آخر وجوًّا معنويًّا آخر.

ولقد اعتبَر الأتراكُ الأمانات التي تحملها الصُّرّة في طريق العودةِ وستارة باب الكعبة وقِطَعَ الكسوةِ الشريفةِ والأستارَ المرسَلةَ من المدينة المنوّرة والخطابات المزيّنة بالدموعِ أمانات مقدّسة وشعائر معظّمة، فأرسلوها -عند قدومها إلى إسطنبول- أوّلًا إلى قبرِ صاحب رسول الله ﷺ سيدنا أبي أيوب الأنصاريّ ﷺ قائد الشهداء، ويُتوَّج هذا اللقاء العظيمُ بالأدعية والتكبيراتِ والأناشيد الدينيّة.

إن وجودَ أجزاءٍ من كسوةِ الكعبةِ اليوم في بعض جوامعِ السلاطين والاحتفاظ بها في القصور والمنازل يُعَدُّ علامةً صغيرةً على الحبّ والاحترام اللامتناهي الذي يكنّه الشعب التركيّ للحجازِ والكعبة والروضة المطهّرة.

لا جرمَ أن حقائبَ الفِراشة التي تُوزّع على أصحابها بهمّة نظارة الأوقاف من الأمور التي تلفِتُ الانتباه إلى ساحةٍ أخرى من ساحات السعادةِ والفرحِ برجوعِ الصرّة، إذ يأتي مع هذهِ الحقائبِ آلافُ الهدايا للقصورِ وللنُّزُلِ وللسلاطين وللباشاوات وللأمّهات وللأطفال، حيث يوجدُ بها عطورٌ ومسابح وخطابات وبهارات وتمرٌ وحنّاء وأدعية غزيرة وخرَزٌ ويتمّ تداوُلها في المُدُنِ من يَدٍ إلى يدٍ أخرى.

كما أن حكايات نقلِ محمِل الصُّرّة الكبير طوال قرون على ظهر الدواب التي سارت سيرًا متناغمًا مهتزّة على ترنيمةٍ على وزن "فَاعِلَاتُنْ فَاعِلَاتُنْ * فَاعْلَاتُنْ فَاعِلُنْ" أضحت كبحرٍ لجّيٍ لا نهايةَ له، وتناقلتها الألسنُ والأجيالُ جيلًا بعد جيلٍ، فصارت كلوحات ومخطوطات لا مثيلَ لجمالِها ورِقَّتِها، رُسمت بقلمٍ من البوصِ على يدِ فنانٍ ماهرٍ باستخدامِ المِداد الأسودِ على ورقٍ أبيض.

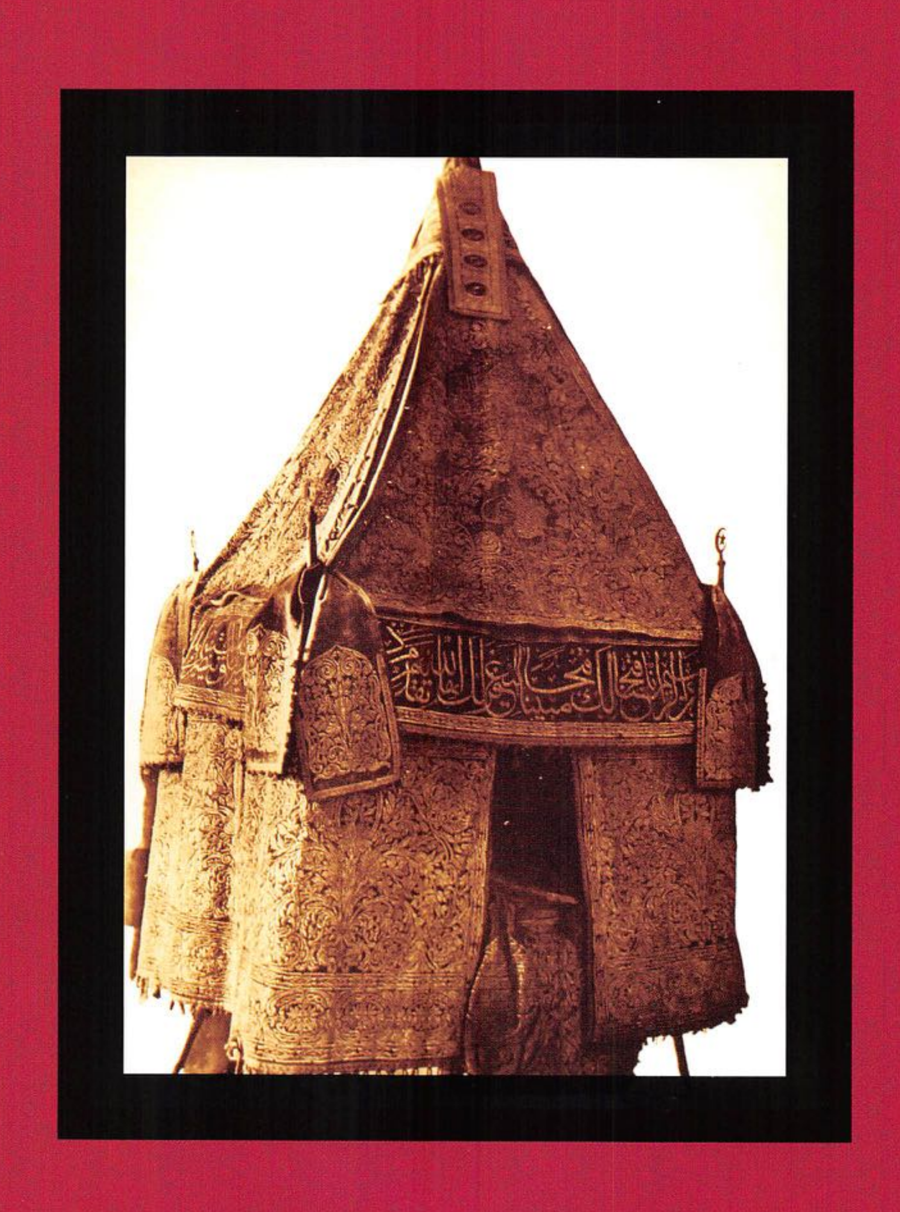
لقد أظهرَ رعايا الدولة العثمانية جُلَّ التقديرِ والاحترامِ والرعايةِ والاهتمامِ للمحمِلِ الشريفِ وموكبِ الصُّرّة والحجيجِ منذُ خروجِ أوّلِ صرّةٍ من العاصمة إلى "الحِجاز" حتّى آخر صرّةٍ وصلت إلى المدينة رغمَ لهيبِ نيران الاحتلالِ.

شارك خلفاءُ "آل عثمان" بدءًا من السلطان "سليم الأوّل" حتى السلطان "عبد المجيد" -آخرِ الخلفاء المسلمين- في عادات الصُّرّة وفي مواكِبِها، ولم يبخل أحدهم بأي جهدٍ أو سعيٍ أو دعاءٍ يبذله في سبيل خدمة المسافرين من شتى بقاعِ الأرض في سبيلِ تسهيل الطريقِ إلى الكعبة المشرفة.

الخُلاصَةُ: أنّ ما يُكتب عن عودة الصُّرّة إلى إسطنبول كثيرٌ ومثيرٌ جدًّا مثلَ ما كُتِب ويُكْتَبُ عن إرسالها، وما هذا الكتاب إلا غيضٌ من فيضٍ وقطرةٌ من بحرٍ، وفي النهاية نقدّم التهنئة والتحيّةَ إلى من تجولوا بين سطورِ هذا الكتاب وإلى كل العشّاق المشتاقين إلى الأراضي المقدّسة، ونشكرُ كلّ من ساهم بجهدٍ في إنجاز هذا العمل الذي يحمِل أملَ أن تكون الصُّرّة الهمايونيّة نموذجًا يُحتذى به في تحسينِ هذا العالم.

يوسف جَاغْلَارْ

أُسْكُودَارْ (١٦ محرم ١٤٢٩هـ/٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨م)





الهوامش

الصُّرّة السلطانية: كنز العالم الإسلامي المفقود (ص ٩-١٢)

(١) باحث ومؤرّخ، يعمل محرّرًا في دار "زمان" التركية للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) **سبيل الوداع**: هو سبيل الماء الذي كان يشرب منه الحجاج عند مغادرتهم إسطنبول، وشُرح بالتفصيل في باب "سبيل الوداع: المحطة الأولى في رحلة الحج".

(٣) **أُوسْكُودَارْ**: منطقة تقع بالطرف الآسيوي من مدينة إسطنبول. (المترجم)

(٤) **العكامون**: جمع "عكام (akkam)" وهو الاسم الذي أطلق على الموظفين العاملين في فيالق الصرة الهمايونية المتوجهة إلى الحجاز، لتوزيع الهدايا المرسلة من لدن السلطان على الأهالي ومجاوري الحرمين. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٣).

تذكّر مواكب الصُّرّة السلطانية مجدّدًا (ص ١٣-١٩)

(١) مؤرخ وكاتب ومدير تحرير منشورات دار "يتيق خزينة (Yitik Hazine)" أي: الكنز المفقود، وقد ألف أكثر من خمسة عشر كتابًا عن الدولة العثمانية في عصورها الأولى والأخيرة.

(٢) استمرت عادة إرسال الصرة إلى الحرمين الشريفين حتى عام (١٩١٥م) باستثناء بعض الفترات في أوائل القرن التاسع عشر، وقد بقيت صرة عام (١٩١٦م) في المدينة المنورة؛ إذ تعذر إيصالها إلى مكة المكرمة، أما الصرة الخاصة بعامي (١٩١٧م) و(١٩١٨م) فقد تسنى لها أن تبلغ دمشق فحسب. (المترجم)

(٣) إن الصرر المرسلة إلى الحرمين كثيرة، منها ما كانت تُرسل من إسطنبول دار الخلافة والتي أطلق عليها في المصادر العربية اسم "الصُّرّة الرومية"، كما أطلق عليها في المصادرة العثمانية اسم "صُرّئِي هُمَايُونْ (Sürre-i Hümayun)" أي الصُّرّة الهمايونية، أو الصُّرّة السلطانية، وبناء عليه فـ"الصُّرّة الرومية" و"الصُّرّة الهمايونية" و"الصُّرّة السلطانية" كلها أسماء لمسمى واحد. (المترجم)

(٤) يشير المؤلف هنا إلى السلطان "سليم الأول (يَاوُوزْ)"؛ فقد مر بصحراء "قطيا" بينما كان متجهًا بجيشه من القدس إلى القاهرة، ويُروى أن السلطان "يَاوُوزْ سليم" نزل من على صهوة جواده في هذه الرحلة الشاقة وراح يسير على قدميه، وعلى الفور نزل جيشه الذي رآه فعل هذا، وبعد أن سار السلطان مدة في الصحراء امتطى جواده مجدّدًا؛ فلما سُئل عن سبب فعله ذلك قال: "كيف لنا أن نمتطي الجياد وسيدنا رسول الله ﷺ يتقدمنا ماشيًا على قدميه أمامنا". (المترجم)

(٥) **حجر الصدقة**: هو عمود من الرخام طوله متران، توجد حفرة في أعلاه، كان الأثرياء يتركون قدرًا من المال في هذه الحفرة على سبيل الصدقة، فكان الفقير الحقّ العفيف الذي يتعفّف عن سؤال الناس يأخذ من تلك النقود عند حاجته -وبقدر حاجته يومئذ-، ويترك الباقي لمثله من ذوي الحاجة، ويدعو للمتصدق المجهول. (المترجم)

رحلة المحمل الشريف والصُّرّة السلطانيّة من إسطنبول إلى الحرمين الشريفين (ص ٢٥-٨٧)

(١) إن المخطوط العثماني لمذكرات الصُّرّة يبلغ (٢١٧) صفحة، وقد خطه "كَتْخُدَا صلاح الدين" بالعثمانية سنة (١٩٣٩م) وهو موجود في الأرشيف الخاص بالباحث يوسف جَاغْلَارْ، ويتحدث صاحب المذكرات عن رحلته إلى الحرمين الشريفين بهذه العبارات: "إن أبي هو "حسني" مدير بيت المال السابق والذي عُين في منصب أمين الصُّرّة (١٣٢٣هـ)، وقد اختارني نائبًا له، كما اختار زوجَ أختي "علي غالب" لمهمة كاتب الصرة، وتم تعييننا في هذه الوظائف، وبتلك الصورة تمكنت من الذهاب إلى الحجاز، وأثناء تلك الرحلة المتعبة والخطيرة والممتعة والجميلة كتبت عن الأماكن التي شاهدتها والأحوال التي صادفتها والمواقف التي تعرضت لها، كما شرحت كل ما يلزم عمله حتى يتمكن الفرد من أداء فريضة الحج، ولقد سطرتُ هذه السطور لتكون ذكرى من هذا العاجز للأصحاب والأخلاف، وبأمل أن تعتبر دراسةً تاريخيةً للعادات الشعبية".

(٢) من المعروف أن الصُّرّة في اللغة تعني كيس النقود، كما أن هذا الكلمة تستخدم في الوقت نفسه بصورة مجازية عما يُعطى لشخص معين كل عام بصورة منتظمة.

(٣) إن الصرر المرسلة إلى الحرمين كثيرة، منها ما كانت تُرسل من إسطنبول دار الخلافة والتي أطلق عليها في المصادر العربية اسم "الصُّرّة الرومية"، كما أطلق عليها في المصادرة العثمانية اسم "صُرّئِي همايون (Sürre-i Hümayun)" أي الصُّرّة الهمايونية، أو الصُّرّة السلطانية، وبناء عليه فالصُّرّة الرومية والصُّرّة الهمايونية والصُّرّة السلطانية كلها أسماء لمسمى واحد. (المترجم)

(٤) في سنة (١٩١٦-١٩١٧م) لم يتمكن موكب الصُّرّة من الذهاب لما بعد المدينة المنورة، وفي سنة (١٩١٨-١٩١٩م) أوصلت الصُّرّة الهمايونية إلى الشام فقط، وفيما بين (١٩٢٠-١٩٢٢م) قام السلطان محمد وحيد الدين بتوزيع الصدقات على فقراء الحرمين الشريفين، وقام آخِر الخلفاء العثمانيين "عبد المجيد أفندي" بإلغائها في سنة (١٩٢٣-١٩٢٤م).

(٥) هي الآن إدارة الأوقاف العمومية.

(٦) هو نوع من التبغ المباح يصنع من عدد من المواد الطيبة الرائحة، ويكون على شكل قرص مستدير مذهب اللون.

(٧) "**قَـرَه قُـولَاقْ**" هو نبع ماء عذب مشهور في قرية "دَرَه سَكِي (Dereseki)" التاريخية الواقعة في حَيّ "بَيْكُوزْ (Beykoz)" في الجانب الآسيوي من إسطنبول. (المترجم)

(٨) **أنـدرون**: الاسم الذي أطلق على القسم الذي يبدأ من الباب الثالث من أبواب قصر "طوب قابي" وهو باب السعادة، ويشمل غرفة العرض والغرفة الكبيرة والخزينة الهمايونية والمستودعات وغرف الأمانات المقدسة والمطبخ السلطاني ثم الباب الذي يؤدي إلى الحرم السلطاني. (المترجم)

(٩) **المَابَيْن**: القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين جناح الحريم وما بين الدوائر الخارجية، وهو المكان الذي يقضي فيه السلطان أغلب يومه ويتم عرض الأمور عليه فيقضي بما يراه مناسبًا. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٩٨).

(١٠) "**آغا القفطان**": اسم أحد الموظفين الذين يرافقون الصدور العظام قبل التنظيمات وكان يختص بأعمال التشريفات، وقد أطلق هذا الاسم أيضًا على أحد الموظفين الذين كانوا يذهبون برفقة أمين الصرة، وكانت وظيفته إلباس ما يجود به السلطان من بُرْدَاتٍ على شريف مكة المكرمة وغيره ممن يحظون بإنعام السلطان وكرمه. انظر: M. Zeki Pakalın, Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü, MEB Yayınları, 1983, Ankara, 2/184.

(١١) "**المبشـر (Müjdeci)**": الشـخص أو الأشـخاص المسـؤولون عن تبشـير السـلطان بوصول قافلة الحج إلى الحجاز، وعودتها منه، وكان يصل في الثاني عشر من ربيع الأول إلى إسطنبول ويقدم في حفلة خاصة تقام لهذا الغرض خطاب الشريف وقاضي الشام إلى السلطان، مع تمور جلبت من مكة المكرمة. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٩٩).(المترجم)

(١٢) **نَظَارَة**: بمعنى إدارة أو وزارة، واسم الفاعل منه ناظر، وتعادل الوزارة في العصر الحديث. (سـهيل صابان: **المعجم الموسـوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٢٢٢).

(١٣) "**لَانْـدُو (lando)**": هـي سـيارة واسـعة يمكن فتح سـقفها وإغلاقه، وقد اشـتق اسـمها من كلمة "Landeau" الفرنسـية، أما "قُوبَا (kupa)" فهي سيارة مغطاة ذات نوافذ،وتَسَعُ شخصين فحسب. (المترجم)

(١٤) إن الإدارة المخصوصـة هـي إدارة السـفن التابعة لـ"سـير سـفائن"، وقد سـميت الإدارة المخصوصة بعد ذلك باسـم "سـير سـفائن" ثـم "آقْ آيْ (Ak Ay)" أي: الهلال الأبيض ثم "إدارة المديرية العمومية لتشـغيل الطرق البحرية".

(١٥) **متصرفيـة**: اصطـلاح عثمانـي يطلـق علـى التقسـيمات والمقاطعـات المكانيـة، وذلـك بعد أن تمّ فصل الإدارة العسـكريّة عـن الإدارة المدنية فاسـتبدلت كلمـة "أمير السـنجق" بكلمـة "متصرف"، وهو أشـبه ما يكون فـي عصرنا بالبلديـة ورئيس البلدية لكل منطقة. (سـهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٢٠٠).

(١٦) **بـاره**: هـو الاسـم العـام للنقد أو المـال، وهو فـي الأصل نقـد معدني مضـروب واختلفت مقاديره على حسـب الأزمنة، ولكـن القرش الواحد فـي عهـد محمود الثاني كان يسـاوي أربعين باره، والبـاره الواحدة ثلاث أقجات، والأقجه الواحدة ثلاثةُ بُولْ (أي طابع). (المترجم)

(١٧) **السـنة الروميّة**: اسـم للتاريـخ المسـتخدم عنـد العثمانييـن منـذ عـام (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) ويُذكـر فـي الوثائق الرسـمية بالسـنة الماليـة، ونظرًا لتقييده بالشـهور الشمسـية واعتبار بداية السـنة فيه "شـهر مارس" فيُطلَقُ عليه أيضًا التاريخ الرومي، والفرق بينه وبين التاريخ الميلادي خمسمائة وأربعةٌ وثمانين سـنة، فإذا أضيف له (٥٨٤) سـنة كان التاريخ الميلادي، وإذا طُرح هذا الرقم من التاريخ الميلادي كان تاريخًا روميًّا، ولم يتوقّف العمل بالتاريخ الهجري بعد قبول التاريخ الرومي، بل استخدم التاريخان في الأوراق الرسمية. (المترجم)

(١٨) **إدارة مخصوصـة**: اسـم اطلق سـنة (١٨٧٨م) على إدارة السـفن التابعة للدولة العثمانية. (المترجم)

(١٩) يُعرف في العربية باسم "الدردنيل". (المترجم)

(٢٠) **بَالَا**: رتبة إدارية اسـتخدمت في الدولة العثمانية في القرن التاسـع عشر ميلادي، بل إنها أحدثت عام (١٢٦٢هـ) وكانت أعلى رتبة في الدولة بعد رتبة الوزير. (سـهيل صابان: **المعجم الموسـوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٥٧).(المترجم)

(٢١) يشرف محافظ الحج على الصُرّة في الطرق، ويذهب كل عام مـع الصُرّة من الشـام ليجعلَ القافلـة تتحَركُ بصورة منتظمة وبعـد الحج يرجع مع القافلة إلى الشام، ويفهم من اسمه أن مسؤوليّته هي الحفاظ على الصرة.

(٢٢) **المحفَـة**: رِكَابٌ مصنوع من الخشـب يُثبَتُ علـى الناقة، وأعلاها مغطًى بقماش الخيام وتتسـع لشخصين.(المترجم)

(٢٣) "**سـكة حديد الحجاز**": هي السـكة الحديدية التي أنشـأها السـلطان عبد الحميـد الثانـي بيـن دمشـق والمدينـة المنورة فيمـا بين عامـي (١٩٠٠-١٩٠٨م)، وقد شُـرع في أعمال إنشـائها بحفل رسـمي أقيم في الأول من سـبتمبر عام (١٩٠٠م)، ووصلت إلى عمـان في (١٩٠٣م)، بينما وصلت إلى معان في عام (١٩٠٤م). (المترجم)

(٢٤) يطلـق اسـم "عواف" على اسـتراحة القافلـة وقت الظهيـرة لمدة نصف ساعة. (المترجم)

(٢٥) يطلق اسم "الشمسية" على الشغل المعمول بالخيط المذهّب على شكل الشمس.(المترجم)

(٢٦) يطلقون اسم "شيخ الحرم" على الشخص الذي يشغل منصب "متصرف المدينـة المنـورة"، والمهمـة الرئيسـية لشـيخ الحرم هي الإشـراف على الخدمـة فـي الحـرم المدنـي والتأكد من عـدم التقصير سـاعة واحدة في خدمة مسجد الرسول الأكرم ﷺ.

(٢٧) **الدليلُ**: هو من يقومُ بالتوضيح والإرشـاد، ويقوم بتوصيلِ الحجيج إلى أماكنِ الزيارة ويعلّمهم الأدعيةَ العربيّة التي ستُتلى والآدابَ المتعلّقةَ بهذه الأماكن.

(٢٨) **القية**: هي الأوقية وهي وزنة قديمة كانت تساوي أربعمائة درهم. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٨٧).

(٢٩) هنـاك عـدد من الحجيج يقـوم بمهمة الدليل والطـوّاف، أما المجموعة التـي تكون بـلا دليل فيذهب أحدهم ويُشْـتَرى كتاب مناسـك الحج من بائع الكتب الموجود أمام باب السلام ويقول أدعية الطواف بصوت عال، ويردد خلفه الآخرون.

(٣٠) إن مقاسـات الكعبة المسـتخدمة فـي النصّ تختلف تمامًـا عما ذُكر في كلِّ الكتـب الخاصّـة بهـذا الموضـوع، فقد بلغـت مقاسـاتُ الكعبة طبقًا للترتيـب المذكور في الكتـاب (١٥)، (٢٣,٢٥)، (١٦,٥)، (٢٤) مترًا، أما مقاسـات الكعبـة التي ذكرها "إبراهيـم رفعت" في كتابه "مـرآة الحرمين" فكانت (٩,٩٢)، (١١,٨٨)، (١٠,٢٥)، (١٢,١٥) مترًا، انظر: حسين عبد الله سـلامة، تاريخ الكعبة المعظمـة، مكة ١٩٣٤م، ص ١٣٦) ولذا فهناك فرقٌ شاسـعٌ قد بلغ اثني عشـر مترًا في أحد الجدران، رغم أن مقاسـات الكعبة معروفةٌ ولا يفرق بين قديمها الموجود حاليًا بعد التوسعة إلا بضعة سـنتيمترات، وهـذا الأمر نابع من اسـتخدم المتر بـدل وحدة القياس في النسخة المحولة إلى التركية الحديثة والتي ترجمنا منها، وأغلبُ الظنّ أنَّ وحدةَ القياس المستخدمةَ في النسخة العثمانية التي لم يتيسّر لنا الحصول عليها هي الذراع الحنبلي الذي يبلغ طوله (٦١,٨٣٤) سم، وهذا بالنسبة للجـزء الخاص بمقاسـات أركان الكعبة وارتفاعهـا، وعند تحويل الذراع إلـى مترٍ نجـد أن الناتج يقترب من المقاسـات المذكورة ولا تختلف إلا بضعة سنتيمترات. (المترجم)

(٣١) أوضح "إبراهيم رفعت" أن ارتفاع الكعبة يبلـغ خمسـةَ عشـر مترًا، وذكر "التقي الفاسـي" في" شـفاء الغرام" أن ارتفاعها يبلغ ثلاثةً وعشرين ذراعًا وثمن (انظر: حسين عبد الله سلامه، المرجع السابق، ص ١٣٧.)، وليس عشرين مترًا وتسعةً وعشرين سنتيمتر كما ذكر في النسخة التركية الحديثة، ويظـن أنـه في النـص العثماني الأصليّ المكتوب عشـرين ذراعا وتسـعة وعشرين سنتيمتر. (المترجم)

(٣٢) لقـد ذكـر "الأزرقـي" أن سـمك جـدار الكعبـة ذراعـان والـذراع أربعة وعشـرون إصبعًـا (انظر: حسـين عبد الله سـلامه، المرجع السـابق، ص ١٢٨)، ولكن المقصود به قدم ونصف، لأن سمك جدران الكعبة الحالي يبلـغ ثلاثةً وتسـعين سـنتيمترًا، أي أقلّ من المتر؛ ولهذا فيعتقد أن وحدة

القياس المذكورة في النسخة العثمانية هي القدمُ التي يبلغُ طولُها واحدًا وثلاثين سنتيمترًا. (المترجم)

(٣٣) **شجرة الغيلان**: شجرة شبيهة بشجرة السدر (المترجم).

(٣٤) إن نصّ هذا الدعاء المسجل في دفتر يشبه المطويّة الجلدية، لا يتناسب مـع عظمـة وأهمّيّة الصرّة التي كان يرسـلها خليفة المسـلمين السـلطان العثمانـي كل عام ويوليها اهتمامًا خاصًّـا، والتي كانت من أهمّ الحوادث الدينيـة والسياسـيّة والاجتماعيّـة بالنسـبة لـولاة الأماكن التي يمـرّ عليها موكـب الصـرّة ذهابًا وإيابًا وكذا بالنسـبة لعلماء هذه الأماكن ومشـايخها وشـعبها، ولو أن هذا الدعاء قرأه أحد العلماء أو المشـايخ لكان يلزم أن يحمـلَ عناصر دينيّة وسياسـيّة أكثـر وأن يكون أكثر تأثيـرًا، ونَصُّ الدعاء الموجود بين أيدينا لا يحمل أيًّا من هذه السـمات، ولهذا فإننا على قناعة بأنّ هذا الدعاء كتبَه واحدٌ ليست التركيّة لغتُه الأمّ أو أنه أثناء قراءة الدعاء تمكّن أحد الموجودين من كتابة هذا القدر من الدعاء دون أن يتمكّن من إحصائه كله. (إسماعيل قره، الأستاذ بجامعة "مَرْمَرَه")

سبيل الوداع: المحطّة الأولى في رحلة الحج (ص ٩١-٩٣)

(١) مؤرخ فني متخصّص في تاريخ الرسـامين الأتراك، يعمل في أمانة وإدارة المعارض الفنّيّة والمكتبات العلمية.

(٢) وأما "سـبيل السـلام"، الذي يعتبر مكان استقبال موكب الصُّرّة والجيوش العائدة من السـفر والضيوف المهمّيـن القادمين لزيارة العاصمة، يقـع في موقـع لاحق على طريق بغداد، ولقد تحوّل اسـم السبيل الذي منح اسمه للمنطقة الواقـع بها، تحوّل عن طريق الخطإ إلى "سَـلَامِي جَشْـمَه (Selâmi Çeşme)".

(٣) لقد خضعت هذه المقصورة للحماية في إطار مشـروع من جانب "Turing" في سـبعينيات القرن العشـرين، وتعاني الآن من الخراب والدمار مثلها في ذلك مثل سـائر المقابـر الأخرى، وقد ذكر "محمد رائـف" في كتابه الذي يحمـل عنوان "مرآة إسـطنبول" (١٣١٤هـ/١٨٩٨م)، طبـع مرة أخرى عام (١٩٩٦م)، المجلـد الأول، ص ٦٤-٧١) أسـماءَ الأشـخاص الموجـودة مقابرهم في المقصورة، وأمدّنا بِسِيَرٍ ذاتيّة مختصَرةٍ لهؤلاء الأشخاص.

نقل الصُّرّة السلطانية من ميناء "حَرَمْ" إلى الحرمين الشريفين بحرًا (ص ٩٧-١١٣)

(١) الأستاذ الدكتور بقسم التاريخ بجامعة "أَرْجِيَسْ (Erciyes)"، وقد أَلَّف كتبًا ومقالات عديدة عن الدولة العثمانية وثاقفتها لا سيما البحرية العثمانية

(٢) المقصـود بـ"حَـرَمْ" هنـا هـو المنطقـة المسـماة "حَـرَمْ" الموجـودة فـي "أُسْـكُودَارْ" الواقعة في الطرف الآسـيوي من إسـطنبول، وقد سميت هذه المنطقـة بهـذا الاسـم لتجمـع الحجيـج فيهـا أثناء الذهـاب للحج، ولأنّ الحجيـج الترك بعد العبور من الطرف الأوربي إلى الطرف الآسـيوي في إسطنبول يقولون أصبحنا نحن والحرم على أرض واحدة ولا يفصل بيننا وبيـن الحـرم فاصل مائـي، فها هي أرض الحرم وإن بعدت الشـقة وطال السفر. (المترجم)

(٣) محمـد زكـي بَاكَالِيـنْ، معجـم مصطلحات ومفاهيـم التاريـخ العثماني، ١٨٦/٢.

(٤) نِيشَـانْجِي: مـن الوظائـف الحكومية التي ضُمّت إلى الديـوان الهمايوني. وهـو رأس الطبقة البيروقراطية (قلميـة)، وقد كان مكلّفًا بطباعة "الطغراء" التي تعني توقيع الحاكم على المراسـيم المكتوبة باسـم السـلطان. وكان العاملـون في هذه الوظيفة مضطـرون أن يكونوا مهرة في الكتابة، خبيرين بالأعراف والعادات المحلية، يدمجونها مع المعلومات الفقهية والشريعة الإسلامية. (المترجم)

(٥) قِيزْلَـرْ آغَاسِـي: ويطلـق عليـه أيضًا اسـم "آغـا الحـرم"، المخصيون من الرجال العاملون في الأقسام الخاصة بالنساء من القصور السلطانية، وكان أكثرهم من الحبشة والزنوج، يقدمون من لدن والي مصر هدية للقصر في إسـطنبول، وكانت لهم مناصبهـم ودرجاتهم في القصر. (سـهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٧).

(٦) أمير آخور: لقب يطلق على رئيس الاسطبلات في القصر السلطاني، وهو مأخوذ من اللغة الفارسـية، ويسمى أيضًا مير آخور. (انظر: سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٣٧).

(٧) جَكْ درِي: الاسـم العام الذي أطلق على كافة السـفن الشراعية التي تسير بالمجداف، ولها تسـعة عشـر نوعًا حسـب أحجامها وأشـكالها. (سـهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٧).

(٨) Ali Seydi Bey, Teşrifat ve Teşkilatımız, Hz. Niyazi Ahmet Banoğlu, 1001 Temel Eser, s.143-154.

(٩) بَاغْجَـه قَبِيسِـي: أحد أحياء إسـطنبول القديمة ويقـع داخل أسـوار منطقة "فاتـح".

(١٠) Vak'anüvîs Ahmed Lûtfî Efendi Tarihi, C.2, YKY Yay., s.422.

(١١) Esad Efendi, Teşrifat-ı Kâdîme (Osmanlılarda Töre ve Törenler), İstanbul 1979, s. 34,37.

(١٢) İlhan Ekinci, "Yabancı Vapur Kumpanyaları ve İmajları Hakkında", Kebi-keç, S.21, 2006, s.73-96.

(١٣) Eser Tutel, Seyr-i Sefain, Öncesi ve Sonrası, İletişim Yay., İstanbul 2006, s.28,29,31,43. قد أوضـح "قاوري قوماتسـو" أن شـركة "إدارة عزيزية" قد أسست سنة (١٨٧٠م). انظر "İdare-i Mahsusa'nın Özelleştirilmesi Üzerine Bir Tetkik", TTK Yay., Ankara 2002.

(١٤) إن تطـور البحريـة العثمانية في عصر السـلطان "عبـد العزيز" لم يتمّ في إطار خطّة محدّدة وقد أدّى هذا إلى زيادةٍ خطيرةٍ في المصروفات وُضِعَتْ علـى كاهل الميزانيـة العثمانيّة هذا بالإضافة إلى حدوث أزماتٍ فعليّة في البنية التحتية والموظفين.

(١٥) BOA, İ.MMS, Belge No: 29/1248.

(١٦) بيـاس: هـي اليـوم قريـة تابعـة لمركـز "دورت يـول (Dörtyol)" التابـع لمحافظـة "هاتـاي (Hatay)"، عـن مصاعـب الطريق البري انظـر: Süreyya Faruki, Hacılar ve Sultanlar (1517-1638), İstanbul 1995.

(١٧) Ahmed Cevdet Paşa, Ma'-rûzât, Yayına Haz. Yusuf Halaçoğlu, İstanbul 1980, s.129. لقـد أوضـح "فـؤاد باشـا" الذي كان مـن الشـخصيات المؤثرة في فتـرة التنظيمات أثنـاء المحادثات الخاصة التي قام بهـا مـع ممثلي الدول الأجنبية أن زيادة وسائل النقل البريّة والبحريّة ستخدم المصالح المشتركة وستجعلُ الاختلاط بين العروق المختلفة أمرًا متاحًا، وأنه يرى أن وسائل النقل تُعدُّ جسرًا ووسيلةً لنشرِ الأسسِ العامّة للتنظيمات. انظر (Ekinci, agm, s.73-96)، وبالرغـم مـن طـرح هذه الفكرة لكنه لم يتضمّن قـطُّ نقلَ الصُّرّة السلطانية عن طريق البحرِ، فقد دخلت فيه هي الأخرى دون تصريح.

(١٨) Başbakanlık Osmanlı Arşivi, İ.MMS, Belge No:29/1248.

(١٩) BOA, İ.MMS, Belge No: 29/1248.

(٢٠) Atalar, age., s.158.

(٢١) BOA, Y.PRK.ASK., Belge No:233/56; İ.DH., Belge No:65425.

(٢٢) BOA, Y.PRK.MM, Belge No:1/10.

(٢٣) BOA, İ.DH, Belge No:-65425.

(٢٤) BOA, İ.DH, Belge No:-65425.

(٢٥) BOA, MU, Belge No:13/74.

(٢٦) BOA, İ.DH, Belge No:-70633; BOA, İ.DH, Belge No: 65629.

(٢٧) BOA, Y. PRK. ASK, Belge No:188/52.

(٢٨) إن كتـاب "أميـن يوجه" المسـمى "**حياتـي المهنية**" موجود فـي المكتبة الخاصة بمتحف البحرية في قسـم المخطوطات، ولقد صار هذا المؤلف جاهزًا للنشر وسوف يطبع قريبًا (طبع هذا الكتاب باسم "Abdülhamid Don-anmasında Bir Bahriyeli" دار نشـر: "تيماش (Timaş)" إسطنبول، (٢٠١٢م)، ومؤلف الكتاب هو "أمين يوجه" ابن أسعد أفندي الإسطنبولي، ولم يذكر في مذكراته تاريخ ميلاده، تعلّم أمين يوجه في مدرسة البحرية في "هَيْبَلي آضَه (Heybeli Ada)" بواسطة قريبه "غالب باشا" ناظر الأوقاف، ولقد شغل وظيفـة مـلازم ثاني وملازم أول بخلاف هذا فقد نـال رتبة النقيب وعمل كاتب سـفينة حربية، وبعد يخت سـلطانية عمل في سـفينة طائف التابعة لشـركة إدارة مخصوصـة، وتقاعد مـن البحرية في سـنة (١٩٣١م)، وهذا الكتـاب مهـمّ نظرًا للمشـاهدات العينيـة التي أوردها فـي كتابه عن عصر السلطان عبد الحميد الثاني، وللاستزادة عن أمين يوجه انظر: DMA, Künye Defterleri (Güverte Subayları), 3/651-652..

(٢٩) **ميـرآلاي**: منصبٌ عسـكريٌّ، اسْـتُخْدِمَ لرئيس الفوج، وهـو يوازي رتبة العقيـد فـي الوقـت الراهن. (انظر: سـهيل صابـان: **المعجم الموسـوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٢٢٠). (المترجم)

(٣٠) Emin Yüce, age, s.155-156.

(٣١) لقـد صُنِّعـت سـفينة "طائـف" سـنة (١٨٦٧م) فـي انجلترا في نيوكسـل كسـفينة أحمال في ورش A. Leslie& Co. أ. ليسـلي آند كو، واشـتراها أحد الهواة في إسـطنبول سـنة (١٨٩٤م)، وتم تشـغيلها باسـمها الأخير سـنة (١٨٨٤م)، ثم اشـترتها شـركة "إدارة مخصوص" سنة (١٨٨٦م) وأطلقت عليها اسـم "طائف"، إلا أنها غرقت أمام "سـراي بورنو" عندما اصطدمت بسفينة أخرى في الثلاثين من أكتوبر عام (١٩٠٩م).

(٣٢) (Tutel,age, s.104)

(٣٣) Emin Yüce, age, s.156-157, Atalar, age, s.198; للاستزادة عن العَكّامين انظر: Abdülaziz Bey, Osmanlı Âdet, Merasim ve Tabirleri, C:2, İstanbul 1995, s.319.

(٣٤) رقصـة السـيف والـدرع: يُطلَـقُ عليهـا في الشـام حاليًا "رقصـة أو لعبة الحَكَمِ" وهي من التراث والعادات والمراسـم الشـاميّة الشعبية إلى الآن، حيثُ تُقام في الاحتفالات الشعبية والأفراح والمناسبات. (المترجم)

(٣٥) Emin Yüce, age, s.157.

(٣٦) BOA, DH. İD, Belge No: 53/5; BOA, DH. İD, Belge No: 53/5.

(٣٧) BOA, DH. İD, Belge No: 53/5.

(٣٨) Eraslan, age, s.271. "**التحفّـظ خانـه**" هـي مراكـز الحجر الصحـيّ وتلقّي العلاج التي تم تأسيسها في بعض الموانئ والجزر لبقاء الركاب فيها مدة محددة عند ظهور وباء أو مرض معدٍ بين ركاب السفن التجارية، وحديثًا اتفقـت دول العالم على إقامة هذا النظام الصحّي داخل حدودها بموانئها المختلفـة (برية-بحرية-جويـة)، وتتمثل مهمته في الحفـاظ على الصحة العامـة ومنع تسـرب الأمراض الوبائية الفتاكـة الخاضعة للوائح الصحية العالميـة (الكورنتينيـة) والتي تنتقل مـن مراكز توطنها إلـى البلاد الخالية منها عن طريق حركة النقل الدولي للأفراد أو البضائع أو وسـائل النقل. Süleyman Nutkî, Kâmûs-ı Bahrî, Bahriye Matbaası, 1918, s.118. (المترجم)

(٣٩) **السـنامكي**: نـوع من الأعشـاب التي توصـف كعلاج طبـي، وهو يُغلى ويُشـرَب مثل الشـاي، وأسمه "سنا" وأما كلمة "مكي" فهي نسبةً إلى مكة، أي "السـنا المكّيّ" ولقد قال رسـول الله ﷺ: "**عليكم بالسنا والسنوت فإنّ فيهما شفاء من كل داء إلا السام.**" رواه ابن ماجة والترمذي.(المترجم)

(٤٠) M. A.Ubucini, Osmanlı'da Modernleşme Sancısı, Çev. Cemal Aydın, Timaş Yay., İstanbul 1999, s.286-287.

(٤١) Eraslan, age., s.272-273.

(٤٢) BOA, Y. PRK. ASK, Belge No: 181/83.

(٤٣) Eraslan, age., s.275; للاستزادة عن هذا الموضوع انظر: Ufuk Gülsoy, Hicaz Demiryolu, İstanbul 1994.

(٤٤) BOA, DH. MUİ, Belge No: 85/52.

دفاتر الصُّرّة في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء (ص ١١٧-١٣٣)

(١) أشـيرُ إلى "**وثائق الأرشـيف العثمانيّ التابع لرئاسـة الوزراء**" بـ"**BOA**" في الهوامش والمصادر، انظر "المصادر" لمزيد المعلومات.

(٢) دكتـور وباحـث متخصّص في الأرشـيف العثماني أَلّفَ كثيـرًا من الكتب معتمـدًا علـى الأرشـيف العثمانـي. (نُشِـرَ كتابه الـذي ألفه معتمـدًا على الأرشـيف العثماني "**فلسـطين في العهد العثماني، وصَرخة السلطان عبد الحميد الثاني**" باللغة العربية من قِبَل دار النيل للنشـر والتوزيـع والترجمة عام (٢٠١٣م) القاهرة).

(٣) إن أعمال التصنيف في الأرشيف العثماني مستمرة، ومن المنتظر أن يصل عدد دفاتر الصُرّة الموجودة بين أوراق الأوقاف بالإضافة إلى دفاتر الصُرّة الموجودة في خزينةِ كراريس الصُرّة إلى حوالي خمسة آلاف دفتر.

(٤) **البلاد الثلاثة**: اسـم مشـترك في العصر العثماني يطلق على ثلاث مناطق سـكنية وإداريـة هـي: ١) غلطـة ٢) وأيـوب ٣) وأسـكودار، كانت خارج إسطنبول القديمة. (المترجم)

(٥) BOA., Ev.d. No: 20149

(٦) BOA., Ev.d.No: 25971

(٧) BOA., HMH.d. NH: 152

(٨) **سِـيَاقَتْ**: نـوعٌ خـاصٌ مـن الخطّ المسـتخدم فـي الدوائر الماليـة بالدولة العثمانية، كان يخلو من النقاط، وكان الحرف أو الشكل الواحد مختصرًا من عدة أحرف، ولم يكن يلم بِقِرَاءَتِهِ إلا المتخصصون، وكان الهدف من استخدامه عدم تمكين كل واحد من قِرَاءَتِهِ، وقد قيل إنه وُجد في العراق في عهد العباسـيين، ثم انتقل إلى الأناضول في عهد السـلاجقة. (سـهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٣٧).

(٩) Münir Atalar, A.g.e., s. 29-30

(١٠) للاستزادة انظر: Münir Atalar, Osmanlı Devleti'nde Sürre-i Hümayun ve Surre Alayları, Diyanet Yay. Ankara-1991.

(١١) BOA, Mad.d.1/4973

(١٢) أثنـاء حديثـي مـع مديـر دائرة الملـك عبد العزيـز بالرياض سـألته عن الأبحـاث التـي يتم عملها في الدائرة فقـال: لقد بحثنا هل كان العثمانيون محتلّـون أم لا؟ ولقـد وجدنا الكثير من الوثائق في الأراشـيف الإنجليزية وغيرهـا من الأماكن، وأوضـح أن الدولـة العثمانية لم تكن دولة احتلال، بالعكس فقد قدمت الكثير من المسـاعدات لهذه المناطق وعملت الكثير مـن الخدمـات، وأوضـح مدير مركز البحوث في بقية حديثه أنه سـيقترح علـى الحكومات تغيير كتب التاريخ التي تحتوي على معلومات مغلوطة طبقًا لما ظهر في ضوء الوثائق.

(١٣) كما هو معلوم فقد كانت الصُرّة ترسل من مكانين هما دار السعادة والشام، وعند العجز عن توفير مرتبات الصُرّة في الشام يطلب العون والدعم من نظارة المالية في دار السعادة.

(١٤) BOA,C.ML. 20/920 (1215. B.15)

(١٥) BOA, Y.A. Hus. 393/17 (1316. N.18)

(١٦) BOA, İ. ML 1315. Ra 10-7

(١٧) BOA, İ. EV. 23 -1317.C.29-14

(١٨) BOA, Y.A. RES.127/102 (1322. B.25)

(١٩) BOA, ML. 5 1310/N-02 (1310. N.5)

(٢٠) BOA, (Cevdet Dahiliye) C.D, 18624

خصص ناظر المالية دخل وواردات بعض الأماكن لسداد مصروفات تجهيز الصُرّة الهمايونية، وعرض على الصدر الأعظم توفير خمسة ألاف كيس من التجار، وقد صدرت الإرادة السلطانية بهذا، وقد تم الاقتراض من ولاية طرابزون سنة (١٣٠٥هـ).

(٢١) BOA. EV.HMK. SR. No: 1

(٢٢) إن كانت الصُرّة مرسلة إلى أهالي مكة يكتب في أولها "إلى أهالي مكة المكرمة شرفها الله تعالى إلى اليوم الأخر"، أما إن كانت مرسلة إلى المدينة: فيكتب عليها "إلى أهالي المدينة المنورة نورها الله تعالى إلى يوم الدين"، أما إذا كانت مرسلة للقدس فيكتب عليها "إلى أهالي القدس الشريف".

(٢٣) سكة: هي الدمغة المضروبة على النقود المعدنية، ويسمّى بها النقد المعدني أيضًا الذي حُددت قيمته من لدن الدولة، وقد ضربت أول سكة ذهبية في عصر الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الفاتح. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٣٤)... وقد ورد في مرجع آخر أيضًا أن السكة: هي تعبير أطلق على العملة المعدنية المضمونة بدمغة الدولة الرسمية، وقد تم قطع السكة بالأقجه والمنجر حتى عصر الفاتح، وقد أطلق العثمانيون على هذه السكة الفضية اسم "أقجه عثمانية" أو "أقجه" فقط، وهذا لأن اسم المنجر أطلق على الأقجه المزيفة التي تم قطعها من النحاس، ولقد قل وزن وعيار الأقجه بمرور الزمن، واستخدمت باسم "سكة حسنة" و"سكة افرنجية" و"سكة مغشوشة"، والسكة المغشوشة هي النقود الذهبية أو الفضية المخلوطة وغير الخالصة، ولما قلت قيمة الأقجه حلت محلها الباره ثم حلت القروش محل الباره، وأخر مرة تم فيها قطع الأقجه كان سنة (١٨١٨م)، وقد تركت الأقجه بعد ذلك، والقرش الواحد يساوي أربعين باره، والباره الواحدة تساوي ثلاث أقجات، والأقجه الواحدة تساوي ثلاثة بول.(Uzunçarşılı, Kapıkulu Ocakları. 464-476)

(٢٤) BOA. EV. HMK. SR. No: 2422

(٢٥) BOA. Ev. (d).No: 16317

المحاملُ وتاريخها (ص ١٤١-١٤٥)

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآت الحرمين**، القاهرة، دار الكتب المصرية (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م).

(٢) إبراهيم رفعت باشا: ضابطٌ عثمانيّ ذهب من القاهرة إلى الحرمين الشريفين أربع مرّات على رأس قافلة الحجّ التي ذهبت إلى مكّة المكرّمة في العصر العثمانيّ أميرًا للحج وقائدًا لحرس الصرّة، فأوّل مرّة ذهبَ فيها إلى الحجّ من القاهرة كانت قبلَ تعيينه في منصبِ أميرِ الحجّ أثناءَ شغله منصبَ القائم مقام بصفته "قائد محافظي الصُرّة" في ربيع (١٩٠١م)، ومنحه السلطان عبد الحميد الثاني رتبةَ اللواء عندما تمّ تعيينُه في منصبِ أميرِ الحجّ في الأول من كانون الأول/ديسمبر لعام (١٩٠٢م)، وفي السنوات التالية كُلِّف بمهام أمير الحجّ مرّات عديدة، فعمل قائدًا لقوافل المحمِل الذاهبة من مصر إلى الحجاز لفترة طويلة، وشرحَ ما وقع له من أحداث في هذه الرحلات بالتفصيل في كتابه المسمى "مرآة الحرمين الشريفين".

(٣) محفل صغير يوضع على ظهر الجمل لحمل النساء.

(٤) جلال الدين السيوطي: **الكنز المفقود والفلك المشحون**، الطبعة الكاستلية-مصر، ١٢٩٣هـ، ص ٧١.

(٥) عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري الحنبلي، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، مجلدان.

(٦) **صحراء عيذاب**: في الأراضي المصرية، وتقع على ساحل البحر الأحمر في صعيد مصر، وتُحاذي مدينة "ينبع" السعودية.

(٧) **قوص**: مدينة تتبع لمحافظة "قنا" المصرية، وهي على الجانب الشرقي من نهر النيل، وتقع جنوب القاهرة، وتبعد عنها ستمائة وخمسة وأربعين كيلو مترًا.

المحمل المصري: رمزٌ مهمّ من رموز الخلافة (ص ١٤٧-١٥٧)

(١) يهوى الكتابةَ وجمعَ التُّحَفِ، نُشِرَ كتابُه الذي يتكوّن من "بطاقات بريدية خاصة بطريق الحج" في آخر العهد العثماني باسم "**الحج: رحلة مقدسة**".

(٢) "**أمير الحج**": هو رئيس قافلة الحجيج المتجهة إلى مكة المكرمة.

(٣) "**دليل الحج**": هو مرشد قافلة الحج طوال الرحلة.

المصادر

Atalar, Münir, **Osmanlı Devleti'nde Sürre-i Hümayun ve Surre Alayları**, Ankara 1999

Behrens - Abousseif, Doris, **The Mahmal Legend and the Pilgrimage of the Ladies of the Mamluk Court**, Mamluk Studies Review, Vol. 1, 1997

Evliya Çelebi Seyahatnamesi, Hzr: Z. Danışman, İstanbul, 1971,

Gaudefroy - Demombynes, Maurice, **Le Pelerinage a la Mekke**, Paris, 1923, Librairie Orientaliste Paul Geuthner

Hitti, Philip K., **Siyasi ve Kültürel İslam Tarihi**, İstanbul, 1980

Jomier, Jacques, **Le mahmal et la caravane Egyptienne des Pelerins de la Mecque**, Caire, 1953, Imprimerie de l'institut Français d'Archeologie Orientale

Lane, E. W., **Manners and Customs of the Modern Egyptians**, London, 1895, Alexander Gardner

Parker, Ann and Neal, Aaron, **Hajj Paintings: Folk Art of the Great Pilgrimage**, Washington, 1995, Smithsonian Institution Press

Peters, F. E., **The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy PLaces**, New Jersey, 1994, Princeton University Press

Rizk , Yunan Labib, **Epoch Making Incident**, Cairo, Al Ahram Weekly 28 June - 4 July 2001, Issue:540.

Sadik Pasha, Muhammad, **Al Rahalat al Hijaziyya**, 1999, Beirut, Badr Lil Nashr

Tresse, Rene, **Le Pelerinage Syrien aux Villes Saintes de L'Islam**, Paris, 1937, Imprimerie Chaumette

Uzunçarşılı, İ. Hakkı, **Mekke-i Mükerreme Emirleri**, Ank, 1972.

المحمل المصري بقلم ضابط عثماني (ص ١٦١-١٨٩)

(١) اسمه الأصلي إبراهيم بن شريف سويفي التاجر بن عبد الجواد بن مصطفى بن موليجي، ولد في الرابع عشر من يناير عام (١٨٥٧م) في مدينة أسيوط بمصر، تخرج في قسم الفرسان بالمدرسة الحربيّة، وانضمّ إلى الجيش العثماني، وحاز العديد من الرتب، وشغل العديد من الوظائف.

(٢) Görgün Hilal, İslam Ans. İbrahim Rifat Paşa Md. c.21, s.348 İst. 2000

(٣) هناك كتاب آخر يسمى "**مرآة الحرمين**" ألفه "أيوب صبري باشا"، طُبع في إسطنبول في عصر السلطان عبد الحميد الثاني ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م، باللغة التركية، ١-٥،. وأما كتاب "**مرآة الحرمين**" الذي ألفه إبراهيم رفعت باشا باللغة العربية قد طبع في القاهرة، ولكن لم تطبع هذه الرحلة بالتركية الحديثة حتى اليوم، ولقد ترجمها إلى التركية الدكتور "لطف الله ياوز"، وسوف تنشرها دار نشر "يتيق خزينة (Yitik Hazine)" في القريب العاجل إن شاء الله. (صالح كولن)

(٤) أي بعد النداء

(٥) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٠.

(٦) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٤-١٥٥.

(٧) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٦٠.

(٨) كان قد منع الحج بقرار من مجلس النظار لكل من لا يتوجه برفقة المحمل وذلك خوفًا من عودة الوباء للقطر المصري، وقد قدرت نفقات السفر في الدرجة الأولى سبعون جنيهًا وخمسون جنيهًا للدرجة الثانية.

(٩) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٨؛ **والمخيش:** المغطى بالخيوط الذهبية، وترتر: حلقاتٌ معدنيّةٌ وبلاستيكية لماعةٌ وملوّنة، **وشُرّابتان:** مثنى شُرّابَة وهي ضمةٌ أو مجموعةٌ من الخيوط يُعلّق أحدُ طرفيها بالطربوش ويتدلّى الآخر، وقد تُستَخدم مع غير الطربوش مثل هذا الموضع، **وكنتير:** الأقمشة المزخرفة والمنسوجة يدويًا، **وقيطان:** حبلٌ رقيقٌ مبرومٌ ومنسوجٌ من القصب الجميل.(المترجم)

(١٠) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٨.

(١١) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٣.

(١٢) اشتق اسم العباسية من الخديوي عباس الأول وهي الآن إحدى أحياء القاهرة.

(١٣) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١١.

(١٤) المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٢.

(١٥) **السردار:** اللقب الذي يُطلَق على الصدر الأعظم إذا توجّه إلى الحرب دون مشاركة السلطان في الحرب، والمقصود به في عصرنا: قائد الجيش أو وزير الدفاع. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ١٣٣).

(١٦) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٠-١٥٢.

(١٧) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٣.

(١٨) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ١٤.

(١٩) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٣.

(٢٠) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤.

(٢١) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٣٦.

(٢٢) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٣٩.

(٢٣) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٤٠-٤١.

(٢٤) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٤٢.

(٢٥) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص٤٩.

(٢٦) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٤٩-٥٠.

(٢٧) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٢.

(٢٨) **باب النبي:** المعروف اليوم بـ"باب السلام"، وله تسميات كثيرة على مر الزمان منها "باب قايتباي" ومنها "باب الجنائز" ومنها "باب الحريريين".

(٢٩) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٩٧. أنظر: أبو الوليد محمد بن عبد الله المعروف بالأزرقي (ت: ٢٥٠هـ): **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، ٢٦١/١ (دار الأندلس للنشر، بيروت).

(٣٠) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣١) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٢) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٣) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٤) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٥) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٦) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٧) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٨) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٣٩) **الباب العالي:** يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام (١٦٥٤م)، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني رئيس الوزراء، وكان للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٤٩).(المترجم)

(٤٠) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الأول.

(٤١) إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٩.

المحمل الشريف المتّجه من القصر العثمانيّ إلى الكعبة المشرّفة (ص ١٩٥-٢١٨)

(١) مؤرخة فنّية وأستاذ مساعد ومسؤول متقاعد بقسم ملابس السلطان بمتحف قصر "طوب قابي" وهي تعمل في جامعة "بِلْقِي (Bilgi)" الخاصة في إسطنبول في قسم "تصميم المُوضَة".

(٢) منمنمات وردت في كتاب: "أمل أسين"، "Mecca the Blessed Madinah the Radinat" نوفارا (١٩٦٣م)، ص ١٠٢، صورة: ٦١. وقد تم تصويره في منمنة تحمل اسم "علي بن أبي طالب ينقل أهل بيت النبي ﷺ من مكة إلى المدينة" رُسمت في تاريخ (١٥٩٥م)، سير النبي، المجلد الثالث، مكتبة نيويورك العامة، مجموعة سبنسر .ypr.: 375 b

(٣) هامر (ترجمة عطا بك) المجلد الأول، ص ٢٣٦-٢٣٧، دوسون، "Tableau Genera de L'empire Othoman"، باريس (١٧٩٠م)، المجلد الثاني، ص ٨٤).

(٤) هناك عدد من المصادر والدراسات تزودنا بالمعلومات حول تشريفات ومراسم موكب الصرة، ونذكر فيما يلي المصادر الرئيسية: كتاب **رحلات أوليا شلبي**، إسطنبول، (١٣٤١هـ/١٨٩٦م)، المجلد التاسع؛ مصطفى نعيمة، **تاريخ نعيمة**، المجلدين الأول والرابع، إسطنبول (١٢٨١-١٢٨٣هـ/١٨٦٤-١٨٦٦م)، المجلد الثاني، ص ٨٢-١٠٥؛ مصطفى إبراهيم صافي، **زبدة التواريخ**، مكتبة متحف الفن التركي، .R

1304، ورقة: 123 a vd؛ هامر، **التاريخ العثماني** (ترجمة عطا بك)، المجلد الثامن، إسطنبول (١٣٣٥هـ/١٩١١م)، ١٢٧؛ دوسون، المرجع سابق الذكر؛ انظر: "أورخان يوكسيل"، دوسون "**الأعياد الدينية في تركيا في نهاية القرن الثامن عشر**" مجموعة تاريخ الحياة، (١٩٦٨م)، المجلد الأول، ص ٣٦-٤١؛ الأبحاث، إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي، **تنظيمات القصر في الدولة العثمانية**، أَنْقَرَه (١٩٤٥م)، ص ٥٦، ١٨٠-١٨٣، ٤٤٣، إسماعيل حقي أوزُونْ جَارْشِيلِي؛ "أمراء مكة المكرمة"، أَنْقَرَه (١٩٧٢م)؛ محمد زكي باقالين، مادة "**صرة**"، "**موكب الصرة**"، "**جمل الصرة**"، "**أمين الصرة**"، "**الصُرّة السلطانية**" في معجم المصطلحات التاريخية العثمانية، (١٩٧٢م) إسطنبول، المجلد الثالث، ص ٢٨٠-٢٨٥؛ أورخان شائك جوكياي: "**الرسالة المعمارية، أعمال المعماري محمد آغا**"؛ أُوزُونْ جَارْشِيلِي: "الهدية"، أَنْقَرَه (١٩٧٦م)، ص ١١٣-٧١؛ متين أند، "**الفنون التركية في الاحتفالات العثمانية**"، أَنْقَرَه (١٩٨٢م)، ص ٢٠٨؛ ثريا فروغي، "**الحجاج والسلاطين**" (١٥١٧-١٦٨٣م)، ترجمة: ج. ش. جوفن، إسطنبول (١٩٩٥م).

(٥) عبد الرحمن شرف، **إمبراطور قصر "طوب قابي"**، TOEM I، إسطنبول (١٣٢٩هـ/١٩٠٥م)، ص ٤٠٥.

(٦) متحف الفن التركي A.D 4051، عصر السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م)، D.7995 عام (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، D.8076 عام (١٢٧٥-١٢٩٢هـ/١٨٥٨-١٨٧٥م) D.9787 بدون تاريخ.

(٧) لقد عُثر على أساسات دائرتين حكوميّتين للكاتبين، غير الموجودة في الوقت الحالي، في الباحة الثانية للقصر عند نهاية أروقة مدخل دائرة الحريم، ومن أجل الاطلاع على تقرير الحفر الذي يؤرخ لبناء الغرفة في القرن السادس عشر، يرجى مراجعة: أ. أر أوغلو "**أعمال تنقيب البحث عن دائرة الكاتبين أسياد دار السعادة بالباحة الثانية من متحف قصر "طوب قابي"**"، ندوة أعمال المتحف وحفريات الإنقاذ الثانية عشرة (وزارة الثقافة التركية، الإدارة العامة للمتاحف والآثار ٢٥-٢٧، أبريل/نيسان ٢٠٠١م) أَنْقَرَه (٢٠٠٢م)، ص ١٣٩-١٤٨.

(٨) إبراهيم آتش "الأموال والهدايا المرسلة إلى مكة والمدينة في زمان العثمانيين"، مجلة الأوقاف ١٣ (١٩٨١م)، ص ١١٣- ١٧١.

(٩) دليل متحف قصر "طوب قابي"، إسطنبول (١٩٣٣م)، ص ٢٠؛ آلطنداغ، "**المكان الباقي بين نظام الإقامة الأساسي بالقصر وأسوار البر والبحر**"، الفن ٧ (١٩٨٢م)، ص ٥٩.

(١٠) دوسون : ١٧٩٠م، لوحة ٤٤-٥٦.

(١١) BA.İr.Dah. رقم:٣١٩٦، المستندات ذاتها .LEF.I

(١٢) BA.İr.Dah 18. رقم:١٨٨٥٢، وجوابه رقم: ١٨١٨٤٢ .LEF.I

(١٣) تظهر إحدى الصور الموجودة في أَلْبُوم رقم ٩١٣١٣ بمكتبة جامعة إسطنبول، موكبَ الصُرّة أمام قصر "يِلْدِزْ".

(١٤) عائشة عثمان أوغلو، "والدي عبد الحميد"، إسطنبول (١٩٦٠م)، ص ٦٠.

(١٥) خلوق شَهْسُوَارْ أُوغْلُو، "الغرف التاريخية"، إسطنبول (١٩٥٤م)، ص ١١-١٥.

(١٦) كوز الصنوبر: هو عبارةٌ عن قرصٍ معدنيٍ وعلبةٍ مستديرة الشكل، يُربط في الأكياس التي تحتوي على الرسالة السلطانية بواسطة شريط مزركش، ولمزيد من المعلومات راجع كتاب "أُوزُونْ جَارْشِيلِي" (١٩٧٢)، ص ٢١، ملحوظة ١

(١٧) متحف الفن التركي،A D.12 عام (١٠٩٢هـ/١٦٨٠م)، .Yp.: 64a

(١٨) أُوزُونْ جَارْشِيلِي: (١٩٤٥)، ص ١٨٢.

(١٩) عثمان أوغلو، ١٩٦٠م، ص ٦٠.

(٢٠) **الحرملك**: القسم الخاص من القصر بالنساء، ويُطلق هذا الأسم على الزوجة أيضًا،أما السلاملك: فهو القسم الخاص من القصر بالرجال، وهو مكان الترحاب والاستقبال.(صابان، المعجم الموسوعي، ٩١.) (المترجم)

(٢١) Ali Seydi Bey, Teşrifat ve Teşkilat-ı Kadimemiz, Hazırlayan: N.A.Banoğlu, Tercüman 1001 Temel Eser, No.17(Tarihsiz), s.154.

(٢٢) أنظر: متحف الفن التركي A.D 4051، عصر السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م)، D.7995 عام (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، D.8076 عام (١٢٧٥-١٢٩٢هـ/١٨٥٨-١٨٧٥م)، D.9787 بدون تاريخ.

(٢٣) لوي رامبر، "المذكرات الخفية"، ترجمة: نيازي أحمد بان أوغلو، إسطنبول (غير مؤرخ) ص ٢٣٣.

(٢٤) كتاب رحلات أوليا شلبي، المجلد التاسع، ص ٣٨٩.

(٢٥) الرحالة البولندي سيميون: انطلق من إسطنبول بتاريخ الثامن والعشرين من أغسطس/آب عام (١٦١٥م) للذهاب إلى الحج في القدس ووصل إلى مصر، وكان شاهدًا على إعداد المحمل في مصر خلال تواجده بها، وسار مع قافلة الحجيج لمسافة طويلة.

(٢٦) كتاب رحلات الرحالة البولندي سيميون (١٦٠٨-١٦١٩م)، ترجمة: هراند أندرسيان، إسطنبول (١٩٦٤)، ص ١١٥-١٢١.

(٢٧) "أُوزُونْ جَارْشِيلِي": (١٩٧٢م)، ص ٧٦.

(٢٨) تاريخ إبراهيم بَجَوِي"، إسطنبول (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م)، المجلد الأول، ص ٤٢٥-٤٢٧.

(٢٩) هناك العديد من المنشورات المتعلقة بلوحات القيشاني التي تصور الكعبة، ونذكر من الأعمال المليئة بالصور: "صبيح أركن (Sabih Erken)"، "تصويرات الكعبة في فن الخزف التركي"، مجلة الأوقاف ٩ (١٩٧١م)، أَنْقَرَه، ص ٢٩٧-٣٢٠)، ونذكر نموذجًا آخرًا للمنمنمات الخاصة بالموضوع ذاته، "شرح شجرة الإيمان وإحياء الحج، قرة العيون" (كُتب بتاريخ (١٥٤٠-١٥٤٥م)، ص ٦٥) بـ (متحف الفن التركي) .(K.A.3547).

(٣٠) Marie de Carcarades "**محامل قصر طوب قابي**"، مجلة الدراسات التركية، المجلد الثالث عشر (١٩٨١م) باريس، ص ١٧٤-١٨٤.

(٣١) "Jacques Jomier"محمل السلطان قانصوه الغوري"، Annales Islamo-logiques، ١١ (١٩٧٢م)، ص ٢٩-١٨٨؛ ومن أجل صورة منشورة للعمل، راجع: "تحسين أوز (Öz)" La Broderie Turque" La Turquie Kemaliste، ٤٤ (١٩٤١م) ص ٩.

(٣٢) "خُوليا-تورجاي (Turgay) تزجان (Tezcan)"، "رايات الأعلام التركية"، أَنْقَرَه (١٩٩٢م)، ص ٦٠، K.41

(٣٣) دفتر الخزينة بتاريخ (١٠٩٢هـ/١٦٨٠م) A.D. 12B متحف الفن التركي، ورقة: 59A.

(٣٤) أُوزُونْ جَارْشِيلِي، (١٩٧٢م)، ص ٥٧، ملحوظة: ٢.

(٣٥) تُصور ست صور موجودة في داخل ألبوم رقم (٩٢١٧٦ و٩١٣١٣) بمكتبة جامعة إسطنبول مراسمَ الصُرّة السلطانية، هذا إضافة إلى أن رسالة الصُرّة التي تحمل رقم M.R. 587 بمكتبة متحف الفن التركي، تحمل تاريخ (١٣٣٥ رومية/١٩١٧م)، ويوجد صورة داخل التقرير المقدم إلى "محمد رشاد".

(٣٦) تظهـر اللوحة رقـم (٦١٠/١٧) -الموجودة بمكتبة متحف الفن التركي- تظهـر موكـب الصُّـرّة فـي مكـة، وهنـاك جملـة مكتوبـة أسـفل الصورة باللـون الزيتي "ذكرى أمانـة الصُّرّة - يناير/كانون الثانـي (١٣٣١ رومية)" (١٩١٢/١٩١٣م)، كمـا توجـد لوحة أخرى في قصر "دُولْمَه بَاغْجَه"، وقد نُشرت ملونة في مقالة "إبراهيم آتش (Ateş)" في مجلة الأوقاف في عددها الثالث عشـر (١٩٨١م) تحت عنوان "الأموال والهدايا المرسـلة إلى مكة والمدينة في زمان العثمانيين".

(٣٧) أورجون باريشـتا: "الزخـارف التركية في عهـد الإمبراطورية العثمانية"، أنْقَرَه (١٩٩٩)، ص ٩٨، صورة: (١١١).

(٣٨) هو الشـخص الذي ينحت قلب العملات المعدنية ويرسـم الشـعارات عليهـا. راجـع: فريـد دَوَلِي أُوغْلُو/معجـم اللغة العثمانيـة - اللغة التركية الموسوعي، مادة "Sikke-ken". أنْقَرَه ١٩٨٢، ص ١١٤٢.

(٣٩) **البافته**: قطعة من قماش مختلف لونه عن لون الأرضية تمت حياكته في الستارة، وهو نسيج رقيق من قطن أبيض يُنسج بالهند.(المترجم)

(٤٠) سـلانيكي مصطفـي أفنـدي "تاريخ السـيلانيكي"، إعداد: م. إبشـيرلي، المجلد الثاني (١٠٠٣-١٠٠٨هـ/١٥٩٥-١٦٠٠م)، إسـطنبول (١٩٨٩م)، ص ٦٧٢-٦٧٤)، yp.: 371 a - 372

الأقمشة المرسلة إلى المدينة المنورة (ص ٢٢١-٢٣٩)

(١) مؤرخة الفنّ في متحف قصر "طوب قابي".

(٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله المعروف بالأزرقي (ت: ٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ٢٦١/١ (دار الأندلس للنشر - بيروت).

(٣) **الزجـزاج**: كلمـة انكليزيـة أصبحـت تُسـتخدم عربيًـا، وتعنـي الخطـوط المنقوشـة علـى الأقمشـة بالتواءٍ من الأسـفل إلـى الأعلى ومـن الأعلى إلى الأسـفل، أو من اليمين إلى اليسـار ثم من اليسـار إلى اليمين وهكذا دواليك.(المترجم)

(٤) İPEK Selin, "16. yüzyıldan 20. yüzyıla kadar Kâbe-i Şerif (iç) ve Ravza-ı Mutahhara Kumaşları", Filiz Çağman'a Armağan-Uluslararası Sempozyum, Topkapı Sarayı Müzesi, 7-11 Şubat 2005., "Ottoman Ravza-ı Mutahhara Covers Sent from Istanbul to Medina with the Surre Processions", Muqarnas, V. 23, (Edited by Gülru Necipoğlu), 2006, pp. 289-316.

(٥) "الجـاكار" هـو القمـاش المختلـط الرسـم المنسـوج فـي ماكينـة نسـيج "الجاكار"، وهي ماكينة تنسج كل خيط وحده. (المترجم)

(٦) مـن هـذا القماش توجد القطـع التي تحمل الأرقـام التالية: ٢٤/ ١١٥٢، ٢٤/ ١١٥٣، ٢٤/ ١١٨٩، ٢٤/ ١١٩٢، ٢٤/ ٣٦٥، ٢٤/ ٣٦٦، ٢٤/ ٦٤٧-١٥٤

(٧) TEZCAN Hülya, Estarül Haremeyn-i Şerifeyn. İstanbul 1996, s.115. İPEK. "Ottoman Ravza-ı Mutahhara Covers Sent from Istanbul to Medina with the Surre Processions", Muqarnas, s. 292.

(٨) مقاسـات اللوحة المشغولة رقم (٢٤١/٢٤)، الطول (١٨٥ سم)، العرض (١٢٦ سم). انظر: TEZCAN, s.115.

(٩) القطعـة رقـم (٣٤٣/٢٤) طولهـا: (٢١ سـم)، وعرضها (٨٤ سـم) بما في ذلك الإطار، الإطار الأيمن (٠,٥ سـم)، الإطار الأيسـر (٠,٥ سم). انظر: İPEK, s. 292.

(١٠) عرض الستارة (٢٦٠ سم)، طولها: (٣٦٥ سم)، عرض الجزء المشغول من لوحتها: (٨٨ سم)، طوله: (١٤٣ سم).

(١١) عرض السـتارة ١٤٦ سـم، طولهـا: ٢٠٩، عرض الجزء المشـغول من لوحتها: ٨٧ سم، طوله: ١٤٠سم. للاطلاع على مكان نشرها انظر: İPEK, "Ottoman Ravza-ı Mutahhara Covers Sent from Istanbul to Medina with the Surre Processions", Muqarnas. s. 293.

(١٢) السـتارة التـي ترجـع إلـى عصـر السـلطان إبراهيـم (٢٤/ ٢٧٢) يبلـغ عرضهـا: (٢٦٦ سـم)، طولها: (٣٤٥ سـم)، عرض الجزء المشـغول من لوحتها: (١٣٠ سـم)، طوله: (١٩٠ سـم)، للاطلاع على مكاننشرها انظر: TEZCAN, Estarül Haremeyn-i Şerifeyn, s.117.

(١٣) الستارة التي ترجع إلى عصر السلطان أحمد (٢٤/ ٢٧٣) يبلغ عرضها: (٢٤٣ سـم)، طولهـا: (٣٣٦ سـم)، عرض الجزء المشـغول مـن لوحتها: (١٢٤ سم)، طولـه: (١٩٠ سـم)، للاطـلاع علـى مـكان نشـرها انظر: TEZCAN, Estarül Haremeyn-i Şerifeyn, s.124; İPEK, a.g.e. s. 295.

(١٤) **قمـاش الكَمْخَـا**: هـو القمـاش الـذي يدخل في نسـيجه بعـض خيوط الذهب.(المترجم)

(١٥) القطعة رقم (١٣/ ١٦٥٩) يبلـغ عرضها: (٦٨ سم) بما في ذلك الإطار، وطولها: (٢٤٠ سـم)، عرض الجزء المشـغول من لوحتها: (١٣٠ سـم)، طوله: (١٩٠ سم)، للاطلاع على مكان نشرها انظر: TEZCAN: s.71; Hülya TEZCAN: "Padişah Kaftanları, Kumaşlar, Halılar ve Kutsal Örtüler", Topkapı Sarayı, İstanbul 2000, s.304; İPEK, a.g.e s. 297.

(١٦) القطعـة رقـم (٣٥٨/٢٤) عرضهـا (٧٧,٥ سـم) بمـا في ذلـك الإطار، وطولها (٨٣ سـم)، وعرض الرسـم: (٢٠ سم)، وطوله (٨١ سم)، الإطار الأيمـن والأيسـر: (٠,٤)، للاطلاع على مكان نشـرها انظـر: İPEK, a.g.e. s. 299.

(١٧) في الأعمّ الأغلب لا يكتب على الأقمشة العثمانية اسم الصانع، ولكن وصلـت إلـى عصرنا قطع كتب عليهـا التاريخ واسـم الصانـع، من أجل للاطلاع على مكان نشرها انظر: İPEK, a.g.e. s.300-301.

(١٨) للاطلاع على مكان نشرها انظر: İPEK, a.g.e. s. 303.

(١٩) قد سجلت بأرقام (٢١٥٣/٢٤-٢١٥١/٢٤-٢١٥٢/٢٤)، للاطلاع على مكان نشرها انظر: İPEK, a.g.e. s. 304.

(٢٠) فـي هذا القماش يكون الطول: (١٢٥سـم)، والعرض: (٦٦,٥سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسم: (٥٩سم)، عرضه: (٣٣سم)، الإطار الأيمن والأيسـر (٠,٥سـم)، والأقمشـة التي تحمل نفس التصميم مسـجلة برقم (٣٧٧/٢٤، ٣٨٥/٢٤، ٣٨٤/٢٤)، مـن أجـل مثيلها انظـر: Savaş ve Barış, İstanbul, 1999, s.127 (Krakov Ulusal Müzesi, Env. No. XIX-7261).

(٢١) في هذا القماش يكون الطول: (١٤٢ سم)، والعرض: (٦٦ سم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٥٨ سـم)، عرضه: (٣٢ سم)، الإطار الأيمن (٠,٦ سم) والأيسر (٠,٦ سم).

(٢٢) الطول: (١٠٠٠ سـم)، والعرض: (٦٨ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٥٥ سـم)، عرضه: (٣٣ سم)، الإطار الأيمن (٠,٤ سم) والأيسر (٠,٤ سم)، للاطلاع على مكان نشره انظر: ÇAĞMAN Filiz - AKSOY Şule, Osmanlı Sanatında Hat, s. 66.

(٢٣) القطعة رقم (١١٩٨/٢٤)، الطول: (١٥٨ سـم)، والعرض: (١٤٧ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسم: (٥٣ سم)، عرضه: (٣٣ سم).

(٢٤) القطعة الأولى الطول: (٣١ سـم)، والعرض: (٧١,٥ سـم) بما في ذلك الإطـار، القطعـة الثانيـة: الطول: (٢٢ سـم)، والعرض: (٧١,٥ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٢٤ سـم)، عرضه: (١٢,٥ سـم)، الإطار الأيمن (٠,٧ سـم) والأيسـر (٠,٧ سـم)، للاطلاع على مكان نشره انظر: İPEK. A.g.e. s. 310.

(٢٥) مقاسـات القطعة، الطول: (٤٧ سـم)، والعرض: (٦٨ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٢٧ سـم)، عرضه: (١٢ سم)، الإطار الأيمن (٠,٦ سم) والأيسر (٠,٦ سم).

(٢٦) الطول: (٢١٢ سـم)، والعرض: (٣١٠ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٥٠ سـم)، عرضه: (١٤ سم)، الإطار الأيمن (٠,٥ سم) والأيسر (٠,٥ سم).

(٢٧) الطـول: (٢٣٢ سـم)، والعرض: (٧١ سـم) بما في ذلـك الإطار، طول الرسـم: (٤٨ سـم)، عرضـه: (١٢,٥ سـم)، الإطـار الأيمـن (٠,٣ سـم) والأيسر (٠,٣ سم).

(٢٨) الطـول: (٩٩ سـم)، والعرض: (٦٥,٥ سـم) بما فـي ذلك الإطار، طول الرسـم: (٨٠,٥ سـم)، عرضـه: (٣٣ سـم)، الإطـار الأيمـن (٠,٦ سـم) والأيسر (٠,٦ سم).

(٢٩) الطـول: (٣٨٣ سـم)، والعـرض: (٦٧ سـم) بما في ذلـك الإطار، طول الرسـم: (٨٨ سـم)، عرضه: (٣٣ سم)، الإطار الأيمن (٠,٤ سم) والأيسر (٠,٤ سـم)، وهناك قطعة من القماش نفسـه عليها التصميم نفسـه ولكنه ورديّ اللون وقد نُسـج معكوسًـا (٢٤/ ٦٤٧ - ٨٦)، وأوضح أن طولها: (٢٧ سم)، وعرضها: (٦٣ سم)، وطبقًا لما نعرفه أن النسج عن طريق الشد قـد تقـع فيه هذه الأخطاء، وهي واحدة من الأقمشـة التي نسـجت خطأً، ولكن تمّ الحفاظ على القماش لأن عليه لفظ الجلالة واسم سيدنا محمد ﷺ، وهناك قطعة أُخرى تشبه هذه القماشة تحمل رقم (٢٤/ ١١٠٩).

(٣٠) الطـول: (٨٧ سـم)، والعـرض: (٦٦ سـم)، طـول الرسـم: (٥٤ سـم)، عرضه: (٣٢ سم).

(٣١) الطول: (٢٦٥٠ سـم)، والعرض: (٦٨ سـم) بما في ذلك الإطار، طول الرسـم: (٥٥ سـم)، عرضـه: (٣٣,٥ سـم)، الإطـار الأيمـن (٠,٤ سـم) والأيسر (٠,٤ سم).

(٣٢) UZUNÇARŞILI İsmail Hakkı. Mekke-i Mükerreme Emirleri. TTK Basımevi, Ank. 1972, s. 66.

(٣٣) **أودانجـي**: مجموعـة من الخدم في القصـور العثمانية يُطلـقُ عليها هذا الاسـم، وكانت تقـوم بخدمة القصر وكنس الموائد وغرف العمائم، كما أنهم هم المسـؤولون عن تنظيف أرض العرض "خانه" (سـاحة العرض) ودائرة خرقة السعادة و"العرض خانة" المطلة على "قصر وران".

(٣٤) Cevdet Paşa. Tezakir. Haz: C. Baysun, Ankara 1986, s. 18-19; BEYOĞLU Süleyman. "Osmanlılar ve Mukaddes Emanetler", Osmanlı Kültür ve Sanat. C. IX, Ankara 1999, s. 345-352.

(٣٥) ŞEREF Abdurrahman. "Top-kapı Sarayı Hümayunu", TOEM I. İstanbul 1329/-1905, s. 405.

(٣٦) TEZCAN: Estarül Hare-meyn-i Şerifeyn.

(٣٧) ATEŞ İbrahim. "Osmanlılar Zamanında Mekke ve Medine'ye Gönderilen Para ve Hediyeler", Vakıflar Dergisi. S.13, 1981, s. 113-171.

(٣٨) BAYRAM Sadi. "Vakıflar Genel Müdürlüğü Arşivi'nde Bulunan Kendinden Desen-li Üzeri Yazılı İki Kumaş", Vakıflar Dergisi. S.15, 1982, s. 139-156.

(٣٩) بنـاء علـى الأبحـاث التـي عملتهـا فـي متحـف (V&A Museum) يوجـد فـي مخـزن القمـاش ثلاث قطـع معروضة من هـذا القماش ذات رسـم بـ(الزجـزاج) علـى أرضيـة خضـراء وحمـراء، ولقـد ثبـت وجـود واحدٍ وعشرين قطعةً من هذا القماش.

(٤٠) مـن أجـل معلومـات أكثـر تفصيـلا انظـر: İPEK Selin, "Osmanlı'da Sandukalara Örtü Örtme Geleneği ve Eyüp Sultan Haziresi'ndeki Taş Lahit", Tarihi, Kültürü ve Sanatıyla Eyüp Sultan Sempozyumu IX, (13-15 Mayıs 2005), Aralık 2005, s. 322-337.

(٤١) Yayımlandığı yer için bkz. Hülya TEZCAN, Estarül Haremeyn-i Şerifeyn.; İPEK Selin, "Kâbe Örtülerinin İkinci Kullanımları", Toplumsal Tarih. 2003, S.114, s. 22-27.

تفصيلُ نفقات كسوةِ الكعبة (١٣٠٧هـ/١٨٩٩م) (ص ٢٤٢-٢٤٤)

(١) إبراهيـم رفعـت باشـا، مـرآت الحرميـن، القاهـرة، دار الكتـب المصرية (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)، المجلد الثاني، ص ٣٢٩-٣٣٢.

قوافل الحجّ العثمانيّة في كتب رحلات العصر القاجاري (ص ٢٥١-٢٨٥)

(١) تشـغل وظيفـة الأسـتاذ المسـاعد فـي قسـم التاريـخ الإسـلامي بجامعة "آرْتُوكْلُـو (Artuklu)" فـي مدينـة "مَارْدِيـنْ (Mardin)"، وقـد مُنِحـت إجازة الدكتورا من قسم "تاريخ الدول الإسلامية وثقافتها" في جامعة "طهران".

(٢) يوجـد فقـط كتابان من كتـب الرحلات خاص بعهـد القاجاريين قبل عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م) الذي يعتبر تاريخ بداية إرسـال الصُرّة السـلطانية عن طريـق البحـر، فبعـد الـذي تناوله كل مـن "إعتمـاد السـلطنة" (١٢٦٣هـ) و"سـيف الدولة" (١٢٧٩هـ)، نجـد أن معتمد الدولة "فرهاد ميرزا" هو من كتب أول كتاب رحلات باللغة الفارسـية خلال الفترة التي تقابل الأعوام التـي أرسـلت فيهـا الصُرّة عن طريـق البحر، فقد سـافر المؤلف إلى مكة المكرمة عن طريق إسطنبول في شهر شعبان من عام (١٢٩٢هـ)، راجع: كتاب رحلات معتمد الدولة فرهاد ميرزا، تصحيح: إسماعيل نواب صفا، دار نشـر زوار، طهـران (١٣٦٦هـ)، ص ٤١، وبعد "فرهـاد ميرزا" قام كل مـن "قاراكوزلو" و"فرهاني" و"ملك الكلام مجيـدي" بتأليف كتب تتناول هذه الرحلات بشكل مفصّل.

كمـا أفـرد بعـضُ كتّـاب أدبِ الرحلات صفحـاتٍ فـي كتبهم للقـاءات التي عقدوهـا أحيانًا مـع العثمانيين العالمين باللغة الفارسـية، حتى إن بعضًا ممّن يعلمـون اللغـة التركية منهم دوّنوا هذه اللقـاءات باللغة التركية، ويورد "فرهاد ميـرزا" (ص ٢١٢) أن بعضًـا مـن الباشـاوات العثمانيين وسـائر رجال الدولة الآخرين كانوا على دراية باللغة الفارسـية وأنهم كانوا يقرؤون بعض الأشـعار من كتاب "جولسـتان" لـ"سـعدي علي" الإيرانيّ، وينقل "حسام السلطنة" (ص ٦٨) و"معتمـد الدولة" (ص ٦٨) في أعمالهـم اللقاءات والمحادثات الجميلة التـي كانـت تجري مـع السـلطان باللغة التركيـة، وعلى الرغم مـن ذلك فلا يوجـد أيّ كتاب رحلات مسـتقلّ كتبه باللغة الفارسـية أو التركية حاجٌ إيراني ذهب برفقة الصُرّة السـلطانية من إسـطنبول إلى الشـام عن طريق البر، ونتيجة للأبحاث والدراسات التي قمنا بها، صادفنا كتاب رحلات كتبه منظومًا باللغة التركية بالأحرف الفارسـية أحد الأتراك المنحدرين من مدينة "مراغة" كان قد ذهب إلى الحجّ في عهد الأسرة البهلوية، وفي المقابل، فهناك الكثير من كتب الرحـلات باللغة الفارسـية تتناول بالتفصيل رحـلاتِ الحج التي كانت تنطلق عبـر منطقة شـرق الأناضول برًا ومن إسـطنبول بحرًا على أظهر السـفن ومن الشام إلى المدينة عبر السكك الحديديّة فيما بعد.

(٣) راجـع كتاب: رحلات حاجي علي خان إعتماد السلطنة، تصحيح: غازي عسـكر، دار نشـر مسـار، طهران (١٣٧٩هـ)، (ص ٧٢)، وقد تولى مؤلف هـذا الكتاب منصب الـوزارة في عهد "ناصر الدين شـاه القاجاري"، وقد أدار بعد وفاة "ناصر الدين شـاه" مناطق "همدان" و"أذربيجان" و"قزوين"،

وكان الطريق الذي مرّ منه المؤلّف بينما كان يتوجه إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك فريضة الحج كالتالي: (بغداد - كركوك - الموصل - ماردين - ديار بكر - خربوط - أورفا - بيرجيك - حلب - دمشق).

(٤) كان يأتي بعض الحجيج الإيرانيين إلى إسطنبول لرؤية قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري" والمصحف الشريف المكتوب بخط يد سيدنا علي ﷺ والمجلوب من حلب المحميّة إلى إسطنبول، حيث كان يحمل أهمّيّة كبيرة بالنسبة للإيرانيين، راجع: فرهاد ميرزا، ص ٢٨.

(٥) الأرشيف العثماني التابع لرئاسة وزراء الجمهورية التركية، HR.MKT.6 - 6012 - N وثيقة بتاريخ (١٢٦٠هـ)، فراهاني، ص ١٦٨.

(٦) كتاب "رحلات محمد حسين فراهاني"، تصحيح: حافظ فرمان فرمانيان، طهران (١٣٤٢هـ)، وقد تناول المؤلّف واحدًا من أهمّ كتب الرحلات في عهد "ناصر الدين شاه القاجاري"، وقد جاء إلى مدينة إسطنبول عبر "القوقاز" في شهر شوال من عام (١٣٠٢هـ) وذهب إلى مكّة المكرّمة من إسطنبول عبر طريق (مصر - جدة).

(٧) فراهاني، ص ٢٠٧.

(٨) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٩) "سلطان مراد حسام السلطنة"، سفرنامه مكة، تصحيح: رسول جعفريان، دار نشر مسار، طهران (١٣٧٤هـ)، يُلقب المؤلف بلقب فاتح هرات، وهو نجل "عبّاس ميرزا" نائب السلطنة، وقد خرج إلى الحجّ عن طريق إسطنبول في شهر شعبان من عام (١٢٩٧هـ).

(١٠) **التومان**: كان العملةَ الرسمية في إيران حتى العام (١٩٣٢م).

(١١) "سفرنامه سلطان محمد سيف الدولة"، تصحيح: علي أكبر خدابرست، دار نشر مي، طهران (١٣٦٤هـ)، (ص ١٦٨) المؤلف هو حفيد "فتحي علي شاه"، وكان حاكم ولايتي "ملاير" و"نهاوند"، ذهب إلى أداء مناسك الحج عن طريق إسطنبول في شهر شعبان من عام (١٢٧٩هـ).

(١٢) حسام السلطنة، ص ١٢٩.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(١٤) حسام السلطنة، ص ١٣٦.

(١٥) سفرنامه الصدر الأعظم حاجي ميرزا علي خان أمين الدولة، تصحيح: إسلام كاظمية، طهران (١٣٧٦هـ)، بعد أن عُزل "أمين الدولة" عن منصب الصدر الأعظم لولاية "أذربيجان"، حصل على إذن من "مظفّر الدين شاه" وذهب إلى الحجّ عن طريق إسطنبول عام (١٣١٦هـ).

(١٦) أمين الدولة، ص ٢٣٧.

(١٧) أمين الدولة، ص ٢٣٢.

(١٨) سفرنامه ملك الكلام مجيدي، تصحيح: محمد طاهر هاشمي، دار نشر توكل، طهران (١٣٨٢) يعتبر المؤلف أديبًا وشاعرًا مشهورًا، وقد ذهب إلى الحج عن طريق إسطنبول يوم الثامن من شعبان عام (١٣٠٥هـ) وهو لم يتجاوز عمره الثانية والعشرين ربيعًا، وهو إيراني سُنّي، ويسرد الأحداث والوقائع التي قابلها خلال الرحلة ويحللها بعين مسلم سُنّي.

(١٩) سفرنامه فراهاني، ص ٢٨٠.

(٢٠) سفرنامه نبي الإيالة، طهران، ص ٢٦٩.

(٢١) سفرنامه ميرزا داود وزير الوظائف، تصحيح: غازي عسكر، دار نشر مسار، طهران (١٣٧٩هـ)، ص ٢١٠، ذهب المؤلف إلى الحج في عام (١٣٢٢هـ) عن طريق (باكو - تبليسي - باطومي - إسطنبول - مصر - جدة).

(٢٢) ميرزا داود حسيني، ص ١٧٩.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٢٤) فهذه السيدة التي تنتسب للأسرة الصفوية من مدينة "أوردوبادلي (ناخيتشيوان)" خرجت من مدينة "أصفهان" بعد أن عقدت النية للذهاب إلى الحجّ بعد موت زوجها الذي كان يعمل بكتابة الديوان العالي لدى الأسرة الصفوية مطلع القرن الثاني عشر الهجري، وقد وصلتْ هذه السيدة إلى الأناضول عبر (تبريز- وناخيتشيوان) وتصل إلى مكّة المكرمة من هناك عن طريق (أرضروم - مالاطيا - حلب - دمشق)، ولقد ألّفت هذه السيّدة كتاب رحلات تحكي فيه عن هذه الرحلة والصعوبات التي واجهتها خلالها شعرًا بلغة فارسية سهلة وخالية من التعقيدات. (راجع: سفرنامه بانوي أصفهاني، تصحيح: رسول جعفريان، دار نشر مشار، طهران ١٣٧٤هـ)، كما شرحت ابنة "ميرزا فرهاد" الذي عيّنه "ناصر الدين شاه" في العهد القاجاري في منصب إدارة حكومة فارس، شرحت بشكل مفصّل حكاية رحلة الحجّ التي قامت بها عبر طريق العتبات المقدسة عام (١٢٩٧هـ) عقب وفاة زوجها الذي كان يشغل منصب وزير الجيش (راجع: سفرنامه فرهاد ميرزا معتمد الدولة، تصحيح: إسماعيل نواب صفا، دار زوار، طهران ١٣٦٦هـ).

(٢٥) إعتماد السلطنة، ص ٨٧.

(٢٦) **ساز**: هي آلة موسيقية وترية، وهي تعني العود ذو العنق الطويل المستخدم في الموسيقى الكلاسيكية العثمانية وفي الموسيقى الشعبية في سورية وتركيا ودُول البلقان وهي من الآلات المحبوبة والممجّدة في تركيا. (المترجم)

(٢٧) **تُوبْخَانَه**: اصطلاح عثماني، أطلق على فرقة من الوحدات العسكرية في الجيش، مختصة في صناعة المدافع العسكرية، وأول مَن أسس هذه الفرقة هو السلطان "مراد الأول".

(٢٨) إعتماد السلطنة، ص ٩٣.

(٢٩) سيف الدولة، ص ١٤٧.

(٣٠) سيف الدولة، (ص ١٦٧)، أما بالنسبة للقافلة التي كانت تسير عبر طريق (النجف - المدينة - الجبل) والتي كان عدد المشاركين بها أقل نسبيًا مقارنة بقافلة الشام، فقد كانت تُستخدم بها الأجراس في الصباح من أجل إعلام المسافرين بالتحرك، وأما الطبول فكانت تُقرع من أجل الأمر بتحميل الأحمال، راجع: سفرنامه خيرت (مجهولة المؤلف)، مجلة ميقات، العدد: (٤٤)، ص ١٤.

(٣١) حسام السلطنة، ص ١٨٤.

(٣٢) أمين الدولة، ص ٢٢٤.

(٣٣) ميرزا جلاير، سفرنامه مكة، تصحيح: رسول جعفريان، دار نشر مشار، طهران (١٣٨٥)، ص ٢٢.

(٣٤) المرجع سابق الذكر، ص ١٢٣.

(٣٥) حاجي سياح محمد رجب، سفرنامه عتبات ومكة، تصحيح: رسول جعفريان، مجلس الميراث الإسلامي الإيراني، المجلد الخامس، قُم (١٣٧٦هـ)، نشر آية الله مرعشي، (ص ١٨٣)، المؤلف هو أحد تجار مدينة طهران الإيرانية، وقد ذهب إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك فريضة الحج عبر طريق العراق في عام (١٣١٧هـ).

(٣٦) سفرنامه عتبات ومكة، ص ١٧٩.

(٣٧) سفرنامه حاج عبد الله خان قاراكوزلو، آثار مجموعة حاجي عبد الله خان قاراكوزلو، تصحيح: عناية الله مجيدي، دار نشر ميراث مكتوب، طهران (١٣٨٢هـ)، (ص ٣٠٧)، المؤلف هو قائد النظام في مدينة "همدان"، وقد

ذهب لأداء مناسك الحج عبر طريق إسطنبول في شهر ذي القعدة من عام (١٣١٩هـ).

(٣٨) سفرنامه ابنة فرهاد ميرزا، تصحيح: رسول جعفريان، مجلة الميراث الإسلامي الإيراني، الدفتر رقم (١٢)، قُم، (١٣٧٦هـ)، (ص ٢٨٣) انطلقت مؤلفة الكتاب من مدينة بوشهر الإيرانية في عام (١٢٩٧هـ) وطافت حول شبه الجزيرة العربية، وفي النهاية وصلت إلى مكة وفي أثناء العودة اتخذت طريق العتبات عائدة إلى إيران.

(٣٩) قاراكوزلو، ص ٣١٢.

(٤٠) نائب الصدر الشيرازي، سفرنامه مكة، تصحيح: هارون وهومان، دار بانيز للنشر، طهران (١٣٨٣هـ)، (ص ١٦٤). المؤلف هو أحد أحفاد الصوفي الكبير "زين العابدين شيرواني"، وقد ذهبَ إلى الحجّ عن طريق إسطنبول عام (١٣٠٥هـ).

(٤١) سفرنامه مكة، مجهولة المؤلف، تصحيح: غازي عسكر، دار مشار للنشر، طهران (١٣٨٢هـ)، (ص ٢٠٧)، لقد كتب كتاب الرحلات هذا من قبل مؤلف مجهول في عام (١٢٨٨هـ)، ويُعتقد أن المؤلف هو أحد الموظّفين الحكوميّين، وكما هو مفهوم من الكتاب فقد توجّه المؤلف لأداء مناسك الحجّ منطلقًا من مدينة "النجف".

(٤٢) ميرزا داود، ص ١١١.

(٤٣) اتحد شريف مكة مع حجاج مصر والشام في نسق واحد وأخذوا في الاستمتاع بالألعاب النارية ووسائل الترفيه الأخرى، راجع: كازروني، ص ٣٦٦.

(٤٤) سفرنامه ابنة فرهاد ميرزا، ص ٢٨٦.

(٤٥) أمين الدولة، ص ٢٤١.

(٤٦) ظاهر الملك، سفرنامه مكة، مجلة التراث الإسلامي الإيراني، المجلد الخامس، قُم (١٣٨٦هـ)، (ص ٢٢٨-٢٦١)، المؤلف هو من أعيان مدينة "كرمانشاه" وأحد قادة الجيش الرابع، وقد ذهب إلى الحج عبر طريق العراق - الشام في عام (١٣٠٦هـ).

(٤٧) كازروني، ص ٩٦.

(٤٨) الأصفهاني، ص ٢١٦.

(٤٩) ظاهر الملك، ص ٢٥٩.

(٥٠) كان من السهولة بمكان تحديد الشقادف -جمع شقدف؛ وهو مركبٌ أكبر من الهودج يستقلّه الحجاج سابقًا- التي كان يفضّل ركوبها الحجّاج الإيرانيّون على وجه الخصوص وهم في طريقهم من مكة إلى المدينة، ولأن الشقادف الخاصّة بهم كان يجب -كما يعتقِدون فقهيًا- ألا تكونَ مغطّاة بل تبقى مكشوفة، فكانوا يُعرفون على الفور عند النظر إليهم، انظر: أمين الدولة، ص ٢٢٣.

(٥١) أمين الدولة، ص ١٩٣.

(٥٢) المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٥٣) مر سيد أحمد الهدايتي، ص ١٥٤.

(٥٤) كازروني، ص ٩٧.

(٥٥) أمين الدولة، ص ١٨٦.

(٥٦) فرهاد ميرزا، ص ٢١٧.

(٥٧) الأصفهاني، ص ٢٤٨.

(٥٨) لقد تسبب الاختلاف في رؤية الهلال وإعلان قدوم العيد بين السنة والشيعة على مرّ التاريخ في اختلاق بعض القضايا المذهبية والسياسية، فالهلال لدى الشيعة يجب أن يشاهده عددٌ من الناس، ولم تكن شهادةُ شخصٍ أو شخصين كافيةً لهذا الغرض، وألقت هذه الأزمة التي كانت تحدث كل عام تقريبًا بظلالها على هذه العبادة الدينيّة التي أيضًا تمثّل اجتماع المسلمين كافّة واتحادهم، ويبين لنا "نائب الصدر الشيرازي" شكوكَ الإيرانيين حول رؤية الهلال فيقول "لقد أرسلوا بعض الصُرر إلى قاضي مكّة من أجل إسكاتِه وليُعلن أنه رأى الهلالَ وشهد عليه" (ص ٢٢٥)، وأما "إعتماد السلطنة" فينظر إلى هذه المسألة على أنها رحمة للمؤمنين من حيث إنها تعتبر وضعية مريحة بعض الشيء لانفصال هذا الجمع من المسلمين إلى مجموعتين، فيخفُّ بذلك الازدحام الكبير ولا يضطرون لفعل الأشياء والعبادات ذاتها في الوقت ذاته سويًا محدثين ازدحامًا واضطرابًا كبيرين، ص ١١٢.

(٥٩) أمين الدولة، ص ١٩٣.

(٦٠) إعتماد السلطنة، ص ٩٦.

(٦١) سيف الدولة، ص ١٣٢.

(٦٢) أمين الدولة، ص ٢٠٧.

(٦٣) أمين الدولة، ص ٢٠١.

(٦٤) كازروني، ص ١١٢.

(٦٥) إعتماد السلطنة، ص ١٠١.

(٦٦) سيف الدولة، ص ١٤١.

(٦٧) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٦٨) فراهاني، ص ٢١٨.

(٦٩) سيف الدولة، ص ١٣٨.

(٧٠) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٧١) إعتماد السلطنة، ص ٨٩.

(٧٢) **الباطمان**: وحدة وزنيّة يختلف مقدارها حسب الزمان والمكان المستخدمة فيه، ويتراوح تقديرها ما بين ثلاثة كيلو غرامات ومائتين كيلو غرام للباطمان الواحد -على حسب المكان والزمان- إلا أنّ القرار الصادر في الدولة العثمانية في التاسع والعشرين من شوال عام (١٢٩٨هـ) ينصّ على أن الباطمان الواحد يساوي عشرة كيلو غرامات. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٥٧).(المترجم)

(٧٣) فراهاني، ص ١٠٧؛ نائب الصدر الشيرازي، ص ٢١٩.

(٧٤) سفرنامه عتبات، ص ١٧٨.

(٧٥) ميرزا عبد الغني نجم الملك رئيس المنجمين، سفرنامه مكة شيرين وبرماجرا، تصحيح: غازي عسكر، دار نشر مسار، طهران (١٣٨٢هـ)، (ص ١٠٥)، يعتبر المؤلف من رجال السلطان "ناصر الدين شاه القاجاري"، وقد ذهب إلى الحجّ عبر طريق بغداد عام (١٢٩٦هـ).

(٧٦) أمين الدولة، ص ٢٤٨.

(٧٧) حسام السلطنة، ص ٢٢٥.

طريق الحجّ ونفقاته الطريق البرّيّ (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م) (ص ٢٨٨-٣٠١)

(١) رئيس قسم التاريخ في جامعة "غازي عينتاب (Gaziantep)"، وله من الكتب والمقالات الكثيرَ حول تاريخ الدولة العثمانية وثقافتها.

(٢) BOA., HH., 48306/A (1254/ 1838).

(٣) BOA., HH., 48306/A (1254/ 1838).

(٤) Victor Berard, Le Sultan, L'Islam et Les Puissances (Constantinople- La Mec-

que-Bağdad). Paris, 1907, s. 98.

(٥) إن الرسالة الصغيرة المكتوبة من قبيل "محمد أمين" كاتب ديوان آغا الإنكشارية قبو قيران محمد باشا (Bkz. Sicilli-i Osmânî, c. IV, s. 254: öl. 1184/1770-71) توضح المراحل بين إسطنبول والشام، والشام والمدينة ومسافاتها بالساعة، واسم الرسالة هو "محمد أمين، "منازل الحج الشريف" وهو (١٨× ١٤ سم) كتبت باللغة التركية بالخط الديواني بطول (١٠,٥ سم) بعدد: أحد عشر سطرًا وتقع في ثمانيةٍ وثلاثين ورقة. انظر: TSMK, Türkçe Yazmalar Katalogu, c.I, s.464, No:1405))

كتب "عبد الرحمن حباري" (١٠١٢-١٠٦٩/١٦٠٤-١٦٥٩) بعد عودته من الحج سنة (١٠٤١هـ/١٦٣٢م) كتابه "مناسك المسالك" عما شاهده في رحلة الحج وعن مناسك الحج، ويقع الكتاب في عشرة أبواب وتتمّة، ويشرح "حباري" في هذا الكتاب معلومات واسعة عن طرق الذهاب والعودة من الحج والأماكن التي مرّ عليها، وذكر معلومات تفصيليّة عن (أدرنة وإسطنبول والشام ومكة)، كما تناول مناسك الحج بكل تفرعاتها، ويعد من كتب الرحلات، وأوضح حباري المسافة بين المنزلين بالساعة، للاستزادة انظر: Abdurrahman Hibrî, Menâsik-i Mesâlik, Yayımlayan: Sevim İlgürel, 3 bölümde tamamlanmıştır: I- Tarih Enst. Der. Sayı: 6, Ekim 1975, s.111-128; II-Tar-Der., Sayı:30, Mart 1976, s. 55-72; III- Tar. Der., Sayı: 31, Mart 1977, s. 127-162.

لقد أوضح (لا لا اسماعيل) أسماء الأماكن الأخرى الواردة في كتابه طريق الحج ورسالاته الموجود أصله في مكتبة السليمانية على خريطة أضافها في نهاية متن الكتاب.

لقد شرح "أوليا شلبي" في رحلته إلى (سوريّة) في نهاية سنة (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) طريق إسطنبول - الشام، انظر: (E. Çelebi, Seyahatname, c. III).

أوضحت منظومة "طجودي" المراحل بين الشام والمدينة، والمدينة ومكة، انظر: مكتبة السليمانية باسم حاجي محمود أفندي رقم (4886/2, 53-70 yk., 17 st., 208x140; 155x90) نسخ حافظ عثمان (١٢١٨هـ/١٨٠٣م).

ولمعرفة أسماء المنازل والمسافة بينها بالساعة انظر: E. Sabri, Mir'âtü'l-Haremeyn. (Ceziretü'l-Arab). c. III, s. 235-244.

يوجد بين المدينة ومكة أربعة طرق هي: ١- الطريق السلطاني ٢- طريق السفراء ٣- طريق فنا ٤- طريق الشرق، انظر (el-Hac Hafız Davud, Hac Rehberi, s. 27-28)؛ ومن أجل الطريق الذي كان يتبعه الحجيج الذاهبون من المدينة إلى مكة بالعير وأماكن نزولهم انظر: E. Sabri, Mir'âtü'l-Ceziretü'l-Arab, s. 223-227 ve Prof. Dr. Neşet Çağatay, İslâm Öncesi Arap Tarihi ve Cahiliye Çağı, Ank. Ünv. Basımevi, Ankara 1982 (4. bsm.) s. 96 (dipnot no: 170).

(٦) يمكن أن نحددّ الوقت الذي كان يحتاجُه الموكب لقطع المسافة بين إسطنبول ومكّة بالاعتماد على بعض المصادر الأخرى، وعلى سبيلِ المثال فإن كتاب "مناسك الحجّ" الذي خطّه "حاجي محمد أديب" سنة (١٠٩٣هـ/١٦٨٢م) يُعَدّ واحدًا من الكتب المتداولة عند العثمانيّين، وهو عبارة عن دليل عمليّ للحجّ، طُبع منه ألف نسخة، وقد استخدمه الحجيج كدليل لهم بين إسطنبول والأماكن المقدّسة، وطبقًا لهذا العمل فالمسافة بين إسطنبول والشام مشيًا تبلغ ثلاثمائة وثلاثةً وثلاثين ساعةً، تتكوّن من سبعةٍ وثلاثين منزلًا وتتوفّر إمكانيةٌ للمبيت في ستّةِ منازل، والمسافة بين الشامِ ومكّة تبلغ أربعمائةً وتسعين ساعةً، ورحلة الذهاب والعودة بين إسطنبول ومكة تبلغ ثمانمائةً وثلاثةً وعشرين ساعةً ونصف، أي مائتين وستين يومًا، بما يعادل ثمانية أشهر ونصف، بما فيها أوقات الراحة والعبادة، انظر: Victor Berard, a.g.e., s. 98-99), ("İtinéraire de Constantinople à la Mecque" Rec. de Voyages et Mem. Soc. Geogr. Paris. 1825, p. 30).

والمسافة بين الشام والمدينة تبلغ مائتين وسبعة وأربعين ساعة أي ما بين سبعةٍ إلى ثمانيةٍ وثلاثين يومًا، والمسافة بين مكّة والمدينة تبلغ مائةً وستةً وثمانين ساعةً، انظر: (Bkz. E. Sabri Ceziretü'l-Arabs. 242-244)

وتبلغُ المسافة بين الشام ومكة واحدًا وستين يومًا، انظر: (M.Z. Pakalın, OTDTS. c. II, s. 244.

ولمعرفة المسافة بين ينبع والمدينة وبين المدينة ومكة، وجدة ومكة، ومكة والطائف وأسماء المنازل الموجودة فيها والمسافة بين هذه المنازل انظر: el-Hacc H. Davud, Hac Rehberi, 1317, s. 126-129.

(٧) **الأرباع**: بالتركي (ربعيّة) وهي عملة ذهبية تعدل ربع الليرة الذهبية المستخدمة في القديم. انظر: Ferit Devellioğlu, Lüğat, s. 1076..

(٨) كانت تقع نتيجة لعدم تطابق الناتج مع المجموع العام (الإجمالي) في المحاسبات، وهذا بسبب بعض الأخطاء اليومية في الحسابات.

(٩) لم يُتمكن من إلغائها هذه السنة ولذا فلن تلزم بعد ذلك.

(١٠) وهذا أيضًا.

(١١) لأنه راتبه في هذه السنة لن يتم رفعه هذا العام بعد الإذن الصادر من حضرة صاحب الملك.

(١٢) وهذا أيضًا.

(١٣) لن يجب دفعه كذلك لأنه مرتبه.

(١٤) هذا أيضًا.

(١٥) وهذا أيضًا لن يجب.

(١٦) وهذا أيضًا.

(١٧) يُخفض إلى ثلاثمائة لأنها زيادة.

(١٨) يُخفض هذه أيضًا إلى ثمانين قرش لأنها زيادة.

(١٩) **يُوكْ**: بمعنى الحِمل، وهو المصطلح الذي أُطلِق على مائة ألف أقجه، وكان نصف هذا المبلغ يُعدُّ كيسًا واحدًا حسب مصطلحات المحاسبة الميرية في الدولة العثمانية، وهو -أيضًا- وزنةٌ خاصّةٌ بالحرير، وتساوي ثمان بخجات والبخجة الواحدةُ تساوي أربعة باطمانات، والباطمان الواحد يساوي ألفًا وخمسمائة وثمانين درهمًا. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٢٣٠).

(٢٠) **متسلّم**: الاسم الذي أُطلِق على متسلّم وظيفةٍ أو منصبٍ إلى حين وصول الحاكم أو الوالي الجديد المعيّن من قِبل السلطان، وكان يُسمَى أيضًا الوكيل الذي يقوم بالإشراف على العمل إلى حين عودة سلفه من الحرب أو السفر. (سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، ص ٢٠٠).





المصادر

المصادر

أولًا: وثائق الأرشيف العثماني التابع لرئاسة الوزراء

Başbakanlık Osmanlı Arşivi (**BOA**)

BOA, İ.MMS (إرادة مجلس مخصوص), Belge No: 29/1248.

BOA, Y.PRK.ASK (أورق المعروضات العسكرية المجمعة في يلْدِزْ)., Belge No:233/56; İ.DH. (الإدارة الداخلية), Belge No:65425.

BOA, Y.PRK.MM (أوراق معروضات مجلس مخصوص المجمعة في يِلْدِزْ) , Belge No:1/10

BOA, İ.DH, Belge No:65425.

BOA, MU, Belge No:13/74.

BOA, İ.DH, Belge No:70633.

BOA, İ.DH, Belge No: 65629.

BOA, Y. PRK. ASK, Belge No:188/52.

BOA, DH. İD, Belge No: 53/5.

BOA., Ev.d (دفتر أوقاف). No: 20149.

BOA., Ev.d, No: 25971.

BOA., HMH.d (دفتر محاسبة أوقاف الحرمين الشريفين). NH: 152.

BOA, Mad.d (دفتر المدينة المنورة). 1/4973.

BOA,C.ML. (جودت مالية) 20/920 (1215. B.15).

BOA, Y.A. Hus (صدارة يِلْدِزْ الخاصة). 393/17 (1316. N.18).

BOA, İ. ML (ابن الأمين، مالية) 1315. Ra 10-7.

BOA, İ. EV (مديرية أوقاف إسطنبول). 23 -1317.C.29-14.

BOA, Y.A. RES (صدارة يِلْدِزْ الرسمية). 127/102 (1322. B.25)

BOA, ML (مالية). 5 - 1310/N-02 (1310. N.5).

BOA, (Cevdet Dahiliye) C.D (داخلية جودت), 18624.

BOA, EV.HMK. SR (مقاطعة أوقاف الحرمين الشريفين). No: 1.

BOA, EV. HMK. SR, No: 2422.

BOA, Ev. (d),No: 16317.

BOA, HR, MKT (قلم المكاتبات بنظارة الخارجية), 6 - 6012-N-1260 tarihli belge.

ثانيا: أرشيف ومكتبة متحف قصر "طُوبْ قَابي" (Topkapı Sarayı Müzesi Arşivi ve Kütüphanesi)

TSMA. D. 4051 III. Ahmed (1703-1730) devri; D. 7995 H.1273 (M.1856); D. 8076 H.1275-1292 (M.1858-1875) D.9787 tarihsiz.

TSMA D.12 B H.1092(M.1680), Yp.64a.

TSMA D. 12B H.1092 (M.1680) tarihli Hazine Defteri, ypr. 59A.

TSMK, M.R. 587 numaralı Surrename.

TSMK, 17/610 numaralı tablo.

Şerh-i Şeceret el iman ve ihya el-hac, Kurret el uy ûn (قرة العيون في شرح شجرة الإيمان وإحياء الحج), (1540-1545 tarihli), s.65b, TSMK. A.3547.

Mustafa b. İbrahim (Safi), Zübdetü't Tevarih (زبدة التواريخ) TSMK, R. 1304, ypr. 123a vd.

ثالثًا: مذكرات لم تُنشر بعد

Kethüdâ Selahaddin'in 1939 yılında Osmanlıca ve el yazısıyla kaleme aldığı 217 sayfalık Surre Hatıratı (مذكرات الصُرّة لكتخدا صلاح الدين), Yusuf Çağlar Arşivi.

Emin Yüce, Meslek Hayatım (حياتي المهنية), Deniz Müzesi İhtisas Ktp., El Yazmaları Bölümü.

رابعًا: مذكرات رحلات (سفرنامه)

Sefernâme-i Ferhad Mirza Mu'temedü'd-Devle (سفرنامه فرهاد ميرزا معتمد الدولة), Tashih: İsmail Nevvab Safa, İntişârât-ı Zuvvar, Tahran 1366, (1947).

Sefernâme-i Hacı AliHan İ'timadü's-Saltana (سفرنامه حاجي علي خان معتمد السلطان), Tashih: Gazi Asker, İntişârât-ı Mesar, Tahran, 1379, (1960).

Sefernâme-i Muhammed Hüseyin Ferahanî (سفرنامه محمد حسين فرخاني), Tashih: Hafız Ferman Fermaniyan, Tahran, 1342.

Sultan Murad Hisamu's-Saltana, Sefername-i Mekke (سفرنامه مكة المكرمة), Tashih: Rasul Caferiyan, İntişârât-ı Mesar, Tahran 1374 (1955).

Sefernâme-i Sultan Muhammed Seyfü'd-Devle (سفرنامه الأمير محمد سيف الدولة), Tashih: Ali Ekber Hudaperest, İntişârât-ı Mey, Tahran, 1364, (1945).

Sefernâme-i Hacı Mirza Alihan Sadrazam Eminü'd-Devle (سفرنامه الصدر الأعظم حاجي ميرزا علي خان أمين الدولة), Tashih: İslam Kazımiyye, Tahran, 1376. (1957).

Sefername-i Melik'ü-l Kelam Mecdi (سفرنامه ملك الكلام مجدي), Tashih: Muhammed Tâhir Hâşimi, İntişârât-ı Tevekkül, Tahran, 1382 (1962).

Sefername-i Mirza Davud Vezir-i Vezayif (سفرنامه ميرزا داود وزير الوظائف), Tashih: Gazi Asker, İntişârât-ı Mesar, Tahran, 1379.

Sefernâme-i Banu-yi İsfehanî (سفرنامه بني اصفهان), Tashih: Rasul Caferiyan, İntişârât-ı Meşar, Tahran, 1374).

Sefernâme-i Hayrat (سفرنامه حيات) (Anonim), Mikat dergisi.

Mirza Celayir, Sefername-i Mekke (سفرنامه مكة المكرمة),

Dördüncü, Mehmet Bahadır, **II. Abdülhamid Yıldız Albümleri Mekke Medine** (ألبومات يلدز عبد الحميد الثاني، مكة المكرمة والمدينة المنورة) İstanbul 2006.

-------------, II. Abdülhamid Devri Osmanlı Coğrafyası (الجغرافيا العثمانية في عصر عبد الحميد الثاني), İstanbul 2006.

el-Belazuri, **Futuhu'l Büldan** (فتوح البلدان) Ankara 1987.

el-Ezrakî, Eb'ul Velîd Muhammed, **Kâbe ve Mekke Tarihi** (تاريخ الكعبة ومكة المكرمة) Tercüme: Y. Vehbi Yavuz, İstanbul 1980.

el-Mekni Muhammedü'l-Emin, **Büyük Osmanlı Halifelerinin Haremeyn-i Şerifeyn'deki Âsâr-ı Mabrûre ve Meşrûke-i Hümayunları** (الخدمات السلطانية المبرورة والمشكورة للخلفاء العثمانيين العظام في الحرمين الشريفين) , Dersaadet, 1318 (1900).

Esad Efendi, **Teşrifat-ı Kâdîme (Osmanlılarda Töre ve Törenler)** (تشريفات قديمة), İstanbul 1979.

Esin, Emel, **Mecca the Blessed Madinah the Radinat**, Novara 1963.

Ettinghausen, Richard, **Die Kunstschätze Asiens Arabische Malerei**, Genéve 1962.

Evliya Çelebi, **Seyahatname** (سياحتنامة), c.1-10 1314-18; 1928-38.

Faruoqhi, Suraiya, **Hacılar ve Sultanlar** (الحجيج والسلاطين) (1517- 1683), Çev. G.Ç. Güven, İstanbul 1995.

Gaudefroy - Demombynes, Maurice, **Le Pelerinage a la Mekke**, Paris, 1923, Librairie Orientaliste Paul Geuthner.

Gökyay, Orhan Şaik, "**Risale-i Mimariyye- Mimar Mehmed Ağa Eserleri**" (الرسالة المعمارية، أثار مير محمد آغا), İ.H. Uzunçarşılı'ya Armağan, Ankara 1976.

Gürkan, Ahmet, **Kâbe Tarihi** (تاريخ الكعبة), Ankara, Emel Matbaası.

Hammer, **Osmanlı Tarihi** (التاريخ العثماني) (Ata Bey çevirisi) C. VIII, İstanbul, 1335/1911.

Hitti, Philip K., **Siyasi ve Kültürel İslam Tarihi** (تاريخ الإسلام السياسي والحضاري), İstanbul, 1980.

İbrahim Peçevi, **Peçevi Tarihi** (تاريخ بجوي), İstanbul H. 1283/ M.1866.

إبراهيم رفعت باشا، مرآت الحرمين، القاهرة، دار الكتب المصرية (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م)، ١-٢.

İhsanoğlu Ekmelettin (Editör) **Osmanlı Devleti ve Medeniyeti Tarihi** (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة), İstanbul 1994.

İnalcık, Halil, **Osmanlı İmparatorluğu Klâsik Çağ** (العصر القديم للإمبراطورية العثمانية), İstanbul, 2004.

-------------, "The Ottomans and the Caliphate", **The Cambridge History of İslam**, I. Cambridge, 1970.

Jomier, Jacques, **Le mahmal et la caravane Egyptienne des** Tashih: Rasul Caferiyan, İntişârât-ı Meşar, Tahran, 1385, (1965).

Hacı Seyyah Muhammed Receb, Sefernâme-i Atabat ve Mekke(سفرنامه العثباب ومكة المكرمة), Tashih: Rasul Caferiyan, Mecelle-i Miras-i İslamî-yi İran, Cilt V, Kum, 1376 (1957).

Sefernâme-i Hac Abdullah Han Karagözlü, Âsâr-ı Mecmu'a-i Hacı Abdullah Karagözlü (آثار مجموعة لحاجي عبد الله قره كوزلي), Tashih: İnayetullah Mecidî, İntişârât-ı Miras-ı Mektub, Tahran, 1382 (1962).

خامسًا: الكتب المنشورة

Ahmed Cevdet Paşa, (**معروضات**), Yay. Haz. Yusuf Halaçoğlu, İstanbul 1980.

Ahmed Rasim, **Resimli ve Haritalı Osmanlı Tarihi** (التاريخ العثماني بالرسوم والخرائط) c.1-4 İstanbul 1328-30.

Ahmed Vâsıf Efendi, (**تاريخ واصف، محاسن الآثار وحقائق الأخبار**) Yayınlayan: Mücteba İlgürel, İstanbul 1978.

And, Metin, **Osmanlı Şenliklerinde Türk Sanatları** (الفنون التركية في الاحتفالات العثمانية), Ankara 1982.

Ali Seydi Bey, **Teşrifat ve Teşkilât-ı Kadimemiz** (تشريفاتنا وتشكيلاتنا القديمة), Haz. N.A.Banoğlu, Tercüman 1001 Temel Eser, No.17 (Tarihsiz).

Aşçıdede Halil İbrahim, Hâtıralar (مذكرات), İstanbul 1960.

Atalar, Münir, **Osmanlı Devleti'nde Sürre-i Hümayun ve Surre Alayları** (الصُرّة الهمايونية ومواكبها في الدولة العثمانية), Ankara, 1999.

Barışta, Örcün H., **Osmanlı İmparatorluğu Dönemi Türk İşlemeleri** (المشغولات التركية في عصر الإمبراطورية العثمانية), Ankara 1999.

Bahriye Mirlivalarından Eyüb Sabri; (**مرآة الحرمين الشريفين**), Kostantiniyye, 1304,(1887).

Baker, Patricia L., **İslamic Textiles** Londan 1995.

Behrens - Abousseif, Doris, **The Mahmal Legend and the Pilgrimage of the Ladies of the Mamluk Court**, Mamluk Studies Review, Vol. 1, 1997.

Cevdet Paşa, (**تذاكر**). Haz: C. Baysun, Ankara 1986.

Çoşkun Menderes, **Manzum ve Mensur Osmanlı Hac Seyahatnameleri ve Nâbî'nin Tuhfetü'l Harameyn'i** (رحلات الحج المنظومة والمنثورة وتحفة الحرمين الشريفين للنابي) Ankara 2002.

Çağman Filiz - Aksoy Şule, **Osmanlı Sanatında Hat** (الخط في الفن العثماني), İstanbul 1988.

Danişmend, İsmail Hami, **İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi** (التسلسل الزمنى الموضح للتاريخ العثماني), c. 2, İstanbul 1947.

D'Ohsson, **Tableau Genera de L'empire Othoman**, Paris 1790.

Şehsuvaroğlu, Haluk, **Tarihî Odalar** (الغـرف التاريخية), İstanbul 1954.

Tahsin Öz, "**La Broderie Turque**", La Turquie Kemaliste, 44 (1941).

Tezcan Hülya, **Estarül Haremeyn-i Şerifeyn** (أسـتار الحرميـن الشريفين) İstanbul 1996.

Tezcan, Hülya-Turgay, **Türk Sancak Alemleri** (الرايات والأعلام التركية), Ankara 1992.

Tutel, Eser, **Seyr-i Sefain Öncesi ve Sonrası** (ما قبل وبعد (شركة) سير سفائن), İstanbul 2006.

Topkapı Sarayı Müzesi Rehberi (دليـل متحـف قصـر "طُـوبْ قَابي"), İstanbul 1933.

Ubucini M. A., **Osmanlı'da Modernleşme Sancısı** (آلام الحداثة عند العثمانيين), Çev. Cemal Aydın, İstanbul 1999.

Ufuk Gülsoy, **Hicaz Demiryolu** (سـكة حديـد الحجـاز), İstanbul 1994.

Uşaklıgil, Halit Ziya, **Saray ve Ötesi** (القصـر ومـا خلفـه), c.3 İstanbul 1942.

Uzunçarşılı, İsmail Hakkı, **Osmanlı Devletinin Saray Teşkilatı** (تشكيلات القصر في الدولة العثمانية), Ankara 1945.

-------------, **Mekke-i Mükerreme Emirleri** (أمراء مكة المكرمة), Ankara 1972.

Vak'anüvîs Ahmed Lûtfî Efendi, **Vak'anüvîs Ahmed Lûtfî Efendi Tarihi** (تاريـخ كاتـب الوقائـع أحمـد لطفـي أفنـدي), İstanbul 1984.

Yunus Vehbî, (**اسـرار مناسـك الحـج الشـريف**), Dersaadet 1318 (1900).

سادسًا: المقالات والأبحاث

Abdurrahman Şeref. "**Topkapı Sarayı Hümayunu**" (قصر "طُوبْ قَابي" السلطاني), TOEM I. İstanbul 1329/-1905.

Altındağ, Ülkü "**Sarayın Ana Yerleşim Düzeni ile Kara ve Deniz Surları Arasında Kalan Yer** (نظـام الإقامـة فـي القصر "وما بين الأسوار البرية والبحرية" Sanat 7 (1982).

Ateş, İbrahim, "**Osmanlılar Zamanında Mekke ve Medine'ye Gönderilen Para ve Hediyeler** (النقـود والهداية المرسـلة إلى "مكـة المكرمة والمدينـة المنورة في العصـر العثماني", Vakıflar Dergisi 13 (1981).

Bayram Sadi. "**Vakıflar Genel Müdürlüğü Arşivi'nde Bulunan Kendinden Desenli Üzeri Yazılı İki Kumaş**" (طـرزان مـن القماش المخطوط الموجود في أرشـيف مديرية الأوقاف العامة), Vakıflar Dergisi, 1982.

Beyoğlu, Süleyman, **Osmanlılar ve Mukaddes Emanetler** (العثمانيون والأمانات المقدسة), Osmanlı Ansiklopedisi: C.IX. Ankara 1999.

Pelerins de la Mecque, Caire, 1953, Imprimerie de l'institut Français d'Archeologie Orientale.

-------------, "**Le Mahmal du Sultan Qansuh Al - Ghurı**", Annales Islamologiques, 11 (1972).

Lane, E. W., **Manners and Customs of the Modern Egyptians**, London, 1895, Alexander Gardner.

Marie de Carcaradec, "**Les Mahmıls du Palais de Topkapı**", Revue D'etudes Turques, Tome 13 (1981) Paris.

Mehmed Raif', (**مـرآة إسـطنبول**) (1314/1898); Yeniden basımı İstanbul 1996.

Mirza, Mirac Nevab; Savuş, Abdullah Salih, (**الأطلـس المصـور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة**), Riyad 1424 (2004).

Musahipzade Celal, **Eski İstanbul Yaşamı** (حيـاة إسـطنبول القديمة), Devlet Tiyatroları, Ankara, 1988.

Mustafa Naima, **Tarih-i Naima** (تاريـخ نعيمـا), C. I-IV, İstanbul 1281-1283/1864-1866.

Mustafa Nuri Paşa, Netayic ül-Vukuat, Kurumları ve Örgütleriyle Osmanlı Tarihi (**نتايج الوقوعات**) (Sad. Neşet Çağatay), c. I-II, Ankara 1992.

Osmanoğlu, Ayşe, **Babam Abdülhamid** (أبـي السـلطان عبـد الحميد), İstanbul 1960.

Pakalın, Mehmet Zeki, **Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü** (قامـوس مصطلحـات وتعبيـرات التاريـخ العثمانـي), İstanbul 1993.

Parker, Ann and Neal, Aaron, **Hajj Paintings: Folk Art of the Great Pilgrimage**, Washington, 1995, Smithsonian Institution Press.

Peters, F. E., **The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy PLaces, New Jersey**, 1994, Princeton University Press.

Polonyalı Simeon'un Seyahatnamesi (رحلـة سـيمون البولنـدي ١٦٠٨-١٦١٩), çev. Hrand Andreasyan, İstanbul 1964.

Ramber, Lui, **Gizli Notlar** (ملحوظات سرية), çev. Niyazi Ahmed Banoğlu, İstanbul (tarihsiz), Tercüman 1001 Temel Eser No. 75.

Rene, Tresse, **Le Pelerinage Syrien aux Villes Saintes de L'Islam**, Paris, 1937, Imprimerie Chaumette.

Sadik Pasha, Muhammad, Al Rahalat al Hijaziyya(**الرحـلات الحجازية**) , 1999, Beirut, Badr Lil Nashr.

Selaniki Mustafa Efendi, **Tarih-i Selaniki** (تاريـخ سـلانيكي), Haz. Mehmet İpşirli, cilt II (H.1003 - 1008/M.1595 - 1600), İstanbul 1989.

Solak-zâde, Mehmed Hemdemî Çelebî, **Solak-zâde Tarihi** (تاريخ صولاق زاده), Haz. Vahid Çabuk, c. II, Ankara 1989.

Süleyman, Mihr Ali, **Kutlu Şehir Medine-i Münevvere** (المدينة السعيدة المدينة المنورة), İstanbul 2002.

Süleyman Nutkî, (**قاموس البحرية**), Bahriye Matbaası, 1918.

Cezar, Mustafa, "**Türk Tarihinde Kervansaraylar**" (النـزل فـي التاريـخ التركي), VIII. Türk Tarih Kongresi.Ank., 11-15 Ekim 1976 Kongreye Sunulan Bildirimler, c. II, Ankara 1981.

Çığ Kemal, **Osmanlı Padişahlarının Medine'ye Gönderdikleri Hediyeler ve Surre-Hümayun** (الهدايـا والصُّـرّة الهمايونيـة المرسـلة مـن السـلاطين العثمانييـن إلـى المدينة المنـورة) Tarih Dünyası, s.16 Aralık 1960 s.671-673.

Derman, M. Uğur, "**Osmanlı Devri Şehir ve Menzil Yollarında İstirahat ve İbadet Yerleri** (الاسـتراحات والمصليـات فـي الطـرق والمدن في العصـر العثمانـي) (Namazgâhlar)", Atatürk Konferansları V (1971-1972), Ankara: TTK, 1975.

Develioğlu, Ferit "**Sikkeken**" Osmanlıca - Türkçe Ansiklopedik Lügat, Ankara 1982.

D'Ohsson, "**XVIII, yy.'ın Sonlarında Türkiye'de Dinî Bayramlar** (الاحتفالات الدينية في تركيا في أواخر القرن الثامن عشر)" Hayat Tarih Mecmuası, C. I. 2 (1968).

Ekinci, İlhan, "**Yabancı Vapur Kumpanyaları ve İmajları Hakkında** (عن شركات البواخر الأجنبية وشعارتها)", Kebikeç, S.21, 2006.

Erdoğdu, A. "**Topkapı Sarayı Müzesi 2. Avlu Darüssaade Ağası Yazıcılar Dairesi Araştırma Kazısı**", (أبحـاث النقش فـي دائـرة الكتـاب آغا دار السـعادة فـي الحظيرة الثانيـة من قصر "طُـوبْ قَابـي") 12. Müze Çalışmaları ve Kurtarma Kazıları Sempozyumu (Kültür Bakanlığı, Anıtlar ve Müzeler Genel Müdürlüğü 25-27 Nisan 2001), Ankara 2002

Erken, Sabih, "**Türk Çiniciliğinde Kâbe Tasvirleri** (رسـوم الكعبة فـي الخزف التركـي)" Vakıflar Dergisi, IX. C., Ankara, 1971.

Görgün Hilal, "**İbrahim Rifat Paşa**" Md, TDV (مـادة: إبراهيـم رفعت باشا). İslam Ansiklopedisi, c. 21 İstanbul 2000.

Gülen, Salih, "**Surre Alayları** (مواكب الصُّرّة)" Keşkül, 10, 2006 Güz.

Halaçoğlu, Yusuf "**Osmanlı İmparatorluğu'nda Menzil Teşkil Hakkında Bazı Mülahazalar** (بعض الملاحظات عن تشـكيل النـزل فـي الإمبراطوريـة العثمانيـة)", Osmanlı Araştırmaları Dergisi, II, İstanbul, 1981.

İpek Selin, "**16. yüzyıldan 20. yüzyıla kadar Kâbe-i Şerif (iç) ve Ravza-ı Mutahhara Kumaşları** (أقمشـة الكعبـة الشـريفة والروضة المطهرة من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين)", Filiz Çağman'a Armağan-Uluslararası Sempozyum, Topkapı Sarayı Müzesi, 7-11 Şubat 2005.

-------------, **Ottoman Ravza-ı Mutahhara Covers Sent from Istanbul to Medina with the Surre Processions**", Muqarnas, V. 23, (Edited by Gülru Necipoğlu), 2006.

-------------, "**Osmanlı'da Sandukalara Örtü Örtme Geleneği ve Eyüp Sultan Hazıresi'ndeki Taş Lahit** (عـادة سـتر الصناديق عند العثمانيين واللحد الحجري في مقبرة ايوب سلطان)", Tarihî, Kültürü ve Sanatıyla Eyüp Sultan Sempozyumu IX, (13-15 Mayıs 2005), Aralık 2005.

-------------, "**Kâbe Örtülerinin İkinci Kullanımları** (الاستخدام الثاني لأستار الكعبة)", Toplumsal Tarih Dergisi 2003.

-------------, "**Topkapı Sarayı Müzesindeki Mekke ve Medine'ye gönderilen Dinî Kumaşlar** (الأقمشـة الدينيـة المرسـلة لمكة المكرمة والمدينـة المنورة في متحف قصر "طُوبْ قَابي")", Mimar Sinan Güzel Sanatlar Üniversitesi, SBE. Türk İslam Sanatları Programı, Basılmamış Yüksek Lisans Tezi, Mart 2003.

Öztuna, Yılmaz, "**Surre Alayı**" (موكـب الصـرة) Büyük Osmanlı Tarihi, c.10 İstanbul 1994 s.391-392.

Rizk, Yunan Labib, **Epoch Making Incident**, Cairo, Al Ahram Weekly 28 June - 4 July 2001, Issue:540.

Sertoğlu, Midhat, "**Osmanlı İmparatorluğu Devrinde Mevlid Alayı** (موكـب المولـد في عهد الإمبراطوريـة العثمانية)" Hayat Tarih Mecmuası sy.4 Nisan 1976 s.45-49.

Silâhdar Mehmet Ağa, "**Nusret-nâme**" (نصرت نامه) (Sadeleştiren İsmet Parmaksızoğlu) c.1-2 İstanbul 1963-1969.

-------------, "**Silâhdar Tarihi**" (تاريـخ سـلحدار) XVII nci Asır Saray Hayatı Hzr: M. N. Özön, Ankara (Tarihsiz).

Şanîzade Mehmed Ataullah, **Şanîzade Tarihi**, (تاريخ شـاني زاده) c.1-4 İstanbul 1290-91.

Talu, Ercüment Ekrem, "**Surre Alayı**" (موكـب الصُّـرّة) Resimli Tarih Mecmuası, c.3 sayı29, Mayıs 1952 s.1480-1482.

Yazıcı, Tahsin; İpşirli Mehmet, **Ferraş** Md (مـادة: فـراش), TDV İslam Ansiklopedisi, c. 12 İstanbul 1995.

سـهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٣.


تم بحمد الله

